

مصطفى لطفي المنفلوطي

○ العبرات
○ الفضيلة
أو بول وفرجيني

تحقيق وضبط

إدارة النشر العربي

قدم لها بدراسة

الدكتور طه وادي

أستاذ الأدب العربي الحديث

كلية الآداب - جامعة القاهرة

الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان



المحتويات

كَلِمَةُ النّاشِرِ

« الصَّفْوَةُ » سِلْسِلَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْ سَلاسِلِ الشَّرِكَةِ المِصْرِيَّةِ العالَمِيَّةِ لِلنَّشْرِ – لونجمان ، تُضافُ إلى المكْتَبَةِ العَرَبِيَّةِ ، وَتَرْمي إلى نَشْرِ صَفْوَةِ أَعْمالِ أَعْلامِ المُؤَلِّفينَ في مُخْتَلِفِ العُصورِ .

فَمِنْ بَيْنِ أَعْمالِ أيِّ مُؤَلِّفٍ عَلَمٍ ، مُكْثِرًا أَ كانَ أَمْ مُقِلًا ، ثَمَّةَ أَعْمالٌ تَتَميَّزُ وَتَذيعُ ، وَتَتَعَدَّدُ طَبَعاتُها ، وَتَحْظى بِنَصيبٍ مِنَ الشُّهْرَةِ والذُّيوعِ يَفوقُ غَيْرَها مِنْ أَعْمالِهِ ، ولا مِرْيَةَ في أنَّ هَذِهِ الأَعْمالَ سَتَظَلُّ أَبَدًا حَيَّةً في وِجْدانِ القارِئِ .

هذِهِ الأَعْمالُ سَوْفَ تُتاحُ لِلْقُرّاءِ في سِلْسِلَةِ « الصَّفْوَةِ » في صورَةٍ جَديدَةٍ مِنْ حَيْثُ مَنْظَرُها وَمَخْبَرُها . وها هِيَ ذي « النَّظَراتُ » و « العَبَراتُ » وَ « الفَضيلَةُ ؛ أَوْ پول وڤرجيني » لمصْطَفى لُطْفي المَنْفَلوطي ، نَسْتَهِلُّ بِها سِلْسِلَةَ « الصَّفْوَةِ » فَنُقَدِّمُها للقُرّاءِ في حُلَّةٍ قَشيبَةٍ آيَةَ المَنْظَرِ الجَديدِ .

أَمّا المَخْبَرُ فَآيَتُهُ النَّصُّ الّذي قامَ مُحَرِّرو إدارةِ النَّشْرِ العَرَبِي بِالشَّرِكَةِ ، بِتَحْريرِهِ وَتَصْحيحِهِ وتَحْقيقِهِ تَحْقيقًا دَقيقًا ، وَتَعْليقِ ما يَلْزَمُ مِنْ حَواشٍ بِالتَّعْقيباتِ وشُروحِ ما قَدْ يَغْمُضُ مِنْ مُفْرَداتٍ ، وَكَذلِكَ ضَبْطِ الأَشْعارِ ضَبْطًا نَحْوِيًا وَعَروضِيًا ، وَضَبْطِ مَواطِنِ اللَّبْسِ في المَتْنِ والحَواشي ، فَضْلاً عَنِ التَّرْجَمَةِ لِلشَّخْصِيّاتِ الّتي رُئِيَ التَّرْجَمَةُ لَها .

وَقَدْ قامَ الدُّكتور طه وادي ، أُسْتاذُ الأَدَبِ العَرَبِيِّ الحَديثِ بِكُلِّيَّةِ الآدابِ بجامعَةِ القاهِرَةِ ، بِإِعْدادِ دِراسَةٍ قَيِّمَةٍ عَنِ المَنْفَلوطي وَأَدَبِهِ زَيَّنَ بِها صَدْرَ هذِهِ الطَّبْعَةِ .

إنَّ التّاريخَ البِبْليوغْرافيَّ لِكِتابَي « العَبَرات » و « الفَضيلَة » طَويلٌ ؛ إذْ يَبْدَأُ عامَ ١٩١٥ عِنْدَما صَدَرَتِ الطَّبْعَةُ الأُولى مِنَ « العَبَرات » ، عَلى حين صَدَرَتِ الطَّبْعَةُ الأولى مِنَ « الفَضيلَة » عامَ ١٩٢٣ ، وَتَتابَعَتْ طَبَعاتُهُما بَعْدَ ذَلِكَ حَتّى اليَوْمِ .

هذِهِ هِيَ « العَبَراتُ » و « الفَضيلَةُ » ، فَإِلى المُلْتَقى مَعَ كِتابٍ آخَرَ في « الصَّفْوَةِ » .

وجدي رزق غالي

مدير النشر العربي

الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان

أدب المنفلوطي

الإشكالية و الموقع

دراسة أعدها

الدكتور طه وادي

أستاذ الأدب العربي الحديث

كلية الآداب – جامعة القاهرة

١ - مدخلٌ و إشكاليّة

يُعدُّ مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦-١٩٢٤) واحداً من الأدباء الكبار ، الذين أسهموا بدور مؤثِّر في تطور النثر العربي الحديث ، لا في مصر وحدها وإنما على صعيد الوطن العربيِّ كله من المحيط إلى الخليج . إن الناقد الأدبي حين يتأمَّل هذه الظاهرة اللافتة - ظاهرة التأثير القوي لأدب المنفلوطي - يجد أنها ظاهرة أدبية فريدة تدعو إلى قدرٍ من التساؤل والتفكير ، وإلى قدر آخر من الدَّهشة التي تحتاج إلى تفسير ؛ ذلك أن التفكير في دور المنفلوطي الأدبي يثير لدى الناقد - بداهةً وابتداءً - قضايا ثقافية هامة ، مثل :

(١) أنه كان حريصاً على التمسُّك بتقاليد مجتمعه الصعيدي وقيمه ، ويدعو إلى الإصلاح الاجتماعي ، وإلى مناصرة البؤساء ومساندة الفقراء ، وإلى ما هو أخطر من هذا - يدعو إلى تعليم المرأة ، والدفاع عن حق الإنسان في الحياة والعيش الكريم : « ... كأنما كنتُ أرى أن بين حياتي وحياة أولئك البائسين المنكوبين شبهاً قريباً وسبباً متَّصلاً .. »[١]

وهو يرثي لحال المرأة قائلاً : « إن المرأة المصرية شقية بائسة ، ولا سبب لشقائها وبؤسها إلّا جهلها وضعف مداركها . إنها لا تحسن عملاً ، ولا تعرف باب مرتزق ، ولا تجد بين يديها سلعة تتَّجر بها وتقتات منها ... »[٢]

(٢) وهو مع كونه أزهريًّا معمَّماً حرص - طوال حياته - على زيِّه العربيِّ وعمامته وقفطانه وعباءته ، كان داعية إلى « الحبّ » ، وكان يؤكد في كل ما كتب على أهمية السعادة العاطفية ، كأنما لم يخلق الإنسان إلّا من أجل الحبّ ، والعاطفة : « يا مائدة الحب العظيمة ، هنيئا للذين يذوقون طعامك ، ويتناولون ثمارك ، ويرتشفون كئوسك ... »[٣] بل إنه يرى أن الحبّ يجب أن يُعلم وأن تُلقى فيه المحاضرات ؛ إذْ : « ليس في الفنون ما هو أحق بالمحاضرات من الحبّ . »[٤]

(٣) كيف يُمكن لأديب « محافظ » تعلَّم في الأزهر ، وتغذّى فكره وخياله على ثقافة التراث العربي دون سواها ، وكان يصدر في كل ما كتب مستلهماً - بقوة - عبير هذه الثقافة التراثية : مضمُوناً وشكلاً ، قيماً وأساليبَ ، صوراً وتراكيبَ - أن يعدُّ رائداً من روّاد التجديد الأدبي ، ويحقق للأدب ما عجز عنه بعض المثقّفين ثقافة أوربية حديثة ؟ من هنا مضى بالدعوة النظرية وبالإبداع المتحقق يحارب التمسُّك بالألفاظ المعجمية الغريبة ، وقواعد البلاغة الشكلية ، مؤكداً أن الأدب الجيد ليس باللفظ أو البلاغة ، وإنما بالقدرة على التعبير عن المعنى : « أشعر الشعراء عندي وأكتب الكتّاب ... أوصفهم لحالات نفسه ، أو أثر مشاهد الكون فيها ، وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويراً صحيحاً ، كأنما هو يعرضه على أنظارهم عرضاً أو يضعه في أيديهم وضعاً . »[٥]

(١) مصطفى المنفلوطي : النظرات . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان ، ١٩٩١ . ص ٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

(٣) المنفلوطي : الشاعر ؛ أو سيرانو دي برجراك . بيروت ، دار الثقافة ، د.ت. ص ١٢٨

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠١ . (٥) المنفلوطي : النظرات . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان ، ١٩٩١ . ص ٦ .

(٤) لم يكن المنفلوطي كاتباً روائياً ولا أديباً قصصيًّا ؛ لأنه كان في المقام الأول « كاتب مقال » و « معرِّباً » بتصرّف واسع لبعض الروايات والقصص . لكنه مع ذلك صنع للرواية العربية ، في مصر وكل أقطار الوطن العربي ما عجز عن صنعه أيُّ كاتب من كتّابها الحقيقيّين ؛ ذلك أن فن « الرواية » كان يُوصم بوصمة ازدراء واحتقار لمن « يتجرأ » ويقوم بكتابتها . غير أنه استطاع أن « يطهِّر » فن الرواية من الرجس والدنس والازدراء والنظرة الدونية ، التي كانت الرواية موصومة بها هي ومن يجرؤ على كتابتها [1] .

إن المنفلوطي ، رغم قصر عمره (مات دون الخمسين) ، وقلة عدد أعماله الأدبية : مؤلفة ومترجمة (ستة) ، و تقارب محاورها الفكرية وأساليبها التعبيرية ، كان أشدّ تأثيراً في معظم الذين أصابتهم حرفة الأدب : شعراً ونثراً – خلال النصف الأول من القرن العشرين . وأكثر الناس تأثراً به هم كتّاب الرواية ، يتساوى في ذلك الواقعيون المجدّدون ، أمثال نجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوي ؛ والرومانسيون التقليديون ، أمثال محمد عبد الحليم عبد الله و يوسف السباعي . أكثر من هذا أنه أقوى الأدباء العرب – قاطبة – انتشاراً وقراءة ؛ فقد طُبعت بعض أعماله حتى اليوم حوالي ثلاثين مرة . ولم يكن أدب المنفلوطي مقروءاً فحسب ، وإنما كان الكثيرون يحفظونه عن ظهر قلب، يتساوى في ذلك الأدباء والهواة ، الرجال والنساء ، الشباب والشابات ؛ بل إن كثيراً من عبرات العيون وخطرات القلوب ، قد تفاعلت وانفعلت مع أبطال المنفلوطي وبطلاته ، الذين كانوا ينشدون « الفضيلة » « تحت ظلال الزيْزفون » ، ويذرفون « العبرات » ويناقشون الآراء و « النظرات » ، ويضحون بالحياة « في سبيل التاج » – تاج حرية الوطن !

وهذا يعني أن معظم قراء المنفلوطي كانوا يَرَوْن في أدبه انعكاساً لبعض همومهم الخاصة ومهامهم العامة ، ويبدو أنه هو نفسه كان صادق الحسّ فيما يعبّر عنه بالنسبة لقرائه وجمهوره ؛ لذلك لم يكن غريباً أنْ يكتب في إهداء كتاب العبرات : « الأشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة بائس مثلي ، أن يمحو شيئاً من بؤسهم وشقائهم ، فلا أقلّ من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات ؛ علّهم يجدون في بكائي عليهم تعزية وسلوى .»

من هذا كله يتّضح أن أدب المنفلوطي ، حتى بعد هذه الفترة الطويلة نسبيًّا من وفاته (١٩٢٤) ، يثير (إشكالية) ، تحتاج إلى تفسير موضوعي ، يبين كيف استطاع ، رغم كل ما قدّمناه من احتراساتٍ، أن يشغل الواقع الثقافي ، ويؤثر في الإطار الأدبي منذ كتب حتى اليوم .

ومما لا ريب فيه أن الظواهر الثقافية ظواهر (معقّدة) ، تحتاج إلى وعي شامل بكل ما يشكلها ويحيط بها وينتسب إليها ، حتى يتسم تفسيرنا لهذه الإشكاليات بقدرٍ من الحياد العلمي المفترض في الناقد الموضوعي ، الذي ينبغي أن يكون مثل القاضي : واعياً في طرح أسئلته واستفساراته ، نبيلاً في

---

(١) من المعروف أن محمد حسين هيكل (١٨٨٨–١٩٥٦) مؤلف أول رواية ناضجة في الأدب العربي الحديث قاطبة وهي رواية « زينب » – عندما نشرها ، أول مرة سنة ١٩١٤ ، خشي أن يكتب اسمه عليها ، ولم يجرؤ على نسبتها إلى نفسه إلا عند الطبعة الثانية سنة ١٩٢٨ . فقد خاف أن « تجني صفة الكاتب القصصي على اسم المحامي . . !! » ، لذلك نشرها باسم مستعار هو : « مصري فلاح » . (محمد حسين هيكل . زينب – مناظر وأخلاق ريفية . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧. ص٧)

غايته ومقاصده ، دقيقًا في أدلته وشواهده ، عادلاً في آرائه وأحكامه . وحتى يتحقّق للناقد ذلك ، لا بُدَّ أن يكون على معرفة شاملة بالواقع ، الذي تشكلت في رحمه الظاهرة الأدبية ، وبالقيمة الحقيقية التي يمثلها تراثُ الأديب الذي يدرسه ، وبالتأثير الذي أحدثه في مسيرة النوع الأدبي الذي يبدع فيه .

* * *

٢- الواقع الكرنفالي

مما لا ريب فيه أن المنفلوطي بدأ يثبّت وجوده ، ويحقق حضوره - بقوة - في الواقع الثقافي ابتداء من سنة ١٩١٠ تقريباً ، فقد صار معروفاً للجميع بأنه « المحرر العربي » الأول ، لأيّ وظيفة يتقلّدها سعد زغلول . كما أصبحت الجرائد والمجلات تتسابق في نشر مقالاته وقصصه المؤلفة والمترجمة . ثم أخذت كتبه تتوالى في الصدور منذ نشر الجزء الأول من « النظرات » سنة ١٩١٠ .

ويبدو أن حركة المنفلوطي كانت تواكب حركة واقعه العام من حيث النهضة والارتقاء والرغبة في تحقيق التقدمُ ؛ فقد نشطت حركة المجتمع المصري ، الذي بدأت فيه « الطبقة الوسطى » الوليدة ، تأخذ دورها في القيادة باعتبارها « صاحبة المصلحة الحقيقية في البلاد » [1] . كما بدأت مصر تشهد قيام أحزاب سياسية مثل الحزب الوطني ، وحزب الأمة ، وحزب الإصلاح ، على المبادئ الدستورية . وإذا كانت بعض هذه الأحزاب لم تستمر ولم تؤد دوراً مؤثراً ، فإن هناك أحزاباً أخرى أكثر أهمية ، بدأت تقوم بدور أكبر خطورة في حركة الواقع ؛ فبعد صدور دستور سنة ١٩٢٣ ، ظهر أهم حزبين في مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين ، وهما :

١- حزب « الوفد » بقيادة سعد زغلول ثم مصطفى النحاس ، وكان يصدر جريدة « الوفد » .

٢- حزب « الأحرار الدستوريّين » بقيادة عدلي يكن ، ثم عبد الخالق ثروت ، ومحمد حسين هيكل ، وكان يصدر جريدة « السياسة » .

كما بدأت الحركة السياسية تنشط بسبب كثرة التنظيمات من ناحية ، ومن ناحية أخرى بسبب ظهور بعض الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، التي تعرّضت لها البلاد في النصف الأول من القرن العشرين .

وقد صاحب هذه الحركة السياسية الملتهبة ازدهارة صحفية وثقافية وطباعية - ربما - أكثر صخباً وتأثيراً ؛ فقد زاد عدد الصحف والمجلات السياسية والأدبية والثقافية العامة ، كما قويتْ حركة الترجمة ، و اتسع مجالها لتشمل معظم ميادين الفكر والأدب والعلم . كما أن التأليف ، ولا سيّما التأليف الأدبي في الشعر والرواية والقصة القصيرة والمسرح النثري والشعري ، قد زاد الإنتاج فيه بصورة لافتة . وقد واكبت هذه الحركة الأدبية حركة نقدية نشطة ، يقودها بعض النقاد والأدباء وبعض أساتذة الجامعة المصرية الوليدة أمثال : خليل مطران ، و عباس محمود العقاد ، وإبراهيم عبد

(١) طه وادي : شعر ناجي ؛ الموقف والأداة . ط ٣ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٩٠ . ص ٢١ .

القادر المازني ، وطه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، ومصطفى صادق الرافعي ، وأحمد حسن الزيات ، ومحمد المويلحي ، وعبد العزيز البشري ، ومحمد الخضر حسين ، ومصطفى لطفي المنفلوطي، وأحمد زكي أبو شادي ، وغيرهم .

كما أن هذه المرحلة بدأت تشهد لأول مرة – أيضاً – ظهور بعض الجماعات الأدبية ، مثل شعراء « مدرسة الديوان » وهم عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني وعبد الرحمن شكري، ومبايعة أحمد شوقي بإمارة الشعر سنة ١٩٢٧ ، ثم قيام جماعة « أبوللو » سنة ١٩٣٢ .

ولم يكن الأدب والنقد يسيران وحدهما في هذا الموكب الاحتفالي ، وإنما كانت هناك أيضاً نهضة في المسرح الدرامي والغنائي بجهود فرق كل من سلامة حجازي ، وسليمان الحداد ، وأبو خليل القباني ، وأولاد عكاشة ، وجورج أبيض ، وعبد الرحمن رشدي ، وأمين صدقي ، ونجيب الريحاني ، وعزيز عيد ، وسيّد درويش .

وقد شارك في التأليف للمسرح في هذه المرحلة : إبراهيم رمزي ، و أحمد شوقي ، و أنطون الجُمَيِّل ، و بديع خيري ، و توفيق الحكيم ، و فرح أنطون ، و محمد تيمور .

كذلك شهدت هذه المرحلة نهضة فن الغناء ، حيث انتقل من وسيلة للترفيه عن السكارى والعابثين إلى فن محترم ، يقوم على كلمة مهذبة ، ولحن جيد ، وأداء معبِّر . كما خرج الغناء من إطار التعبير عن العاطفة إلى القيام بدور وطنيّ ، يسهم في إذكاء جذوة الحماسة في كثير من المعارك والمناسبات العامة . وقد اضطلع ببعض هذا العبء في مجال تطوير الغناء فنانون كبار أمثال حامد مرسي ، ومنيرة المهدية ، وسلامة حجازي ، وسيّد درويش ، ثم محمد عبد الوهاب ، والسيدة أم كلثوم .

بل إن أمر النهضة الثقافية والفنية قد تعدّى كل ذلك إلى الفن التشكيلي ، حيث ظهر الفنان العظيم محمود مختار ، الذي أعاد بروائعه الفنية – مثل تمثال نهضة مصر وسعد زغلول والفلاحة وضريح سعد وغيرها – إلى الأذهان شذى عبقرية الفنان الفرعوني القديم .

كما أن الجامعة المصرية التي تأسست سنة ١٩٠٨ أخذت تؤثِّر في نواحي الحياة كافة ، سواء على مستوى الأساتذة أو الخريجين أو الطلبة .

أ لسنا على حقّ – إذن – حين نقول : « إن الواقع المصري كان يشهد موْكباً كارنڤاليا علىّ كل المستويات »؟ نعم كانت الحياة قاسية في ظل الاحتلال والقصر ، وعدم وضوح الرؤية – بقدر كافٍ– أمام بعض التنظيمات السياسية العلنية والسريّة .

ولكن كان هناك برلمان ، ودستور ، وأحزاب ، وصحافة ، وجامعة ، ومجلات ، وحركة طباعة ونشر، وأدب ، ونقد ، ومسرح ، وسينما ، وفن تشكيلي ، وغناء ، وإذاعة .

في إطار هذا الواقع الاجتماعي والسياسي والفكري والفني ، الذي يزخر بموكب النهضة والتقدُّم على كل المستويات ، كأنما تحوَّل الواقع كله – على حد تعبير الناقد الروسي « ميخائيل باختين » – إلى احتفال كرنڤالي صاخب ، تتحول بعض عناصره إلى تقاليد أدبية وتقنيات إبداعية ، تمثلت في أعمال كثير من أدباء العصر وفنانيه .

ويبدو أن هذه الحركة ، حركة موكب الاحتفال الكرنفالي للواقع ، قد أسهمتْ في نشأة الرواية الحديثة ، التي شارك فيها المنفلوطي بدورٍ ما ، وهذه قضية تحتاج إلى وقفه خاصة في بحث نقدي آخر .

* * *

٣– جدل الموقف والأداة
بين « النظرات » و « العبرات »

هناك مجموعة من الشخصيات في تاريخنا الأدبي الحديث ، احتلوا – دون سواهم – منزلة ، لم يصل إليها أحد في إطار النوع الأدبي ، الذي يبدعون فيه ، بل إنهم يعدّون « عباقرة » ذلك المجال، ولم يستطع أحد حتى اليوم أن يتجاوزهم أو يلحق بشهرتهم . وهذه الشخصيات العبقرية ، هي :

١– أحمد شوقي : في الشعر .

٢– توفيق الحكيم : في المسرح .

٣– طه حسين : في الدراسة الأدبية .

٤– نجيب محفوظ : في الرواية .

٥– يوسف إدريس : في القصة القصيرة .

٦– مصطفى لطفي المنفلوطي : في المقالة الأدبية .

المنفلوطي – إذن – أشهر كاتب مقالة أدبية في العصر الحديث ، ولم ينل أحد قبله أو بعده ، مثل ما نال من شهرة وانتشار ؛ حيث إن تراثه الأدبي – ومنه مقالاته – لا يزال يُعاد طبعه ، ويجد جمهوراً قارئاً حتى اليوم .

وقد اختار المنفلوطي من مقالاته المختلفة التي نُشرتْ في بعض الجرائد ، ومن أهمها جريدة « الصاعقة » التي كان يرأس تحريرها أحمد فؤاد [١] ، وجريدة « المؤيد » التي كان يرأس تحريرها الشيخ علي يوسف [٢] ، بعض المقالات ، وأعاد نشرها في كتابه « النظرات » بأجزائه الثلاثة ، التي صدرت طبعاتها الأولى في السنوات : ١٩١٠ و١٩١٢ و١٩٢١ . ويمكن أن نضيف إلى «النظرات» كتاب « العبرات » ، وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩١٥ . ورغم أن محتوى «العبرات» مختلف عن « النظرات » ؛ لأنه يحتوي على بعض قصصه الموضوع والمترجم . ومع وعينا بالخلافات الجوهرية والسمات الفارقة لما بيْن المقالة و القصة ، إلا أن أسلوب الكاتب لا يختلف كثيراً في تناول كل منهما إلى حد كبير ، بل إنه أعاد نشر بعض ذلك القصص المؤلف والمترجم في أجزاء مختلفة من « النظرات » . وهذا يدل على أن المؤلف نفسه لم يجد فارقاً كبيراً بين ما يحتويه كل من الكتابيْن اللذين يشتملان على مقالات عامة ، أو مقالات قصصية ، كما سنفصل فيما بعد .

(١) راجع مقالا بعنوان « فؤاد الصاعقة » في : عباس محمود العقاد : رجال عرفتهم . القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٦٣ . ص٢٦٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١١ .

ويمكن أن نلخص موقف المنفلوطي أو رؤيته الأدبية لا في هذيْن الكتابيْن فحسب ، بل في كل ما كتب – تقريباً – فنقول إن موقفه هو « موقف المصلح » ، الذي يدعو إلى الإصلاح بشكل ليس فيه تورية أو تكنية ؛ فالمنفلوطي في كل ما كتب كان داعية إلى إصلاح المجتمع والتمسك بالفضيلة ومساعدة الفقراء والمساكين ومحاربة الرذيلة ، والمحافظة على كرامة المرأة وعدم تعريضها للمشكلات ، حتى لا تسقط أو تزل . ويتصل بهذه الدعوة أيضاً ، من قُرب أو بعد ، دعوته إلى إصلاح أساليب الكتابة الأدبية وعدم التفريق بين اللفظ والمعنى ، وأن طريقة التعبير في النثر لا تختلف عنها في الشعر ؛ لأن : « الكاتب الخيالي شاعر بلا قافية ولا بحر ، وما القافية والبحر إلا ألوان وأصباغ تعرض الكلام فيما يعرض له من شؤونه وأطواره ، لا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته ...» [(١)]

وإذا كان المنفلوطي يدعو إلى إصلاح المجتمع وأسلوب الكتابة ، فإنه لم يكد يتطرّق إلى حديث السياسة في أيِّ موضوع من الموضوعات المختارة في « النظرات » و « العبرات » .

ويبدو أن القصيدة التي أدخلته السجن في نوفمبر سنة ١٨٩٧ [(٢)] ، قد جعلته حذراً من الكتابة السياسية ، كما أنه يعلل سبب نفوره من السياسة بقوله : « يعلم الله أني أبغض السياسة وأهلها بغضي للكذب والغشّ والخيانة والغدْر . أنا لا أحبُّ أن أكون سياسيًّا ؛ لأني لا أحبُّ أن أكون جلاداً ، لا فرق عنْدي بين السياسيّين والجلادين ، إلا أن هؤلاء يقتلون الأفراد ، و أولئك يقتلون الأمم .» [(٣)]

المنفلوطي إذاً كان داعية إلى الإصلاح ، غير أن كل الأدباء – بمعنى ما – يدعون إلى الإصلاح والعدالة والحرية ، ويناضلون من أجل تغيير ما هو فاسد في المجتمع ، وينشدون عالمًا أفضل، ويبشّرون بواقع أسعد ؛ أي أنّ الأدب له ، بالضرورة عند كل أديب ، مهما قلّ أو جلّ شأنه ، وظيفةً نبيلة ، تهدف إلى تطوير المجتمع وتغيير الواقع . لكن الأدباء يختلفون اختلافًا واسعًا بحسب الفلسفة الفكرية ، التي تشكّل الموقف الأدبي لكل منهم . وهذه الاختلافات ، في حقيقتها ، فروق جوهرية بين الفلسفة الإحيائية السلفية المحافظة ، والفلسفة الليبرالية الفردية الرومانسية ، والفلسفة الواقعية الشمولية الملتزمة .

ومعنى هذا أن المذاهب الأدبية لا تخرج عن ثلاثة مواقف هي :

١– الموقف السلفي في الفكر ، ويعكسه مذهب الإحياء في الفن ، الذي يعبر عن الغير .

٢– الموقف الليبرالي في الفكر ، ويواكبه مذهب التعبير عن الذات في الفن .

٣– الموقف الواقعي في الفكر ، ويصاحبه المذهب الشمولي الملتزم المعبّر عن قضايا المجتمع في الفن .

وبناءً على ذلك ، فإن المذهب الأدبي الذي يصدر بوحي منه المنفلوطي هو الموقف « الإحيائي » ؛

---

(١) النظرات . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر–لونجمان ، ١٩٩١ . ص ٢١٠ .

(٢) محمد أبو الأنوار : مصطفى المنفلوطي ؛ حياته وأدبه . القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٨٥ . جـ٣ ، ص٢٩٣ .

(٣) النظرات . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر–لونجمان ، ١٩٩١ . ص ١٥٧ .

وعلى هذا فإن كل ما كان يدعو إليه ، إنما يستمد مبادئه وقيمه من تراث السلف الصالح بالمعنى الشمولي لكلمة تراث ، حيث يدخل فيها ما هو ديني (القرآن والسنة) ، وفكري (الفلسفة الإسلامية وكل مجالات الفكر العربي) ، وفنّي (الشعر والنثر والغناء والموسيقى) . و من هنا فإن كل ما دعا إليه كاتبُنا من مبادئ الإصلاح ، كان يستلهمها من فكر التراث ونقاليد المجتمع العربي المسلم . وعلى هذا نستطيع القول بأنه –على مستوى الموقف الأدبي– كان أديبًا سلفياً شديد المحافظة ؛ لذلك كان يدعو إلى تثبيت عادات المجتمع الشرقي ومثله ، ويعادي بالتالي كل مظاهر الحضارة الغربية الوافدة على مستوى الفكر والسلوك . و من هنا كان يرفض خروج المرأة إلى الحياة ويعادي وجود المسارح ويسمّيها « الملاعب الهزلية » ، فيقول : « نزلتْ بالأمة المصرية نازلة المقاذر العامة ، التي يسمونها الملاعب الهزلية ، وما هي في شيء من الهزل ولا الجدّ ، ولا علاقة لها بالتمثيل والتصوير ، ولا بأيِّ فن من الفنون الأدبية ... » (١)

فالمنفلوطي يرى (بصفة عامة ، ويجب أن نعرف أن هذا الرأي قاله في آخر حياته) أن كل المفاسد الأخلاقية تأتي من تقليد الغرب ، فيقول :

« أصبحتُ أعتقد أن مفاسد الأخلاق والمدنيَّة الغربية شيئان متلازمان ، وتوأمان متلاصقان ، لا افتراق لأحدهما عن صاحبه ...» (٢)

وإذا كان الموقف الأدبي يرتبط بأداة التعبير ارتباط العلة بالمعلول ، فإننا نستطيع على ضوء شرحنا لموقف المنفلوطي – كما فسَّرناه آنفاً – القول بأن جماليات المقال الأدبي عنده لا تختلف كثيراً عما نراه من أسلوب للكتابة عند أعلام النثر في التراث العربي القديم والحديث ، أمثال : عبد الحميد الكاتب و الجاحظ و أبو حيان التوحيدي و ابن العميد و القاضي الفاضل و رفاعة الطهطاوي و عبد الله فكري و محمد المويلحي ، وغيرهم .

ومعنى هذا أن المنفلوطي ، رغم كثرة دعواته إلى إصلاح الكتابة الأدبية والبعد عن التقليد ، لم يستطع أن يحقق ما كان يدعو إليه . فهو يذكر أن سبب ما له من فضل في الكتابة يرجع إلى ما أكّده بقوله : « لأني استطعت أن أتفَلَّتْ من قيود التمثُّل والاحتذاء . وما نفعني في ذلك شيء مثل ما نفعني ضعف ذاكرتي والتواؤها عليّ ، وعجزها عن أن تمسك إلا قليلاً من المقروءات التي كانت تمرُّ بي . فلقد كنت أقرأ من منثور القول ومنظومه ما شاء الله أن أقرأ ، ثم لا ألبث أن أنساه ، فلا يبقى منه في ذاكرتي إلا جمال آثاره وروعة حسنه ورنَّة الطرب به .» (٣)

ومع أن كاتبنا يذكر أنه استطاع أن يفلت من قيود التَّمثُّل والاحتذاء ، وبالتالي لم يقلد غيره ، إلا أننا نحسُّ معه أننا إزاء إحياء جديد لأساليب النثر العربي التقليدية ، التي تعتمد على المزاوجة بين الجُمَل ، والمقابلة بين العبارات ، والحرص على السَّجع ، والتساوي بين الجُمَل لتحقيق قدر من التوازي في الإيقاع ، مع الحرص على جمال المفردات اللغوية ، وحشد بعض المحسنات البديعية خاصة الجناس والطباق والترادف ، وإيثار بعض الصور البلاغية المحفوظة أو الواردة في الشعر والقرآن والحديث النَّبوي ، بالإضافة إلى توظيف « التَّناصّ » أو « التضمين » بشكل مقصود من مصادر التراث

(١) النظرات . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر–لونجمان ، ١٩٩١ . ص ٢٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٤ . (٣) المصدر السابق ، ص ١ .

الديني والأدبي .

وهذه السمات التي نجدها عند المنفلوطي هي ذاتها التي قد نجدها عند أبي حيان التوحيدي الذي يقول ، على سبيل المثال ، في مقدمة كتابه « الإمتاع والمؤانسة » :

« قال أبو حيان التوحيدي : نجا من آفات الدنيا من كان من العارفين ، و وصل إلى خيرات الآخرة من كان من الزاهدين ، وظفر بالفوز والنعيم من قطع طمعه من الخلق أجمعين ، والحمد لله ربِّ العالمين ، وصلى الله على نبيِّه وعلى آله الطاهرين .

« أما بعدُ .. فإني أقول منبِّهاً لنفسي ، ولمن كان من أبناء جنسي ؛ من لم يطع ناصحه بقبول ما يسمع منه ، ولم يُملِّك صديقه كله فيما يمثله له ، ولم ينْقد لبيانه فيما يُرينه إليه ، ويطلعه عليه ، ولم يرَ أن عقل العالم الرشيد ، فوق عقل المتعلم البليد ، وأن رأيَ المجرِّب البصير ، مُقدَّم على رأي الغَمْر الغرير ؛ فقد خسر حظه في العاجل ، ولعله أيضا يخسر حظه في الآجل ... » [١]

وإذا كانت قوة الموهبة وكثرة الخبرة ، تعصمان التوحيدي من أن تبدو الصنعة عنده متكلفة ، فإن التكلف يبدو بشكل أوضح عند كاتب مثل بديع الزمان الهمذاني ، على سبيل المثال ، الذي يقول، في « المقامة الأصفهانية » : « حدثنا عيسى بن هشام قال : كنتُ بأصفهان أعتزمُ المسير إلى الريّ ، فحللتها حلول الفيِّ ، أتوقع القافلة كل لمحة ، وأترقب الراحلة كل صبحة ، فلما حُمَّ ما توقعته ، نودي للصلاة نداء سمعته ، وتعيَّن فرضُ الإجابة ، فانسللتُ من بين الصحابة ، أغتنمُ الجماعة أدركها ، وأخشى فوت القافلة أتركها ، لكني استعنتُ ببركات الصلاة ، على وعثاء الفلاة ، فصرتُ إلى أوَّل الصفوف ، ومثلت للوقوف ، وتقدَّم الإمام للمحراب ، فقرأ فاتحة الكتاب ... » [٢]

من هذا كله يتضح أن أسلوب المقال الأدبي وغيره عند المنفلوطي مستمد من السمات العامة للنثر العربي ، الذي يعتمد في الغالب على « الصَّنْعة » والحرص على المُحَسِّنات ، حتى لو أضرَّ ذلك بالمعنى أحياناً . وهذا يعني – ببساطة شديدة – أن المنفلوطي كان محافظاً في موقفه ومقلداً في أسلوب كتابته ، أي أن الموقف عنده يتّسق مع الأداة ، وأنه كان أسيراً لفلسفة الإحياء قلباً وقالباً ، تلك المدرسة التي تؤمن بكل ما آمن به السلف الصالح لدرجة الخضوع والخنوع . فهذه المدرسة تؤمن في النثر ، كما آمنتْ في الشعر ، بالوظيفة الأخلاقية للأدب ، وإذا كان المنفلوطي يدعو إلى الفضيلة فإن البارودي الشاعر يدعو إلى مكارم الأخلاق ، فيقول [٣] :

والشعر ديوانُ أخلاق يلوحُ به ... ما خطَّه الفكرُ من بحثٍ وتَنْقيرِ

ولا شك أن حرص المنفلوطي فيما كتب على التقليد والمحافظة ، هو الذي أغاظ ناقداً مثل إبراهيم عبد القادر المازني ، فأخذ ينقده نقداً عنيفاً بقوله :

---

(١) أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق وشرح : أحمد أمين و أحمد الزين . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٣ . ج١ ، ص١ .

(٢) أبو الفضل بديع الزمان الهمذاني : مقامات الهمذاني ، تحقيق وشرح الشيخ محمد عبده . ط٦ بيروت ، دار المشرق ، ١٩٦٩ . ص٥١ .

(٣) محمود سامي البارودي : ديوان البارودي ، تحقيق وشرح علي الجارم و محمد شفيق معروف . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧١ . ج٢ ، ص١٥١ .

« ماذا في كتابات المنفلوطي مما يستحق أن يعدَّ من أجله كاتباً وأديباً ، إلا إذا كان الأدبُ كله عبثًا في عبثٍ لا طائل تحته ؟ سمعتُ بعض السخفاء من شيوخنا المائقين ، يقول : « إن في أسلوبه حلاوة .» ولو أنه قال « نعومة » لكان أقرب إلى الصواب ، ولو قال « أنوثة » لأصاب المحزَّ . وهذا كلام يكاد يعدُّه من لا عهد له بغير كلام المقلدين من الألغاز والأحاجي ... »

ويرى مرة أخرى : « أنه متكلف متعمِّل يتصنع العاطفة كما يتصنَّع العبارة عنها .»

كما يأخذ عليه قدْراً من التساهل في استعمال الألفاظ وكثرة استخدام المفعول المطلق ، والنعت ، والحال ، وغير ذلك مما يعدُّه النحاة من « مكملات الجملة » ، وليس من أركانها الأساسية . ويعلِّق المازني على ذلك قائلاً : « كل لفظة يمكن الاستغناء عنها قاتلة للكاتب ، فإن العالم أغنى في باب الأدب من أن يحتمل هذا الحشو ويصير عليه ... لكن هذا كلام لا يفهمه المنفلوطي ؛ لأن اللغة عنده ليستْ إلا زينة يعرضها ، وحلي يُخيِّل بها ، لا أداة لنقل معنى أو تصوير إحساس أو رسم فكرة ... »[1]

وإذا كان المازني ناقداً يقف من المنفلوطي وأسلوبه موقفًا معادياً ، فإن هناك عشرات من النقاد وآلافًا من القراء كانوا – ولا يزالون – معجبين بالرجل وأدبه . « والواقع أن الأسباب التي اعتمد عليها المازني في هجومه على المنفلوطي ، هي نفسها السرُّ في إعجاب القراء به . فالإغراق في العاطفية المسرفة يتلاءم مع إحساس القارئ المفتقر إلى الثقافة الجادة ، التي تجعله يحسُّ بالحياة إحساساً عميقًا ، يستمد جذوره من تجربة الحياة نفسها ، كما أن أسلوبه الكلاسي جعله شديد القرب والالتصاق بالقراء المتّصلين بالثقافة العربية ، ومنحه بينهم مكانة لم يصل إليها غيره من المؤلفين أو المترجمين ...»[2]

* * *

٤ – المقالة القصصية

ذكرنا من قبل أننا نَعُدُّ كتاب « العبرات » مُكمِّلاً لكتاب « النظرات » ، وعلى هذا فإنه يُعَدُّ الجزء الرابع منه ؛ وإذا كان كتاب « العبرات » يشتمل على ما أسماه المؤلف « مجموعة روايات قصيرة بعضها موضوع أي مؤلف (وهو أربع قصص) وبعضها مترجم (والصفة الأدق هي معرَّب) ؛ لأن الترجمة تعني الأمانة في نقل النصِّ من لغة إلى أخرى ، أما التعريب فيتطلب بالضرورة قدراً من التصرف في نقل النصِّ (وهو يضمُّ خمس قصص) .

ونحن لا نقيم وزنًا كبيراً لاستخدام المؤلف لمصطلح « رواية قصيرة » ، وهو يعني به « قصة قصيرة »؛ لأن « المعيار الفني » الذي كان يفرِّق به معظم أدباء عصره بين الرواية الطويلة و القصة القصيرة ، هو

---

(١) إبراهيم المازني و عباس محمود العقاد : الديوان في الأدب والنقد . ط٣ القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٧٢ . ج٢ ، ص٨٤ ، ٨٩ ، ١٠٤ ، ١٠٦ .

(٢) عبد المحسن طه بدر : تطور الرواية العربية الحديثة . ط٤ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٣ . ص١٨٦ .

الحجم الكمي لعدد الصفحات (١) . ولكن الحجم فقط حدٌّ تحكمي أو افتراضي ؛ لأن المعيار الفني للتفريق بينهما ، يقوم على طريقة التناول وطبيعة التصوير . فالرواية تصور حياة مجموعة من الشخصيات في فترة طويلة ، وهي تهتم بتصوير حياة أولئك الشخصيات تصويراً خارجيًّا وداخليًّا ، في إطار زمان ومكان محددَيْن ؛ ومن هنا تمتلك الرواية قدرة هائلة على الوصف والتحليل والتصوير الشامل ؛ وهذا ما يتيح لكاتبها فرصة واسعة لتقديم وجهة نظره – من خلال شخصياته – في أمور كثيرة مثل التاريخ والسياسة والمجتمع والاقتصاد وحياة الأسر وعلاقات الأفراد ، والتعبير عن عاطفة الحب وغيرها من القضايا الذاتية . لذلك يصبح من الصعب تحديد شكل خاص للرواية ، أو موضوعات أثيرة لديها ، فالروائي العظيم فيه الكثير من سمات المؤرّخ السياسي ، وعالم الاقتصاد ، وباحث الاجتماع ، والمحلل النفسي ، والمعلم التربوي ، بل إنه يحمل قدراً من سماحة الأب ، وحنان الأم ، وعاطفة المحب ، وتحمُّل خادم البيت ، وحارس المكان ، ومنظِّم الوقت . إنه – الروائي – مثل « المايسترو » الذي يقود مجموعة مختلفة من الموسيقيِّين (الشخصيات) يعزف كل واحد منهم بآلة خاصة ، تُصدر إيقاعاً مختلفاً (لأن لكل منهم دوراً متميزاً عن غيره) . ورغم اختلاف آلات العزف ، فإن على قائد الأوركسترا « المايسترو » أن يكون اللحن في مجمله منسجماً ، لا نشاز فيه . وهذا يعني أن شكل الرواية يشبه – إلى حد غير قليل – الوعاء ، الذي يمكن أن تصبَّ فيه مواد مختلفة . ويعبِّر «أوكونور» عن ذلك بقوله : « إن الرواية لها شكل جوهري ، هو الشكل الذي نراه في الحياة ، شكل التطوُّر الزمني للشخصية أو الحدث ، في حين أن كاتب القصة القصيرة لا يعرف شيئاً اسمه الشكل الجوهري ، فهو لا يطمع في تصوير الحياة الإنسانية في مجموعها ، بل إن عليه دائماً أن يختار نقطةً ما ، يتناول الحياة من زاويتها .» (٢)

وعلى هذا فإن أهم ما يميِّز القصة القصيرة ، غير الحجم ، هو أنها : « تجربة أدبية تعبِّر – بالنثر– عن لحظة في حياة إنسان ، فهي إذاً فن يقوم على التركيز والتكثيف في وصف لحظة واحدة . وهذه اللحظة قد تمتدُّ زمنيًّا لساعات أو أيام أو أسبوع ، أو ربما شهر أو أكثر ، غير أن القاصَّ لا يهتم فيها بالتّفاصيل ، التي يهتم بها الروائي ، لكنه يمضي قُدُماً من أجل تعميق اللحظة التي يصورها ، لكي تعطي إيحاء مركَّزاً حول ما تدل عليه .» (٣)

بناءً على ما سبق يبدو الفارق الفني شاسعاً بين نوعَيْن أدبيَّيْن من جنس واحد ، هما الرواية novel والقصة القصيرة short story ، فالرواية تصوِّر (حياة شاملة) ، وتترك لدى قارئها انطباعات وتأثيرات وتفسيرات مختلفة . أما القصة القصيرة التي تصوِّر (لحظة) في حياة شخصية مأزومة ، فإنها يجب أن تترك تأثيراً خاصًّا أو وحدة انطباع ، نتيجة الاقتصاد والتحدُّد في الوصف والتّصوير ، من هُنا تتسمُ القصة القصيرة بتطابق تام بين المضمون والشّكل .

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى ما كنّا نناقشه من أن كتاب «العبرات» مكمل لكتاب «النظرات» ،

---

(١) راجع في مجال التفريق بين القصة القصيرة والرواية :

– شكري عياد : فن القصة القصيرة في مصر . ط٢ القاهرة ، دار المعرفة ، ١٩٧٩ . ص ٣١–٥٩ .

– طه وادي : دراسات في نقد الرواية . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ . ص١٧–٢٥ .

(٢) شكري عياد : فن القصة القصيرة في مصر ، ص ٤٧ .

(٣) طه وادي : دراسات في نقد الرواية ، ص ٢٢ .

وإلى أن الكاتب – مثل معظم أدباء عصره – لم يكن على وعي كامل بما بيْن الرواية والقصة القصيرة من فروق فنية . ونضيف إلى ذلك أن الروايات أو القصص التي تشتمل عليها « العبرات » – مؤلفة ومعرّبة – توجد نظائر وأشباه لها كثيراً في الأجزاء الثلاثة للـ « نظرات » – ناهيك عن أن بعضها نفسه مُكرر بنصّه وعنوانه ، ولا سيّما في الجزء الثالث . وما نريد أن نصل إليه الآن هو أن هناك مجموعة من النصوص لا نريد تحديد نوعها الآن – ذات ملامح تعبيريّة وفنية و وظيفية متقاربة إلى حدّ كبير ، وهذه النصوص كان الكاتب يعدُّها « مقالة » مرة ، ويعدها أخرى « قصة مؤلفة » ، وثالثة « قصة مترجمة » ، ورابعة – فيما نرى نحن – يمكن أن تعدّ « صورة قصصية » أو « وصف حادثة » أو « خبراً قصصيًّا » . وهذه النصوص المختلفة تجمع بين سمات نوعين مختلفين من الإبداع والكتابة ، هما المقالة والقصة .

ومن المعروف أن « المقالة » نوع من الكتابة ، يناقش قضية اجتماعية بشكل واضح ومباشر ، وهي قطعة نثرية محدودة الطول ، تكتب بطريقة أقرب إلى العفوية والتلقائية ، خاصة إذا كانت مقالة أدبية تعبِّر عن وجهة نظر كاتبها ، وليست مقالة علمية أو موضوعية .

وإذا كانت المقالة تناقش قضية اجتماعية بأسلوب عفوي مباشر ، فإن القصة تصوِّر – تجربة إنسانية تصويراً فنيًّا ، يعتمد على الرمز والتلميح دون التصريح ؛ لأن المباشرة تُزهق روح الفن .

وعلى هذا فإن هناك مجموعة كبيرة من النصوص في تراث المنفلوطي المقالي والقصصي ، والمؤلف والمترجم ، يمكن أن نحدد جنسها الأدبي على أساس أنها نُصوص في منزلة بين النوعين : المقالة والقصة ؛ ولذا فإنها تقع في دائرة مصطلح « المقالة القصصية » ؛ فماذا نعني بهذا المصطلح ؟

« كثيراً ما يذكر اصطلاح «« المقالة القصصية »» على أساس أنه مرادفٌ للـ «« صورة القصصية »»، ولكننا في الواقع نتبيَّن شكلَيْن أدبيَّيْن متميزَيْن : أحدهما ، وهو الصورة القصصية ، يماثل شكل القصة القصيرة في كونه تعبيراً موضوعيا يعتمدٌ على رسم الشخصية والحدث ، وإن كان يرسمها بطريقة وصفية غير درامية ، ويبقيها أقرب إلى دائرة الملاحظة والتأمل منها إلى دائرة الانطباع .

« أما الشكل الثاني ، وهو المقالة القصصية ، فهو في أهم خصائصه نوع من المقالة ، لكونه تعبيراً مباشراً عن فكر كاتبه ، لكنه يتميزٌ عن أنواع المقالة الكثيرة الأخرى بخاصيتَيْن : الأولى أنه أميل إلى الذاتية ؛ فكاتبه يطلق العنان لخواطره ومشاعره ، كأنه شاعر ينظم قصيدة غنائية ، والثانية أنه يمزج التعبير عن الخواطر والمشاعر بالسرد و الوصف ، فيحدث في الأسلوب ضرباً من التنويع ، ويخفف من الطابع الذاتي الذي يغلبُ على هذا اللون من المقالات . والتعبير البياني في هذا الضرب من المقالات يحتلُّ المكان الأول قبل التعبير من خلال الأحداث ، أو من خلال الشخصيات .» [١]

وبناءً على ما سبق يمكن القول بأن النصوص التي يشتمل عليها كتابا «النظرات» و «العبرات» ، تنقسم إلى نوعَيْن أدبيَّيْن متقاربَيْن إلى حدٍّ ما في السمات الأسلوبية للتعبير اللغوي ، وهما :

أ – المقالة الأدبية .

ب – المقالة القصصية .

---

(١) شكري عياد : القصة القصيرة في مصر ، ص ٧٣ .

وإذا كان هذان النوعان متقاربَيْن في الأسلوب ، فإنهما متطابقان إلى حدٍّ ما في الوظيفة الإصلاحية التي يهدفان إليها ، والتي غالبا ما يصرِّح بها المنفلوطي في ثنايا المقالة ، أو بين عناصر المقالة القصصية ، فهو على سبيل المثال يعظ من لا يؤمنون بالحبّ ، حتى لو كانوا من رجال الدين ، في قصة « الشهداء » المعربة ، بقوله :

« إن كنتم تريدون أن نعيش على وجه الأرض بلا حبٍّ ، فانتزعوا من بين جنوبنا هذه القلوب الخفّاقة ، ثم اطلبوا منا بعد ذلك ما تشاؤون ، فإننا لا نستطيع أن نعيش بلا حبٍّ ، ما دامت لنا أفئدة خافقة . »[١]

والمنفلوطي ليس وحده الذي كتب المقالة القصصية ، وإنما كان يشاركه في إبداعها بعض الكتاب ، أمثال إبراهيم المازني في (صندوق الدنيا ، قبض الريح ، ع الماشي ، خيوط العنكبوت ، سبيل حياة ، أحاديث المازني) وطه حسين في (المعذبون في الأرض ، جنة الشوك) ومحمد حسين هيكل في (ثورة الأدب ، في أوقات الفراغ) وعبد العزيز البشرى في كتابه (في المرآة) .

ومعنى ذلك أن هذا النوع من الكتابة الأدبية ، وهو المقالة القصصية ، كان يبدع فيه بعض كتّاب هذه المرحلة ، وليس المنفلوطي وحده ، وذلك ما يؤكد حاجة الواقع الاجتماعي والثقافي إلى مثل هذا النوع من الكتابة الإنشائية – القصصية ، التي وجد فيها أولئك الكتّاب وسيلة أدبية صالحة للتعبير عن آرائهم المختلفة في إصلاح المجتمع ، لا سيّما إذا ما أدركنا أن الجمهور الذي كتب له جمهور يمثّل معظمَه الطبقة الوسطى ، والمقالة القصصية قادرة على التأثير فيهم ؛ فهي تحمل من المقالة الوضوح والمباشرة وجمال التعبير ، ومن القصة التشويق والإثارة وقوة التأثير .

هذا الجمهور هم قرّاء المنفلوطي وعشاق أدبه ، الذين وجدوا فيما كتب تعبيراً صادقًا عن أشواقهم الروحية وقيمهم الأخلاقية ، التي لا يملكون على المستوى الشعري المثالي سواها ؛ إذْ ليس ثمة شيء يمكن أن يتمسكوا به سوى الفضيلة والشرف ، بعد أن ضاعت منهم – دون أي أمل في الوصول – مصادر الثروة ومناصب الوجاهة . وقد اكتشف كتّابهم – بذكاء و وعي – أن المقالة القصصية هي أقرب سبيل يمكن أن يصلوا به إلى جمهورهم . وهذا هو سرُّ وجود المقالة القصصية عند المنفلوطي وغيره من كتاب المرحلة وما بعدها ؛ بل إنه سرُّ شهرة المنفلوطي إلى اليوم .

* * *

٥- المنفلوطي معرّبًا للرواية

عرّب المنفلوطي – بطريقته الخاصة – أربعة أعمال أدبية ، خرجتْ في شكل روايات ، ولاقتْ نجاحًا جماهيريًّا واسعًا على امتداد الوطن العربيِّ كله حتى اليوم ، وهي :

١- ماجدولين ، أوْ تحت ظلال الزيزفون (١٩١٧)

رواية ألفها الكاتب الفرنسيُّ ألفونس كار Alphonse Karr بعنوان « Sous les Tilleuls » ، وقد

---

(١) المنفلوطي : العبرات ، هذه الطبعة ، ص ٤٨ .

عَرَّبها المنفلوطي عن ترجمة صديق له ، يُدعى محمد فؤاد كمال . ويرتكز مضمونها على محوريْن : أحدهما عاطفيٌّ ، والثاني اجتماعيٌّ . أما الأول فيمثل صراعاً بين الحبِّ الحقيقيِّ الطاهر والحب الزائف ، والثاني يمثل صراعاً بين الفقر والغنى ، ويترتب عليه أن السعادة ليست في الغنى والجاه والمظهر ، لكنها في العمل والكفاح والإخلاص للقيم . وبطل الرواية « استيفن » شاب يرى السعادة في العمل والكفاح والحب الطاهر ، ويعيش قصة حبٍّ عفيف مع «ماجدولين» الجميلة ، لكن والدها «مولر» رفض زواجها به بسبب فقره ، رغم علمه بأن هناك قصة حبٍّ بينهما . وتتزوج الفتاة الغريرة من « إدوارد » الغنيِّ ، كما أراد أبوها ، لكن ذلك الزوج الغنيُّ سرعان ما فقد ماله كله ، فمات منتحراً. وحاولتْ ماجدولين أن تعود إلى حبيبها ، بعد أن تحسنتْ حالته المادية ، لكن كبرياءه أبى عليه ذلك فرفض ، مما دفع الحبيبة إلى أن تنتحر غرقًا . (الموت والقتل والانتحار كثيرٌ جدا في مثل هذا الأدب الميلوتراجيدي) . وقد حاول الحبيب إنقاذها لكنه لم يستطع ، فمات حزنًا عليها (هكذا !) ويعلّق المنفلوطي على ذلك بقوله : « كذلك انتهت حياة هذا الرجل العظيم الذي قتل الحبُّ جسده ، ولكنه أحيا نفسه ، وسجَّلها في سجل النفوس الخالدات .»[1]

٢- في سبيل التاج (١٩٢٠)

هذه الرواية كانت في أصلها مسرحية بعنوان « Pour la Couronne » كتبها الأديب الفرنسيُّ فرانسوا كوبيه François Coppée سنة ١٨٩٥ . وبطلها ، كما يذكر المترجم حسن بك الشريف في المقدمة: « فتى تعارضتْ في نفسه عاطفتان قويتان : حبُّ الأسرة وحبُّ الوطن ، فضحَّى بالأولى فداء للثانية ، ثم ضحَّى بحياته فداء لشرف الأسرة .»[2]

ولا شك أن المضمون الوطنيَّ للرواية ، هو الذي جعله يهديها إلى سعد زغلول ، الذي وصفه بالشجاعة والثبات والعزيمة والغيرة والإخلاص والتضحية ، وهي نفسها صفات « قسطنطين » ، بطل الرواية ؛ فقد كانا شهيدَيْن فداء لوطنيْهما ؛ لذلك تمنَّى أن تكون هذه الرواية مؤنسة لروح كل منهما.

ويتلخص مضمون الرواية في أن « قسطنطين » ابن القائد « برانكومير » يكتشف أن زوجة أبيه قد حرَّضت أباه على خيانة وطنه ، حتى تقبض ثمن الخيانة ، وحتى لا يرث الابن قسطنطين – من زوجة غيرها – حكم البلاد عندما يصبح والده حاكماً لبلاد البلقان ، خاصة بعد إنقاذه لفتاة فقيرة من يد الأتراك ، وحبِّه لها رغم ما بينهما من فوارق طبقيَّة ، ورغم رفض أبيه و زوجته لهذا الحبِّ غير المتكافئ ؛ وهنا يردُّ المنفلوطي مدافعاً على لسان بطله : « إني لا أعرف شرفاً غير شرف النفس ، ولا نسباً غير نسب الفضيلة .»[3]

و يواجه الابن أباه ساعة تنفيذ خطة الخيانة ، ويتم – تحت جنح الظلام – صراع حاد بين الابن الوطنيِّ والأب الخائن ، حيث يدافع الابن عن أرض الوطن وشرف الأسرة ، بينما يقاتل الأب من أجل العرش ، ومن أجل إرضاء زوجته . وينتهي هذا الصراع العائليُّ بأن يقتل الابن أباه فداء للوطن ، ولكن الزوجة الشريرة أشاعت بأن زوجها قتل في المعركة ، بينما كان ابنُه الخائن يتفاوض مع

---

(١) المنفلوطي : ماجدولين . بيروت ، دار الثقافة ، د.ت. ص ٢٢٦ .

(٢) المنفلوطي : في سبيل التاج . بيروت ، دار الثقافة ، د.ت. ص ١١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

الجاسوس التركي . وقد حُكم على الابن بالإعدام ؛ فقبل قدره بشجاعة . وهكذا فإن « قسطنطين » قتل أباه من أجل الوطن ، ثم رضي أن يُقتل فداءً لأبيه وسمعة أسرته . وهنا برزت الحبيبة الوفية الفقيرة « ميلتزا » لحظة سخط الجماهير عليه ، وطلبتْ منه أن يعترف بالحقيقة ، فأبى وأصرَّ على التضحية ، فأخرجتْ الخنجر من بين ملابسها ، وطعنته ثم طعنت نفسها .

٣- الشاعر ، أوْ سيرانو دي برجراك (١٩٢١)

هذه الرواية - مثل « في سبيل التاج » كانت في الأصل مسرحية - ألّفها الأديب الفرنسيُّ إدمون روستان Edmond Rostand عام ١٨٩٨ بعنوان « Cyrano de Bergerac » . وقد ترجمها عن الأصل الفرنسيِّ صديق المنفلوطي ، عبد السلام الجندي ، الذي طلب منه أن يهذِّب أسلوبها ، فحوَّلها المنفلوطي من القالب التمثيليِّ إلى القصصيِّ ، « ليستطيع القارئ أن يراها على صفحات القرطاس ، كما يستطيع المشاهد أن يراها على مسرح التمثيل .» [(١)]

وكما أهدى المنفلوطي الرواية الوطنية « في سبيل التاج » إلى سعد زغلول ، أهدى هذه الرواية التي يقوم بدور البطولة فيها « شاعر » إلى الشعراء ؛ لأنه يرى أن النفس الشعرية هي أجمل شيء في العالم ، وأبدع صورة رسمتها ريشة المصوِّر الأعظم في لوح الكائنات .

يدور مضمون هذه الرواية - التي نشرت بعد سنة واحدة من نشر رواية « في سبيل التاج » ، مما يُوحي بإقبال الجماهير عليها من ناحية ، ومن ناحية أخرى يدلُّ على تفرُّغ المنفلوطي لهذه الأعمال وحرصه على الكتابة فيها - حول الحبِّ العفيف الصامت ، الذي يكنه الشاعر/الفارس « سيرانو دي برجراك » لابنة عمه « روكسان » الجميلة المرفَّهة . وكان من الممكن أن تنمو قصة الحب بينهما لولا دمامة وجهه وكبر أنفه : « فكأن أنفه سبب شقائه في جهتَيْن ، أنه وقف عقبة بينه وبين غرامه ، وأنه كان المنفذ العظيم الذي ينحدر منه أعداؤه وخصومه إلى السخرية والتهكم عليه ، وهو لا يطيق ذلك ولا يحتمله .» [(٢)]

وقد أحبت «روكسان» الضابط « كرستيان » ، لأنه على نقيض ابن عمها ؛ يملك حسن الوجه وجمال المنظر ، ومع ذلك فقد كان بليد المشاعر ، عاجزًا عن التعبير ، وكان زميلاً لابن العمِّ في الجيش . ومن العجيب أن « سيرانو » يقبل أن يقف « كرستيان » صامتًا أمام « روكسان » ، بينما يقوم هو بإلقاء عبارات الحبِّ والهيام . وقد أجاد تمثيل الدور إلى أن تمَّ الزواج ، بعد أن باركه ابن العم نفسه إكرامًا للمحبوبة ، التي يكفيه منها الحبُّ الصامت العفيف . ورغم أن هذا الزواج غير قائم على الحبِّ والتفاهم ، إلا أن « سيرانو » الشاعر/الفارس والمحبَّ النبيل آثر ألا يتزوج من رفضته في يوم من الأيام ، وظل كلاهما يبكي حبَّه المحروم وحظه التَّعس .

٤- الفضيلة ، أو پول و ڤرجيني (١٩٢٣)

وهي في الأصل رواية فرنسية للكاتب الفرنسي برناردين دي سان پيير Bernardin de Saint-Pierre بعنوان « Paul et Virginie » وقد اعتمد كاتبنا في تعريبها على ترجمة الشاعر الأديب المترجم محمد

---

(١) المنفلوطي : الشاعر . بيروت ، دار الثقافة ، د.ت. ص ٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠ .

عثمان جلال سنة ١٨٧٢ بعنوان « الأماني والمنة في حديث قبول و ورد جنّة » . وربما استعان أيضاً بالترجمة الثانية التي تمت على يد الكاتب المسرحيّ فرح أنطون ، وهذا ظنٌّ لا نملكُ له دليلاً قويًّا سوى أن هذه الترجمة الثانية ، وهي بعنوان « بولس وڤرجيني » قد نشرتْ في القاهرة ، قبل أن يقوم المنفلوطي بعمله هذا بعدة سنوات . ويبدو أن هذه الرواية « سعيدة الحظ » فقد ترجمها بعد ذلك أديب ثالث هو إلياس أبو شبكة ، ونشرها سنة ١٩٣٣ بعنوان « پول وڤرجيني » .

وهذه الرواية تدعو إلى نفس الفضائل التي كان المنفلوطي حريصاً على الدعوة إليها في كل ما كتب ، وهو يعلن ذلك في الإهداء قائلاً :

« يعجبني من الفتى الشجاعة والإقدام ، ومن الفتاة الأدب والحياء ؛ لأن شجاعة الفتى ملاك أخلاقه كلها ؛ ولأن حياء الفتاة جمالها الذي لا جمال لها سواه . فأنا أهدي هذه الرواية إلى فتيان مصر وفتياتها ، ليستفيد كل من فريقَيْهما الصفة التي أحبُّ أن أراها فيه ، وليضعا حياتهما المستقبلة على أساس الفضيلة ، كما وضعها پول وڤرجيني .»

وأحداث هذه الرواية تقع في جزيرة موريشيس ، وهي قريبة من جزيرة مدغشقر في القرن الإفريقيّ؛ هذا من حيث المكان ، أما من حيث الزمان الذي وقعت فيه فهو سنة ١٧٢٥ . وهذا تأكيد لما يقوله المترجم – على لسان المؤلف – من أن حوادثها صحيحة ، وليس فيها من الخيال إلا النسق والترتيب . أما مسيرة الأحداث فتدور حول أرملتَيْن التقيتا مصادفة في الجزيرة ، وهما مرغريت و هيلين ، فصارتا صديقتَيْن ، ونشأ ولداهما پول و ڤرجيني أخوَيْن ، ثم حبيبَيْن بعد أن بلغا سنَّ الصبا والشباب ، وبعد استطرادات كثيرة ترحل ڤرجيني إلى عمة ثرية لها في باريس ، وهنا تسنح للكاتب فرصة للتعبير عن توهُّج العاطفة وحرارة الشوق وحنين الأرواح ولوعة القلوب خلال مدة الرحلة وهي ثلاث سنوات ؛ فكأن الرحلة كانت متنفساً للتعبير الوجداني عن الحبِّ . وبينما تصعد بنا الرواية في هذا الاتجاه إذ بها تهبط بنا إلى سطح المأساة بعودة ڤرجيني . فقد اشتدت العواصف بالسفينة وهي على بُعدٍ قريب من الجزيرة . وتموت ڤرجيني غرقاً ، ويموت بعدها پول حزناً وغمًّا ؛ كأنما الروحان مرتبطان بمصير قدريٍّ واحد وخيط روحيٍّ واحد ؛ فإما الحياة سويًّا ، وإما الموت سويًّا . فمثل هذا الموت عفة وشرفاً وتضحية أفضل ألف مرة من الحياة ! (الموت والانتحار كثير جداً في روايات المنفلوطي وكتاباته ، حيث يضع القدر نهاية لأبطال لا يصنعون لأنفسهم شيئاً !)

والمنفلوطي يختم الرواية بوداع باكٍ من الراوي للشهيدَيْن پول و ڤرجيني :

« سلام عليك أيها الولد الطيب الكريم ، الذي نشأ في تربة ساذجة بسيطة ، فنشأ ساذجاً بسيطاً ، لا ينال الناسَ بشرٍّ ولا يعتقد في الناس شّرا ، ولا يضمر في نفسه إلا الوفاء والإخلاص ، حتى لكلبه و شاته ، والكوخ الذي يؤويه ، والظل الذي يفيء إليه !

« سلام عليك أيتها الفتاة الشريفة الطاهرة ، التي صيغ قلبها من الرحمة والشفقة ، فبكت البائسَ والفقير ، واليتيم الذي لا عائلَ له ، والأرملة التي لا معين لها ، بكاء صادقاً لا تسمعه إلا أذن الليل ، ولا ترعاه إلا عيون الكواكب ، ولم يكن صدقها في أدبها وحيائها بأقلّ من صدقها في رحمتها وإحسانها ، ففرتْ من قارة إلى أخرى حياء من نفسها ، ثم فرت من العالم بأجمعه ضنًّا

بجسمها أن تلمسه يدُ منقذها !» [١]

ويبدو أن المنفلوطي نفسه قد تأثر قبل غيره بما كتب ؛ لذلك نجده بعد أن تنتهي الرواية ينظم قصيدة حولها ، يبدأها بقوله [٢] :

يا بني القفر سلام عاطر　　　من بني الدنيا عليكم وثناء

* * *

٦- الفضيلة نموذجاً

حتى تتضح القيمة الحقيقية لأدب المنفلوطي بصفة عامة ، وروايا‌ته الأربع المعرّبة بصفة خاصة ، يجب أن نتمثّل بوعي البُعد التاريخيّ لها ، وهو العقدان الثاني والثالث من القرن العشرين وما تلاهما. وهذه الأعمال في ذلك الزمان كانتْ فتوحات أدبية يلتقفها القرّاء من المحيط إلى الخليج ، فيحفظون كثيراً من أجزائها عن ظهر قلب ، ويذرفون العبرات مع مآسيها العاطفية والاجتماعية والوطنية . وكم من عيونٍ بكتْ ، وقلوبٍ خفقت ، وعبارات حُفظت ، تأثراً لما أصاب أبطال رواياته ، أوْ لما حدث من تفاعل مع معاني أدبه ومقالاته .

ومع أن المنفلوطي كان بالنسبة للروايات وبعض القصص مترجِماً ، أو معرّباً ، إلا أن ترجمته كانت ترجمة خلاقة حيَّة مؤثرة ، بل إننا نظن ظنًّا - لا يغني عن الحق شيئاً - وهو أن معظم ترجمات المنفلوطي ، لم تنل في تاريخ أدبها وبين جمهورها وفي لغتها الأم (الفرنسية) مثل ما نالته من شهرة وانتشار على يد المنفلوطي العظيم في الوطن العربيّ !

وسوف نتوقف عند رواية « الفضيلة » في محاولة نقدية لاكتشاف أهم سمات الرواية ، كما قدَّمها المنفلوطي بأسلوبه الخاص إلى جمهوره العربيّ .

إن هذه الروايات الأربع منقولة - حقيقة - عن أصل فرنسيٍّ ، غير أن المنفلوطي خلقها خلقاً فنيًّا جديداً ، يتناسب مع طبيعة الجمهور ، الذي كان يكتب له . المنفلوطي - إذاً - معرِّبٌ نال شهرة لم ينلها مؤلف خلال النصف الأول من القرن العشرين ، باستثناء أحمد شوقي أمير الشُّعَراء ؛ أي أن أهم أديبَيْن نالا شهرة جماهيرية واسعة هما : شوقي الشاعر ، والمنفلوطي الكاتب . وبالطبع فإن هذه الشهرة الجماهيرية ، كما هي الحال في أمثلة أدبية كثيرة ، ليست لها كبير علاقة بالقيمة الفنية لتراث بعض المشاهير .

وفي تحليلنا للرواية لن نقف عند كل عناصر البناء ، وإنما عند أهم تلك العناصر ، وهي : الحدث والشخصية والراوي .

بناء الحدث

لعل أهم سمة يمكن أن نكتشفها للوهلة الأولى بالنسبة لبناء الحدث الروائيّ والقصصيّ في تراث المنفلوطي المؤلِّف والمترجَم ، هو أنه بناء « هشٌ » ، يفقد منطق السببية ؛ فالحدث يبدأ في الغالب

(١) المنفلوطي : الفضيلة ، هذه الطبعة ، ص ١٨٥ .　(٢) المصدر السابق ، ١٨٦ .

— مثل كثير من الحكايات الشعبية — بداية مفتعلة ، ثم يتطوّر تطوُّرًا عشوائيًّا بلا منطق أو فلسفة ، وإنما هناك مصادفة قدرية عارضة ، ومبالغ فيها في أغلب الأحيان . وعلى هذا نجد أحداث الرواية مفعمةً بالمصائب والأحزان ، كأنما القدر قد كتب على من فيها اللعنة ؛ من هنا تتحرك مسيرة الحدث من كارثة إلى أخرى ، دون سبب مفهوم ، أو منْطق معقول .

والحدث الروائيُّ والقصصيُّ عنده يدور في إطار المشكلات العائلية والأزمات الفردية ، ومن هنا يدور في فراغ بعيدًا عن حركة الحياة والأحياء ، حيث نجد أن الأحداث ، في رواية « الفضيلة » ، تدور في جزيرة بعيدة ، كأنما يريد الكاتب أن يقطع كل الأواصر ، التي تربط بين أحداثه وشخصيّاته والحياة من حولهم . كما أن من يعيشون معهم من شخصيات ثانوية غرباء عنهم ؛ مما يساعد كثيرًا على قطع دابر أية علاقة بين الحدث الروائيّ والإطار الاجتماعيّ للواقع الذي يدور فيه ، وهذا قريب مما يحدث في الحكايات الشعبية ، حيث يدور الحدث في مكان « هلاميّ » لا ملامح له ، ولا يؤثّر في الشخصيات ولا يؤثرون فيه ؛ ولذلك يسهل فقدان منطق السببية ، وتصبح أية حركة أو انتقالة مبالغ فيها مقبولة بالنسبة لحدث يتم في « لا مكان » ، وأيضًا في حالة عدم انعْدام وعي شبه مطلق بالزمان. ومما لا ريْبَ فيه أن حالة عدم الوعي — فنيًّا — بالزمان والمكان ، تؤدي إلى المسيرة العشوائية وغير المبررة بالنسبة للحدث والشخصيات . إن الشخصيات في الرواية — كما هي في الواقع — إذا لم يكن ثمة قضية تربطهم بالزمان والمكان ، فلن تكون هناك مشكلة جوهرية يحرّكون بها مسيرة الحدث من أجل صياغة فنية جيِّدة له . فالحدث (المتصالح) مع الزمان والمكان حدثٌ يقوم على بناء هشٍّ ومنطق ساذج ؛ لأنه في الغالب ينقل الصراع من الأرض ومن عالم البشر إلى السماء ، وإلى مشيئة القدر ؛ من هنا يصبح الحدث والشخصية كما يقول المنفلوطي : « مثل ريشة تقذف بها الريح في يوم عاصف .»

ويساعد على غياب المنطق كثيرًا في بناء الحدث عند المنفلوطي ، اعتماده — الواعي أو غير الواعي — على شخصية الراوي . وهذا الراوي ، الّذي يحكي ، يُوهم القارئ بأنه يروي له خبرًا أو يسرد حادثة ؛ وعلى هذا فإنه غير مُطالب بالصدق الفنّي ؛ لأن الراوي سبق أن أوهم القارئ بأنه ينقل خبرًا سمعه أو شاهده ، أو ربما شارك في صُنعه . ولا شك أن اعتماد الكاتب هذا الاعتماد المطلق على شخصية الراوي ، يوهم بأنه غير مطالب أمام قارئه بمنطق الصدق الفنّي لصياغة الحدث ، كما يبرر تدخُّل المؤلف كثيرًا ليقول لقارئه ما يريد مباشرة ، سواء في أثناء السرد أو الحوار ، أو في خلال تشكيله للحدث أو تصويره للشخصية .

وإذا ما حاولنا أن نطبق هذا الفهم على رواية « الفضيلة » ، نجد أن الحدث يبدأ من نقطة غير مقنعة فنيًّا ، حيث تلتقي السيدتان « مرغريت » و « هيلين » — « مدام دي لاتور » في جزيرة مُنْعزلة ، وهذا البُعد عن العالم يذكّرنا بأحداث رواية « حيّ ابن يقظان » للكاتب الأندلسيّ أبو بكر بن طفيل (٥٨١هـ / ١١٨٦م) أو رواية « روبنسون كروزو » للكاتب الإنجليزيّ دانيال ديفو (١٧١٩) . وتشاء المقادير أن يكون لإحداهما ولد والأخرى بنت ، حتى تنمو قصة الحب العفيف بينهما في أحضان الطبيعة العذراء ، فكأن الحبَّ الطاهر لا ينشأ إلا في جوٍّ نقيٍّ صافٍ ؛ لأن العودة إلى الطبيعة معناها

العودة إلى البكارة والطهارة وهذه فكرة رومانسية خالصة .

وبعد أن ينمو الحبُّ في هدوء وتلقائية بين أحضان الطبيعة ، تظهر مصادفة قدرية أخرى تفرِّق بين المحبَّيْن ؛ إذْ تطالب عمة ڤرجيني بسفرها إلى باريس ، حتى تعلمها وتعوِّضها عن فقد الأب ، وتغيب هناك ثلاث سنوات (طبعاً الزمن لا قيمة له في مثل تلك الروايات العاطفية ، وإنما هو مجرد رقم يوحي بطول مدة الفراق بين المحبين) . وهنا يجد الكاتبُ الفرصة سانحة للتعبير عن تباريح الشوق ، ومكابدات العشق ، كأنه شاعر ينظم قصيدة ، من ذلك ما قاله پول لڤرجيني قبيل السفر : « وماذا أصنع أنا من بعدك أيتها الغادرة القاسية ، إذا ظللتُ أفتِّش عنك في كوخك ومخدعك ، وتحت ظلال الأشجار ، وعلى ضفاف الأنهار ، وفي جميع الأماكن التي أعلم أنك تأوين إليها ؛ لأجلس إليك ساعة ، أتمتَّع فيها بلذة حديثك ، وحلاوة سمرك ، فلا أراك في واحد منها ؟

« ومن لي بمن يستقبلني حينما أعود من المزرعة تَعِباً لاغِباً ، فيبتسم تلك الابتسامة العذبة الجميلة ، التي تذهب بجميع أوجاعي وآلامي ؟ ومن ذا الذي يصحبني في هدوء الليل وسكونه إلى شاطئ البحر ، وقد بسط القَمر أشعته على أمواجه المنبسطة ، وصبغها بلونه الفضيِّ الجميل ، فيجلس بجانبي على رملة من رماله الميثاء ، فيسمعني تلك الأناشيد الساحرة الخالبة التي تستغرق شعوري و وجداني ، وتملك عليَّ مداركي وعواطفي ، ويخيَّل إليَّ حين أسمعها أنها هابطة من الملأ الأعلى ، وأنها نغمات الحور الحسان في فراديس الجنان ؟

« إنني لا أستطيع أن أعيش من بعدك يا ڤرجيني ، ولا أستطيع أن أسألك أن تصحبيني معك في سفرك ، فأنت أجلُّ من ذلك شأناً ، وأعظم خطراً ، ولقد أفضتْ إليَّ أمي اليوم بسر حياتك وسر حياتي ، فعلمتُ أنك فتاة شريفة جدًّا ، وأنني فتى وضيعٌ جدًّا ، لا أصلح أن أكون أخاً لك ، بل لا أصلح أن أكون عشيرك وجليسك . وإنما أسألك أن تأذني لي بركوب السفينة التي تركبينها ؛ لأكون ملاحاً من ملاحيها ، أو خادماً من خدمها ؛ فأراك على البُعد فأجد في رؤيتك راحتي وسلوتي ، وأعدك وعْداً صادقاً لا أغْدر فيه ولا أحنث ، أنني لا أجالسك ، ولا أدنو منك ، ولا أتصل بك بوجه من الوجوه ، إلا إذا عرض لك خطر من الأخطار ، فإنني أبذل لك في تلك الساعة جميع ما تملك يدي ، وما تملك يدي غير حياتي ، فأبذلها لك طيِّب النفس عنْها .» (١)

وهذا الحوار الطويل الذي اكتفينا بهذا الجزء منه ، لا يعكس منطقاً ، ولا يوهم بواقعية ، بل أكثر من هذا إنه على مستوى المضمون ، لا يقدِّم معنى جديداً أو فكرة مفيدة ، وإنما كل ما جاء فيه — أي الحوار — تكرار ورد في الرواية أكثر من مرة ، وفي أكثر من مناسبة . فكل ما جاء هنا لا يقدِّم جديداً على مستوى الدلالة ، وتفاصيل الحدث ، وصياغة الحبكة ، وتبقى الفائدة الوحيدة — لمثل هذا الحوار أو تلك المقطوعات الأدبية — وهي إظهار قدرة الكاتب على التعبير العاطفيِّ والإنشاء المصنوع لإظهار بلاغته الأسلوبية ومهاراته اللغوية .

ولعل أقوى المواقف مبالغة وزيفاً فنيًّا ، في مسيرة الحدث ، هو تلك النهاية المليودرامية والمليوتراجيدية في الوقت نفسه ؛ إذْ تهبُّ الرياح والأعاصير ، فجأة و دون مبرر ، في اللحظة التي

---

(١) الفضيلة ، هذه الطبعة ، ص ١٥٤ .

ظهرتْ فيها السفينة ، التي تحمل ڤرجيني عند العودة ، فكأن لحظة ظهور الأمل هي نفسها لحظة وأده بالنسبة للحبيب المسكين پول ، ويموت الحبيبان بعد صراع عاتٍ وقاسٍ مع القدر ، كأنما ذلك رمزٌ لصراع الفقراء مع قوًى يجهلونها ، لكنها مع هذا لا تأخذها بهم رحمة أو شفقة .

ومعنى هذا ، بعبارة أخرى في مجال تفسير الحدث الروائيّ ، هو أن الفضيلة والعفة والطهارة وغيرها من الفضائل الخيِّرة ، لا تحمي الفقراء والمساكين من القوى الضارية التي تسلبهم حياتهم وأمنهم وحبّهم . ونظراً لأن هؤلاء البؤساء الفقراء ، الذين كان يكتب عنهم المنفلوطي ولهم ، لا يدركون – بسبب قصورٍ في الوعي المعرفيّ – حقيقةَ من يظلمونهم من طغاة السياسة وعتاة الاقتصاد ، لذلك كانوا يظنون أن القدر هو الذي يظلمهم وليس البشر ، وربما كان هذا أحد أسباب نجاح أدب المنفلوطي وانتشاره الواسع ؛ لأنه عرف طبيعة من يكتب إليهم ، فقد كان لا يكتب أدبه للخاصة وإنما : « للفئات الدنيا من الطبقة المتوسِّطة ، التي أصبحت تكوِّن القسم الأكبر من الجمهور القارئ في زمنه . الفئات العليا من الطبقة المتوسطة ، كانت آخذة في التخلّي السريع عن ثقافتها القومية ، واصطناع لغة أجنبية ، في حين أن الطبقات الكادحة من عمال وفلاحين كانت محرومة من التعليم أصلاً . وكانت حياة الطبقة الدنيا مأساة دائمة ، فهم صغار الموظفين في حكومة الاحتلال ، يتجرَّعون كأس الذل يوماً بيوم من يد المستعمر ، وهم صغار الملاك وصغار التجار ، تسلمهم الامتيازات الأجنبية فرائس سهلة للمرابي الأجنبيّ . وكانت صفوف هذه الطبقة تزداد بمن ينضمُّ إليها كل حين من حطام الطبقة المتوسطة العليا ، الذين تسرَّبتْ ثرواتهم بشتّى الطرق إلى أيدي الأجانب . لا جَرَمَ كانت هذه الطبقة تطلبُ في وقت واحدٍ مَنْ يعظها ومَن يبكيها ، من يقول لها إن الحياة الدنيا متاع زائل ، وكل شيء سائر إلى فساد ، وإن الشرفاء ذوي القلوب المخلصة والضمائر النقية ، لم تقسم لهم السعادة في هذه الدار الفانية . وحول هذه المعاني دارت معظم كتابات المنفلوطي [١]. »

ننتهي من كل ما سبق إلى أن بناء الحدث الروائيّ ، كما شكله المنفلوطي في رواية « الفضيلة » وفي غيرها من أعماله القصصية ، الطويلة والقصيرة ، يذكِّر من حيث السذاجة الفنية والبساطة المنطقية ببناء الحدث في « الحكاية الشعبية » ، لا من حيث سهولة التشكيل وعفوية ترتيب الأحداث وتطوُّرها فحسب ، وإنما من حيث التيمات أو العناصر التي تقوم عليها الحكاية الشعبية أيضاً . وهذا ما يتضح من التيمات التي حددها الناقد الروسيُّ فلاديمير بروب في مجال تحليله الشكليّ لبناء الحكاية، أو ما أسماه « مورفولوجيا الحكاية » ، حيث حدَّد عناصر مختلفة يتشكل منها حدث الحكاية ، ويقوم بها أبطالها الخيِّرون والشريرون .

وعند مقارنة روايات المنفلوطي بهذه العناصر ؛ نجد أن الكثير منها يتطابق مع التيمات التي حددها بروب لبناء الحكاية الشعبية ، ومع وظائف تلك التيمات المختلفة [٢] .

ملامح الشخصيّة

« يرتبط الحدث بالشخصية في الأعمال القصصية ارتباط العلة بالمعلول ، وعلى هذا فإن الرواية =

(١) شكري عياد : تطور فن القصة القصيرة ، ص ١١٤

(٢) لمزيد من التفصيل في هذا المجال يُراجع : فلاديمير بروب : مورفولوجيا الحكاية الخرافية ، ترجمة وتقديم أبو بكر باقادر و أحمد نصر . طبعة النادي الثقافي بجدة ، ١٩٨٩ . ص ٩٢ وما بعدها .

فعل (حدث) + فاعل (شخصية) . الحدث إذاً شيء هلاميٌّ إلى أن تشكله الشخصية – بحسب حركتها – نحو مسار محدد ، يهدف إليه الكاتب [١] .»

وقد شرحنا – من قبل – الطريقة التي يحرك بها المنفلوطي الحدث ، وبقي أن نتعرّف على الكيفيّة التي يصوِّر بها ملامح الشخصية ؛ فمن المعروف أن الكاتب الجيِّد هو الذي يستطيع أن يخلق شخصيات مُقنِعة فنيًّا ، والإقناع الفنيُّ يمكن قياسه بناء على أن الشخصية تعكس سمات « نموذج » بشري مشابه لها في عالم الحقيقة . إن الخيال الفنيّ مهما حلّق ، فإنه ضد الوهم والخرافة ، ومن هنا فإنه ليس هناك خيال فنيّ بلا منطق أو حدّ ، وهو كما يعرِّفه « كولردج » : « تلك القوة التركيبية السحرية ، التي أفردنا لها لفظة الخيال ، تكشف لنا عن ذاتها في خلق التوازن أو التوفيق بين الصفات المتضادة أو المتعارضة ، بين الإحساس بالجدة والرؤية المباشرة والموضوعات القديمة المألوفة ، بين حالة غير عادية من الانفعال ودرجة عالية من النظام ، بين الحكم المتيقّظ أبداً وضبط النفس المتواصل والانفعال العميق [٢] .»

والشخصية الروائية عند المنفلوطي ، مهما اختلف النموذج الإنساني الذي تمثّله : غنًى أو فقراً ، كبراً في السنّ أو صغراً ، رجلاً كان أو امرأة ، شاعراً أو محارباً ، خيِّراً كان أو شريراً – (وبالمناسبة فإننا نلاحظ أنَّ الشخصيات الشريرة قليلة جدًّا في روايات المنفلوطي ، لسبب بسيط هو أن القدر وحده – في الغالب – عدوُّ البشر) – فإنها جميعاً تشترك في سمة واحدة ، هي (السلبية) الشّديدة في التصرُّف إزاء الأحداث ، بل إن هذه السلبية تبدو سلبية مطلقة ، فلا تستطيع أن تحارب شرًّا ، أو تحقق خيراً . إنها شخصيات خيِّرة ، طيبة ، مؤمنة ، متطهرة ، ومع ذلك ينتظرها مصير قاتم شديد القسوة .

وهذه الشخصيات – في الغالب – يشلُّ من حركتها « عيْبٌ » جسديٌّ أو أخلاقيٌّ ليست مسئولة عنه . فسيرانو دي برجراك في « الشاعر » كامل في كل شيء إلا قبح الوجه وكبر الأنف ، وپول في « الفضيلة » لا يعرف لنفسه أباً ولا أصلاً ، وقسطنطين في « في سبيل التاج » تموت أمه فتحاربه زوجة أبيه ، واستيفن في « ماجدولين » يملك الكثير من الصفات الحميدة مثل الرغبة في العمل والكفاح والاعتقاد بأن السعادة ليست في الجاه أو الثروة ، لكنه فقير .

إن أبطال روايات المنفلوطي يذكروننا ببطل المسرح اليونانيِّ القديم ، حيث يحمل البطل عَيْباً لا ذنب له فيه ، ورغم هذا يكون ذلك العَيْب سبب سقوطه المدمِّر .

وقد ترتب على هذا العجز وعدم القدرة على المواجهة والسلبية إزاء الأحداث بالنسبة لمكوّنات الشخصية ، أن الكاتب لم يكد يهتم بتحديد الوصف الجسديّ أو الشكل الماديّ أو العمر الزمنيّ لها أو وصف ملابسها أو لحظة تناولها الطعام أو الشراب . ولا نجد مع توالي الأحداث أننا نكتشفُ بُعْداً جديداً يحدد بعض ملامح الشخصية ، بدرجة نستطيع معها القول إن شخصيّات المنفلوطي « أبطال » من حيث المساحة التي يحتلونها في عالم الرواية ، لكنهم ظلوا مع ذلك شخصيات « مسطحة » فنياً ، أي أنه شُغل بالكم عن الكَيْف .

(١) طه وادي : دراسات في نقد الرواية ، ص ٣١ .

(٢) رتشاردز ، أ . أ . : مبادئ النقد الأدبي ، ترجمة وتقديم مصطفى بدوي ، مراجعة لويس عوض . القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، ١٩٦٣ . ص ٣١٢ .

وفي الحقيقة لم يهتم بأكثر من بيان دورها خلال مسيرة الحدث ، ومعنى هذا أنه لم يستطع أن يقدّم الشخصية ، بحيث تكون ناضجة فنيًا ، بطريقة تساعد القارئ على تمثُّل هيئتها المادية ومكوناتها النفسية ؛ فالمنفلوطي لم يُعنَ إلا بالوصف الإنشائيّ لما تقوم به الشخصية أو تفعله ، أما تحديد ملامحها فهذا شيء لم يحاوله ولم يخطر له على بال . ونحن إذْ نطلب منه ذلك ، فإننا نريد منه شيئًا فوق طاقته الفنية ، بل وطاقة بعض كتّاب الرواية الحقيقيين في عصره أمثال محمد حسين هيكل وإبراهيم عبد القادر المازني وجُرجي زيدان .

ومن أمثلة التقديم المسطح للشخصية ما قاله في وصف مدام دي لاتور ، أم ڤرجيني : « وهي فتاة نبيلة ، جميلة الصورة ، كريمة الخلق ، طيبة العنصر [١] .» ويقول مرة أخرى في معرض تقديم شخصية مرغريت ، أم پول : « امرأة صالحة ، كريمة ، رقيقة الحال [٢] .»

ويقول في وصف ڤرجيني : « طفلة جميلة كأنها النجم اللامع في سطوعه وإشراقه [٣] .»

كذلك يصوِّر پول بقوله : « وكان پول وهو في الثالثة عشرة من عمره ، كأنه في الخامسة عشرة قوة ونشاطًا وهمة وعزيمة وذكاء وفطنة ، فكان لا يملُّ العمل نهاره ولا ليله [٤] .»

وبالطبع فإن هذه العبارات الإنشائية الفَضْفاضة ، لا تساعد على تمثُّل صفات الشخصية أو معرفة ما يريد الكاتب أن يقوله عنْها بالضبط ، وهذا القصور في رسم ملامح الشخصية أمر تتساوى فيه صورة المرأة وصورة الرجل . ونخرج من كلتا الصورتَيْن بانطباع واحد ، هو أنه يقدِّم الشخصية بطريقة تذكِّرنا بطريقة راوي أوْ مؤلف الحكاية الشعبية ، الذي لا يقدِّم وصْفًا مفصَّلاً لشخصياته بقدر ما يقدم جُمَلاً إنشائية عامة ، تقرِّب السامع إليها أو تنفِّره منها .

ونحسُّ من صورة المرأة – ربما أكثر من صورة الرجل – أنها قريبة جدًا من رُوح الحكاية الشعبية ؛ لأن معظم النساء عند المنفلوطي جميلات بطريقة تذكرنا بـ « ستّ الحُسن والجمال » ، كما أنها تجمع بين الجمال المادّيِّ والكمال الأخلاقيِّ – في أغلب الأحيان – يؤكد هذا أن ڤرجيني بطلة رواية « الفضيلة » آثرتِ الموت غرقًا على أن تترك يد رجل غريب تلامس جسدها (هكذا كأنما الشخصية واعية عنْد الغرق ، على حين هي في اللحظات العادية ، في الرواية تكون مغيَّبة ، أو مثل الشاة الوديعة !) وسوف نقدم وصفًا لهذا المشهد بأسلوب المنفلوطي :

« وما هي إلا لحظات حتى خلا سطح السفينة من كل شيء إلا من ڤرجيني ، واقفة في مؤخرتها، تنتظر قضاء الله فيها ، ورجل بحّار واقفًا في مقدمتها قد خلع ملابسه ، ثم لمح ڤرجيني واقفة موقفها هذا ، فأبى له كرمه و وفاؤه إلا أن يمدَّ لها يد المعونة لينقذها ، فمشى إليها ، وجثا بَيْنَ يدَيْها ، وطلب منها أن تخلع ثوبها ؛ ليحملها على ظهره ، ويسبح بها .

« أ تدري ماذا كان بعد ذلك ؟

« كان أنْ غلب الحياءُ على الفتاة ، حينما رأتْ رجلاً عاريًا بين يديها ، يريد أن يضمَّها عارية إلى جسمه ، فأشاحتْ بوجهها عنه ، وأشارتْ برأسها أنْ لا . فصاح الناس (الواقفون على الشاطئ على

(١) الفضيلة ، هذه الطبعة ، ص ١١٥ . (٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١١٩ . (٤) المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

بُعد كيلو متر على الأقل ، والعواصف شديدة ، بالطبع في البحر فقط ؛ لأن الذين على البرِّ لا يبدو أنهم يحسّون بها) من كل جانب : « أنقذها ! أنقذها !» فوثب الرجل قائماً على قدميه ، ومدَّ يده إلى ثوبها ليجرِّدها منه .

« وهنا ، وا أسفاه (لاحِظْ صوت الراوي) أقبلتْ موجةٌ عظيمة كالجبل الأشمّ ، (لاحِظِ التشبيه المحفوظ) تندفع نحو السفينة اندفاع القضاء النازل ، وتزمجر في اندفاعها زمجرة الليث الهصور ، (لاحظ العبارات المسكوكة) فذعر البحّار إذْ رآها ، وطاش عقله ، وما لبث أن قفز من مكانه ، وألقى بنفسه في الماء .

« أما ڤرجيني فلم تخفْ ولم تطش ، بل لبثتْ في مكانها كما هي ، وقد علمتْ أن الساعة آتية لا رَيْبَ فيها (لاحظ الاقتباس من القرآن) فضمّت قميصها إلى جسمها بيد ، و وضعتْ يدها الأخرى على قلبها ، وسبحتْ بنظرها في الفضاء ، فأصبح منظرها منظر مَلَكٍ كريم ، يطير بجناحَيْه في جوِّ السماء .» (١)

هكذا نستطيع القول : إن المنفلوطي قد استخدم في تصوير ملامح الشخصية نفس الأدوات الفنية البسيطة ، التي استعان بها في رسم مسيرة الحدث ، وطريقة المنفلوطي في تقديم كلا العُنْصُرَيْن (الحدث والشخصية) تذكّرنا بسمات التشكيل التلقائيِّ البسيط للقصِّ في الحكاية الشعبية ، ومعنى ذلك أن المنفلوطي روائيًّا قد خرج من عباءة التراث ، ولا سيما التراث الشعبيُّ ، وعلى هذا أيضاً فإن الجمهور حين أقبل على قصصه ورواياته ، فإنما كان يتذوّق إحياءً جديداً مُصفى لإبداع قديم أصيل ، عاش في وجدانه ، ولا يزال مسيطراً عليه . لقد وظّف المنفلوطي الطريقة المألوفة لذوق الجمهور العربيِّ في الحكي الشعبيِّ ، لكنه قدّم في هذا الشكل القوميِّ الشعبيِّ مضامين جديدة ؛ أي أنه جمع بين الأصالة والمعاصرة في القصِّ في آن واحد ، وهذا سبب آخر من أسباب إقبال القراء عليه . فإذا أضفْنا إلى هذا أن الموضوعات التي كتب فيها ، كانت مثارة بقوة في عصره ، مثل : الموقف من الحضارة الغربية ، ومشاكل التعليم والعمل ، والمرأة بين التحرر والمحافظة ، ومحاربة الاستعمار أو مهادنته ، و الصراع بين الغنى والفقر ، وعلاقة الفقر بالشرف والأمانة والغنى والجاه بالانتهازية وعدم الالتزام بالأخلاق ، وضياع الفقراء في الحياة ، ومعنى السعادة والتكافل الاجتماعيِّ – فإن هذا يضيف عاملاً آخر من عوامل إقبال القراء على كتابات المنفلوطي .

ولا شك أن موضوعات المنفلوطي ، ورأيه المنحاز إلى موقف المحافظة و صفّ الفقراء ، يعد عاملاً آخر ساعد على انتشار أدبه .

القصُّ بطريقة المقالة

حين نتأمل رواية « الفضيلة » ، أو غيرها من الروايات ، نجد أن كاتبنا قد وظّف طريقة معينة في « القصِّ » وتشكيل عالم الرواية ؛ ذلك أنه كتب الرواية بطريقة تحرير المقالة ؛ فقد قسم الرواية إلى فصول ، تأخذ رقماً حسابيًّا ، ثم أتبع ذلك الرقم بعنوان ، أي أن الرواية تتكون من الأرقام والعناوين التالية ، على سبيل المثال :

---

(١) الفضيلة ، هذه الطبعة ، ص ١٧٦ .

(١) جزيرة موريس (٢) الشيخ

(٣) مدام دي لاتور (٤) مرغريت

(٥) الحياة الطبيعية (٦) حياة الطفولة ... إلخ

ومعنى هذا أن المنفلوطي لم يستطع أن يُفلت من صفته الأساسية ، وهي أنه كاتب مقال بالدرجة الأولى . وقد اعتمد على هذه الطريقة ذاتها في كتابة الرواية ، حيث قسَّمها إلى عدة فصول أو مقالات محدودة الطول إلى حد كبير ؛ بل إن بعضها لا يتجاوز صفحتَيْن ، وإن طال فلا يزيد على عشر صفحات ، ومعنى هذا أن حجم كل فصل يكاد لا يتجاوز حجم المقال المألوف عنده .

ولا ريب في أن هذه الطريقة كانت تساعد الكاتب على أن يجوِّد عباراته اللغوية ، ويحسِّن جمله الإنشائية ، لأن الأسلوب اللغويَّ يعدُّ أولى السمات الأدبية التي غزا بها تراثُ المنفلوطي وجدانَ جمهوره ؛ لأنه دخل إليهم من باب التعبير البلاغيِّ ، الذي يعتمد على كل ما هو مألوف ومعروف في أساليب النثر العربيِّ القديم .

وتدل هذه الطريقة – طريقة كتابة الرواية بتكنيك المقال – على أن المنفلوطي لم يكد يغيِّر منهجه في الكتابة ، وطريقته في التعبير البيانيِّ ، الذي يتلاءم مع معظم نماذج النثر الأدبيِّ في إطار مدرسة الإحياء .

وإذا كان المنفلوطي قد دخل تاريخ الأدب الحديث من باب المقالة الأدبية فقد ظل عليه عاكفاً ؛ لذلك فهو يكتب القصة والرواية بتكنيك المقالة ، كما أنه – أحياناً – يمزج طريقة كتابة المقال ببعض أدوات القصِّ ، وهذا ما يؤكد وحدة الملكة الأسلوبية عند الأديب الواحد مهما تعددت الأنواع التي يكتب فيها . أ لسنا على حقٍّ إذاً حين نقرر أن المنفلوطي لم يكد يغيِّر خطته في الكتابة ، أو طريقته في التشكيل ، أو أسلوبه في التعبير منذ البدء حتى الختام ؟ وهذا أمر منطقيٌّ لأن الأديب شخصية واحدة ، و من هنا يظل المقلَّد مقلداً ، والمجدِّد مجدداً من البداية إلى النهاية . وأسلوب المنفلوطي في الكتابة قريب من أسلوب : حسن العطار ، ورفاعة الطهطاوي ، وعبد الله فكري ، وعلي فهمي رفاعة ، وعبد الله النديم ، ومحمد عبده ، وعلي يوسف ، وسعد زغلول ، ومحمد المويلحي وغيرهم .

* * *

٧- موقع المنفلوطي على خارطة الأدب الحديث

حين نحاول أن نقوِّم دور إنسانٍ ما في تاريخ الأدب ، يجب أن نفرِّق بين نوعَيْن من الأدباء :

أ- أديب ساعده الجاه والمنصب والدور العام في المجتمع على أن ينتشر أدبه ويُذاع ، ويطبع وينشر، لكنَّ مكانة الرجل مع هذا لم تستطع – ألبتة – أن تعطي لأدبه قيمة أو تمنح أعماله خلوداً . ومعنى هذا أن المرء مهما أوتي من نفوذ أو جاه أو ثروة أو شهرة لا يستطيع بمنصبه أو شهرته أن يهب أدبه قيمة ليستْ فيه .

ب- أدباء لم يملكوا إلّا قلماً به يكتبون ، ولم نكن لهم مكانة مرموقة ، أو وظيفة خطيرة ؛ بل إن بعضهم كان يعيش على هبات يعطيها لهم بعض ذوي الفضل لكنهم رغم الفقر الماديّ والتواضع الاجتماعيّ كانوا أدباء كباراً ، واستطاعوا - بقوة الملكة وسلطان الموهبة - أن يفرضوا وجودهم الفنيّ وخلودهم الأدبيّ .

وإلى هذه الفئة الأخيرة من الأدباء والفنانين ينتمي أديبنا المنفلوطي ، الذي لم يكمل تعليمه في الأزهر ، وبدأ يعرف كاتباً قبل أن يبسط سعد زغلول حمايته عليه وصحبته له في أي ديوان عمل به . والوظيفة التي كفلها له سعد كانت وظيفة مُحَرِّرٍ ، أو بالمعنى المألوف حالياً « سكرتير » .

وعلاقة المنفلوطي بسعد زغلول ، الذي عينه محرراً للقسم العربيّ ، في وزارة المعارف و وزارة الحقانية و مجلس النواب ، تذكِّرنا بوظيفة « كاتب ديوان الإنشاء » ، تلك الوظيفة التقليدية التي أنشئت منذ القرن الأول الهجريّ ، وأهم مَنْ عمل بها حينذاك عبد الحميد الكاتب . وقد شغلها بعد ذلك بعض أدباء كبار مثل سهل بن هارون و ابن العميد والصاحب بن عباد والقاضي الفاضل وبديع الزمان الهمذاني وعبد الله فكري ، ولم يكن مطلوباً لهذه الوظيفة من مؤهِّل سوى حُسن صياغة العبارة وجمال الأسلوب ؛ ولعل هذا ما ساعد على ظهور الصنعة الأدبية في النثر العربيّ .

حلقة الوصل

من هنا نبدأ ونريد أن نقول : إن المنفلوطي صاحب أسلوب أدبيّ متميِّز ، له سمات واحدة ، أو متقاربة على الأقل ، يكتب به المقال والقصة والرواية المترجمة والشعر ، بطريقة تذكِّرك بكثير من خصائص النثر العربيّ في القديم وفي الحديث - أعني في إطار « مدرسة الإحياء » التي ينتمي إليها كاتبنا ، ومن أهمها :

العناية باللغة على مستوى المفردات المتداولة لأن فصاحة اللغة مطلب جمالي في حدّ ذاته ، وقِصَر الجملة ، حتى تؤثِّر القيمة الموسيقية للسجع ، مع الحرص على بعض المحسنات البديعية ولا سيما الترادف والطباق والمقابلة والجناس والتورية ، كذلك يحرص الكاتبُ على أنْ يستخدم بعض الصور البيانية مثل التشبيه والاستعارة والكناية . وتحسُّ وأنت تقرأ كثيراً من هذه الصور البيانية أنها مقتبسة من التراث الدينيّ أو الأدبيّ ، أو على الأقل مُشكّلة على نفس النسق اللغويّ ، الذي كانت تتشكل به هذه العناصر التخييلية .

ومما حرص عليه - أيضاً - كُتّاب النثر العربيّ ، « التّناصُ » أي اقتباس نصُوص من سياق آخر والاستشهاد بها ، وهو معروف في البلاغة القديمة باسم « التضمين » ومعناه أن يُضمَّن النصُّ بآية قرآنية ، أو حديثٍ نبوي أو بيت شعر ، أو مَثَل من الأمثال ، أو قول من الأقوال المأثورة .

وإذا كان هذا هو ما أخذه الكُتّاب من علمي البيان والبديع ، فإنهم قد أخذوا من علم « المعاني » خاصيّة هامة ، وهي التعدد في نوعية الجُمَل بين الخبر والإنشاء ، والجُمَل ذات المعنى الحقيقيّ والمعنى المجازيّ .

وهذا معناه - ببساطة شديدة - أن معظم كُتّاب النثر في التراث العربيّ كانوا أسرى لعناصر علوم البلاغة . وفي الحقيقة ليستْ هناك تراكيب أدبية دونَ توظيف جيِّد لموضوعات البلاغة ، لكنّ هناك

فرقًا شاسعًا بين أن تقدم هذه السمات ببساطة وتلقائية ، وأن ترد بكثرة وتعمد ؛ ولعل هذا هو ما حوّل الصنعة الأدبية التي كانت تقوم على السهل الممتنع إلى تصنُّع متكلّف يزهق دلالة المعنى . ويؤكد هذا الرأي أستاذنا شوقي ضيف حين يقول :

« إن التنافس بين الكُتّاب ، والحرصَ على وظيفة كاتب الديوان ، دفع الكُتّاب إلى أن يصلوا بنثرهم إلى مرتبة تكاد ترفع الحواجز بينه وبين الشعر ، فهو نثر منظوم أو هو شعر منثور . وماذا يفصل بينه وبين الشعر ؟ إنه يعتمد على الموسيقى – موسيقى السجع ، كما يعتمد على زخرف البديع ، وإنهم ليبالغون في ذلك ، حتى تتحوّل رسائلهم إلى ما يشبه الوشي الخالص ، فهي حُلى وتنميق وبديع وترصيع .

« وإن الإنسان ليخيَّل إليه كأنما تحوَّلتْ صناعة النثر في تلك العصور عن طبيعتها الأولى تحوُّلاً تامًّا ؛ إذْ أصبحتْ أشبه ما تكون بصناعة أدوات الترف والزينة ، فهي تُحَفٌ تُنمَّق في أروع صورة للتنميق ، وكل كاتب يتوفر على إحداث هذه التُّحف توفُّرًا يتيح له أن يشارك في آياتها وبدائعها ... »[1]

بهذا الأسلوب الإنشائي الفصيح المزخرف كان المنفلوطي يكتب مقالاته ورواياته ، ومؤلفاته وترجماته ، ومن خلال هذه العلاقة الأسلوبية التراثية غزا المنفلوطي وجدان قُرّائه ، ودخل قلب جمهوره .

إن المنفلوطي – رغم بعض دعواته إلى إصلاح المجتمع وتجديد الأدب – لم يكد يستطيع أن يخرج من إطار فلسفة الإحياء في الفكر والفن ؛ لذلك فهو كاتب محافظ يجنح إلى التقليد والمحاكاة لتراث العصور الذهبية في الكتابة الأدبية .

وعلى هذا فإنه يعدُّ حلقة الوصل بين الكلاسيكية الحديثة ، التي تُعنى بالصياغة اللفظية والزخرفة الإنشائية ، مع الحرص على نقاء المفردة اللغوية وبُعدها نسبياً عن لغة الحياة ولغة الصحافة (وهذا ما جعله يشرح بعض المفردات في الهامش في بعض كتبه) مع محاكاة كل خصائص الصنعة الأسلوبية والمدرسة الرومانسية ، التي تحاول إحداث ثورة تنادي بضرورة أن تكون اللغة وسيلة تعبير ليس إلا ، وأن يكون الأدب مجالاً للتعبير عن العواطف الإنسانية ، وأن يبتعد عن التقليد والمحاكاة .

وكون المنفلوطي حلقة وصل بين مدرسة الإحياء المحافظة ، ومدرسة التجديد الرومانسيّ الثائرة ، جعل جمهور الإحياء يفضلونه على كل من عاداه ، ويرون فيه كاتبهم الأول ، كما جعل كثيراً من جمهور الرومانسية لا يرفضونه ، وإنما يتعاملون مع أدبه بقدر كبير من السماحة والمصالحة . ولا نبالغ إذْ نقول إنه – رغم إحيائيَّته – كان أقوى صوت بَشَّر بالرومانسية في مجال النثر ، وجعل قراء الأدب يتقبّلونها قبولاً حسنًا .

ومعنى هذا من جانب آخر أن المنفلوطي المحافظ نال شهرته الأدبية في عصر سيادة الرومانسية . أكثر من هذا أنه كان منتشراً بدرجة أكبر كثيراً من كل كتّاب الرومانسية في عصره ، أمثال محمد حسين هيكل وإبراهيم عبد القادر المازني وعباس محمود العقاد ، وغيرهم .

(١) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي . ط١٠ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧ . ص ٢٢٧ .

وكما أسَّس المنفلوطي الكاتب المحافظ شهرته في عصر الرومانسية ، كذلك كان الأمر بالنسبة لأحمد شوقي الشاعر ، الذي حصل شهرة لم يحصلها كل شعراء الرومانسية في عصره ، أمثال عبد الرحمن شكري وعباس العقاد وإبراهيم المازني وخليل مطران وغيرهم ، وأكثر من هذا أنه نال إمارة الشعر العربي سنة ١٩٢٧ في أثناء فورة المدِّ الرومانسيّ .

أ ليس هذان المثالان : المنفلوطي وشوقي كافيَيْن لأن نقول : « إن الموهبة الفنية للأديب تمنحه خلوداً ، يتجاوز إطار المدرسة التي ينتمي إليها والعصر الذي يعيش فيه » ؟!

بناء على كل ما سبق ننتهي إلى أن المنفلوطي يعدُّ رائداً من روّاد تجديد النثر ، من خلال تطوير أسلوب المقال الأدبيّ ، وما قدّمه في هذا المجال يعدُّ - بالإضافة إلى ما أنجزه إبراهيم عبد القادر المازني وطه حسين - الحلقةَ الأخيرة في تاريخ النثر الفنيّ في الأدب العربيّ . كما أنه أسهم بما عرَّب من روايات نالتْ شهرة واسعة ، وأثَّرت على كثير من الأدباء العرب والمسلمين [1] في تثبيت جذور فن الرواية الحديثة في بيئة محافظة ، ومنحه نوعاً من شرعيَّة الوجود ، لأنه قدَّمَ هذا الفن الجديد الذي لم يكن مُعترَفاً به بشكل صريح ، وخاصة من قادة التيّار السلفي وجمهوره الواسع العريض ، برؤية أخلاقية محافظة ، وأسلوب لغويٍّ بليغ .

وإذا كان المنفلوطي في كل ما كتب من مقالات وقصص وروايات ، يدعو إلى التمسك بالفضائل الأخلاقية والقيم النبيلة ، وفي مقدمتها الحبُّ العذريُّ فإن ذلك يعكس نوعاً من الاحتجاج العاطفيّ على ما شاع في المجتمع من فساد ومشكلات ؛ لأن الدعوة إلى الفضيلة ، والبحث عن ملاذ روحيّ ، ونشدان الحب الأفلاطونيّ ، تمثل رغبة غير صريحة فى السُّخْط على ما ظهر في المجتمع من أزمات ، سواء بسبب الحضارة الغربية الغازية أو القوى الحاكمة غير العادلة ، كما تمثل أملاً في الرُّقيّ بالمجتمع ، حتى يحقق السعادة لأكبر عدد من الناس ؛ لأن البحث عن الفضيلة والحب في واقع لا يجود بهما ، أمرٌ يعكس في جوهره رغبة الأديب في الوصول بمجتمعه إلى عالم أفضل ، يحقق الإيمان بالمُثل والعدالة والرحمة والمحبة والسعادة لأبناء المجتمع ، الذين يكتب عنهم ولهم . وهذا جوهر ما حاول أن يصوِّره المنفلوطي ، ويدعو إليه ، وهذا أيضاً سرُّ خلود تراثه الأدبيّ حتى اليوم .

الدقي ، الجيزة - نوفمبر ١٩٩٠

طه وادي
أستاذ الأدب العربي الحديث
كلية الآداب - جامعة القاهرة

(١) أدب المنفلوطي أثَّر في أدب الكاتب الإندونيسيّ الحاج عبد المالك بن الحاج عبد الكريم أمر الله المعروف بحامكا . حسين محمد أبو بكر : أدب المنفلوطي وأثره في أدب حامكا . رسالة ماجستير ، قُدِّمت إلى كلية الآداب - جامعة القاهرة ، سنة ١٩٨٢ - إشراف الأستاذ الدكتور طه وادي .

ملاحق خاصة بدراسة المنفلوطي وأدبه

١- تواريخ هامة في أدب المنفلوطي

١٨٩٧ * بدأ المنفلوطي ينشر بعض مقالاته الأدبية في بعض الصحف ، ولا سيما « الصاعقة » و « المؤيد » . وبدأت شهرته تتأكد من خلال مقالاته التي يدعو فيها إلى الإصلاح بأسلوب أدبيّ يجمع بين حُسن الصَّنعة وتلقائية الموهبة . ولا ريب في أن أسلوب المنفلوطي السهل الممتنع ، تأليفاً وترجمةً ، هو الذي أعطاه بعض ما يحمل من شهرة أدبية واسعة على امتداد الوطن العربي كله، منذ ظهوره إلى اليوم .

١٩١٠ * صَدَرَ الجزء الأول من « النظرات » ، وهو مجموعة مختارة من مقالاته الأولى المنشورة في الصحف المصرية .

١٩١٢ * صدر كتاب « مختارات المنفلوطي » ، وهو عبارة عن بعض نماذج أدبية مُختارة ؛ لتكون مساعدة على تثقيف طلاب المدارس وهواة القراءة الأدبية .

١٩١٢ * صدر الجزء الثاني من « النظرات » ، وهو يتكون من مجموعة أُخرى من المقالات في موضوعات متنوعة .

١٩١٣ * أعيد طبع الجزء الأول من « النظرات » بعد أن نفدت الطبعة الأولى .

١٩١٥ * ظهرت الطبعة الأولى لكتاب « العبرات » ، وهو يشتمل على مجموعة من القصص الموضوعة (المؤلفة) والمترجمة (المعرَّبة) ، وهي تهدف إلى بيان بعض مبادئ دعوته إلى الإصلاح الاجتماعي والتهذيب الأخلاقي .

١٩١٧ * صدرت الطبعة الأولى من رواية « ماجدولين » أو « تحت ظلال الزيزفون » تأليف الكاتب الفرنسي « ألفونس كار » ، وقد ترجمها محمد فؤاد كمال ، صديق المنفلوطي .

١٩٢٠ * صدرت الطبعة الأولى من رواية « في سبيل التاج » ، وهي في الأصل مسرحية للأديب الفرنسي « فرانسوا كوبيه » وقد ترجمها له حسن الشريف .

١٩٢١ * ظهرت الطبعة الأولى من رواية « الشاعر » أو « سيرانو دي برجراك » ، وهذه الرواية ألفها الأديب الفرنسي « إدمون روستان » ، وهي في الأصل مسرحية ترجمها محمد عبد السلام الجندي ، ثم أخذها المنفلوطي وعرَّبها بطريقته وجعلها رواية .

١٩٢١ * طبع الجزء الثالث من « النظرات » ، وقد صودر الكتاب ؛ لأنه كان يشتمل على بعض المقالات السياسية ، المؤيدة لسعد زغلول ، والمدافعة عنه

في أثناء فترة نفيه خارج الوطن إلى « مالطة » .

١٩٢٣ * صدرت الطبعة الأولى من رواية « الفضيلة » أو « پول و ڤرجيني » ، وقد ألفها الكاتب الفرنسي « برناردين دي سان پيير » ، وقد اعتمد المنفلوطي في تعريبها على ترجمة محمد عثمان جلال لها بعنوان « الأماني والمنّة في حديث قبول و ورد جنة » سنة ١٨٧٢ ، وترجمة فرح أنطون لها بعنوان : «بولس وڤرجيني»، وهي آخر عمل أدبي كتبه المنفلوطي قُبَيْلَ وفاته .

* * *

٢- تواريخ هامة في حياة المنفلوطي (١٨٧٦-١٩٢٤)

الاسم : السيد مصطفى بن محمد بن حسن بن محمد بن لطفي المنفلوطي . وقد أضيف إلى اسمه لقب « السيد » لكونه من « الأشراف » الذين ينتهي نسبهم إلى « الحسين ابن علي بن أبي طالب » (رضي الله عنهما) كما يضاف إلى اسمه أيضاً لقب « المنفلوطي » نسبة إلى مسقط رأسه ، وهو مدينة « منفلوط » - محافظة أسيوط .

والده : السيد محمد بن محمد لطفي ، قاضي « منفلوط » ، وأحد أعيانها ، وهو من أسرة توارث أبناؤها منصب القضاء ونقابة « الأشراف » وريادة الصوفية .

والدته : السيدة « هانم علي حسين الشوربجي » وهي من عائلة تركية تمصّرت . وقد طُلّقتْ من أبيه وتزوجت رجلاً غيره ، وربما كان لذلك تأثيرات قوية على نفسه وأدبه.

مولده : ٣٠ ديسمبر ١٨٧٦ / ١٠ من ذي الحجة ١٢٩٣ هـ.

التعليم : تلقى تعليمه الأوّليّ وحفظ القرآن الكريم في مكتب الشيخ جلال الدين السيوطي ، وفي سنة ١٨٨٧ بعث به أبوه إلى الأزهر في القاهرة ، وقد مكث فيه عشر سنوات ١٨٨٨-١٨٩٨ يدرس علوم الدين واللغة ، لكنه لم يُكمل دراسته في الأزهر ، حيث ضاق بعلومه الجافة وتعليمه التقليدي ، فكان يترك ذلك إلى قراءة بعض كتب الأدب وحفظ بعض قصائد الشعر . وفي مقدمة « النظرات » (جـ١) قائمة بأسماء من كان يقرأ لهم ، ويعجب بهم من الأدباء والشعراء ، وهذا ما ساعده على كتابة الشعر وهو في السادسة عشرة . ومن قراءاته الأدبية المبكرة :

« العقد الفريد » لابن عبد ربه - « الأغاني » للأصفهاني - « زهر الآداب » للحصري - « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » للجرجاني . كما قرأ لعبد الحميد الكاتب وابن المقفع وابن خلدون وابن الأثير والآمدي .

ومن الشعر قرأ دواوين : المتنبي والبحتري وأبي تمام والشريف الرضي وغيرهم .

علاقته بمحمد عبده : التقى المنفلوطي أستاذَه سنة ١٨٩٥ تقريباً ، ويبدو أنه قد تعرَّف به من خلال تدريس علوم البلاغة ، ولا سيما كتب عبد القاهر الجرجاني . وقد نقل تلمذته له من الأزهر إلى بيت الإمام ومجالسه ، ولازمه ملازمة الابن للأب والمريد للقطب ، وتتلمذ عليه تلمذة مباشرة وشاملة ، بطريقة شكلت بعض ميوله الأدبية وفكره السياسي ونهجه الإصلاحي . وقد تعرَّف عن طريقه بسعد زغلول والشيخ علي يوسف وغيرهما من رجال السياسة والصحافة والأدب . وكان هؤلاء الثلاثة : محمد عبده و سعد زغلول و علي يوسف من أهم الشخصيات التي أثرت في تكوين شخصية المنفلوطي الإنسان والأديب والموظف .

السجن (نوفمبر ١٨٩٧) : سجن المنفلوطي مدة سنة أو ستة شهور بعد التخفيف ، على إثر تأليف قصيدة في هجاء الخديو عباس حلمي عند عودته من تركيا سنة ١٨٩٧ ، ويبدو أن السيد محمد توفيق البكري والصحفي أحمد فؤاد قد شجعاه على نظم القصيدة ، ومطلعها :

قــدومٌ ولكــنْ لا أقــولُ سعيـــــدُ ومُلكٌ – وإنْ طال المدى – سيبيدُ

رحلتَ و وجهُ الناس بالبشر باسمٌ وعدتَ وحزنٌ في القلوب شديـدُ

١٩٠٥ : عاد إلى بلده حزيناً بعد وفاة أستاذه الإمام في هذه السنة ، وكان في منفلوط يقرأ ويقيم ندوات أدبية في بيته ، ويراسل بعض الجرائد ، ومن أهمها جريدة « الصاعقة » سنة ١٩٠٦ وجريدة « المؤيد » سنة ١٩٠٧ . ولكن « المؤيد » كانت الجريدة التي نشر فيها معظم مقالاته في هذه المرحلة ، ومن خلالها بدأ يبرز اسمه الأدبي ؛ لأنه كان ينشر شعره ونثره في الصحف منذ سنة ١٨٩٦ تقريباً .

أكتوبر ١٩٠٨ : عاد إلى القاهرة ، وأخذ يواصل كتاباته الأدبية في الصحف .

١٩٠٩ : عيَّنه سعد زغلول ناظر (وزير) المعارف آنذاك في وظيفة « المحرر العربي » للوزارة ، وقد ساعده على ذلك إعجاب سعد به ، حيث تعرف عليه في مجالس الإمام ، كما أن شهرة المنفلوطي الأدبية كانت قد تأكدت لدى الجمهور منذ وقتٍ مبكِّر .

١٩١٠ : انتقل سعد زغلول ناظراً للحقّانية (العدل) فأوجد له وظيفة جديدة فيها هي « المحرر العربي » ونقله معه إليها .

١٩١٣ : انتخب سعد زغلول وكيلاً للجمعية التشريعية فأخذه معه ضمن « قلم السكرتارية » إلى أن أغلقت الجمعية بسبب قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) ولكنه ظل موظفاً بالحكومة إلى سنة ١٩٢١ ، حيث كتب مجموعة من المقالات الوطنية نشرها في « النظرات » ، يدافع فيها عن سعد زغلول في أثناء نفيه ، وهذا ما جعل عبد الخالق ثروت يصادر الكتاب ويفصل صاحبه من الوظيفة في قلم السكرتارية في الجمعية التشريعية . ويبدو أن بعض رجال الوفد قد سعَوْا لإعادته إلى الوظيفة ، رغم توقف أعمال الجمعية التشريعية .

١٩٢٣ : أصبح سعد زغلول رئيساً للوزارة ، فعيّن المنفلوطي رئيساً لفرقة السكرتارية في مجلس الشيوخ ، بمرتب قدره خمسون جنيهاً مصرياً ، في وقت كان الجنيه المصري فيه أغلى قيمةً من الجنيه الإسترليني ومن الجنيه الذهب !

١٢ يوليه ١٩٢٤ : مات المنفلوطي – فجأة – بسبب تسمم الدم (البولينا) . وكان ذلك يوم سبت ، وقد مات في اليوم الذي حدث فيه اعتداء على سعد زغلول ؛ فكأنه مات وفاءً لصاحب الفضل عليه !

زواجه وصفاته : تزوج المنفلوطي للمرة الأولى في سنّ مبكرة ، وهو طالب في الأزهر، بالسيدة « آمنة أبو بكر الشيخ » وهي من منفلوط ، ومن أسرة غنية ، وقد توفيت سنة ١٩١٠ ، و ورث عنها بعض الأراضي الزراعية . ثم تزوج بعد ذلك بسيدة قاهرية ، هي « رتيبة حسني » ، وقد أنجب المنفلوطي من زوجَتيْه البنين والبنات ؛ ولكن بعض أبنائه ماتوا صغاراً ، فرثاهم رثاء حارًا يدل على قوة تأثره بفقدهم .

كما أنه كان يتسم بالتواضع وهدوء الطبع والعفة ورقة الشعور وحب الناس ، والكرم وحسن الضيافة ؛ لأنه كان صاحب مجلس يفد إليه الكثيرون .

وكان حادا في عواطفه الذاتية وفيًا لأصدقائه من المصريِّين والعرب ، لا يعرف المهادنة في بعض مواقفه الوطنية ؛ فقد كان لا يخشى الخديو أو الإنجليز أو خصوم سعد زغلول وحزب الوفد . وتعكس كتاباته الأدبية المختلفة بعض هذه الصفات التي ذكرناها .

* * *

٣– أهم الدراسات المتعلقة بأدب المنفلوطي

إبراهيم عبد القادر المازني (بالاشتراك مع العقاد) : الديوان في الأدب والنقد . القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٧٢ .

أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي . القاهرة ، دار النهضة ، ١٩٧٢ .

أحمد هيكل : تطور الأدب الحديث في مصر . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨.

أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها . بيروت ، دار الكاتب العربي ، ١٩٦٣ .

أنيس المقدسي : تطور الأساليب النثرية . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٠ .

بطرس البستاني : أدباء العرب . بيروت ، ١٩٣٧ .

حسين محمد أبو بكر : أدب المنفلوطي وأثره في الأديب الإندونيسي « حامكا » . رسالة ماجستير بآداب القاهرة ، إشراف د. طه وادي ، ١٩٨٢ .

سعد ميخائيل : أدباء العصر . القاهرة ، العمران ، (د.ت)

سيد حامد النساج : تطور فن القصة القصيرة في مصر . القاهرة ، دار الكاتب العربي ، ١٩٦٨ .

شكري عياد : القصة القصيرة في مصر . القاهرة ، دار المعرفة ، ١٩٧٩ .

شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر في مصر . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٩.

صلاح عبد الصبور : ماذا بقي منهم للتاريخ ؟ القاهرة ، دار الثقافة العربية ، ١٩٦١ .

الطاهر أحمد مكي : القصة القصيرة : دراسة ومختارات . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٥ .

طه وادي : مدخل إلى تاريخ الرواية المصرية . القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٧١ .

طه وادي : صورة المرأة في الرواية المعاصرة . ط٣ . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٥.

طه وادي : دراسات في نقد الرواية . القاهرة ، الهيئة المصرية ، ١٩٨٩ .

عبد المحسن بدر : تطور الرواية العربية في مصر . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٣ .

مارون عبود : جدد وقدماء . بيروت (د.ت.)

مارون عبود : أدب العرب . بيروت ، ١٩٦٠ .

محمد أبو الأنوار : مصطفى المنفلوطي ؛ حياته وأدبه . القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٨١-١٩٨٥ . ٣ جـ .

محمد زغلول سلام : دراسات في القصة العربية الحديثة . منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ .

محمد شلبي : مصطفى المنفلوطي الأديب الاشتراكي . القاهرة ، دار الكتب ، (د.ت.)

محمود حامد شوكت : الفن القصصي في الأدب المصري الحديث . القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٦ .

العبرات

إهــداء

الأشقياءُ في الدُّنيا كثيرٌ ، وليسَ في استْطاعةِ بائسٍ مِثلي أنْ يمحوَ شيئًا من بؤسِهم وشَقائِهم ، فلا أقلَّ من أنْ أسكبَ بينَ أيديهم هذه العَبَراتِ ، علَّهم يجدونَ في بُكائي عليهمْ تَعْزِيةً و سَلْوى .

مصطفى لطفي المنفلوطي

اليتيم

« موضوعة »

سكن الغرفةَ العليا من المنزل المجاور لمنزلي من عهد قريب فتى في التاسعةَ عشرة أو العشرين من عمره . وأحسب أنه طالب من طلبة المدارس العليا أو الوسطى في مصر ؛ فقد كنت أراه من نافذة غرفة مكتبي ، وكانت على كَثَبٍ من بعض نوافذ غرفته . فأرى أمامي فتى شاحباً ، نحيلاً ، منقبضاً ، جالساً إلى مصباح منير في إحدى زوايا الغرفة ، ينظر في كتاب ، أو يكتب في دفتر ، أو يستظهر قطعة ، أو يعيد درساً ، فلم أكن أحفل بشيء من أمره .

حتى عدت إلى منزلي منذ أيام بعد منتصف ليلة قَرَّة من ليالي الشتاء ، فدخلت غرفة مكتبي لبعض الشئون ، فأشرفت عليه ، فإذا هو جالس جِلْسته تلك أمام مصباحه ، وقد أكبَّ بوجهه على دَفْتَرٍ منشور بين يديه ، على مكتبه ، فظننت أنه لما ألم به من تعب الدرس وآلام السهر ، قد عبثت بجفنيه سِنَةٌ من النوم ؛ فأعجلته من الذهابِ إلى فراشه ، وسقطت به مكانه ؛ فما رُمتُ مكاني[1] ، حتى رفع رأسه ، فإذا عيناه مُخَضَّلَتان [2] من البكاء ، وإذا صفحة دفتره التي كان مُكبًّا عليها قد جرى دمعه فوقها ؛ فمحا من كلماتها ما محا ، ومشى ببعض مِدادها إلى بعض ، ثم لم يلبث أن عاد إلى نفسه ، فتناول قلمه ، ورجع إلى شأنه الذي كان فيه .

فأحزنني أن أرى في ظلمة ذلك الليل وسكونه هذا الفتى البائس المسكين منفرداً بنفسه في غرفة عارية باردة ! لا يتقي فيها عادِيَةَ البرد بدثار ولا نار ، يشكو همًّا من هموم الحياة أو رُزْءاً [3] من أرزائها ، قبل أن يبلغ سن الهموم والأحزان ، من حيث لا يجد بجانبه مواسياً ولا معيناً .

وقلت: «لا بد أن يكون وراءَ هذا المنظر الضارع[4] الشاحب نفسٌ قَرِيحَةٌ معذبة تذوب بين أضلاعه ذَوْبًا ، فيتهافت لها جسمه تهافت الخِبَاءِ المُقَوَّض .»

فلم أزل واقفاً مكاني لا أبرحه ، حتى رأيته قد طوى كتابه ، وفارق مجلسه ، وأوى إلى فراشه ، فانصرفت إلى مِخْدَعي ، وقد مضى الليل إلا أقله ، ولم يبق من سواده في صفحة هذا الوجود إلا بقايا أسطر يوشك أن يمتد إليها لسان الصباح فيأتي عليها.

ثم لم أزل أراه بعد ذلك في كثير من الليالي إما باكياً، أو مطرقاً أو ضارباً برأسه على صدره ، أو منطوياً على نفسه في فراشه يئن أنينَ الوالِهَةِ الثَّكْلَى ، أو هائماً في غرفته يذرع أرضها ، ويمسح جدرانها حتى إذا نال منه الجهد سقط على كرسيه باكياً منتحباً ، فأتوجع له ، وأبكي لبكائه ، وأتمنى لو استطعت أن أداخله[5] مُدَاخلة الصديق لصديقه وأَسْتَبِثَّه[6] ذاتَ نفسه وأشْرَكَه في همه ؛ لولا أنني كرهت أن أفْجَأَه بما لا يحب ، وأن أهجم منه على سر ربما كان يؤثر الإبقاء عليه في صدره ، وأن يكاتمه الناس جميعا .

حتى أشرفت عليه ليلة أمس بعد هَدْأة من الليل ، فرأيت غرفته مظلمة ساكنة ، فظننت أنه خرج لبعض شأنه ، ثم لم ألبث أن سمعت في جوف الغرفة أَنَّةً ضعيفة مستطيلة فأزعجني مَسْمَعُها وخيل إليَّ ، وهي صادرة من أعماق نفسه ، كأنني أسمع رنينها في أعماق قلبي ، وقلت : « إن الفتى مريض ولا يوجد بجانبه من يقوم بشأنه ، وقد بلغ الأمر مبلغ الجِدِّ فلا بد لي من المصير إليه .»

فتقدمت[7] إلى خادمي أن يتقدمني بمصباح ، حتى بلغت منزله ، وصعدت إلى باب غرفته ، فأدركني من الوحشة عند دخولها ما يدرك الواقف على باب قبر، يحاول أن يهبطه ليودع ساكنه الوداع الأخير .

ثم دخلت ففتح عينيه عندما أحس بي ، وكأنما كان ذاهلاً أو مستغرقًا ؛ فأدهشه أن يرى بين يديه

---

(١) رامَ مكانه: زال عنه وفارقه . (٢) مُخَضَّلتان: مُبْتَلَّتان .
(٣) الضَّارع: الضعيف النحيل . (٤) الرُّزْء: المصيبة .
(٥) داخَلَهُ في أموره: شارَكَهُ فيها . (٦) استبثّه السر: طلب إليه أن يبثه إياه . (٧) تقدم إلى فلان بكذا: أمره به .

مصباحاً ضئيلاً ورجلاً لا يعرفه فلبث شاخصاً إليَّ هُنَيْهَةً لا ينطق ولا يطرِف[1] ، فاقتربت من فراشه وجلست بجانبه ، وقلت :

« أنا جارك القاطن هذا المنزل ، وقد سمعتك الساعة تعالج نفسك علاجاً شديداً ، وعلمت أنك وحدك في هذه الغرفة ؛ فعناني أمرك ؛ فجئتك علني أستطيع أن أكون لك عوناً على شأنك ، فهل أنت مريض ؟»

فرفع يده ببطء ، و وضعها على جبهته ، فوضعت يدي حيث وضعها ، فشعرت برأسه يلتهب التهاباً فعلمت أنه محموم ، ثم أمرَرْتُ نظري على جسمه فإذا خيال سَارٍ لا يكاد يتبينه رائِيهُ ، وإذا قميص فَضْفَاض[2] من الجلد يموج فيه بدنه موجاً .

فأمرت الخادم أن يأتيني بشراب كان عندي من أشربة الحمى ، فجَرَّعتُه منه بضع قطرات ، فاستفاق قليلاً ونظر إليَّ نظرةً عذبةً صافيةً ، وقال :

« شكراً لك .»

فقلت : « ما شِكاتُك أيها الأخ ؟»

قال : « لا أشكو شيئاً .»

فقلت : « فهل مر بك زمن طويل على حالك هذه؟»

قال : « لا أعلم !»

قلت : « أنت في حاجة إلى الطبيب ، فهل تأذن لي أن أدعوه إليك لينظر في أمرك ؟»

فتنهد طويلاً ونظر إليَّ نظرة دامعة ، وقال : « إنما يبغي الطبيب من يؤثر الحياة على الموت !»

ثم أغمض عينيه ، وعاد إلى ذهوله واستغراقه . فلم أجد بداً من دعاء الطبيب رضبي ذلك أم أبى ، فدعوته ، فجاء متأففاً متذمراً ، يشكو – من حيث يعلم أني أسمع شكواه – إزعاجَه من مرْقده وتجشيمه خَوْضَ الأزِقَّة المظلمة في الليالي الباردة ! فلم أحفل بتعريضه ؛ لأنني أعلم طريق الاعتذار إليه ؛ فجس نبض المريض وهمس في أذني قائلاً :

« إن عليلك يا سيدي مشرف على الخطر ، ولا أحسب أن حياته تطول كثيراً إلا إذا كان في علم الله ما لا نعلم .»

وجلس ناحيةً يكتب ذلك الأمر الذي يصدره الأطباء إلى عمالهم الصيادلة أن يتقاضوا من عبيدهم المرضى ضريبة الحياة ، ثم انصرف لشأنه بعدما اعتذرت إليه ذلك الاعتذار الذي يؤثره ويرضاه .

فأحضرت الدواء ، وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاءَ ، ذاهِلة النجم ، بعيدةَ ما بين الطرفين ، أسقيه الدواء مرة ، وأبكي عليه أخرى ، حتى انبثق نور الفجر؛ فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآني ، فقال : « أنت هنا ؟»

قلت : « نعم ، وأرجو أن تكون أحسن حالاً من ذي قبل .»

قال : « أرجو أن أكون كذلك .»

قلت : « هل تأذن لي يا سيدي أن أسألك من أنت؟ وما مُقامك وحدك في هذا المكان ؟ وهل أنت غريب في هذا البلد أو أنت من أهليه ، وهل تشكو داءً ظاهراً أو همًّا باطناً ؟»

قال : « أشكوهما معاً .»

قلت : « فهل لك أن تحدثني بشأنك وتفضي إليَّ بهمِّك كما يفضي الصديق إلى صديقه ، فقد أصبحت معنياً بأمرك عنايتك بنفسك ؟»

قال : « هل تعدني بكتمان أمري إن قسم الله لي الحياة ، وبإمضاء وصيتي إن كانت الأخرى ؟»

قلت : « نعم .»

قال : « قد وثقت بوعدك ؛ فإن من يحمل في صدره قلباً شريفاً مثل قلبك ؛ لا يكون كاذباً ولا غادراً .

« أنا فلان بن فلان ، مات أبي منذ عهد بعيد ، وتركني في السادسة من عمري فقيراً معدماً لا أملك من متاع الدنيا شيئاً ، فكفلني عمي فلان ؛ فكان خير الأعمام ، وأكرمهم ، وأوسعهم براً وإحساناً

(١) طَرَف فلان بصره: أطبق أحد جفنيه على الآخر .

(٢) الفضْفاض: الواسع .

وأكثرهم عطفاً وحناناً ؛ فقد أنزلني من نفسه منزلة لم ينزلها أحداً من قبلي غير ابنته الصغيرة ، وكانت في عمري أو أصغر مني قليلاً . وكأنما سرّه أن يرى لها بجانبها أخاً بعدما تمنى على اللّه ذلك زمناً طويلاً فلم يدرك أمنيته ، فعُنِيَ بي عنايته بها وأدخلنا المدرسة في يوم واحد ، فأنست بها أنس الأخ بأخته ، وأحببتها حبًّا شديداً، و وجدت في عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهب بتلك الغضاضة التي كانت لا تزال تعاود نفسي بعد فقد أبويَّ من حين إلى حين .

« فكان لا يرانا الرائي إلا ذاهِبَيْن إلى المدرسة أو عائدَيْن منها ، أو لاعبين في فناء المنزل أو مرتاضَيْن في حديقته ، أو مجتمعين في غرفة المذاكرة أو متحدثين في غرفة النوم ، حتى جاء يوم حجابها فلزمت خدرها واستمررت في دراستي .

« ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها عقداً لا يحله إلا ريب المنون ، فكنت لا أرى لذة العيش إلا بجوارها، ولا أرى نور السعادة إلا في فجر ابتساماتها ، ولا أؤثر على ساعة أقضيها بجانبها جميعَ لذات العيش ومسرات الحياة . وما كنت أشاء أن أرى خَصْلة من خصال الخير في فتاة من : أدب ، أو ذكاء ، أو حلم ، أو رحمة ، أو عفة ، أو شرف ، أو وفاء إلا وجدتها فيها .

« وإني أستطيع ، وأنا في هذه الظلمة الحالكة من الهموم والأحزان ، أن أرى على البعد تلك الأجنحة النورانية البيضاء من السعادة التي كانت تظللنا معاً أيام طفولتنا ؛ فتشرق لها نفسانا إشراق الرّاح في كأسها .

« وأن أرى تلك الحديقة الغناء التي كانت مَراح لذاتنا ومسرح آمالنا وأحلامنا ، كأنها حاضرة بين يدي أرى لألاء مائها ، ولمعان حَصْبائها ، وأفانين أشجارها ، وألوان أزهارها .

« وتلك القاعدة الحجرية التي كنا نقتعدها منها طرفي النهار ، فنجتمع على حديث نتجاذبه ، أو طاقة نؤلف بين أزهارها ، أو كتاب نقلب صفحاته ، أو رسم نتبارى في إتقانه .

« وتلك الخمائل الخضراء التي نلجأ إلى ظلالها كلما فرغنا من شوط من أشواط المسابقة فنشعر بما تشعر به أفراخ الطيور اللاجئة إلى أحضان أمهاتها .

« وتلك الحفائر الصغيرة التي نحتفرها ببعض الأعواد على شاطئ الجداول والغدران فنملؤها ماء ، ثم نجلس حولها لنصطاد أسماكها التي ألقيناها فيها بأيدينا ؛ فنطرب إن ظفرنا بشيء منها كأنا قد ظفرنا بغنم عظيم .

« وتلك الأقفاص الذهبية البديعة التي كنا نربي فيها عصافيرنا وطيورنا ، ثم نقضي الساعات الطوال بجانبها نعجب بمنظرها ومنظر مناقيرها الخضراء ، وهي تحسو الماء مرة وتلتقط الحب أخرى ونناديها بأسمائها التي سميناها بها ، فإذا سمعنا صفيرها وتغريدها ظننا أنها تلبي نداءنا .

« ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره في نفسي لابنة عمي وداً وإخاءً ، أو حُبًّا وغراماً ؟ ولكنني أعلم أنه كان بلا أمل ، ولا رجاء ، فما قلت لها يوماً إني أحبها؛ لأني كنت أضن بها – وهي ابنة عمي ورفيقة صباي – أن أكون أول فاتح لهذا الجرح الأليم في قلبها . ولا قدرت في نفسي يوماً من الأيام أن أصل أسباب حياتي بأسباب حياتها ؛ لأني كنت أعلم أن أبويها لا يسخوان بمثلها على فتى بائس فقير مثلي. ولا حاولت في ساعة من الساعات أن أتسقط[1] منها ما يطمع في مثله المحبون المتسقطون؛ لأني كنت أجلُّها عن أن أنزل بها إلى مثل ذلك . ولا فكرت يوماً أن أستشف من وراء نظراتها خبيئة نفسها ؛ لأعلم أي المنزلتين أنزلها من قلبها : أ منزلة الأخ فأقنع منها بذلك ، أم منزلة الحبيب ، فأستعين بإرادتها على إرادة أبويها ؟ بل كان حبي لها حب الراهب المتبتل صورة العذراء الماثلة بين يديه في صومعته ، يعبدها ولا يتطلع إليها !

« ولم يزل هذا شأني وشأنها ، حتى نزلت بعمي نازلة من المرض لم تَنْشَب[2] أن ذهبت به إلى جوار

(١) تسقّط فلان الخبر: أخذه شيئاً بعد شيء .

(٢) لم تَنْشَب: لم تلبث .

ربه . وكان آخر ما نطق به في آخر ساعات حياته أن قال لزوجته ، وكان يحسن بها ظنًّا : لقد أعجلني الموت عن النظر في شأن هذا الغلام ، فكوني له أمًّا كما كنت له أبًا ، وأوصيك أن لا يفقد مني بعد موتي إلا شخصي .

« فما مرت أيام الحداد ، حتى رأيت وجوهًا غير الوجوه ونظرات غير النظرات ؛ وحالاً غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل ؛ فتداخلني الهم واليأس و وقع في نفسي للمرة الأولى في حياتي أنني قد أصبحت في هذا المنزل غريبًا ، وفي هذا العالم طريدًا .

« فإني لجالس في غرفتي صبيحة يوم إذ دخلت عليَّ الخادم ، وكانت امرأة من النساء الصالحات المخلصات ، فتقدمت نحوي خَجْلة متعثرة . وقالت : « قد أمرتني سيدتي أن أقول لك يا سيدي إنها قد عزمت على تزويج ابنتها في عهد قريب ، وإنها ترى أن بقاءك بجانبها بعد موت أبيها وبلوغكما هذه السن التي بلغتماها ربما يريبها عند خطيبها ، وإنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكنا هذا الجناح الذي تسكنه من القصر ؛ فهي تريد أن تتحول إلى منزل آخر تختاره لنفسك من بين منازلها ، على أن تقوم لك فيه بجميع شأنك ، وكأنك لم تفارقها .»

« فكأنما عمدت إلى سهم رائش فأصْمَتْ به كبدي ، إلا أنني تماسكت قليلاً ريثما قلت لها : « سأفعل إن شاء الله ولا أحبُّ إليَّ من ذلك .» فانصرفت لشأنها ، فخلوت بنفسي ساعة أطلقت فيها السبيل لعبراتي ، ما شاء الله أن أطلقها ، حتى جاء الليل ، فعمدت إلى حقيبتي فأودعتها ثيابي وكتبي ، وقلت في نفسي :

« « قد كان كل ما أسعد به في هذه الحياة أن أعيش بجانب ذلك الإنسان الذي أحببته وأحببت نفسي من أجله ، وقد حيل بيني وبينه فلا آسفُ على شيء بعده .»

« ثم انسللت من المنزل انسلالاً من حيث لا يشعر أحد بما كان ، ولم أتزود من ابنة عمي قبل الرحيل غير نظرة واحدة ألقيتها عليها من خلال كِلَّتها [١] وهي نائمة في سريرها ، فكانت آخر عهدي بها :

لعمرِكَ ما فارقتُ بغداد عن قِلًى
لو أنّا وجدنا من فراق لها بُدّا
كفى حَزَنًا أن رحتُ لم أستطع لها
وداعًا ، ولم أحْدِث بساكنها عهدا

« وهكذا فارقت المنزل الذي سعدت فيه حقبة من الزمان فراق آدم جنته ، وخرجت منه شريدًا طريدًا حائرًا ملتاعًا ، قد اصطلحت عليَّ الهموم والأحزان . فراق لا لقاء بعده ، وفقر لا سادَّ لخلَّته ، وغربة لا أجد عليها من أحد من الناس مواسيًا ، ولا معينًا .

« وكانت معي صُبابة [٢] من مال قد بقيت في يدي من آثار تلك النعمة الذاهبة فاتخذت هذه الحجرة العارية في هذه الطبقة العليا مسكنًا فلم أستطع البقاء فيها ساعة واحدة ؛ فأزمعت الرحيل إلى حيث أجد في فضاء الله ومُنْفَسَح آفاقه علاج نفسي من همومها وأحزانها . فرحلت رحلة طويلة ، قضيت فيها بضعة أشهر ، لا أهبط بلدة حتى تنازعني نفسي إلى أخرى، ولا تطلع عليَّ الشمس في مكان حتى تغرب عني في غيره . حتى شعرت في آخر الأمر بسكون في نفسي يشبه سكون الدمع المعلَّق في محْجَر العين لا يفيض ، ولا يغيض .

« فقنِعْتُ بذلك ، وكان ميعاد الدراسة السنوية قد حان فعدت ، وقد استقر في نفسي أن أعيش في هذا العالم : منفردًا كمجتمع ، وغائبا كحاضر ، وبعيدًا كقريب ، وأن ألهو بشأن نفسي عن كل شأن سواه ، وأن أستعين على نسيان الماضي باجتناب موطنه ومظاهره .

« فلزمت غرفتي ومدرستي أداول بينهما لا أفارقهما، ولم يبق أثر لذلك العهد القديم في نفسي إلا نزوات تعاود قلبي من حين إلى حين ؛ فأستعين عليها بقطرات من الدمع أسكبها من جفني في خلوتي من حيث لا يعلم إلا الله ما بي ، فأجد برد

(١) الكِلَّة: السِّترُ الرقيق . (٢) الصُّبابة: البقيَّة من الشيء .

الراحة في صدري .

« لبِثْتُ على ذلك بُرْهة من الزمان ، حتى عدت بالأمس إلى تلك الفَضْلة التي كانت في يدي من المال فإذا هي ناضبة أو موشكة . وكنت مأخوذاً بأن أهيِّئ لنفسي عيشاً مستقلا ، وأن أؤدي للمدرسةِ قسطاً من أقساطها ، والمدرسة في هذا البلد حانوت قاس لا تباع فيه السلعة نَسِيْئةً . والعلم في هذه الأمة مُرْتَزَقٌ يرتزق منه المرتزقون ، لا منحةٌ يمنحها المحسنون ؛ فأهمتني نفسي ، وعلمت أني مشرف على الخطر ، ولا أعرف سبيلاً إلى القوت بوجه ولا حيلة .

« فعمدت إلى كتبي ، فاستبقيت منها ما لا غنى لي عنه ، وحملت سائرها [١] إلى سوق الوراقين ، فعرضته هناك يوماً كاملاً ، فلم أجد من يبلغ به في المساومة ربع ثمنه ؛ فعدت به حزيناً منكسراً وما على وجه الأرض أحد أذل مني ولا أشقى !

« فلما بلغت باب المنزل ، رأيت في فِنائه امرأة تُسائل أهل البيت عني ، فتبينتها فإذا هي الخادم التي كانت تخدمني في منزل عمي .

« فقلت : « فلانة ؟»

« قالت : « نعم .»

« قلت : « ماذا تريدين ؟»

« قالت : « لي إليك كلمة فائذن لي .»

« فصعدت معها إلى غرفتي ، فلما خلونا قلت : « هاتِ .»

« قالت : « مرت بي ثلاثة أيام وأنا أفتش عنك في كل مكان ، فلم أجد من يَدُلّني عليك حتى وجدتك اليوم بعد اليأس منك .»

« ثم انفجرت باكية بصوت عال ؛ فراعني بكاؤها وخفت أن يكون قد حل بالبيت الذي أحبه بأس .

« فقلت : « ما بكاؤك ؟»

« قالت : « أما تعلم شيئاً من أخبار بيت عمك ؟»

« قلت : « لا ، فما أخباره ؟»

« فمدت يدها إلى ردائها وأخرجت من أضعافه [٢] كتاباً مغلقاً ، فتناولته منها ، فَفَضَضْتُ غِلافَه ، فإذا هو بخط ابنة عمي ، فقرأت فيه هذه الكلمة التي لا أزال أحفظها حتى الساعة :

« « إنك فارقتني ، ولم تُوَدِّعني ، فاغتفرت لك ذلك. فأما اليوم وقد أصبحت على باب القبر ، فلا أغتفر لك ألا تأتي إليّ لتودعني الوداع الأخير .»

« فألقيت الكتاب من يدي ، وابتدرت الباب مسرعاً ، فتعلقت الخادم بثوبي ، وقالت : « أين تريد يا سيدي ؟»

« قلت : « إنها مريضة ، ولا بد لي من المصير إليها .»

« فصمتت لحظة ثم قالت بصوت خافت مرتعش : « لا تفعل يا سيدي ، فقد سبقك القضاء إليها .»

« هنالك شعرت أن قلبي قد فارق موضعه إلى حيث لا أعلم له مكاناً ؛ ثم دارت بي الأرض الفضاء دورة سقطت على أثرها في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي ، فلم أفق إلا بعد حين ؛ ففتحت عيني ، فإذا الليل قد أظلني ، وإذا الخادم لا تزال بجانبي تبكي وتنتحب ، فدنوت منها ، وقلت : « أيتها المرأة أ حق ما تقولين ؟»

« قالت : « نعم .»

« قلت : « قصّي عليّ كل شيء .»

« فأنشأت تقول : « إن ابنة عمك يا سيدي لم تنتفع بنفسها بعد رحيلك ؛ فقد سألتني في اليوم الذي رحلت فيه عن سبب رحيلك ؛ فحدثتها حديث الرسالة التي حملتها إليك من زوجة عمك .

« فلم تزد على أن قالت : « وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين ؟ إنهم لا يعلمون من أمره ولا من أمري شيئاً . ثم لم يجر ذكرك بعد ذلك على لسانها بخير ولا بشر ، كأنما كانت تعالج في نفسها

(١) سائر الشيء: باقيه .

(٢) أضعاف الثوب: أثناؤه .

أَلمًا مُمِضًّا (١) .

« ‹‹ وما هي إلا أيام قلائل حتى سرى داء نفسها إلى جسمها ، فاستحالت حالها ، غاض ماء جمالها، وانطفأت تلك الابتسامات العذبة التي كانت لا تفارق ثغرها ، ثم سقطت على فراشها مريضة لا تبلُّ (٢) يومًا حتى تنتكس أيامًا ، فراع أمها أمرها ، و ورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس والخطبة والخطيب ، وكانت لا تزال تهتف بذلك نهارها وليلها ، فلم تدع طبيبًا ولا عائدًا إلا فزعت إليه أمرها ، فما أغنى العائد ولا الطبيب ! وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويدًا رويدًا .

« ‹‹ فبينا أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليال إذ شعرت بها تتحرك في مضجعها ، فدنوت منها ، فأشارت إليَّ أن آخذ بيدها ففعلت ، فاستوت جالسة ، وقالت : ‹‹ في أي ساعة نحن من الليل ؟››

« قلت : ‹‹ في الهزيع الأخير منه .››

« قالت : ‹‹ أأنت وحدك هنا ؟››

« قلت : ‹‹ نعم فقد هجع أهل البيت جميعًا .››

« قالت : ‹‹ ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآن ؟››

« ‹‹ فعجبت لكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم ، وقلت : ‹‹ بلى يا سيدتي أعلم مكانه .››

« ‹‹ وما كنت أعلم شيئًا ، ولكني أشفقت على هذا الخيط الرقيق الباقي في يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر خيط من خيوط أجلها ، فقالت : ‹‹ ألا تستطيعين أن تحملي إليه رسالة مني من حيث لا يعلم أحد بشأني ؟››

« قلت : ‹‹ لا أحب إليَّ من ذلك يا سيدتي .››

« ‹‹ فأشارت أن آتيها بمحبرتها فجئتها بها ، فكتبت إليك هذا الكتاب الذي تراه ، فلما أصبح الصباح خرجت أسائل الناس عنك في كل مكان وأتصفح وجوه الغادين والرائحين ؛ علني أراك وأرى من يهديني إليك ، فلم أظفر بطائل حتى انحدرت الشمس إلى مغربها . فعدت إلى المنزل وقد مضى شطر من الليل فما بلغته حتى سمعت الناعبة ، فعلمت أن السهم قد بلغ المقتل ، وأن تلك الوردة الناضرة التي كانت تملأ الدنيا جمالاً وبهاء قد سقطت آخر ورقة من ورقاتها ؛ فحزنت عليها حزن الثاكل على وحيدها ، وما رُئي مثل يومها يومٌ كان أكثر باكية وباكيًا !

« ‹‹ وكان أكبر ما أهمني من أمرها ، أن كل ما كانت ترجوه في الساعة الأخيرة من ساعات حياتها أن تراك ، ففاتها ذلك وسقطت دون أمنيتها ، فلم أزل كاتمة أمر الرسالة في نفسي ، ولم أزل أتطلب السبيل إليك حتى وجدتك .››

« ‹‹ فشكرت لها صنيعها وأذنتها بالانصراف فانصرفت، فما انفردت بنفسي حتى شعرت أن سحابة سوداء تهبط فوق عيني شيئًا فشيئًا حتى احتجب عن ناظري كل شيء ، ثم لا أعلم ماذا تم بعد ذلك حتى رأيتك .»

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد ، حتى زفر زفرة خلت أن كبده قد ارفَضَّت (٢) وأن هذه أفلاذها، فدنوت منه ، وقلت : « ما بك يا سيدي ؟» قال لي : « إني أطلب دمعة واحدة أتفرَّج بها مما أنا فيه فلا أجدها !»

ثم صمت ساعة طويلة ، فشعرت أنه يهمهم ببعض كلمات فأصغيت إليه ، فإذا هو يقول :

« اللهم إنك تعلم أني غريب في هذه الدنيا لا سند لي فيها ولا عضد ، وأني فقير لا أملك من متاع الحياة ما أعود به على نفسي ، وأني عاجز مستضعف لا أعرف السبيل إلى باب من أبواب الرزق بوجه ولا حيلة، وأن الضربة التي أصابت قلبي قد سحقته سحقًا فلم يبق فيه حتى الذَّماء (٣) . وإني أستحييك أن أمد يدي إلى هذه النفس التي أودعتها بيدك بين جنبي فأنتزعها من مكانها وألقي بها في وجهك ساخطًا ناقمًا ، فتول أنت أمرها بيدك ، واسترد وديعتك

(١) مُمِضٌّ: مؤلم . (٢) أبلَّ من مرضه: برئ منه .

(٣) ارفَضَّ الشيء: تفرق وترشش .

(٤) الذَّماء: بقية النفس .

إليك ، وانقلها إلى دار كرامتك ، فنعم الدار دارك ، ونعم الجوار جوارك .»

ثم أمسك رأسه بيده ، كأنما يحاول أن يحبسه عن الفرار ، وقال بصوت ضعيف خافت :

« أشعر برأسي يحترق احتراقاً وقلبي يذوب ذوباً ، لا أحسبني باقياً على هذا ، فهل تعدني أن تدفنني معها في قبرها وتدفن معي كتابها إن قضى الله فيَّ قضاءه ؟»

قلت : « نعم ، وأسأل الله لك السلامة .»

قال : « الآن أموت طيب النفس عن كل شيء.»

ثم انتفض انتفاضة فاضت نفسه فيها !

لقد هون وجدي على هذا البائس المسكين ، أني استطعت إمضاء وصيته كما أراد ، فسعيت في دفنه مع ابنة عمه ، ودفنت معه تلك الرسالة التي دعته فيها أن يوافيها ، فعجز عن أن يلبي نداءها حيًّا فلبّاها ميتاً .

وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذانك الصديقان الوفيان ، اللذان ضاق بهما في حياتهما فضاء القصر، فوسعتهما بعد موتهما حفرة القبر .



الشهداء

« مترجمة »

لم يبق لها بعد موت زوجها وأبويها إلا ولد صغير يؤنسها ، وأخ شفيق يحنو عليها ، وصُبابة من المال تترشف[1] الرزق منها ترشفاً مصانعة للدهر فيها .

أما الصُّبابة فقد نضبت ، وأما الأخ فقد ضمه الدهر ضمة ذهبت بماله وبجميع ما تملك يده ؛ فهاجر هجرة بعيدة لا تعرف مصيره فيها ، فأصبحت من بعده لا تملك مالاً ، ولا عضداً .

(١) ترشفت الإبل الماء: أخذته قليلاً قليلاً .

لقد لقيت هذه المرأة المسكينة من الشقاء في طلب العيش ما لا يستطيع أن يحتمله بشر ، فخاطت الملابس حتى عَشِيَ[2] بصرها ، وغسلت الثياب حتى يبست أطرافها . ودخلت المصانع حتى كلت ، وخدمت في المنازل حتى ذلت ، ولكنها استطاعت أن تحيا ويحيا ولدها بجانبها .

ما كان لمثلها أن يحيا على مثل ذلك ، ولكن الله كان أرحم بها من أن يسلبها السعادة ويسلبها العزاء عنها معاً . فقد كانت إذا دجا ليل الحوادث حولها ، وأظلمت الحياة أمام عينيها ، رأت في الأفق البعيد ثلاثة أشعة تنبعث من سماء الرحمة الإلهية حتى تتلاقى في فؤادها فتملأه عزاء وصبراً ؛ شعاع الأنس بولدها ، وشعاع الرجاء في أخيها ، وشعاع السرور بما وفقت إليه من صيانة عرضها .

دارت الأيام دورتها ؛ فاكتهلت الأم ، وشب الولد، وانتقل هم قلبها إلى قلبه وكان لا بُدَّ له أن يعيش ، وأن يحسن إلى تلك التي طالما أحسنت إليه ، فمشى يتصفح وجوه الرزق وجهاً وجهاً ، ويرد مناهله منهلاً منهلاً ، حتى وقف به حظه على مهنة الرسم فأنس بها ، وما زال يعطيها من نفسه وجِدِّه حتى مهر فيها .

والمهارة لا تدل على صاحبها وحدها ، بل هو الذي يدل عليها بحيلته ورفقه ، وما كان الفتى يملك أداة ذلك ، ولا يعرف السبيل إليه ، فاستمر خاملاً مغموراً لا تدر له مهنته إلا القطرة بعد القطرة في الفَيْنة بعد الفينة[3] ، فلم يستطع أن يسعد أمه ، ولكنه استطاع أن يسد خلتها فقنعت منه بذلك ولزمت منزلها ، ووجدت برد الراحة في صدرها .

إلا أنها كانت إذا ذكرت ذلك الغائب النائي عنها ، حنت إليه حنين النِّيب[4] إلى فصالها[5] وأحزنها أنها لم تره منذ خمسة عشر عاماً ، ولم تر منه

(٢) عَشِيَ بصره: ضعف .

(٣) الفَيْنَة: الحين .

(٤) النِّيب: جمع ناب ، وهي النّاقة المُسِنَّة .

(٥) الفِصال: جَمْعُ فصيل ، وهو ولد الناقة أو البقرة إذا فُصِلَ عن أمه .

كتاباً منذ عشرة أعوام حتى اليوم . فلا تجد لها بداً كلما هاجها الوجد إليه إلا أن تلجأ إلى ذلك الملجأ الوحيد الذي يفزع إليه جميع البائسين والمحزونين في بأسائهم وضرائهم ؛ خلوتها ودموعها ، فتبكي ما شاء الله أن تفعل ، ثم تخرج لاستقبال ولدها باشة باسمة ، كأن لم تكن باكية قبل ذلك !

دخل عليها ولدها يوماً في خلوتها ، فرآها تبكي ورأى في يدها صورة فتبينها ، فإذا هي صورة خاله ، فألم بسريرة نفسها ، وأمسك بين أهداب عينيه دمعة مترقرقة ما تكاد تتماسك فمشى إليها حتى وضع يده على عاتقها ، وقال :

« رفِّهي عن نفسك يا أماه فستعلمين خبر غائبك عما قليل .»

فتَطَلَّق وجهها وأضاء ، وقالت : « وكيف السبيل إلى ذلك ؟»

قال : « قد علمت أن معرضاً سيقام للرسم في واشنطون حاضرة أمريكا بعد بضعة شهور ، وأنهم قدروا له جوائز مختلفة صغرى وكبرى ، وقد وعدني بعض أصدقائي أن يساعدني على الشخوص إليه ، علني أستطيع أن أنال ما أقيم به وجهي وأنقذ به نفسي ونفسك من هذا الشقاء ، وهنالك أفتش عن غائبك حتى أجده أو أجد منقطع أثره .»

فاستسر بشرها الذي كان متلألئاً ، وقالت : « لا تفعل يا بني فما أنا بشقية ما رأيتك بجانبي ، وما أنت بشقي ما قنعت بما قسم الله لك ، ولئن فعلت ، لا تكونن امرأة على وجه الأرض أعظم مني لوعةً ولا أشقى ، ولئن بكيت لفراق أخي مرة فسأبكي لفراقك ألف مرة ، وإني كلما ذكرته وجدت في وجهك العزاء عنه ، فمن لي بالعزاء عنكما إن فقدت وجهيكما معاً ؟»

فما زال يروضها ويمسحها ويمنيها في رحلته الأماني العذاب حتى أسلست وهدأت وأسلمت إلى الله أمرها .

وما هي إلا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته فإذا الأم وحيدة في فرنسا لا مؤنس لها ، وإذا الولد غريب في أمريكا لا يعرف له سنداً ، ولا عضداً.

وصل الفتى إلى معرض الرسم فعرض رسمه هناك ، وكان يمثل فيه موقف الوداع الذي جرى بينه وبين أمه على شاطئ البحر يوم رحيله وكان موقفاً محزناً فأحسن تمثيله ، فأعجب القوم بجماله ، وأثر في نفوسهم منظره ؛ فقضوا له بالجائزة التي كان يمنّي نفسه بها . فما حصلت في يده حتى خيل إليه أنه أسعد أهل الأرض طُراً ، وأن هذا اليوم هو أول يوم هبط فيه عالم الوجود ، وأنه ما ذاق قبل الساعة مرارة العيش ، ولا رأى صورة الشقاء !

وكذلك يعبث الدهر بالإنسان ما يعبث ، ويذيقه ما يذيقه من صنوف الشقاء وألوان الآلام ، حتى إذا علم أنه قد أوحشه وأرابه[1] وملأ قلبه غيظاً وحنقاً ، أطلع له في تلك السماء المظلمة المُدْلَهِمَّة بارقة واحدة من بوارق الأمل الكاذب فاسترده بها إلى حظيرته راضيا مغتبطا كما تقاد السائمة البلهاء بأعواد الكلأ إلى مصرعها ، فما أسعد الدهر بالإنسان وما أشقى الإنسان به !

أرسل الفتى إلى أمه بعض المال واستبقى لنفسه بعضاً ، وكتب إليها أنه لن يبرح هذه الأرض حتى يفي لها بما عاهدها عليه ، ومشى في طريقه يفتش عن خاله في أنحاء البلاد ويسائل عنه كل من لقيه من القاطنين والطارئين[2] ، حتى حدثه بعضهم أن آخر عهدهم به رحلة رحلها عنهم من بضع سنوات إلى بعض الجزر الجنوبية في التفتيش عن معدن نُحاس هناك ثم لم يعد بعد ذلك .

فمشى في الطريق التي علم أنه سلكها حتى وصل إلى جزيرة موحشة مقفرة ، وكانت لا تزال تغشي سماء تلك البلاد بقية من ظلمات العصور الأولى . فمر بقبيلة من قبائل الزنج نازلة هناك وراء بعض الجبال المقطعة ، فما رأوه حتى هاجت في صدورهم أحقاد تلك العداوة اللونية التي لا يزال يضمرها هؤلاء القوم لكل شيء أبيض ، حتى للشمس المشرقة ، والكواكب الزاهرة ، فداروا به دورة

(١) أرابه: شككه وجعله يرتاب . (٢) الطارئون: المهاجرون .

سقط من بعدها أسيراً في أيديهم ، فاحتملوه حتى وصلوا به إلى ديارهم فاحتبسوه هناك في نفق تحت الأرض كانوا يسمونه « سجن الانتقام » .

هنالك علم أن تلك البارقة التي لاحت له في سماء السعادة من الأمل يوم المعرض ، إنما هي خدعة من خدع الدهر وأكذوبة من أكاذيبه ، وأن ما كان يقدره لنفسه من سعادة وهناء في مستقبل أيامه قد ذهب بذهاب أمس الدابر ، وأصبح صحيفة بالية في كتاب الدهر الغابر .

ولقد كان في استطاعته أن يخلد للنازلة التي نزلت به ويستمسك لها لو أنه استقل بحملها ، ولكن الذي آده[1] وأثقله ، أن هناك إنساناً آخر كريماً عليه يقاسمه إياها ، فقد أصبح يحمل مصيبته ومصيبة أمه فيه على عاتق واحد .

نزلوا به إلى المحبس وقادوه إلى سلسلة غليظة الحلقات فسلكوه فيها ثم أغلقوا الباب من دونه وتركوه وشأنه ، فما انفرد بنفسه حتى فتح عينيه فلم ير أمامه شيئاً . فلم يعلم : هل كف بصره أم اشتدت الظلمة أمام عينيه فحجبت عن ناظره كل شيء حتى نفسها ؟ فلم يزل في حيرته حتى انقضى الليل ، فانحدر إليه من ثقب صغير في حائط المحبس خيط أبيض دقيق من شعاع الشمس حتى استقر بين يديه ، فأنس به أنس الغريب بالغريب ، وشكر للشمس رسولها الذي أرسلته إليه ليؤنسه في وحدته . واستمر بصره عالقاً به لا يفارقه أينما سار وحيثما انتقل حتى رآه يتقبض شيئاً فشيئاً ، ويتراجع قليلاً قليلاً ، ثم علا إلى ثقبه الذي انحدر منه ، ثم طار إلى سمائه التي هبط منها . فحزن لفراقه حزن العشير لفراق عشيره ودار بعينيه حول نفسه فإذا قطع سوداء مظلمة تتدجّى وتتكاثف من حوله ويملّس بعضها في أحشاء بعض .

وإذا هو نفسه قطعة من تلك القطع هائمة بينها هيمان الروح الحائر في ظلمات القبور فما كاد يعرف مكانه منها ، فمشى في ذلك المعترك المائج يفتش عن نفسه ويتلمسها بيده تلمساً ، حتى سمع صلصلة السلسلة الملتفة على قدميه فوجدها وكان قد أجهده المسير فتساقط على نفسه باكياً منتحباً .

وكذلك انقطع هذا المسكين عن العالم كله خيره وشره ، ولم يبق بينه وبينه من صلة إلا ذلك الشعاع الأبيض الذي يزوره كل صباح ، وذلك السجان الأسود الذي يطرقه كل مساء .

وما مرت به على حالة تلك سنة واحدة حتى نسي نفسه ، ونسي أمه ونسي العالم الذي كان يعيش فيه ، والعالم الذي انتقل إليه ، ونسي الليل والنهار والظلمة والنور ، والسعادة والشقاء . وأصبح في منزلة بين منزلتي الحياة والموت فلا يفرح ولا يتألم ، ولا يذكر الماضي ، ولا يرجو المستقبل . ولا يعلم هل هو حجر بين تلك الأحجار أو قطعة بين قطع الظلام ، أو جسد يتحرك ، أو خيال يسري ، أو وهم من الأوهام أو عدم من الأعدام .

مرت على تلك الأم المسكينة بضعة أعوام لا ترى ولدها ولا تجد من يدلها عليه فأصبح من يراها في طريقها ، يرى عجوزاً حدباء والهة متسلّبة [2] مذهوباً بها [3] قد توكأت على عصا ما تزال تضطرب في يدها ، وأسبلت فوق جسمها الناحل المحقوف[4] أهداماً [5] خلقاناً يحسبها الناظر إليها لكثرة ما نالت يد البلى منها أهداباً متلاصقة أو مِزَقاً [6] متطايرة ، تقف صدر النهار بأبواب المعابد والكنائس ، تسأل الله أن يرحَمها ، والناس أن يطعموها .

حتى إذا زالت الشمس عن كبد السماء أخذت سَمْتها [7] إلى شاطئ البحر وجلست فوق بعض صخوره تناجي أمواجه ورماله ، وترقب أفقه البعيد كما يرقب المنجم كوكبه في أفق السماء . فإذا سرت إليها نسمة وجدت ريح ولدها فيها . وإذا أقبلت عليها موجة ظنت أنها رسول منه إليها . وإذا تراءت

---

(١) آدَهُ الأمر أوداً: بلغ منه مجهوده .

(٢) المتسلّبة: التي أحْدَت على زوجها أو غيره .

(٣) المذهوب به: المسلوب عقله ، ويقال أين يذهب بك ؟ أي بعقلك . (٤) المحقوف: المعْوَجّ

(٥) الأهْدام: جمع هِدْم وهو الثوب البالي المرَقَّع .

(٦) المِزَق: قطع الثوب الممزقة . (٧) السَّمْت: الطريق .

لها سفينة ماخرة على سطح الماء حسبتها السفينة التي تحمله . فلا يزال بصرها عالقاً بها لا يفارقها حتى ترسو على الشاطئ فتقف في طريق ركبانها ، تتصفح الوجوه ، وتتفرس الشمائل ، وتهتف باسم ولدها صارخة معولة ، وتقول :

« عباد الله ، من يدلني على ولدي ، أو ينشده لي في معالم الأرض ومجاهلها؛ فقد أضللته منذ عهد بعيد، فحار بي الدهر من بعده، فلا أنا سالية عنه ولا واجدة إليه سبيلاً ، فاحتسبوها يداً عند الله وحدثوني عنه هل عاد معكم ، أو تخلف عنكم ليأتي على أثركم ، أو انقطع الدهر به فلا أمل فيه بعد اليوم ؟ » فلا يلتفت إليها أحد ولا يفهم أحد ما تقول ، وربما لمحها بعض الناس فظنها امرأة ملتاثة [١] فرثى لها ، أو سائلة فتصدق عليها !

ولا يزال هذا شأنها في موقفها هذا حتى ترى الأمهات والأخوات والفتيات ، قد عدن بأولادهن وإخوانهن وآبائهن إلى منازلهن ولم يبق على شاطئ البحر من غاد ولا رائح سواها . فتتناول عصاها وتعود أدراجها إلى بيتها فتأخذ مجلسها من حافة قبر كانت قد احتفرته بيدها في أرض قاعتها وتوهمته مدفناً لولدها فتظل تبكي وتقول :

« في أي بطن من بطون الأرض مضجعك يا بنيَّ ، وتحت أي نجم من نجوم السماء مصرعك ، وفي أي قاع من قيعان البحر مثواك ، وفي أي جوف من أجواف الوحوش الضارية مأواك ؟

« لو يعلم الطير الذي مزق جثتك ، أو الوحش الذي ولغ دمك ، أو القبر الذي ضمك إلى أحشائه ، أو البحر الذي طواك في جوفه ، أن وراءك أمًّا مسكينة تبكي عليك من بعدك لرحموك من أجلي ؟

« عد إليَّ يابني فقيراً أو مقعداً أو كفيفاً ؛ فحسبي منك أن أراك بجانبي في الساعة التى أفارق فيها هذه الحياة ؛ لأقبلك قبلة الوداع وأعهد إليك بزيارة مضجعي مطلع كل شمس ومغربها لتخف بزَوْرتك عني ضمة القبر ، وتستنير بوجهك الوضاء ظلماته الحالكة !

« ما أسعد الأمهات اللواتي يسبقن أولادهن إلى القبور ، وما أشقى الأمهات اللواتي يسبقهن أولادهن إليها ، وأشقى منهن تلك الأم المسكينة التي تدب إلى الموت دبيباً وهي لا تعلم : هل تركت ولدها وراءها ، أو أنها ستجده أمامها ؟»

وهكذا كان شأنها صباحها ومساءها ، فلم تزل تبكي ولدها بكاء يعقوب ولده ، حتى ذهب بصرها ذهاب بصره ، ولكنها لم تستطع عن يوسفها صبراً .

دخل السجان على الفتى عشية ليلة في محبسه ، فاقترب منه ومد يده إلى سلسلته المثبتة في الجدار فانتزعها من مكانها ، فلم يقل شيئاً ولم يسائل نفسه هل هي ساعة نجاته أو ساعة حِمامه . ثم قاده إلى خارج المحبس حتى وصل به إلى صخرة جاثمة على مقربة من مجتمع القبيلة فشد سلسلته إليها وتركه مكانه ومضى . ففتح عينيه فرأى مكاناً غير مكانه ، ومنظراً غير منظره ، وسماء وأرضاً غير سمائه وأرضه ، فبدأ شعوره يعود إليه شيئاً فشيئاً ، حتى استفاق فتذكر ما كان فيه ورأى ما صار إليه .

هنا تذكر السعادة والشقاء ، والغربة والوطن ، والسجن وظلمته ، والقيد و وطأته . ثم طار بخياله إلى ما وراء البحار فذكر أمه وشقاءها من بعده ، وحنينها، ويأسها من لقائه ؛ فذرفت عيناه دمعة كانت هي أول دمعة أرسلها من جفنيه من تاريخ شقائه . وما زال يرسل العبرة إثر العبرة ، لا يهدأ ولا يستفيق ، حتى مضى شطر من الليل وهدأ الناس جميعاً في مضاجعهم فأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب بخياله إلى حيث شاء أن يذهب .

فإنه لكذلك وقد رنَّقت في عينيه سنة من النوم ، إذ شعر بيد تلمس كتفيه فرفع رأسه ، فإذا شبح أبيض قائم فوق رأسه ، فخيل إليه أن ملكاً نورانياً نزل إليه من علياء السماء لينقذه من شقائه ؛ فتبينه فإذا فتاة جميلة بيضاء، ما التفت الأزر [٢] على مثلها حسناً وبهاء ، تتمشى في بياضها سمرة رقيقة كسمرة

(١) التاث : جُنَّ واختلط .

(٢) الأُزُر: جمع إزار .

السحاب الرَّهو[1] الذي يخالط وجه الشمس في ضحوة النهار ، فسألها : « من أنت ؟ »

قالت : « أنا فتاة من فتيات هذا الحي ، وقد ألممت بشيء من أمرك ، فعلمت أنك شقي فرحمتك مما أنت فيه ؛ فجئتك أطلق وَثاقك لتذهب حيث تشاء ، فلا مَثُوبَة يقدمها المرء بين يدي ربه يوم جزائه أفضل من مواساة البائس وتفريج كربة المكروب . »

فعجب لزنجية بيضاء ووثنية تعبد الله ، وبربرية تحمل بين جنبيها قلباً يعطف على البؤساء والمنكوبين . وقال في نفسه : « ما لهذه الفتاة بد من شأن ، وورد عليه من أمرها ما ذهب بلبِّه ، وملك عليه نفسه وهواه ، وأنساه كل شأن في الحياة إلا شأنها فلبث صامتاً واجماً لا ينطق . »

وقال لها : « اذهبي لشأنك يا سيدتي فإنني لا أريد النجاة . »

فعلمت أنها ثورة من ثورات اليأس ، فدنت منه ووضعت يدها على عاتقه ، وقالت :

« لا تجعل لليأس إلى قلبك أيها الفتى سبيلاً ، وانجُ بحياتك من يد الموت فليس بينك وبينه إن بقيت هنا إلا أن ينحدر عن وجهك قناع هذا الليل ، فإذا أنت فِلذ طائرة مع شفرات السيوف ، فلا تفجع نفسك في نفسك ، ولا تفجع هذه المسكينة الواقفة بين يديك فإن شديداً عليَّ جداًّ أن أراك بعد قليل ذبيحة في يد الذابح ، أو مضغة في فم الآكل . »

قال : « إنك لا تستطيعين نجاتي . »

قالت : « لا أفهم ما تقول ، فإنني ما جئتك إلا وأنا عالمة ماذا أصنع . »

قال : « قد كنت قبل اليوم موثقاً بوثاق واحد فأصبحت موثقاً بوثاقين ، فإن استطعت أن تحلي وثاق قدمي فإنك لا تستطيعين أن تحلي وثاق قلبي . »

فألمت بسريرة نفسه فرفعت وجهها إلى السماء ولبثت شاخصة إليها ساعة ، فرفع رأسه إليها ولبث

(١) الرَّهو: الرقيق .

شاخصاً إلى وجهها نظر المصور الماهر إلى تمثاله البديع ، حتى شعر بدمعة حارة قد سقطت من جَفنها على وجهه ، فجرت في مجرى الدموع من خده فانحدرت من جفنه دمعة مثلها فالتقت بدمعتها فامتزجتا معاً .

فمد يده إلى ردائها فاجتذبها إليه ، وقال : « قد طال وقوفك يا سيدتي فاجلسي بجانبي نتحدث قليلاً . »

فجلست على مقربة منه ، فقال لها : « إن امتزاج دمعي بدمعك في هذه الساعة قد دلني على أننا لن نفترق بعد اليوم أحياء أو أمواتاً ، فإن كنت تريدين لي النجاة فإنني لا أنجو إلا بك . »

قالت : « ليتني أستطيع ذلك يا سيدي . »

قال : « وما يمنعك منه ؟ »

فنظرت إليه نظرة دامعة ، وقالت : « أخاف أن أحبك ! »

قال : « ولم تخافين ؟ »

قالت : « لا أعلم ! »

قال : « أنا لا أسألك عما تكتمين في صدرك من الأسرار ، ولكني أسألك أن تتركيني وشأني في يد القدر يفعل بي ما يشاء ، فقد كنت أخاف الموت قبل أن أراك . أما اليوم فحسبي عزاء عما ألاقيه من غصصه وآلامه نظرة رحمة تلقينها عليَّ في مصرعي ، ودمعة حزن تسكبينها من بعدي على تربتي . »

فما استقبلته إلا بدموعها تنحدر على خديها كالعقد وهى سِلكُه فانتثر ، ثم مدت يدها إلى قيده فعالجته حتى انصدع ، وقالت : « إني ذاهبة معك وليقض الله فيَّ وفيك قضاءه . »

مشيا يطويان القفار ، ويعبران الأنهار ويضحيان[2] مرة ويَخْصَران[3] أخرى ، ويردان آجن[4] المياه وصفوها ويقتاتان يابس الثمار ورطبها ، فإذا لاح لهما

(٢) ضَحِيَ: برز للشمس .

(٣) خَصِرَ: بَرَدَ .

(٤) الآجِنُ من الماء: الذي تغير طعمه ولونه .

ظل شجرة أو شاطئ غدير أو سفح جبل أويا إليه فاستراحا بجانبه قليلا ثم عادا إلى شأنهما .

وكانت لا تزال تغشى وجه الفتاة مذ فارقت موطنها سحابة سوداء من الحزن ما تكاد تنقشع عنه . وكانا إذا نزلا منزلاً وأخذا مضجعهما من تربه وأحجاره ، نهضت من مرقدها بعد هدأة من الليل وانتحت ناحية من حيث تظن أنه لا يشعر بمكانها ، ومدت يدها إلى صدرها فتناولت صليباً صغيراً فقبلته.

ثم أنشأت تهمهم بكلام خفيٍّ ، كأنها تناجي به شخصاً غائباً عنها فتستغفره من ذنب جنته إليه مرة، وتطلب معونته على أمر لا تعرف مصيره ، ولا تعلم وجه الصواب فيه أخرى ، حتى ينبثق نور الفجر فتعود إلى مرقدها .

وكان كلما سألها عن شأنها ، التوت عليه ودافعته عنها حتى تلوم أن يعاودها فتركها وشأنها ، وقد أصبح يحمل في صدره من الهم فوق ما تحمل من هم نفسها، حتى أشرفا بعد مسير ثلاثين يوماً على سواء العمران ، فاستبشرا وعلما أنهما قد أصبحا في الساعة الأخيرة من ساعات الشقاء .

وكانا قد وصلا إلى نهر صغير هناك ، فجلسا بجانبه تحت شجرة مورقة يتحدثان ، وهي أول مرة جلسا فيها للحديث ، فقال لها :

« ما حفظ الله حياتنا في هذه السَّفْرة الطويلة في هذه القفرة الجرداء الموحشة إلا وقد كتب لنا في لوح مقاديره سعادة لا أحسب أنه قد أعد خيراً منها لعباده المتّقين في جنات النعيم .»

قالت : « ومتى كانت هذه الحياة موطناً للسعادة أو مستقراً لها ؟ ومتى سعد أبناؤها بها فنسعد مثلهم كما سعدوا ؟ وإن كان لا بد من سعادة في هذه الحياة ، فسعادتها أن يعيش المرء فيها معتقداً أن لا سعادة له فيها ليستطيع أن يقضي أيامه المقدرة له على ظهرها هادئ القلب ساكن النفس ، لا يكدر عليه عيشه أمل كاذب ، ولا رجاء خائب !»

قال : « إن السعادة حاضرة بين أيدينا ، وليس بيننا وبينها إن أردناها إلا أن نطوي هذه المرحلة الباقية من هذا القفر ، فنلجأ إلى أول بيت نلقاه في طريقنا من بيوت الله ، فنجثو أمام مذبحه ساعة نخرج من بعدها زوجين سعيدين لا يحول بيننا حائل ، ولا يكدر صفونا مكدر .»

فأطرقت هنيهة ، ثم رفعت رأسها فإذا دمعة صافية تنحدر على خدها ، فقال : « ما بكاؤك يا سيدتي ؟»

فقالت : « أ تذكر ليلة النجاة إذ دعوتني إلى الفرار معك ، فقلت لك إني أخاف إن فررت معك أن أحبك ؟»

قال : « نعم .»

قالت : « وا أسفاه لقد وقع اليوم ما كنت منه أخاف .»

ثم صرخت صرخة عالية وقالت: «ماذا يا أماه ؟»

وسقطت مكبَّة على وجهها ، فدنا منها وأمسك بيدها فإذا رعدة شديدة تتمشى في أعضائها فعلم أنها البُرَداء[1] وعمد إلى بعض الأشجار فاقتطع منها بضعة أعواد ، ومشى يفتش عن الناس في كوخ كان يتراءى له على البعد ، حتى بلغه فوجد على بابه كاهناً شيخاً جليل المنظر فدنا منه وحياه تحية حياه بأحسن منها ، وقال له : « ما شأنك يا بنيَّ ؟»

قال : « إن بجانب ذلك النهر فتاة مسكينة تركتها ورائي تشكو البرد ، فهل أجد عندك جذوة نار أعود بها إليها لتصطلي بها ؟»

فمكنه من طلبته ، وقال له : « كتب الله لك ولعليلتك السلامة يا بنيَّ ، فاذهب فإني على أثرك .»

فعدا الفتى عدواً شديداً حتى بلغ النهر فأدهشه أن رأى الفتاة هادئة ساكنة طيبة النفس لا تشكو برداً ولا ألماً ، فأقبل عليها متهللاً .

وقال لها : « لعل ما كان يخالط نفسك من الألم لذكر أهلك ووطنك قد ذهب بذهاب الأيام .»

قالت : « ما كان يخالط نفسي من ذلك شيء ، فاجلس أحدثك حديثي فقد آن أن أفضي به إليك .»

(١) البُرَداء: الحُمّى مع البرد ، وتُسمّى النّافضة .

فجلس بجانبها فأنشأت تحدثه ، وتقول :

« أنا فتاة غريبة مثلك عن هذه الديار لا أعرف من ساكنيها غير نفسي ، ولا من أرضها غير قبر قد زال اليوم رسمه وبلي مع الأيام دفينه ، فقد ولدتني أمي على فراش رجل أبيض وفد من دياركم منذ عشرين عاماً فالتقى بها عند مروره بحيها فأحبها وأحبته ، ثم فرت معه إلى ما وراء هذه الصحراء ، فدانت بدينه ، ثم تزوجها فولداني وعشنا جميعاً حقبة من الدهر عيش السعداء الآمنين .

« وكان رجال قبيلة أمي لا يزالون يتطلبون السبيل إلينا حتى سقطوا علينا سقوط القضاء في جنح ليلة من ليالي الظلام ، فاقتادونا جميعاً إلى أرضهم . وكنت إذ ذاك لم أسلخ العاشرة من عمري ، فقتلوا أبي أمامي وأمام أمي قتلة لا يزال منظرها حاضراً بين يدي حتى الساعة لا يفارقني . فحزنت أمي عليه حزناً شديداً ما زال يدنو بها من القبر شيئاً فشيئاً حتى جاءت ساعتها ؛ فحضر موتها رسول من رسل المسيح كان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين ، فدعتني إليها أمامه ، وقالت لي : « يا بنية إن أمي قد ولدتني للشقاء في هذا العالم ، وأحسب أني قد ولدتك له كذلك فحسبنا ذلك ، ولا تكوني سبباً في شقاء أحد من بعدك وانذري نفسك للعذراء نذراً لا يحله إلا الموت .» فأذعنت لأمرها وأشهدت الكاهن على نذري فتلألأ وجهها بشراً وسروراً، ثم نظرت نظرة في السماء وقالت : « ها أنذا على أثرك يا رافائيل ، ثم فاضت روحها .»

فاضطرب الفتى عند سماع هذا الاسم وقال لها : «هل تعرفين وطن أبيك وأسرته ؟»

قالت : « نعم .»

وسمتهما له فاستطير فرحاً وسروراً ، وقال : « أحمدك اللهم فقد وجدت ضالتي .»

فعجبت لأمره ، وقالت : « وأي ضالة تريد ؟»

قال : « أ تذكرين ليلة اللقاء إذ امتزجت دمعتانا معاً فقلت لك إنها صلة بيني وبينك لا يقطعها إلا الموت ؟»

قالت : « نعم .»

قال : « قد كنت أمُتُّ [1] إليك قبل اليوم بحرمة الحب وحدها ، فأصبحت أمت إليك بحرمة الحب والقربى ، فأنت اليوم حبيبتي وابنة خالي معا .»

فقالت بصوت خافت : « أحمد الله فقد وجدت لي في هذه الساعة العصيبة أخاً .»

وأخذ جسمها يضطرب اضطراباً شديداً ، و وجهها يربدُّ [2] شيئاً فشيئاً ، فذعر الفتى وارتاع وحنا عليها وقال : « ماذا أرى ؟»

قالت : « لا ترع ، فأصغ إليَّ ؛ فإن لحديثي بقية لم تسمعها . إنني منذ حفظت وصية أمي و وهبت العذراء نفسي ، كان لا بد لي أن أتخذ لي ملجأ أفزع إليه في اليوم الذي أخاف أن يغلبني فيه هواي على ديني ، فكنت لا أزال أحمل تلك القارورة معي حتى جاء اليوم الذي خفته فلجأت إليها فنجوت وأستودعك الله .»

فنظر الفتى حيث أشارت ، فرأى قارورة مطرحة وراءها فتناولها ، فإذا هي فارغة إلا من بقية صفراء في قرارتها ففهم كل شيء .

هنالك شعر كأن شعبة من شعاب قلبه قد هوت بين أضلاعه وكأن طائراً قد نفض جناحيه ، ثم طار عن رأسه إلى جو السماء فصعق في مكانه صعقةً لم يشعر بعدها بشيء مما حوله . فلم يستفق إلا بعد حين ففتح عينيه فإذا الفتاة بجانبه جثة باردة ، وإذا الكاهن صاحب الكوخ واقفاً أمامه يحمل على كفه طعاماً كان قد جاء به إليهما ويقلب نظره حائراً لا يفهم مما يرى شيئاً . فوثب الفتى إليه حتى صار أمامه وجهاً لوجه ونظر إليه نظرةً شزراء كتلك النظرة التي يلقيها الموتور على وجه واتره ، وكأن قد خولط في عقله فأخذ يهذي ، ويقول :

« أ تدري أيها الرجل لِمَ ماتت هذه الفتاة ؟ لأنها وهبت نفسها للعذراء ، ثم عرض لها الحب في طريقها فوقفت حائرة بين قلبها ودينها فلم تجد لها

---

(١) مَتَّ إليه: اتّصلَ بِهِ . (٢) يَرْبَدُّ: يتغيَّرُ لونُه .

سبيلاً إلى الخلاص إلا سبيل الانتحار فانتحرت . تلك جرائمكم يا رجال الأديان التي تقترفونها على وجه الأرض . ما كفاكم أن جعلتم أمر الزواج في أيديكم تحلُّون منه ما تحلون ، وتربطون ما تربطون ، حتى قضيتم بتحريمه قضاء مبرماً لا يقبل أخذاً ولا رداً .

« إن الذي خلقنا وبث أرواحنا في أجسامنا هو الذي خلق لنا هذه القلوب وخلق لنا فيها الحب ، فهو يأمرنا أن نحب ، وأن نعيش في هذا العالم سعداء هانئين، فما شأنكم والدخول بين المرء وربه ، والمرء وقلبه ؟

« إن الله بعيد في علياء سمائه عن أن تتناوله أنظارنا ، وتتصل به حواسنا ، ولا سبيل لنا أن نراه إلا في جمال مصنوعاته وبدائع آياته ، فلا بد لنا من أن نراها ونحبها لنستطيع أن نراه ونحبه .

« إن كنتم تريدون أن نعيش على وجه الأرض بلا حب ، فانتزعوا من بين جنوبنا هذه القلوب الخفاقة ثم اطلبوا منا بعد ذلك ما تشاؤون ؛ فإننا لا نستطيع أن نعيش بلا حب ما دامت لنا أفئدة خافقة .

« أ تظنون أيها القوم أننا ما خلقنا في هذه الدنيا إلا لننتقل فيها من ظلمة الرحم إلى ظلمة الدير ، ومن ظلمة الدير إلى ظلمة القبر ؟ بئست الحياة حياتنا إذن وبئس الخلق خلقنا . إننا لا نملك في هذه الدنيا سعادة نحيا بها غير سعادة الحب ، ولا نعرف لنا ملجأ نلجأ إليه من هموم العيش وأرزائه سواها ، ففتشوا لنا عن سعادة غيرها قبل أن تطلبوا منا أن نتنازل لكم عنها .

« هذه الطيور التي تغرد في أفنائها إنما تغرد بنغمات الحب ، وهذا النسيم الذي يتردد في أجوائه إنما يحمل في أعطافه رسائل الحب ، وهذه الكواكب في سمائها ، والشموس في أفلاكها ، والأزهار في رياضها ، والأعشاب في مروجها والسوائم في مراتعها ، والسوارب في أحجارها .. إنما تعيش جميعاً بنعمة الحب . فمتى كان الحيوان الأعجم والجماد الصامت ، أيها القساة المستبدون ، أرفع شأناً من الإنسان الناطق وأحق منه بنعمة الحب والحياة ؟!

« فهنيئاً لها جميعها أنها لا تعقل عنكم ما تقولون ، ولا تسمع منكم ما تنطقون ؛ فقد نجت بذلك من شر عظيم ، وشقاء مقيم .

« إننا لا نعرفكم أيها القوم ولا ندين بكم ، ولا نعترف لكم بسلطان على أجسامنا أو أرواحنا ، ولا نريد أن نرى وجوهكم أو نسمع أصواتكم ، فتواروا عنا واذهبوا وحدكم إلى معابدكم أو مغاوركم ؛ فإنا لا نستطيع أن نتبعكم إليها ، ولا أن نعيش معكم فيها .

« إن وراءنا نساء ضعاف القلوب ورجالاً ضعاف العقول ، ونحن نخافكم عليهم أن يمتد شركم إليهم؛ فلابد لنا أن نقف في وجوهكم ونعترض سبيلكم لنذودكم عنهم ؛ حتى لا تصلوا إليهم فتفسدوا عليهم البقية الباقية من قلوبهم وعقولهم .

« إنا لا نعبد إلا الله وحده ، ولا نشرك به غيره ، وفي استطاعتنا أن نعرف الطريق إليه وحدنا بدون دليل يدلنا عليه ، فلا حاجة لنا بكم ولا بوساطتكم .

« كتاب الكون يغنينا عن كتابكم ، وآيات الله تغنينا عن آياتكم ، وأناشيد الطبيعة ونغماتها تغنبنا عن أناشيدكم ونغماتكم . هذا الجمال المترقرق في سماء الكون وأرضه ، وناطقه وصامته ومتحركه وساكنه ، إنما هو مرآة نقية صافية ننظر فيها فنرى وجه الله الكريم مشرقاً متلألئاً فنخرُّ بين يديه ساجدين ، ثم نصغي إليه لنستمع وحيه فنسمعه يقول لنا : أيها الناس إنما خلق الجمال متعة لكم فتمتعوا به ، وإنما خلقتم حياة للجمال فاحيوه .

« ذلك أمر الله الذي نسمعه ولا نسمع أمراً سواه .»

وما إن وصل في حديثه إلى هذا الحد حتى ثقل لسانه ، و وهنت عزيمته ، وارتعدت مفاصله ، فسقط في مكانه بزفر زفيراً شديداً ، ويئن أنيناً محزناً ، فاقترب منه الشيخ ووضع يده على رأسه ، وقال له :

« ارفق بنفسك يا بنيَّ ؛ فما أنت بأول ثاكل على وجه الأرض ، ولا فقيدك بأول راحل عنها ، وإن في رحمة الله ورضوانه عزاء للصابرين وجزاء

للمحسنين .»

فأهوى الفتى على يده وأخذ يقبلها ، ويقول: « اغفر لي ذنبي يا أبت ، فقد كنت من الظالمين .»

قال : « غفر الله لك يا بنيّ ؛ فما دون رحمة الله باب موصد ولا رتاج معترض .»

قال له : « يا أبت إن هذه الفتاة غريبة عن هذه الأرض ، وليس لها فيها أحد سواي ، وقد ماتت من أجلي وفي سبيلي ، فهل تأذن لي أن أدنو منها لأقبلها قبلة الوداع في آخر ساعة من ساعاتها على وجه الأرض ؟»

قال : « افعل يا بنيّ .»

فزحف على ركبتيه حتى بلغ مكانها فضمها إليه ضمةً شديدة وأهوى بفمه على فمها ، فقبّلها لأول مرة في حياته قبلة فاضت روحه فيها .

في الساعة التي دفن فيها هذان الشهيدان تحت تلك الشجرة المورقة على شاطئ ذلك النهر الجاري ، مرت بكوخ العجوز امرأة من جاراتها كانت تعتادها الزيارة من حين إلى حين . فنظرت إلى مكانها الذي اعتادت أن تتخذه من حافة ذلك القبر المفتوح فرأته خالياً ، فأشرفت على الحفرة فوجدتها متردية فيها معفرة بترابها لا حَراك بها ، فملأت بالتراب الذي كان مجتمعاً حول الحفرة تلك الأشبار الخمسة التي هي مسافة ما بين الحياة والموت ، ثم أسبلت فوق تربتها دمعة كانت هي كل نصيبها من الدنيا !

***

الحجاب

« موضوعة »

ذهب فلان إلى أوروبا وما تنكر من أمره شيئاً ، فلبث فيها بضع سنين . ثم عاد وما بقي مما كنا نعرفه منه شيء .

ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها ، وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة . وذهب بقلب نقي طاهر يأنس بالعفو ويستريح إلى العذر ، وعاد بقلب ملفف مدخول لا يفارقه السخط على الأرض وساكنها ، والنقمة على السماء وخالقها. وذهب بنفس غضة خاشعة ترى كل نفس فوقها ، وعاد بنفس ذهّابة نزّاعة لا ترى شيئاً فوقها ، ولا تلقي نظرة واحدة على ما تحتها . وذهب برأس مملوءة حكماً ورأياً ، وعاد برأس كرأس التمثال المثقب لا يملؤها إلا الهواء المتردد. وذهب وما على وجه الأرض أحب إليه من دينه ووطنه ، وعاد وما على وجهها أصغر في عينيه منهما .

وكنت أرى أن هذه الصورة الغريبة التي يتراءى فيها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك الديار إلى أوطانهم إنما هي أصباغ مفرغة على أجسامهم إفراغاً ، لا تلبث أن تطلع عليها شمس المشرق حتى تتصل وتتطاير ذراتها في أجواء السماء ، وأن مكان المدنية الغربية من نفوسهم مكان الوجه من المرآة ؛ إذا انحرف عنها زال خياله منها .

فلم أشأ أن أفارق ذلك الصديق ولبسته على علاته وفاءً بعهده السابق ورجاء لغده المنتظر ، محتملاً في سبيل ذلك من حمقه و وسواسه وفساد تصوراته وغرابة أطواره ، ما لا طاقة لمثلي باحتمال مثله ، حتى جاءني ذات ليلة بداهية الدواهي ومصيبة المصائب ، فكانت آخر عهدي به .

دخلت عليه فرأيته واجماً مكتئباً فحييته فأومأ إليّ بالتحية إيماء ، فسألته ما باله ، فقال :

« ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة في عناء لا أعرف السبيل إلى الخلاص منه ، ولا أدري مصير أمري فيه .»

قلت : « و أي امرأة تريد ؟»

قال : « تلك التي يسمّيها الناس زوجتي ، وأسميها الصخرة العاتية في طريق مطالبي وآمالي .»

قلت : « إنك كثير الآمال يا سيدي فعن أي آمالك تتحدث ؟»

قال : « ليس لي في الحياة إلا أمل واحد هو أن

أغمض عيني ثم أفتحهما فلا أرى برقعاً على وجه امرأة في هذا البلد !»

قلت : « ذلك ما لا تملكه ولا رأي لك فيه .»

قال : « إن كثيراً من الناس يرون في الحجاب رأيي ، ويتمنون في أمره ما أتمنى ، ولا يحول بينهم وبين نزعه عن وجوه نسائهم وإبرازهن إلى الرجال يجالسنهم كما يجلس بعضهن إلى بعض إلا العجز والضعف والهيبة التي لاتزال تلم بنفس الشرقي كلما حاول الإقدام على أمر جديد .

« فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادي[1] القديم الذي وقف سداً دون سعادة الأمة وارتقائها دهراً طويلاً ، وأن يتم على يدي ما لم يتم على يد أحد غيري من دعاة الحرية وأشياعها .

« فعرضت الأمر على زوجتي فأكبرته وأعظمته ، وخيل إليها أنني جئتها بإحدى النكبات العظام والرزايا الجسام ، وزعمت أنها إن برزت إلى الرجال فإنها لا تستطيع أن تبرز إلى النساء بعد ذلك حياء منهن وخجلاً .

« ولا خجل هناك ولا حياء ، ولكنه الموت والجمود والذل الذي ضربه الله على هؤلاء النساء في هذا البلد أن يعشن في قبور مظلمة من خدورهن وخمرهن حتى يأتيهن الموت فينتقلن من مقبرة الدنيا إلى مقبرة الآخرة ، فلا بد لي أن أبلغ أمنيتي ، وأن أعالج هذا الرأس القاسي المتحجر علاجاً ينتهي بإحدى الحسنيين إما بكسره أو بشفائه .»

فورد عليَّ من حديثه ما ملأ نفسي همًّا وحزناً ونظرت إليه نظرة الراحم الرائي ، وقلت :

« أ عالم أنت أيها الصديق ما تقول ؟»

قال : « نعم أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها ، واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعاً حيث وقعت .»

قلت : « هل تأذن لي أن أقول لك إنك عشت فترة طويلة في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم ، فهل تذكر أن نفسك حدثتك يوماً من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء مما لا تملك يمينك من أعراض نسائهم ، فنلت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكه ؟»

قال : « ربما وقع لي شيء من ذلك فماذا تريد ؟»

قلت : « أريد أن أقول لك إني أخاف على عرضك أن يلم به من الناس ما ألم بأعراض الناس منك .»

قال : « إن المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها وعفتها في حصن حصين لا تمتد إليه المطامع .»

فتداخلني ما لم أملك نفسي معه ، وقلت له : « تلك هي الخدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء ، والثُّلْمة التي يعثر بها في زوايا رؤوسكم فينحدر منها إلى عقولكم ومداركم فيفسدها عليكم ؛ فالشرف كلمة لا وجود لها في قواميس اللغة ومعاجمها ، فإن أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم قلما نجدها . والنفس الإنسانية كالغدير الراكد لا يزال صافياً رائقاً حتى يسقط فيه حجر فإذا هو مستنقع كدر . والعفة لون من ألوان النفس لا جوهر من جواهرها ، وقلما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة .»

قال : « أ تنكر وجود العفة بين الناس ؟»

قلت : « لا أنكرها لأني أعلم أنها موجودة بين البله الضعفاء والمتكلفين ؛ ولكني أنكر وجودها عند الرجل القادر المحتلب والمرأة الحاذقة المترفقة إذا سقط بينهما الحجاب وخلا وجه كل منهما لصاحبه .

« في أي جو من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرز نساؤكم لرجالكم ؟

« أ في جو المتعلمين ، وفيهم من سئل مرة : لِمَ لَمْ يتزوج ؟ فأجاب : نساء البلد جميعاً نسائي !

« أم في جو الطلبة ، وفيهم من يتوارى عن أعين خلانه وأترابه حياءً وخجلاً إن خلت محفظته يوماً

(١) العادي القديم: نسبة إلى قبيلة عاد .

من الأيام من صور عشيقاته وخليلاته ، أو أقفرت من رسائل الحب والغرام ؟

« أم في جو الرعاع والغوغاء ، وكثير منهم يدخل البيت خادماً ذليلاً ، ويخرج منه صهراً كريماً ؟

« وبعد: فما هذا الولع بقصة المرأة ، والتَّمَطُّق[1] بحديثها ، والقيام والقعود بأمرها وأمر حجابها وسفورها ، وحريتها وأسرها ، كأنما قد قمتم بكل واجب للأمة عليكم في أنفسكم ، فلم يبق إلا أن تفيضوا من تلك النعم على غيركم ؟!

« هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم ، فإن عجزتم عن الرجال فأنتم عن النساء أعجز !

« أبواب الفخر أمامكم كثيرة ، فاطرقوا أيها شئتم، ودعوا هذا الباب موصداً ؛ فإنكم إن فتحتموه فتحتم على أنفسكم ويلاً عظيماً وشقاءً طويلاً .

« أروني رجلاً واحداً منكم يستطيع أن يزعم في نفسه أنه يمتلك هواه بين يدي امرأة يرضاها ؛ فأصدق أن امرأة تستطيع أن تملك هواها بين يدي رجل ترضاه !

« إنكم تكلّفون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه، وتطلبون عندها ما لا تعرفونه عند أنفسكم ، فأنتم تخاطرون بها في معركة الحياة مخاطرة لا تعلمون أتربحونها من بعدها أم تخسرونها ، وما أحسبكم إلا خاسرين .

« ما شكت المرأة إليكم ظلماً ، ولا تقدمت إليكم في أن تحُلّوا قيدها وتطلقوها من أسرها ، فما دخولكم بينها وبين نفسها ؟ وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها ؟

« إنها لا تشكو إلا فضولكم وإسفافكم ، ومضايقتكم لها ووقوفكم في وجهها حيثما سارت وأينما حلت ، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلاً إلا أن تسجن نفسها بنفسها في بيتها فوق ما سجنها أهلها فأوصدت من دونها بابها ، وأسبلت أستارها ؛ تبرماً بكم وفراراً من فضولكم ، فوا عجباً لكم تسجنونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها !

« إنكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم ، ولا تبكون عليها بل على أيام قضيتموها في ديار يسيل جوها تبرجاً وسفوراً ، ويتدفق خلاعة واستهتاراً ، تودون بجدع الأنف لو ظفرتم هنا بذلك العيش الذي خلفتموه هناك .

« لقد كنا وكانت العفة في سِقاء[2] من الحجاب موكوء[3] فمازلتم به تثقبون في جوانبه كل يوم ثقباً والعفة تتسلل منه قطرة قطرة حتى تقبض[4] وتكرّش ، ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جئتم اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة !

« عاشت المرأة المصرية حقبة من دهرها هادئة مطمئنة في بيتها ، راضية عن نفسها وعن عيشها ، ترى السعادة كل السعادة في واجب تؤديه لنفسها ، أو وقفة تقفها بين يدي ربها ، أو عطفة تعطفها على ولدها ، أو جلسة تجلسها إلى جارتها تبثها ذات نفسها وتستبثها سريرة قلبها ، وترى الشرف كل الشرف في خضوعها لأبيها وائتمارها بأمر زوجها ، ونزولها عند رضاهما . وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام ، فتحب زوجها لأنه زوجها ، كما تحب ولدها لأنه ولدها ، فإن رأى غيرها من النساء أن الحب أساس الزواج رأت هي أن الزواج أساس الحب .

« فقلتم لها : إن هؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا بأوفر منك عقلاً ولا أفضل رأياً ، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك ، فلا حق لهم في هذا السلطان الذي يزعمونه لأنفسهم عليك ، فازدرت أباها ؛ وتمردت على زوجها وأصبح البيت الذي كان بالأمس عرساً من الأعراس الضاحكة مناحة قائمة لا تهدأ نارها ، ولا يخبو أوارها .

« وقلتم لها : لا بد لك أن تختاري زوجك

---

(١) تَمَطّق: صَوَّتَ بلسانه عند استطابة الطعام .

(٢) السِّقاء: وِعاءٌ من جِلْد يكون للماءِ واللبن .

(٣) أوكى القربة: شد رأسها بالوكاء ، والوكاء: الرباط .

(٤) تقبض: يبس .

بنفسك حتى لا يخدعك أهلك عن سعادة مستقبلك ؛ فاختارت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها ، فلم يزد عمر سعادتها على يوم وليلة ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الأليم .

« وقلتم لها : إن الحب أساس الزواج ؛ فما زالت تقلب عينيها في وجوه الرجال مصعدة مصوبة حتى شغلها الحب عن الزواج فعُنيت به عنه .

« وقلتم لها : إن سعادة المرأة في حياتها أن يكون زوجها عشيقها ، وما كانت تعرف إلا أن الزوج غير العشيق . فأصبحت تطلب في كل يوم زوجاً جديداً يحيي من لوعة الحب ما أمات الزوج القديم ، فلا قديماً استبقت ولا جديداً أفادت[1] !

« وقلتم لها : لا بد أن تتعلمي لتحسني تربية ولدك، والقيام على شئون بيتك ؛ فتعلمت كل شيء إلا تربية ولدها ، والقيام على شئون بيتها !

« وقلتم لها : نحن لا نتزوج من النساء إلا من نحبها ونرضاها ويلائم ذوقها ذوقنا ، وشعورها شعورنا. فرأت أن لا بد لها أن تعرف مواقع أهوائكم ، ومباهج أنظاركم لتتجمل لكم بما تحبون ، فراجعت فهرس حياتكم صفحة صفحة فلم تر فيه غير أسماء الخليعات المُسْتَهْتَرات[2] ، والضاحكات اللاعبات والإعجاب بهن والثناء على ذكائهن وفطنتهن ؛ فتخلعت واستُهْتِرَت لتبلغ رضاكم ، وتنزل عند محبتكم . ثم مشت إليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضاً، كما تعرض الأمة نفسها في سوق الرقيق فأعرضتم عنها ونَبَوْتم بها .»

« وقلتم لها : إنا لا نتزوج النساء العاهرات ، كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعاً ساقطات إذا سلمت لكم نساؤكم ، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة وقد أباها الخليع ، وترفع عنها المحتشم ، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت .

« وكذلك انتشرت الريبة في نفوس الأمة جميعاً وتمشت الظنون بين رجالها ونسائها ، فتعاجز الفريقان وأظلم الفضاء بينهما ، وأصبحت البيوت كالأديرة لا يرى فيها الرائي إلا رجالاً مترهبين ونساء عانسات .

« ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون ، وهذا رثاؤكم لها وعطفكم عليها !

« نحن نعلم ، كما تعلمون ، أن المرأة في حاجة إلى العلم ، فليهذبها أبوها أو أخوها ، فالتهذيب أنفع لها من العلم ؛ وإلى اختيار الزوج العادل الرحيم . فليحسن الآباء اختيار الأزواج لبناتهم وليجمل الأزواج عشرة نسائهم . وإلى النور والهواء تبرز إليهما وتتمتع فيهما بنعمة الحياة ، فليأذن لها أولياؤها بذلك ، وليرافقها رفيق منهم في غدواتها وروحاتها ، كما يرافق الشاة راعيها خوفاً عليها من الذئاب . فإن عجزنا عن أن نأخذ الآباء والإخوة والأزواج بذلك فلننفض أيدينا من الأمة جميعها نسائها ورجالها ، فليست المرأة بأقدر على إصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها .

« أعجب ما أعجب له في شئونكم أنكم تعلمتم كل شيء إلا شيئاً واحداً ، هو أدنى إلى مداركم أن تعلموه قبل كل شيء ، وهو أن لكل تربة نباتاً ينبت فيها ، ولكل نبات زمناً ينمو فيه !

« رأيتم العلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات العلوم بين أمم قد فرغت من ضرورياتها ؛ فاشتغلتم بها مثلهم في أمة لا يزال سوادها الأعظم في حاجة إلى معرفة حروف الهجاء !

« ورأيتم الفلاسفة فيها ينشرون فلسفة الكفر بين شعوب ملحدة لها من عقولها وآدابها ما يغنيها بعض الغناء عن إيمانها ؛ فاشتغلتم بنشرها بين أمة ضعيفة ساذجة لا يغنيها عن إيمانها شيء ، إن كان هناك ما يغني عنه !

« ورأيتم الرجل الأوروبي حراً مطلقاً ، يفعل ما يشاء ، ويعيش كما يريد ؛ لأنه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته في الساعة التي يعلم فيها أنه قد وصل إلى حدود الحرية التي رسمها لنفسه فلا يتخطاها ، فأردتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسها رجلاً ضعيف

---

(١) أفاد: بمعنى استفاد .

(٢) استُهتر فلان: اتبع هواه فلا يبالي بما يفعل .

الإرادة والعزيمة يعيش من حياته الأدبية في رأس منحدر زلق ، إن زلّت به قدمه مرة تدهور من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة ويتردى في قرارتها .

« ورأيتم الزوج الأوروبيَّ الذي أطفأت البيئة غَيرته وأزالت خشونة نفسه وخُرْشتها يستطيع أن يرى زوجته تخاصر من تشاء ، وتصاحب من تشاء ، وتخلو بمن تشاء ، فيقف أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلد، فأردتم الرجل الشرقيَّ الغيور الملتهي أن يقف موقفه ، ويستمسك استمساكه .

« ورأيتم المرأة الأوروبية الجريئة المتفتية في كثير من مواقفها مع الرجال تحتفظ بنفسها وكرامتها ، فأردتم من المرأة المصرية الضعيفة الساذجة أن تبرز للرجال بروزها ، وتحتفظ بنفسها احتفاظها !

« وكل نبات يزرع في أرض غير أرضه ، أو في ساعة غير ساعته ، إما أن تأباه الأرض فتلفظه ، وإما أن ينشب فيها فيفسدها .

« إنا نضرع إليكم باسم الشرف الوطني والحرمة الدينية أن تتركوا تلك البقية الباقية من نساء الأمة مطمئنات في بيوتهن ، ولا تزعجوهن بأحلامكم وآمالكم ، كما أزعجتم من قبلهن . فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا جرح الشرف . فإن أبيتم إلا أن تفعلوا فانتظروا بأنفسكم قليلاً ريثما تنتزع الأيام من صدوركم هذه الغيرة التي ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا في حياتكم الجديدة سعداء آمنين .»

فما زاد الفتى على أن ابتسم في وجهي ابتسامة الهزء والسخرية ، وقال : « تلك حماقات ما جئنا إلا لمعالجتها ؛ فلنصطبر عليها حتى يقضي الله بيننا وبينها .»

فقلت له : « لك أمرك في نفسك وفي أهلك فاصنع بهما ما تشاء ، وائذن لي أن أقول لك إني لا أستطيع أن أختلف إلى بيتك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسي ؛ لأني أعلم أن الساعة التي ينفرج لي فيها جانب ستر من أستار بيتك عن وجه امرأة من أهلك تقتلني حياءً وخجلاً .» ثم انصرفت ، وكان هذا فراق ما بيني وبينه .

وما هي إلا أيام قلائل ، حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلاناً هتك الستر في منزله بين نسائه ورجاله ، وأن بيته أصبح مغشيًّا لا تزال النعال خافقة ببابه ، فذرفت عيني دمعة ، لا أعلم هل هي دمعة الغيرة على العرض المُذال ، أو الحزن على الصديق المفقود ؟

مرت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره فيها ، ولا يزورني ، ولا ألقاه في طريقه إلا قليلاً فأحييه تحية الغريب للغريب من حيث لا يجري لما كان بيننا ذكر، ثم أنطلق في سبيلي .

فإني لعائد إلى منزلي ليلة أمس ، وقد مضى الشطر الأول من الليل ، إذ رأيته خارجاً من منزله يمشي مِشية الذاهل الحائر وبجانبه جندي من جنود الشرطة ، كأنما هو يحرسه أو يقتاده ، فأهمني أمره ، ودنوت منه ، فسألته عن شأنه ، فقال :

« لا علم لي بشيء سوى أن هذا الجندي قد طرق الساعة بابي يدعوني إلى مخفر الشرطة ، ولا أعلم لمثل هذه الدعوة في مثل هذه الساعة سبباً ، وما أنا بالرجل المذنب ولا المريب ، فهل أستطيع أن أرجوك يا صديقي بعد الذي كان بيني وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي هذا علّني أحتاج إلى بعض المعونة فيما قد يعرض لي هناك من الشئون ؟»

قلت : « لا أحب إليَّ من ذلك .»

ومشيت معه صامتاً لا أحدثه ، ولا يقول لي شيئاً، ثم شعرت كأنه يزور[1] في نفسه كلاماً يريد أن يفضي به إليَّ ، فيمنعه الخجل والحياء ، ففاتحته الحديث وقلت له :

« أ لا تستطيع أن تتذكر لهذه الدعوة سبباً ؟»

فنظر إليَّ نظرة حائرة ، وقال : « إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتي الليلة حادث ، فقد رابني من أمرها أنها لم تعد إلى المنزل حتى الساعة ،

(١) زوّر الكلام في نفسه: هيأه .

وما كان ذلك شأنها من قبل .»

قلت : « أ ما كان يصحبها أحد ؟»

قال : « لا .»

قلت : « أ لا تعلم المكان الذي ذهبت إليه ؟»

قال : « لا .»

قلت : « وممّ تخاف عليها ؟»

قال : « لا أخاف شيئاً سوى أني أعلم أنها امرأة غيور حمقاء ، فلعل بعض الناس حاول العبث بها في طريقها ، فشرست عليه ، فوقعت بينهما واقعة انتهى أمرها إلى مخفر الشرطة .»

وكنا قد وصلنا إلى المخفر ، فاقتادنا الجندي إلى قاعة المأمور ، فوقفنا بين يديه . فأشار إلى جندي أمامه إشارة لم نفهمها ، ثم استدنى الفتى إليه وقال له: « يسوءني أن أقول لك يا سيدي إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة في مكان من أمكنة الريبة برجل وامرأة ، في حال غير صالحة ؛ فاقتادوهما إلى المخفر فزعمت المرأة أن لها بك صلة ، فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في أمرها . فإن كانت صادقة أذنا لها بالانصراف معك إكراماً لك وإبقاء على شرفك ، وإلا فهي امرأة عاهرة لا نجاة لها من عقاب الفاجرات ، وها هما وراءك فانظرهما .»

وكان الجندي قد جاء بهما من غرفة أخرى ، فالتفت وراءه فإذا المرأة زوجته وإذا الرجل أحد أصدقائه، فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المخفر وملأت نوافذه وأبوابه عيوناً وآذاناً ، ثم سقط في مكانه مغشيًّا عليه . فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها ففعل وأطلق سبيل صاحبها ، ثم حملنا الفتى في مَرْكَبَة إلى منزله ودعونا له الطبيب فقرر أنه مصاب بحمى دماغية شديدة ، ولبث ساهراً بجانبه بقية الليل يعالجه حتى دنا الصبح ، فانصرف على أن يعود متى دعوناه ، وعهد إليَّ بأمره فلبثت بجانبه أرثي لحاله وأنتظر قضاء الله فيه ، حتى رأيته يتحرك في مضجعه ، ثم فتح عينيه فرآني ، فلبث شاخصاً إليَّ هُنَيْهة كأنما يحاول أن يقول لي شيئاً فلا يستطيعه ، فدنوت منه وقلت له :

« هل من حاجة يا سيدي ؟»

فأجاب بصوت ضعيف خافت : « حاجتي أن لا يدخل عليَّ من الناس أحد .»

قلت : « لن يدخل عليك إلا من تريد .»

فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان[1] بالدموع ، فقلت : « ما بكاؤك يا سيدي ؟»

قال : « أ تعلم أين زوجتي الآن ؟»

قلت : « وماذا تريد منها ؟»

قال : « لا شيء سوى أن أقول لها إني قد عفوت عنها .»

قلت : « إنها في بيت أبيها .»

قال : « وا رحمتاه لها ولأبيها ولجميع قومها ، فقد كانوا قبل أن يتصلوا بي شرفاء أمجاداً ، فألبستهم مذ عرفوني ثوباً من العار لا تبلوه الأيام .

« من لي بمن يبلغهم عني جميعاً أنني مريض مشرف ، وأنني أخشى لقاء الله إن لقيته بدمائهم ، وأنني أضرع إليهم أن يصفحوا عني ويغتفروا زلتي ، قبل أن يسبق إليَّ أجلي ؟

« لقد كنت أقسمت لأبيها يوم اهتديتها [2] أن أصون عرضها صيانتي لحياتي ، وأن أمنعها مما أمنع منه نفسي ، فحنثت في يميني ، فهل يغفر لي ذنبي فيغفر لي الله بغفرانه ؟

« نعم إنها قتلتني ! ولكنني أنا الذي وضعت في يدها الخنجر الذي أغمدته في صدري فلا يسألها أحد عن ذنبي . البيت بيتي ، والزوجة زوجتي ، والصديق صديقي ، وأنا الذي فتحت باب بيتي لصديقي إلى زوجتي ، فلم يذنب إليَّ أحد سواي .»

ثم أمسك عن الكلام هنيهة ، فنظرت إليه فإذا سحابة سوداء تنتشر فوق جبينه شيئاً فشيئاً ، حتى لبست وجهه ، فزفر زفرة خلت أنها خرقت حجاب قلبه ، ثم أنشأ يقول :

« آه ما أشد الظلام أمام عيني ! وما أضيق الدنيا

(١) مُخْضَلّ: مُبتَلّ .

(٢) اهتدى الرجل امرأته: جمعها إليه وضمها .

في وجهي ! في هذه الغرفة ، على هذا المقعد ، تحت هذا السقف كنت أراهما جالسين يتحدثان فتملأ نفسي غبطة وسروراً ، وأحمد الله على أن رزقني بصديق وفيٍّ يؤنس زوجتي في وحدتها ، وزوجة سمحة كريمة تكرم صديقي في غيبتي ، فقولوا للناس جميعاً : إن ذلك الرجل الذي كان يفخر بالأمس بذكائه وفطنته ويزعم أنه أكيس الناس وأحزمهم ، قد أصبح يعترف اليوم أنه أبله إلى الغاية من البلاهة ، وغبي إلى الغاية التي لا غاية وراءها . وا لهفاً على أم لم تلدني وأب عاقر لا نصيب له في البنين[1] !

« لعل الناس كانوا يعلمون من أمري ما كنت أجهل ، ولعلهم كانوا إذا مررت بهم يتناظرون ويتغامزون ويبتسم بعضهم إلى بعض ، أو يحدقون إليَّ ويطيلون النظر في وجهي ؛ ليروا كيف تتمثل البلاهة في وجوه البله ، والغباوة في وجوه الأغبياء !

« ولعل الذين كانوا يتوددون إليَّ ويتمسحون بي من أصدقائي إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجلي ، ولعلهم كانوا يسمونني فيما بينهم قواداً ويسمون زوجتي مومساً وبيتي ماخوراً[2] ، وأنا عند نفسي أشرف الناس وأنبلهم !

« فو ارحمتاه لي إن بقيت على ظهر الأرض بعد اليوم ساعة واحدة ، ووا لهفاً على زاوية منفردة في قبر موحش يطويني ويطوي عاري معي .»

ثم أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغراقه .

وهنا دخلت الحجرة مرضع ولده تحمله على يدها حتى وضعته بجانب فراشه ثم تركته وانصرفت ، فما زال الطفل يدب على أطرافه حتى علا صدر أبيه ، فأحس به ففتح عينيه ، فرآه فابتسم لمرآه وضمه إلى صدره ضمة الرفق والحنان وأدنى فمه من وجهه ليقبله ، ثم انتفض فجأة واستسر بشره ودفعه عنه بيده دفعة شديدة وأخذ يصيح :

« أبعدوه عني لا أعرفه ، ليس لي أولاد ولا نساء ، سلوا أمه عن أبيه من هو واذهبوا به إليه ! لا ألبس العار في حياتي وأتركه أثراً خالداً ورائي بعد مماتي .»

وكانت المرضع قد سمعت صياح الطفل فعادت إليه وحملته وذهبت به ؛ فسمع صوته وهو يبتعد عنه شيئاً فشيئاً فأنصت إليه واستعبر باكياً ، وصاح: « أرجعوه إليَّ .» فعادت به المرضع فتناوله من يدها وأنشأ يقلب نظره في وجهه ويقول :

« في سبيل الله يا بنيَّ ما خلف لك أبوك من اليتم ، وما خلفت لك أمك من العار فاغفر لهما ذنبهما إليك ؛ فلقد كانت أمك امرأة ضعيفة فعجزت عن احتمال صدمة القضاء فسقطت ، وكان أبوك أحسن في جريمته التي اجترمها ، فأساء من حيث أراد الإحسان ! سواء أكنت ولدي يا بنيَّ أم ولد الجريمة فإني قد سعدت بك حقبة من الدهر فلا أنسى يدك عندي حياً أو ميتاً !»

ثم احتضنه إليه ، وقبله في جبينه قبلة لا أعلم هل هي قبلة الأب الرحيم أو المحسن الكريم ؟

وكان قد بلغ منه الجهد فعاودته الحمى وغلت نارها في رأسه ، وما زال يثقل شيئاً فشيئاً حتى خُفت عليه التلف ، فأرسلت وراء الطبيب فجاء وألقى عليه نظرة طويلة ثم استردها مملوءة يأساً وحزناً . ثم بدأ ينزع نزعاً شديداً ويئن أنيناً مؤلماً ، فلم تبق عين من العيون المحيطة به إلا ارفضت عن كل ما تستطيع أن تجود به من مدامعها .

فإنا لجلوس حوله وقد بدأ الموت يسبل أستاره السوداء على سريره إذا امرأة مؤتزرة بإزار أسود قد دخلت الحجرة ، وتقدمت نحوه ببطء حتى ركعت بجانبه ، ثم أكبت على يده الموضوعة فوق صدره فقبلتها ، وأخذت تقول له :

« لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب في ولدك ، فإن أمه تعترف بين يديك وأنت ذاهب إلى ربك ، أنها وإن كانت قد دنت من الجريمة ولكنها لم ترتكبها ، فاعف عني يا والد ولدي واسأل الله عندما تقف بين يديه أن يلحقني بك فلا خير لي في الحياة من بعدك .»

(١) يريد: ليتني لم أولد . (٢) الماخور: بيت الدَّعارَة والفَساد .

ثم انفجرت باكية .. ففتح عينيه ، وألقى على وجهها نظرة باسمة ، كانت هي آخر عهده بالحياة وقضى .

الآن عدت من المقبرة بعد ما دفنت صديقي بيدي وأودعت حفرة القبر ذلك الشباب الناضر ، والروض الزاهر ، وجلست لكتابة هذه السطور وأنا لا أكاد أملك مدامعي وزفراتي ، فلا يُهون وجدي عليه ، إلا أن الأمة كانت على باب خطر عظيم من أخطارها فتقدم هو أمامها إلى ذلك الخطر وحده ، فاقتحمه ، فمات شهيداً فنجت بهلاكه .

***

الذكرى
« مترجمة »

وقف أبو عبد الله آخر ملوك غَرناطة [1] بعد انكساره أمام جيوش الملك فرديناند والملكة إيزابلا [2] على شاطئ الخليج الروميّ تحت ذيل جبل طارق قبل نزوله إلى السفينة المعدة لحمله إلى أفريقيا ، وقد وقف حوله نساؤه وأولاده وعظماء قومه من بني الأحمر . فألقى على ملكه الذاهب نظرة طويلة لم يسترجعها إلا مبللة بالدمع ، ثم أدنى رداءه من وجهه وأنشأ يبكي بكاء مُرًّا وَيَنْشج نشيجاً محزناً حتى بكى من حوله لبكائه ، وأصبح شاطئ البحر كأنه مناحة قائمة تتردد فيها الزفرات ، وَيستْبِق العبرات ، فإنه لواقف موقفه هذا وقد ذهل عن نفسه وموقفه إذ أحس هاتفاً يهتف باسمه ، بصوت كأنما ينحدر إليه من علياء السماء ، فرفع رأسه فإذا شيخ ناسك متكئ على عصاه واقف على باب مغارة من مغارات الجبل المشرف عليه ينظر إليه ويقول :

« نعم ، لك أن تبكي أيها الملك الساقط على ملكك بكاء النساء ، فإنك لم تحتفظ به احتفاظ الرجال . إنك ضحكت بالأمس كثيراً ، فابك اليوم بمقدار ما ضحكت بالأمس؛ فالسرور نهار الحياة والحزن ليلها ، ولا يلبث النهار الساطع أن يعقبه الليل القاتم .

« لو أن ما ذهب من يدك من ملكك ذهب بصدمة من صدمات القدر ، أو نازلة من نوازل القضاء ، من حيث لا حول لك في ذلك ولا حيلة ؛ لهان أمره عليك ، أما وقد أضعته بيدك ، وأسلمته إلى عدوك باختيارك ، فابك عليه بكاء النادم المتفجع الذي لا يجد له عن مصابه عزاء ولا سلوى .

« لا يظلم الله عبداً من عباده ، ولا يريد بأحد من الناس في شأن من الشئون شراً ولا ضيراً ، ولكن الناس يأبون إلا أن يقفوا على حافة الهُوَّة الضعيفة فتزل بهم أقدامهم ، ويمشوا تحت الصخرة البارزة المشرفة فتسقط على رؤوسهم .

« لم تقنع بما قسم الله لك من الرزق ؛ فأبيت إلا الملك والسلطان ؛ فنازعت عمك الأمر ، واستعنت عليه بعدوك وعدوه ، فتناول رأسيكما معاً وما زال يضرب أحدهما بالآخر حتى سال تحت قدميكما قَلِيْبٌ [3] من الدم فغرقتما فيه معاً .

« لي فوق هذه الصخرة يا بني الأحمر سبعة أعوام أنتظر فيها هذا المصير الذي صرتم إليه ، وأترقب الساعة التي أرى فيها آخر ملك منكم يرحل عن هذه الديار رحلة لا رجعة من بعدها ؛ لأني أعلم أن الملك الذي يتولى أمره الجاهلون الأغبياء لا دوام له ولا بقاء .

« اتخذ بعضكم بعضاً عدواً ؛ وأصبح كل واحد

(١) مدينة بالأندلس (أسبانيا) كانت من مراكز الحضارة العربية الإسلامية ، احتلها المرابطون عام ١٠٩٠ ، واتخذها بنو الأحمر عاصمة لهم (٦٣٣-٨٩٨هـ/١٢٣٥-١٤٩٢م) . أهم آثارها العربية « قصر الحمراء » .

(٢) كانت إسبانيا في أواخر حكم العرب في الأندلس عدة ممالك صغيرة فانضم بعضها إلى بعض حتى أصبحت مملكتين قويتين : أراغون وقشتالة ، فتزوج فرديناند ملك أراغون بإيزابيلا ملكة قشتالة سنة ١٤٩٦ ، واتحدا على طرد العرب من غرناطة ، فتم لهما ذلك بعد حروب كثيرة .

(٣) القَلِيبُ: البئر .

منكم حرباً على صاحبه ؛ فسقتم المسلمين إلى ميادين القتال يضرب بعضهم وجوه بعض ، والعدو رابض من ورائكم يتربص بكم الدوائر ويرى أن كلا منكم قائد من قواده ينبعث بين يديه لقتال أعدائه ، والمناضلة على ملكه ، حتى رآكم تتهافتون [١] على أنفسكم ضعفاً ووهناً فاقتحمكم ، فما هي إلا جولة أو جولتان حتى ظفر بكم معاً .

« ستقفون غداً بين يدي الله يا ملوك الإسلام ، وسيسألكم عن الإسلام الذي أضعتموه وهبطتم به من علياء مجده حتى ألصقتم أنفه بالرَّغام [٢] ، وعن المسلمين الذين أسلمتوهم بأيديكم إلى أعدائهم ليعيشوا بينهم عيش البائسين المستضعفين ، وعن مدن الإسلام وأمصاره التي اشتراها آباؤكم بدمائهم وأرواحهم ثم تركوها في أيديكم لتذودوا عنها ، وتحموا ذِمارها ، فلم تحركوا في شأنها ساكناً حتى غلبكم أعداؤكم عليها ، فأصبحتم تعيشون فيها عيش الأذلاء وتطردون منها كما يطرد الغرباء ، فماذا يكون جوابكم إن سئلتم عن هذا كله غداً ؟

« ها هي النواقيس ترنُّ في شرفات المآذن بدل الأذان، وها هي المساجد تطأ نعال الصليبيين في تربتها مواقع جباه المسلمين ، وها هو المسلم يفر بدينه من مكان إلى مكان ، ويلوذ بأكناف الهضاب والشعاب ، لا يستطيع أن يؤدي شعيرة [٣] من شعائر دينه إلا في غار كهذا الغار الذي أعيش فيه !

« ليت المسلمين عاشوا دهرهم فوضى لا نظام لهم ولا ملك ولا سلطان ، كما يعيش المشردون في آفاق البلاد ، فقد كان ذلك خيراً لهم من أن يتولى أمرهم رجال مثلكم طامعون مستبدون يلفون على أعناقهم جميعاً غلاً واحداً يسوقونهم به إلى موارد التلف والهلاك من حيث لا يستطيعون ذوداً عن أنفسهم ، وما تفعل الفوضى بأمة ما يفعل بها الاستبداد .

« يسألكم الله يا بني الأحمر عني وعن أولادي الذين انتزعتموهم من يدي انتزاعاً أحوج ما كنت إليهم ، وسقتوهم إلى ميادين القتال ليقاتلوا إخوانهم

(١) تهافتَ الشيء: تساقط وتتابع . (٢) الرَّغام: التراب .

(٣) الشَّعيرة: كل ما جعل علامة لعبادة الله .

المسلمين قتالا لا شرف فيه ولا فَخار حتى ماتوا جميعاً موت الأذلاء الأدنياء . فلا أنتم تركتموهم بجانبي آنس بهم في وحشتي وألجأ إلى معونتهم في شيخوختي ، ولا أنتم ذهبتم بهم إلى ميدان قتال شريف فأتعزى عنهم من بعدهم بأنهم ماتوا فداء عن دينهم و وطنهم . فها أنذا عائش من بعدهم وحدي في هذا الغار الموحش ، فوق هذه الصخرة المنقطعة أبكي عليهم ، وأسأل الله أن يلحقني بهم فمتى يستجيب الله دعائي ؟»

ثم اختنق صوته بالبكاء ، فأدار وجهه ومشى بقدم مطمئنة يتوكأ على عصاه حتى دخل مغارته وغاب عن العيون ، فنالت كلماته من نفس الأمير ما لم ينل منها ضياع ملكه وسقوط عرشه فصاح :

« ما هذا بشراً إنما هو صوت العدل الإلهي ينذرني بشقاء المستقبل فوق شقاء الماضي ، فليصنع الله بي ما يشاء ، فعدل منه كل ما صنع .»

ثم انحدر إلى سفينته وانحدر أهله وراءه فسارت السفينة بهم تشق عباب الماء شقًّا ، فسجل التاريخ في تلك الساعة : أن قد تم جلاء العرب عن الأندلس بعد ما عمروها ثمانمائة عام [٤] .

بعد مرور أربعة وعشرين عاماً على تلك الحوادث ، لم يبق في إفريقية حيٌّ من بني الأحمر إلا فتى في العشرين من عمره ، اسمه « سعيد » ، لم ير غَرناطة ، ولا قصر الحمراء ، ولا المرج ، ولا جنة العريف ، ولا نهر شنيل ، ولا عين الدمع ، ولا جبل الثلج [٥] ، ولكنه ما زال يحفظ في ذاكرته من عهد

(٤) دخل العرب إسبانيا سنة ٩٢هـ /٧١١م وتم جلاؤهم عنها سنة ٨٩٧ هـ /١٤٩٢ م .

(٥) قصر الحمراء في غرناطة: مقر ملوك بني الأحمر ، وهو أعظم قصور العالم ولا يزال من أكبر الآثار التاريخية حتى اليوم . ومرج غَرناطة : مشهور بجمال منظره واطراد مياهه ويشبهونه بغوطة دمشق . وجنة العريف : بستان عظيم جداً بغَرناطة فيه قصور ومبان ومنازه كثيرة . ونهر شنيل: أعظم أنهار غرناطة ، وهو يخترق المدينة من أعلاها إلى أدناها . وعين الدمع: جبل بظاهر غرناطة به منازه وبساتين . وجبل الثلج : بجنوب غرناطة لا يكاد يفارقه الثلج صيفاً وشتاء وتجري منه ينابيع كثيرة وأنهار صغيرة تسقي ما يحيط بها من الغياض والبساتين .

الطفولة تلك الأناشيد الأندلسية البديعة التي كان يترنم بها نساء قومه حول مهده ، ويرددن فيها ذكر آبائه وأجداده وآثار أيديهم وعزة سلطانهم في تلك البقاع ، وتلك المراثي المحزنة المؤثرة التي بكى فيها شعراء الأندلس ذلك المجد الساقط والملك المضاع ، فكان كلما خلا إلى نفسه ردد تلك المراثي بنغمة شجية محزنة تستثير عبرته ، وتهيج أشجانه ، فلا يزال يبكي وينتحب حتى يشرف على التلف . فكان لا يتمنى على الله من كل ما يتمنى امرؤ على ربه في حياته إلا أن يرى غرناطة ساعة من زمان يشفي بها غلة نفسه ، ثم ليصنع الدهر به بعد ذلك ما يشاء .

وكان كلما هم بالذهاب إليها ، قعد به عن ذلك أن وراءه عجوزاً من أهله مريضة ، وما كان يستطيع أن يتركها ، ولا يجد من يعتمد عليه في القيام بشأنها حتى وافاها أجلها فركب البحر من سَبْتَة إلى شاطئ مَلَقَة ، ثم انحدر منها إلى غرناطة متنكراً في ثوب طبيب عربي من أطباء الأعشاب يَتَبَقَّل[1] في جبال الأندلس وسهولها حتى بلغ ضاحيتها ساعة الأصيل . فوقف على هَضْبَة من هضاب جبل الثلج ، فرأى الأمواه تنزلق عنه في هدوء وسكون ، كأنها فوق سطحه اللامع المتلألئ قميص من النور ، أو قبة من البلور ، حتى تصل إلى سفحه فإذا هي حيات بيضاء مذعورة ، تنبعث ههنا وههنا لا هم لها إلا النجاة من يد مطاردها حتى تعثر بجدول ماء في طريقها فتدغم فيه وتنساب في أحشائه .

ثم التفت إلى المدينة فرأى على البعد أبراجها العقيقية الحمراء وقبابها العالية الشماء ، ومآذنها الذاهبة في جو السماء ، فوقف أمام هذا المنظر الجليل المهيب موقف الخاشع المتخضع ، وضم إحدى يديه إلى الأخرى ، و وضعها على صدره كأنما هو قائم أمام المحراب يؤدي صلاته ، ولبث على ذلك برهة ثم صاح بصوت عال رددته الغابات والحَرَجات[2] يقول :

(١) تَبَقَّل: خرج لطلب البقل .

(٢) الحرجة: غيضة الشجر الملتفة لا يقدر أحد أن ينفذ فيها ، أو الشجرة بين الأشجار لا تصل إليها الآكلة .

« هذا ميراث آبائي وأجدادي ، لم يبق لي منه إلا وقفة بين يديه كوقفة الثاكل المفجوع بين أيدي الأطلال البوالي والآثار الدوارس .

« هذه مضاجعهم ينام فيها أعداؤهم ؛ وهم لا مضاجع لهم إلا رمال الصحراء وكثبان الفلوات .

« هذه قصورهم ، تشرف على الأرض الفضاء وتطل من عيون نوافذها كأنما تترقب أن يعودوا إليها فيعمروها كما كانوا فلا يفعلون .

« هذه قبابهم وأبراجهم رافعة رأسها ليلها ونهارها إلى السموات العلى ، تدعو الله أن يعيد إليها بناتها وحماتها فلا يستجاب لها دعاء .

« في هذه البساتين كانوا ينعمون ، وتحت هذه الظلال كانوا يُقَيِّلون ؛ وعلى ضفاف هذه الأنهار كانوا يغدون ويروحون ، واليوم لا غاد منهم ولا رائح ، ولا سانح تحت هذه السماء ولا بارح ! »

ثم نظر إلى الأفق فرأى الشمس تنحدر إلى مغربها، ورأى جيش الليل يطارد فلول جيش النهار فيبددها بين يديه تبديداً فتهافت[3] على نفسه ، وهو يقول :

« هكذا تدول[4] الدولات وتسقط التيجان ، وهكذا تحل الظلمات محل الأنوار ، وهكذا تنتشر سحب الموت على وجه الحياة . »

ثم توسد ذراعه واستغرق في نومه بين وَطاء الأرض وغطاء السماء ، فلم يستفق حتى مضت دولة الليل ، فمشى إلى نهر جار في سفح الجبل فصلى عنده صلاة الفجر ، ثم انحدر إلى المدينة يفتش عن خان يأوي إليه ، فلم يجد في طريقه من يرشده إلى طلبته حتى بلغ نهر شنيل ، فمشى على ضفته يتفقد البذور ويتلمس الأعشاب وينتظر يقظة المدينة بعد هجعتها .

وإنه لكذلك إذ انفتح بين يديه باب قصر عظيم ، وإذا فتاة إسبانية خارجة منه قد أسبلت على وجهها خماراً أسود شفافاً ، وأرسلت على صدرها صليباً

(٣) تهافت: تساقط . (٤) يدولُ: ينتقل من حال إلى حال .

ذهبيًّا صغيراً ، ومشى وراءها غلام يحمل على يده الكتاب المقدس ، فلمحته في مكانه فأدهشها موقفه ، فدنت منه ورفعت قناعها عن وجهها ، فإذا الشمس طالعة حسناً وبهاء ، وقالت له بلسان عربي تخالطه بعض العجمة :

« أ غريب أنت عن هذا البلد أيها الفتى ؟»

قال : « نعم لقد نزلت به الساعة فلم أعرف طريق الخان الذي يأوي إليه الغرباء ، ولم أجد في طريقي من يّدلني عليه .»

فسمعت في صوته رنة الشرف ورأت بين أعطافه مخائل النعمة فأهمها أمره ، وأشارت إليه أن يتبعها لتدله على ما يريد ، فمشى بجانبها حتى بلغا موضع الخان فحيته بابتسامة عذبة ، وقالت له : « لا تنس أن تزورني أيها الغريب كلما عرضت لك حاجة .» ثم سارت في طريق كنيستها .

كما أن السماء في ظلمة الليل تختلف إليها النجوم فتضيء صفحتها وتمر بها الشهب فتلمع في أرجائها ، حتى إذا طلعت الشمس من مشرقها محا ضوؤها ضوء جميع تلك النّيرات ؛ كذلك القلب الإنساني لا تزال تمر به مختلف العواطف وأشتات الأهواء مجتمعة ومفترقة حتى إذا بلغ وأشرقت عليه شمس الحب ، غربت بجانبها جميع تلك العواطف والأهواء .

فقد أصبح الأمير ينظر إلى غَرناطة منذ الساعة بعين غير العين التي كان ينظر بها إليها من قبل ، ويرى في وجهها صورة الأنس بعد الوحشة ، والنور بعد الظلمة ، والحياة بعد الموت فسكن ثائره وبردت جوانحه ، وهدأت في نفسه ثورة الغضب التي كانت لا تزال تعتلج بين أضلاعه . فكان إذا مر بمسجد من تلك المساجد التي استحالت إلى كنائس ، استطاع أن يقف أمامه هنيهة عله يرى الفتاة الإسبانية بين الداخلات إليه أو الخارجات منه ، وإذا رأى الصليب مشرفاً على رأس مئذنة ذكر الصليب الذهبي الجميل الذي رآه على صدرها يوم اللقاء فاغتفر منظر هذا لمنظر ذاك ، وإذا سمع أصوات النواقيس ترن في أجواز الفضاء ، ذكر أنه كان يسمع ذلك الصوت الرنان في الساعة التي رآها فيها ، فأنس به وسكنت نفسه إليه .

وكذلك أصبح هذا الأمير المسكين ولا همَّ له إلا أن يتمشى صبيحة كل يوم على ضفاف نهر «شنيل» يقلب نظره في أبواب القصور المشرفة على ذلك النهر عله يعرف قصر الفتاة فلا يعرفه ، وفي وجوه الغاديات والرائحات من الفتيات عله يراها بينهن فلا يراها ، حتى إذا نال منه اليأس انكفأ راجعاً إلى مقبرة آبائه في ظاهر المدينة فجلس بين القبور يذرف دموعاً غزاراً ، لا يعلم هل هي دموع الذكرى القديمة أو دموع الذكرى الجديدة !

نكب الدهر « فلورندا » منذ عامين نكبة لا تزال لوعتها متصلة بقلبها حتى اليوم ، فقد كان أبوها رئيس جمعية «العصابة المقدسة» التي قامت في وجه الحكومة أعواماً طوالاً ، تطالبها بالحرية الدينية والشخصية لجميع الشعوب المحكومة على اختلاف مذاهبها وأجناسها حتى أعيا رجال الحكومة أمرها ، فدسوا لرئيسها من قتله غِيلة [١] تحت ستار الظلام ، فحزنت ابنته عليه وعلى أمها التي ماتت على أثره حزناً شديداً ما كان يفارقها في جميع غدواتها وروحاتها . فأصبحت وهي لم تسلُخ[٢] الثامنة من عمرها تعيش في قصرها عيش الزاهدات المتبتلات ، فكان لا يراها الرائي إلا ذاهبة إلى الكنيسة أو عائدة منها لا يصحبها إلا غلامها ، أو واقفة على أطلال الدولة الماضية ورسومها تقلب فيها نظر العظة والاعتبار ، أو هائمة على وجهها في مروج غرناطة وبساتينها حتى ينزل ستار الليل فتعود إلى قصرها ، وكذلك كان شأنها في جميع أيامها حتى سماها أهل غرناطة « الراهبة الجميلة » .

فإنها لسائرة يوماً بجانب مقبرة بني الأحمر ، إذ لمحت على البعد فتى عربيًّا مكبًّا على أحد القبور كأنما يقبل صفائحه ويبل تربته بدموعه ، فرثت لحاله ومشت نحوه حتى دَانَته فأحس بها ، فرفع رأسه فعرفها وعرفته . فقالت له :

(١) الغيلة : القَتْر . (٢) سَلَخَ الشَّهْرَ: أمضاهُ وصارَ في آخِره .

« إنك تبكي ملوكك بالأمس أيها الفتى ، فابكهم كثيراً ؛ فقد جف تراب قبورهم لقلة من يبكي عليهم .»

قال : « أ ترثين لهم يا سيدتي ؟»

قالت : « نعم ؛ لأنهم كانوا عظماء فنكبهم الدهر وليس أحق بدموع الباكين من العظماء الساقطين .»

قال : « شكراً لك يا سيدتي فهذه أول ساعة شعرت فيها ببرد العزاء يدب في صدري مذ وطئت قدماي أرضكم هذه .»

قالت : « هل زرت قصورهم وآثارهم التي تركوها من بعدهم في هذه الديار ؟»

فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه ، فإذا دمعة تترجج في مقلتيه وقال : « لا يا سيدتي . لقد حاولت الدنو منها فطردني عنها الموكلون بأبوابها ، كأنما هم يجهلون أن ليس بين الأحياء جميعهم في هذا العالم كله من هو أولى بها مني .»

قالت : « أ تمتُّ [١] إلى أحد من أصحابها بنسب أو رحم ؟»

قال : « لا يا سيدتي ، ولكنني عبدهم ومولاهم ، وصنيعة أيديهم ، وغرس نعمتهم ، فلا أنسى ولاءهم ما حييت .»

قالت : « إن رأيتك غداً في مثل هذه الساعة في هذا المكان ذهبت بك إلى ما تريد منها .»

قال : « لئن فعلت لا يكونن امرؤ على وجه الأرض أشكر لنعمتك مني ، فحيته وانصرفت ، ومضى هو إلى خانه بين صَبابة تُقيمه وتقعده ، وأمل يميته ويحييه .»

وفت «فلورندا» لصديقها العربي بما وعدته به ، فجاءته في اليوم الثاني فأزارته بعض الآثار ، ثم جاءته في اليوم الثالث فأزارته بعضاً آخر منها ، وهكذا ، ما زالا يجتمعان كل يوم ويفترقان ، ويختلفان إلى ما شاءا من الرسوم والآثار لا ينكر الناس من أمرهما

(١) مَتَّ إليه: اتَّصَلَ بِهِ .

شيئاً ؛ فقد كانوا يقولون إذا رأوهما معاً : إن الراهبة الجميلة تحاول أن تهدي الفتى العربي إلى دينها القويم ، حتى استحال العطف الذي كانت تضمره له في نفسها مع الأيام إلى حب شديد ، وكذلك العطف دائماً طريق الحب أو هو الحب نفسه لابساً ثوباً غير ثوبه . إلا أن أحداً منهما لم يجرؤ أن يكاشف صاحبه بما أضمره له في نفسه ، حتى جاء اليوم الذي عزم فيه على زيارة قصر الحمراء ، وهو آخر ما بقي بين أيديهما من الآثار ، فلا لقاء بينهما بعد اليوم .

وقف الأمير أمام قصر الحمراء فرأى سماء تطاول السماء ، وطَوداً [٢] يناطح الجوزاء ، وهضْبة تَشْرف على الهضاب ، وسحابة تمر فوق السحاب ، وجبلاً تحْسرُ [٣] عن قمته العيون ، وتضل في جوانبه الظنون ، وحصناً تتقاصر عنه يد الأيام ، وتتهافت من حوله السنون والأعوام .

ثم دخل فإذا ملك كبير وجنة وحرير ، وقباب تفضي إليها النجوم بالأسرار ، وأبراج تنزلق عن سطوحها يد الأقدار ، وصحون مفروشة بألوان الحصباء، كأنها الرياض الزهراء ، وجدران صقيلة ملساء تصف ما بين يديها من الأشياء ، كما تصف المرآة وجه الحسناء ، وكأن كل جدار منها لُجة [٤] متلاطمة الأمواج يحبسها عن الجريان لوح من زجاج ، فمشى يقلب نظر العظة والاعتبار ، بين تلك المشاهد والآثار ويتنغم في نفسه بقول القائل :

وقفــت بالحمــراء مُستَعْبِرا
مُعتبِــراً أنــدب أشتاتـــــا

فقلت يا حمراء هل رجعَة
قالت وهل يرجع من ماتا

فلم أزل أبكي على رسمها
هيهات يُغني الدمع هيهاتا

كأنما آثار من قــد مضــوا
نــوادب يندبـــن أمواتـــا

(٢) الطود: الجبل .

(٣) تحْسُر: تكل وتضعف ، أي لا تستطيع الوصول إلى قمته لعظم ارتفاعه . (٤) لُجّة: ماء كثير .

حتى وصل إلى الساحة الكبرى فرأى صَحناً مفروشاً ببساط من المرمر الأصفر قد دارت به في جهاته الأربع أربعة صفوف من الأعمدة النحاف الطوال ، وتراءت في جوانبه حجرات متقابلات ، تعلوها قباب مشرفات ، فعلم أنها حجرات الأمراء والأميرات من أهل بيته فهاجت في نفسه الذكرى ، وشعر أن صدره يحاول أن ينشق عن قلبه حزناً و وجداً .

وأحس بحاجته إلى البكاء فاستحيا أن يبكي أمام « فلورندا » فتركها في مكانها لاهية عنه بالنظر إلى بعض النقوش ، ومشى إلى بعض تلك القاعات حتى داناها ، فكان أول ما تناول نظره منها سطراً مكتوباً على بابها فما قرأه حتى صاح صيحة شديدة قائلاً : « وا أبتاه !» وسقط مغشيًّا عليه ، فلم يستفق إلا بعد ساعة طويلة ، ففتح عينيه فوجد رأسه في حجر « فلورندا » و وجد في عينيها آثار البكاء ، فقالت له :

« لقد كنت أعلم قبل اليوم أنك تكاتمني شيئاً من أسرار نفسك ، والآن عرفت أنك لست عبد بني الأحمر ولا مولاهم كما تقول ، ولكنك أحد أمرائهم ، وأنك الساعة في قصر جدك وأمام حجرة أبيك . فما أسوأ حظكم يا بني الأحمر ، وما أعظم شقاءك أيها الأمير المسكين !»

فلم يجد سبيلاً بعد ذلك إلى كتمان أمره ، فأنشأ يقص عليها قصته وقصة أهل بيته وما صنعت يد الدهر بهم مذ جلوا عن الأندلس حتى اليوم ، فلما فرغ من قصته نظر إليها نظرة منكسرة وقال لها :

« فلورندا ، إن جميع ما لقيته من الشقاء بالأمس يصغر بجانب الشقاء الذي تدخره لي الأيام غداً .»

قالت : « وأي شقاء ينتظرك أكثر مما أنت فيه ؟»

فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال: « إنني أستطيع أن أحتمل كل شيء في الحياة إلا أن أفارقك فراقاً لا لقاء من بعده !»

قالت : « أ تحبني أيها الأمير ؟»

قال : « نعم ، حب الزهرة الذابلة للقطرة الهاطلة .»

قالت : « وهل تستطيع أن تحب فتاة مسيحية لا تدين بدينك ؟»

قال : « نعم لأن طريق الدين في القلب غير طريق الحب ، ولقد وجدت فيك الصفات التي أحبها فأحببتك لها ، ثم لا شأن لي بعد ذلك فيما تعتقدين .»

قالت : « وهل تستطيع أن تحب بلا أمل ؟»

قال : « ولم لا يكون الحب نفسه غاية من الغايات التي تجد فيها السعادة إن ظفرنا بها ؟ ومتى كان للسعادة في هذه الحياة نهاية محدودة ، فلا نجد الراحة إلا إذا وصلنا إلى نهايتها ؟»

وكان الليل قد أظلهما ، فبرحا مكانهما ومشيا يتحدثان حتى بلغا الموضع الذي اعتادا أن يفترقا فيه ، فوضعت «فلورندا» يدها في يده وقالت له : « سأحبك كما أحببتني أيها الأمير ، وسيكون حبي لك بلا أمل كحبك . ولقد فرق الدين بين جسدينا ، فليجمع الحب بين قلبينا .» وتركته وانصرفت .

ثم مرت بهما بعد ذلك أيام سعدا فيها بنعمة العيش سعادة أنستهما جميع ما لقيا في حياتهما الماضية من شقاء وعناء ، فأصبحا فوق أرض غَرناطة وتحت سمائها طائرين جميلين يطيران حيث يصفو لهما وجه السماء ، وتترقرق صفحة الهواء ويقعان حيث يطيب لهما التغريد والتنقير ، فليت الدهر ينام عنهما ويتركهما وشأنهما ، ولا ينفُس عليهما هذه الساعات القليلة من السعادة التي ابتاعاها بكثير من دموعهما وآلامهما ، والتي لا يملكان من سعادة الحياة سواها ، فإن خسراها خسرا كل شيء .

بينما هما جالسان ذات يوم على ضفة جدول من جداول عين الدمع إذ مر بهما « الدون رودريك» ابن حاكم مدينة غرناطة ، فرآهما في مجلسهما هذا من حيث لا يريانه ، وكان قد رأى « فلورندا » قبل اليوم فأحبها فاختلف إلى منزلها أياماً يتحبب إليها ويدعوها إلى الزواج منه فأبت أن تصغي إليه ، وقالت له إنني

لا أتزوج ابن قاتل أبي ، فانصرف بلوعة لا تزال كامنة في نفسه حتى اليوم . فلما رآها جالسة مجلسها هذا زعم في نفسه أنها ما أوصدت باب قلبها في وجهه إلا لأنها كانت قد فتحته من قبل لذلك الفتى العربي الجميل الذي يجالسها ، فذهب إلى قصرها في اليوم الثاني ليفضي إليها بما وقع في نفسه ، فأبت أن تقابله ، فخرج غاضباً يحدث نفسه بأفظع أنواع الانتقام .

وما هي إلا أيام قلائل حتى سيق الأمير سعيد بن يوسف بن أبي عبد الله ، سليل بني الأحمر ملوك هذه البلاد بالأمس ومؤسسي مجدها وعظمتها ، وبناة قلاعها وحصونها ، وأصحاب قصورها وبساتينها ، ذليلاً مهاناً إلى محكمة التفتيش[1] متهماً بمحاولة إغراء فتاة مسيحية بترك دينها ، وهي عندهم أفظع الجرائم وأهولها .

وقف الأمير أمام قضاة محكمة التفتيش فسأله الرئيس عن تهمته فأنكرها فلم يحفل بإنكاره ، وقال له :

« لا يدل على براءتك إلا أمر واحد ، وهو أن تترك دينك وتأخذ بدين المسيح !» فطار الغضب في دماغه ، وصرخ صرخة دوّت بها أرجاء القاعة وقال :

« في أي كتاب من كتبكم ، وفي أي عهد من عهود أنبيائكم ورسلكم أن سفك الدم عقاب الذين لا يؤمنون بإيمانكم ، ولا يدينون بدينكم ؟

« من أي عالم من عوالم الأرض أو السماء أتيتم بهذه العقول التي تصور لكم أن الشعوب تساق إلى الإيمان سوقاً ، وأن العقائد تسقى للناس كما يسقى الماء والخمر ؟

« أين العهد الذي اتخذتموه على أنفسكم يوم وطئت أقدامكم هذه البلاد أن تتركونا أحراراً في عقائدنا ومذاهبنا ، وأن لا تؤذونا في عاطفة من عواطف قلوبنا ، ولا في شعيرة من شعائر ديننا ؟

« أ هذا الذي تصنعون اليوم ، والذي صنعتم بالأمس ، هو كل ما عندكم من الوفاء بالعهود والرعي للذمم ؟!

« نعم لكم أن تفعلوا ما تشاءون ؛ فقد خلا لكم وجه البلاد وأصبحتم أصحاب القوة والسلطان فيها ، وللسلطان عزة لا تبالي بعهد ولا وفاء .

« إن العهود التي تكون بين الأقوياء والضعفاء إنما هي سيف قاطع في يد الأولين ، وغِلّ ملتف على أعناق الآخرين ، فلا أقال الله عثرة البلهاء ولا أقرّ عيون الأغبياء !

« أنتم أقوياء ونحن ضعفاء ، فأنتم أصحاب الحق الأبلج والحجة القائمة ؛ فاصنعوا ما شئتم فهذا حقكم الذي خولتكم إياه قوتكم .

« اسفكوا من دمائنا ما شئتم ، واسلبوا من حقوقنا ما أردتم ، واملكوا علينا مشاعرنا وعقولنا حتى لا ندين إلا بما تدينون ، ولا نذهب إلا حيث تذهبون فقد عجزنا عن أن نكون أقوياء ؛ فلا بد أن ينالنا ما ينال الضعفاء !»

ثم حاول الاستمرار في حديثه فقاطعه الرئيس وأمر أن يساق إلى ساحة الموت التي هلك فيها من قبله عشرة آلاف من المسلمين قتلاً أو حرقاً ، فسيق إليها واجتمع الناس حول مصرعه رجالاً ونساء ، وما جرد الجلاد سيفه فوق رأسه حتى سمع الناس صرخة امرأة بين الصفوف ، فالتفتوا فلم يعرفوا مصدرها ، وما هي إلا غمضة وانتباهة أن سقط ذلك الرأس الذي ليس له مثيل.

يرى المار اليوم بجانب مقبرة بني الأحمر في ظاهر غرناطة قبراً جميلاً مزخرفاً ، هو قطعة واحدة من الرخام الأزرق الصافي ، قد نحتت في سطحها حفرة جوفاء تمتلئ بماء المطر ، فيهوي إليها الطير في أيام الصيف الحار فيشرب منها ، ونقشت على ضلع من أضلاعها هذه السطور :

« هذا قبر آخر بني الأحمر »

« من صديقته الوفية بعهده حتى الموت »

« فلورندا فيليب »

---

(١) أنشئت في إسبانيا عام ١٤٧٨ بقصد استئصال البدع ، واستخدمت وسائل العنف البالغ في عمليات التحقيق والتعذيب والإعدام .

الهاوية

« موضوعة »

ما أكثر أيامَ الحياة وما أقلَّها !؟

لم أعش من تلك الأعوام الطوال التي عشتها في هذا العالم إلا عاماً واحداً ، مر بي كما يمر النجم الدِّهري في سماء الدنيا ليلة واحدة ، ثم لا يراه الناس بعد ذلك .

قضيت الشطر الأول من حياتي أفتش عن صديق ينظر إلى أصدقائه بعين غير العين التي ينظر بها التاجر إلى سلعته ، والزارع إلى ماشيته ، فأعوزني ذلك حتى عرفت «فلاناً» منذ ثمانية عشرعاماً فعرفت امرءاً ما شئت أن أرى خَلَّة من خلال الخير والمعروف في ثياب رجل إلا وجدتها فيه ، ولا تخيلت صورة من صور الكمال الإنساني في وجه إنسان إلا أضاءت لي في وجهه ؛ فجلَّت مكانته عندي ونزل من نفسي منزلة لم ينزلها أحد من قبله ، وصفت كأس الود بيني وبينه لا يكدرها علينا مكدر .

حتى عرض إليَّ من حوادث الدهر ما أزعجني من مستقري ؛ فهجرت القاهرة إلى مسقط رأسي ، غير آسف على شيء فيها إلا على فراق ذلك الصديق الكريم ، فتراسلنا حقبة من الزمن ثم فترت عني كتبه ثم انقطعت ، فحزنت لذلك حزناً شديداً وذهبت بي الظنون في شأنه كل مذهب ؛ إلا أن أرتاب في صدقه ووفائه ، وكنت كلما هممت بالمسير إليه لتعرف حاله قعد بي عن ذلك همٌّ كان يقعدني عن كل شأن حتى شأن نفسي . فلم أعد إلى القاهرة إلا بعد أعوام ، فكان أول همي يوم هبطت أرضها أن أراه ، فذهبت إلى منزله في الساعة الأولى من الليل ، فرأيت ما لا تزال حسرته متصلة بقلبي حتى اليوم .

تركت هذا المنزل فردوساً صغيراً من فراديس الجنان تتراءى فيه السعادة في ألوانها المختلفة ، وتترقرق وجوه ساكنيه بشراً وسروراً ، ثم زرته اليوم فخيل إليَّ أنني أمام مقبرة موحشة ساكنة ، لا يهتف فيها صوت ، ولا يتراءى في جوانبها شبح ، ولا يلمع في أرجائها مصباح ؛ فظننت أني أخطأت المنزل الذي أريده ، أو أنني بين يدي منزل مهجور . حتى سمعت بكاء طفل صغير ولمحت في بعض النوافذ نوراً ضعيفاً فمشيت إلى الباب فطرقته ، فلم يجبني أحد فطرقته أخرى ، فلمحت من خَصاصه[1] نوراً مقبلاً ، ثم لم يلبث أن انفرج لي عن وجه غلام صغير في أسمال بالية يحمل في يده مصباحاً ضئيلاً ، فتأملته على ضوء المصباح فرأيت في وجهه صورة أبيه ، فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل المدلل الذي كان بالأمس زهرة هذا المنزل وبدر سمائه ، فسألته عن أبيه فأشار إليَّ بالدخول ومشى أمامي بمصباحه ، حتى وصل بي إلى قاعة شعثاء مُغبرة بالية المقاعد والأستار . ولولا نقوش لاحت لي في بعض جدرانها كباقي الوشْم في ظاهر اليد – ما عرفت أنها القاعة التي قضينا فيها ليالي السعادة والهناء اثني عشر هلالاً .

ثم جرى بيني وبين الغلام حديث قصير عرف فيه من أنا وعرفت أن أباه لم يعد إلى المنزل حتى الساعة وأنه عائد عما قليل ؛ ثم تركني ومضى ، وما لبث إلا قليلاً حتى عاد يقول لي إن والدته تريد أن تحدثني حديثاً يتعلق بأبيه ، فخفق قلبي خفقة الرعب والخوف ، وأحسست بشرٍّ لا أعرف مأتاه[2] .

ثم التفتُّ فإذا امرأة ملتفة برداء أسود واقفة على عتبة الباب ، فحيتني فحييتها ، ثم قالت لي : « هل علمت ما صنع الدهر بفلان من بعدك ؟»

قلت : « لا ؛ فهذا أول يوم هبطت فيه هذا البلد بعد ما فارقته سبعة أعوام .»

قالت : « ليتك لم تفارقه ؛ فقد كنت عصمته التي يعتصم بها وحماه من غوائل الدهر وشروره ، فما هو إلا أن فارقته حتى أحاطت به زمرة من زمر الشيطان ، وكان فتى ، كما تعلمه ، غَرِيْراً ساذَجاً ، فما زالت تغريه بالشر وتزين له منه ما يزين الشيطان للإنسان ، حتى سقط فيه ، فسقطنا جميعاً في هذا

(١) الخَصاصُ جَمْعُ خَصاصَة ، وهي كل فُرْجَة أو خَرْق في باب أو غيره . (٢) المأتى: الوجه الذي يأتي منه الشيء .

الشقاء الذي تراه .»

قلت : « وأي شر تريدين يا سيدتي ؟ ومن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه ؟»

قالت : « سأقص عليك كل شيء ، فاستمع لما أقول :

« ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه ، وعلقت حباله بحباله ، وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسه ، حيث كان ، ولا تزال ، نعالهم خافقة وراءه في غدواته وروحاته ، فاستحال من ذلك اليوم أمره ، وتنكرت صورة أخلاقه ، وأصبح منقطعاً عن أهله وأولاده ، لا يراهم إلا الفَيْنة بعد الفينة [١] ، وعن منزله لا يزوره إلا في أخريات الليالي . ولقد اغتبطت في مبدأ الأمر بتلك الحُظْوة التي نالها عند ذلك الرئيس والمنزلة التي نالها من نفسه ، ورجوت له من ورائها خيراً كثيراً ؛ مغتفرة في سبيل ذلك ما كنت أشعر به من الوحشة والألم لانقطاعه عني وإغفاله أمري وأمر أولاده ، حتى عاد في ليلة من الليالي شاكياً متألماً يكابد غُصصاً شديدة وآلاماً جساماً ، فدنوت منه ، فشممت من فمه رائحة الخمر ، فعلمت كل شيء .

« علمت أن ذلك الرئيس العظيم هو قدوة مرؤوسه، في الخير إن سلك طريق الخير ، والشر إن سلك طريق الشر ، قاد زوجي الفتى المسكين إلى شر الطريقين ، وسلك به أسوأ السبيلين . وأنه ما كان يتخذه صديقاً كما زعم ، بل نديماً على الشراب ، فتوسلت إليه بكل عزيز عليه ، وسكبت على يديه من الدموع كل ما تستطيع أن تسكبه عين ؛ رجاء أن يعود إلى حياته الأولى التي كان يحياها سعيداً بين أهله وأولاده فما أجديت عليه شيئاً .

« ثم علمت بعد ذلك أن اليد التي ساقته إلى الشراب قد ساقته إلى اللعب ، فلم أعجب لذلك ؛ لأني أعلم أن طريق الشر واحدة ، فمن وقف على رأسها لا بُدَّ له أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها . فأصبح ذلك الفتى النبيل الشريف ، الذي كان يعف بالأمس عن شرب الدواء إذا اشتم فيه رائحة النبيذ ، ويستحي أن يجلس في مجتمع يجلس فيه قوم شاربون – سكيراً مقامراً مُستهتَراً لا يحتشم ، ولا يتلوم ، ولا يتقي عاراً ولا مأثماً .

« وأصبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم ، الذي كان يضن بأولاده أن يعلق بهم الذَّرّ ، وبزوجه أن يتجهم[٢] لها وجه السماء ، أباً . قاسياً وزوجاً سليطاً ، يضرب أولاده كلما دنوا منه ، ويشتم زوجته وينتهرها كلما رآها . وأصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه لا يبالي أن يعود إلى المنزل في بعض الليالي في جمع من عُشرائه الأشرار ، فيصعد بهم إلى الطبقة التي أنام فيها أنا وأولادي فيجلسون في بعض غرفها ، ولا يزالون يشربون ويقصفون[٣] حتى يذهب بعقولهم الشراب ؛ فيهتاجوا ، ويرقصوا ، ويملأوا الجو صراخاً وهُتافاً ، ثم يتعادوا [٤] بعضهم وراء بعض في الأبهاء[٥] والحجرات حتى يلجوا على باب غرفتي . وربما حدق بعضهم في وجهي أو حاول نزع خماري على مرأى من زوجي ومسمع فلا يقول شيئاً ، ولا يستنكر أمراً ؛ فأفر بين أيديهم من مكان إلى مكان . وربما فررت من المنزل جميعه وخرجت بلا إزار ، ولا خمار ، غير إزار الظلام وخماره ، حتى أصل إلى بيت جارة من جاراتي ؛ فأقضي عندهم بقية الليل .»

وهنا تغيرت نَغْمة صوتها ، فأمسكت عن الحديث وأطرقت برأسها ، فعلمت أنها تبكي ؛ فبكيت بيني وبين نفسي لبكائها ، ثم رفعت رأسها ، وعادت إلى حديثها تقول :

« وما هي إلا أعوام قلائل حتى أنفق جميع ما كان في يده من المال ، فكان لا بد له أن يستدين ففعل ، فأثقله الدين ، فرهن ، فعجز عن الوفاء ، فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذي نسكنه ،

---

(١) الفَيْنة: الساعة والحين .

(٢) تجهَّم له: استقبله بوجه كريه .

(٣) قصَف الرجل: أقام في أكل وشراب ولهو .

(٤) يتعادوا: يتَبارَوا في العَدْوِ ، أي الجري .

(٥) الأبهاء: جمع بهو ، وهو المكان المُخصَّصُ لاستقبال الضُّيوف.

ولم يبق في يده غير راتبه الشهري الصغير ، بل لم يبق في يده شيء حتى راتبه ؛ لأنه لا يملكه إلا ساعة من نهار ، ثم هو بعد ذلك ملك للدائنين ، أو غنيمة للمقامرين !

« هذا ما صنعت يد الدهر به ، أما ما صنعت بي وبأولادي ، فقد مر على آخر حِلْيَة بعتها من حُلاي : عام كامل ، وها هي حوانيت المرابين والمسترهنين مَلأى بملابسي ، وأدوات بيتي وأثاثه ، ولولا رجل من ذوي قرباي رقيق الحال[1] يعود عليّ من حين إلى حين بالنَّزْر القليل مما يستلُّه من أشداق عياله ، لهلكت وهلك أولادي جوعاً .

« فلعلك تستطيع يا سيدي أن تكون عوناً لي على هذا الرجل المسكين ، فتنقذه من شقائه وبلائه بما ترى له في ذلك الرأي الصالح ، وأحسب أنك تقدر منه – للمنزلة التي تنزلها من نفسه – على ما عجز عنه الناس جميعاً ، فإن فعلت أحسنت إليه وإلينا إحساناً لا ننسى يدك فيه حتى الموت .»

ثم حيتني ومضت لسبيلها ، فسألت الغلام عن الساعة التي أستطيع أن أرى أباه فيها في المنزل ، فقال: إنك تراه في الصباح قبل ذهابه إلى الديوان ، فانصرفت لشأني ، وقد أضمرت بين جنبي لوعة ما زالت تقيمني وتقعدني وتذود عن عيني سنة الكرى حتى انقضى الليل ، وما كاد ينقضي .

ثم عدت في صباح اليوم الثاني ؛ لأرى ذلك الصديق القديم الذي كنت بالأمس أسعد الناس به ، ولا أعلم ما مصير أمري معه بعد ذلك ، وفي نفسي من القلق والاضطراب ما يكون في نفس الذاهب إلى ميدان سباق قد خاطر فيه بجميع ما يمتلك ؛ فهو لا يعلم أيكون بعد ساعة أسعد الناس أم أشقاهم .

الآن عرفت أن الوجوه مرايا [2] النفوس تضيء بضيائها وتظلم بظلامها ؛ فقد فارقت الرجل منذ سبع سنوات فأنستني الأيام صورته ، ولم يبق في ذاكرتي منها إلا ذلك الضياء اللامع ؛ ضياء الفضيلة والشرف

(١) رقّة الحال كناية عن الفقر .

(٢) المرايا: جميع مرآة .

الذي كان يتلألأ فيها تلألؤ نور الشمس في صفحتها ، فلما رأيته الآن ، ولم أر أمام عيني تلك الغِلالة البيضاء التي كنت أعرفها ، خيل إليّ أنني أرى صورة غير الصورة الماضية ، ورجلاً غير الذي كنت أعرفه من قبل .

لم أر أمامي ذلك الفتى الجميل الوضّاح ، الذي كان كل منبت شعرة في وجهه فماً ضاحكاً تموج فيه ابتسامة لامعة ؛ بل رأيت مكانه رجلاً شقياً منكوباً ، قد لبس الهرمَ قبل أوانه ، وأوفى على الستين قبل أن يسلُخ الثلاثين ، فاسترخى حاجباه وثقلت أجفانه ، وجمدت نظراته ، وتهدل عارضاه ، وتجعد جبينه ، واستشرف[3] عاتقاه ، وهوى رأسه بينهما هويه بين عاتقي الأحدب ، فكان أول ما قلت له :

« لقد تغير فيك كل شيء يا صديقي حتى صورتك !»

وكأنما ألمّ بما في نفسي ، وعرف أني قد علمت من أمره كل شيء ، فأطرق برأسه إطراق من يرى أن باطن الأرض خير له من ظهرها ، ولم يقل شيئاً ، فدنوت منه حتى وضعت يدي على عاتقه ، وقلت له : « والله ما أدري ماذا أقول لك . أ أعظك ، وقد كنت واعظي بالأمس ، ونجم هداي الذي أستنير به في ظلمات حياتي ؟! أم أرشدك إلى ما أوجب الله عليك في نفسك ، وفي أهلك ؟ ولا أعرف شيئاً أنت تجهله ، ولا تصل يدي إلى عِبْرة تقصر يدك عن نيلها، أم أسترحمك لأطفالك الضعفاء وزوجتك البائسة المسكينة التي لا عضد لها في الحياة ، ولا معين سواك ؟ وأنت صاحب القلب الرحيم الذي طالما خفق بالبعداء ، فأحرى أن يخفق رحمة بالأقرباء .

« إن هذه الحياة التي تحياها يا سيدي ، إنما يلجأ إليها الهَمَلُ [4] العاطلون الذين لا يصلحون لعمل من الأعمال ؛ ليتواروا فيها عن أعين الناس حياء وخجلاً، حتى يأتيهم الموت فينقذهم من عارهم وشقائهم ، وما أنت بواحد منهم .

(٣) استشرف: ارتفع . (٤) الهَمَلُ: المُهْمَلُ المتروك بلا رعاية .

« إنك تمشي يا سيدي في طريق القبر ، وما أنت بناقم على الدنيا ولا بمتبرم[1] بها ، فما رغبتك في الخروج منها خروج اليائس المنتحر ! عذرتك لو أن ما ربحت في حياتك الثانية يقوم لك مقام ما خسرت من حياتك الأولى ، ولكنك تعلم أنك كنت غنياً فأصبحت فقيراً ، وصحيحاً فأصبحت سقيماً ، وشريفاً فأصبحت وضيعاً ، فإن كنت ترى بعد ذلك أنك سعيد ، فقد خلَت رقعة الأرض من الأشقياء .

« إن كل ما يعنيك من حياتك هذه أن تطلب فيها الموت ؛ فاطلبه في جَرْعة سم تشربها دفعة واحدة ؛ فذلك خير لك من هذا الموت المتقطع الذي يكثر فيه عذابك وألمك ، وتعظم فيه آثامك وجرائمك ، وما يعاقبك الله على الأخرى بأكثر مما يعاقبك على الأولى .

« حسبنا يا صديق من الشقاء في هذه الحياة ما يأتينا به القدر ، فلا نضم إليه شقاء جديداً نجلبه بأنفسنا لأنفسنا ! فهات يدك وعاهدني على أن تكون لي منذ اليوم كما كنت لي بالأمس ، فقد كنا سعداء قبل أن نفترق ، ثم افترقنا فشقينا ، وها نحن أولاء قد التقينا ؛ فلنعش في ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنا .»

ثم مددت يدي إليه ، فراعني أنه لم يحرك يده ؛ فقلت له : « مالك لا تمد يدك إليّ ؟»

فاستعبر باكياً وقال : « لأنني لا أحب أن أكون كاذباً ولا حانثاً .»

قلت : « وما يمنعك من الوفاء ؟»

قال : « يمنعني منه أنني رجل شقيٌّ ، لا حظٌّ لي في سعادة السعداء .»

قلت : « قد استطعت أن تكون شقيًّا ، فلم لا تستطيع أن تكون سعيداً ؟»

قال : « لأن السعادة سماء والشقاء أرض ، والنزول إلى الأرض أسهل من الصعود إلى السماء ، وقد زلت قدمي عن حافة الهوة فلا قدرة لي على الاستمساك حتى أبلغ قرارتها ، وشربت أول جرعة من جرعات الحياة المريرة ، فلا بد لي أن أشربها حتى ثُمالتها ، ولا شيء من الأشياء يستطيع ان يقف في سبيلي إلا شيء واحد فقط ، هو أن لا أكون قد شربت الكأس الأولى قبل اليوم ، ومادمت قد فعلت فلا حيلة لي فيما قضى الله .»

قلت : « ليس بينك وبين النزوع إلا عزمة صادقة تعزمها فإذا أنت من الناجين .»

قال : « إن العزيمة أثر من آثار الإرادة ، وقد أصبحت رجلاً مغلوباً على أمري ، لا إرادة لي ولا اختيار ، فدعني يا صديقي والقضاء يصنع بي ما يشاء ، وابك صديقك القديم منذ اليوم ، إن كنت لا ترى بأساً في البكاء على الساقطين المذنبين !»

ثم انفجر باكياً بصوت عال وتركني مكاني دون أن يحييني بكلمة ، وخرج هائماً على وجهه لا أعلم أين ذهب ، فانصرفت لشأني وبين جنبي من الهم والكمد ما الله به عليم .

لم يستطع رئيس الديوان أن يحمل نديمه بالأمس زمناً طويلاً ، فأقصاه عن مجلسه استثقالاً له ، ثم عزله عن وظيفته استنكاراً لعمله ، ولم تذرف عينه دمعة واحدة على منظر صريعه الساقط بين يديه ، ولم يستطع مالك البيت الجديد أن يمهل فيه المالك القديم أكثر من بضعة شهور ثم طرده منه ، فلجأ هو وزوجته و ولداه إلى غرفة حقيرة في بيت قديم في زقاق مهجور ، فأصبحت لا أراه بعد ذلك إلا ذاهباً إلى الحانة أو عائداً منها ، فإن رأيته ذاهباً زوّيت وجهي عنه ، أو عائداً دنوت منه فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب أو عن جبينه ما سال منه من الدم ، ثم قدته إلى بيته .

وهكذا . ما زالت الأيام والأعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله ، حتى أصبح من يراه يرى ظلاً من الظلال المتنقلة ، أو حلماً من الأحلام السارية ، يمشي في طريقه مِشية الذاهل المشدوه ، لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ، ولا يتقي ما يعترض سبيله حتى يدانيه ، ويقف حيناً بعد حين فيدور بعينيه حول

---

(١) تبرم الأمر: سئِمَه وضَجِرَ منه .

نفسه ، كأنما يفتش عن شيء أضاعه وليس في يده شيء يضيع ، أو يقلب نظره في أثوابه ، وما في أثوابه غير الرقاع والخروق ! وينظر إلى كل وجه يقابله نظرة شزراء كأنما يستقبل عدواً بغيضاً وليس له عدو ولا صديق . وربما تعلق بعض الصبيان بعاتقه فدفعهم عنه بيده دفعاً ليناً غير آبه ولا محتفل ، كما يدفع النائم المستغرق عن عاتقه يد موقظه ، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهدأت سَوْرتها في رأسه ، انحدر إلى الحان فلايزال يشرب ويتزايد حتى يعود إلى ما كان عليه .

ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة شهور الحادثة الآتية : عجزت تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلاً إلى القوت ، وأبكاها أن ترى ولدها وابنتها باكيين بين يديها ، تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانهما ، فلم تر لها بداً من أن تركب تلك السبيل التي يركبها كل مضطر عديم ؛ فأرسلتهما خادمين في بعض البيوت يقتاتان فيها ويقيتانها . فكانت لا تراهما إلا قليلاً ولا ترى زوجها إلا في الليلة التي تغفل فيها عنه عيون الشرطة ، وقلّما تغفل عنه ، فأصبحت وحيدة في غرفتها لا مؤنس لها ولا معين إلا جارة عجوز ، تختلف إليها من حين إلى حين ، فإذا فارقتها جارتها وخلت بنفسها ، ذكرت تلك الأيام السعيدة التي كانت تتقلب فيها في أعطاف العيش الناعم والنعمة السابغة ، بين زوج كريم وأولاد كالكواكب الزهر حسناً وبهاء . ثم تذكر كيف أصبح السيد مَسُوداً ، والمخدوم خادماً ، والعزيز الكريم ذليلاً مهيناً ، وكيف انتثر ذلك العقد اللؤلؤي المنظوم الذي كان حلية بديعة في جيد الدهر ، ثم استحال بعد انتثاره إلى حصيات منبوذات على سطح الغبراء ، تطؤها النعال وتدوسها الحوافر والأقدام ؛ فتبكي بكاء الواله في إثر قوم ظاعنين حتى تتلف نفسها أو تكاد !

على أنها ما أضمرت قط في قلبها حقداً لذلك الإنسان الذي كان سبباً في شقائها وشقاء ولديها ، ولا حدثتها نفسها يوماً من الأيام بمغاضبته أو هجرانه؛ لأنها امرأة شريفة ، والمرأة الشريفة لا تغدر بزوجها المنكوب . بل كانت تنظر إليه نظرة الأم الحنون إلى طفلها الصغير ، فترحمه وتعطف عليه ، وتسهر بجانبه إن كان مريضاً ، وتأسو جراحه إن عاد جريحاً . وربما طرده الخمار في بعض لياليه من حانه، حينما لا يجد معه ثمن الشراب ؛ فيعود إلى بيته ثائراً مهتاجاً يطلب الشراب طلباً شديداً ؛ فلا تجد بداً من أن تعطيه نفقة طعامها أو تبتاع له من الخمر ما يسكن به نفسه ؛ رحمة به وإبقاء على تلك البقية الباقية من عقله .

وكأن الدهر لم يكفه ما وضع على عاتقها من الأثقال ، حتى أضاف إليها ثقلاً جديداً ، فقد شعرت في يوم من أيامها بنسمة تتحرك في أحشائها ؛ فعلمت أنها حامل ، وأنها ستأتي إلى دار الشقاء بشقي جديد ، فهتفت صارخة : « رحمتك اللهم ، فقد امتلأت الكأس حتى ما تسع قطرة واحدة !» وما زالت تكابد من آلام الحمل ما يجب أن تكابده امرأة مريضة منكوبة ، حتى جاءت ساعة وضعها ، فلم يحضرها أحد إلا جارتها العجوز ، فأعانها الله على أمرها فوضعت . ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفاس مرضاً شديداً ، فلم تجد طبيباً يتصدق عليها بعلاجها؛ لأن البلد الذي لا يستحي أطباؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم الذي قتله ، لا يمكن أن يوجد فيها طبيب محسن أو متصدق ، فما زال الموت يدنو منها رويداً رويداً حتى أدركتها رحمة الله ، فوافاها أجلها في ساعة لا يوجد فيها بجانبها غير طفلتها الصغيرة عالقة بثديها .

في هذه الساعة دخل الرجل ثائراً مهتاجاً يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لتأتي له منه بما يريد ، فدار بعينيه في أنحاء الغرفة حتى رآها ممدة على حصيرها ، ورأى ابنتها تبكي بجانبها ، فظنها نائمة فدنا منها ودفع الطفلة بعيداً عنها ، وأخذ يحركها تحريكاً شديداً فلم يشعر بحركة ، فرابه الأمر وأحس برعدة تتمشى في أعضائه حتى أصابت قلبه ، فبدأ صوابه يعود إليه شيئاً فشيئاً ، فأكبَّ عليها يحدق في وجهها تحديقاً شديداً ، ويزحف نحوها رويداً رويداً حتى رأى شبح الموت يحدق إليه من عينيها الشاخصتين الجامدتين ، فتراجع خوفاً وذعراً فوطئ

في تراجعه صدر ابنته فأنّت أنة مؤلمة لم تتحرك بعدها حركة واحدة ، فصرخ صرخة شديدة وقال : « واشقاءاه ! واشقاءاه ! »

وخرج هائماً على وجهه يعدو في الطرق ويضرب رأسه بالعُمُد والجدران ، ويدفع كل ما يجد في طريقه من إنسان أو حيوان ويصيح : « ابنتي ! زوجتي ! هلموا إليّ ! أدركوني ! » حتى أعيا فسقط على الأرض ، وأخذ يفحص التراب برجليه ويئن أنين الذبيح ، والناس من حوله آسفون عليه ، لا لأنهم يعرفونه بل لأنهم قرأوا في وجهه آيات شقائه .

فكانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من ذهوله الطويل سبباً في ضياع ما بقي من عقله .

وما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيداً مغلولا في قاعة من قاعات البيمارستان ، فوا رحمتاه له ولزوجته الشهيدة ولطفلته الصريعة ولأولاده المشردين البؤساء !

***

الجزاء

« مترجمة »

جلست على ضفة البحيرة لتملأ جرّتها ، وكان الماء ساكناً هادئاً كأنما قد امتدت فوق سطحه طبقة لامعة من الجليد ؛ فعز عليها أن تكسر بيدها هذه المرآة الناعمة الصقيلة ، ولا شيء أحب إلى المرأة من المرآة ؛ فظلت تقلب نظرها فيها ، فلمحت في صفحتها وجهاً أبيض رائقاً ينظر إليها نظراً عذباً فاتراً ، فابتسمت له ، فابتسم لها ، فعلمت أنه الوجه الذي افتتن به خطيبها القروي الجميل .

أنست بهذا المنظر ساعة ، ثم راعها أن رأت بجانب خيالها في الماء خيالاً آخر فتبينته فإذا به خيال رجل فذعرت ، ولكنها لم تلتفت وراءها ومدت يدها إلى الماء فملأت جرتها ، ثم نهضت لتحملها ، فتقدم إليها ذلك الواقف بجانبها وقال لها : « هل تأذنين لي يا سيدتي أن أعينك على حمل جرتك ؟ » فالتفتت فإذا فتى حضري غريب حسن الصورة والبِزّة[1] لا تعرفه ، ولا تعرف أن هذه الأرض مما تنبت مثله ، فرابها أمره واتقد وجهها حياء وخجلاً ، ولم تقل شيئاً ، واستقلت[2] جرتها ومضت في سبيلها .

نشأت سوزان وابن عمها جلبرت في بيت واحد كما تنشأ الزهرتان المتعانقتان في مغرس واحد ، فرضعت معه وليدةً ، ولعبت معه طفلةً ، وأحبته فتاةً . ومرت بهما في جميع تلك الأدوار سعادة لم يستمداها من القصور والبساتين والأرائك والأسرة ، والجياد والمركبات ، والأكواب والدنان ، والمزاهر والعيدان ، والذهب اللامع ، واللؤلؤ الساطع ، والأثواب المطرزة ، والغلائل المرصعة ؛ لأنهما كانا قرويين فقيرين .

بل استمداها من مطلع الشمس ومغربها ، وإقبال الليل وإدباره ، وتلألؤ السماء بنجومها الزاهرة والأرض بأعشابها الناضرة ، ومن الوقفات الطوال فوق الصخور البارزة على ضفاف البحيرة الهادئة ، والجلسات الحلوة الجميلة ، على الأعشاب الناعمة ، تحت ظلال الأشجار الوارفة ، ومن سماع أناشيد الحياة ، وأغاني الرعاة ، وضوضاء السائمة في غدوها ورواحها ، وبكاء النواعير[3] في مسائها وصباحها ، ومن الحب الطاهر الشريف الذي يشرق على القلوب الحزينة فيسعدها ، والأفئدة المظلمة فينيرها ، والأجنحة الكسيرة فيريشها ، والذي هو العزاء الوحيد عن كل فائت في هذه الحياة ، والسلوى عن كل مفقود ، ولم يزل هذا شأنها حتى كان يوم البحيرة .

لا تعرف المرأة لها وجوداً إلا في عيون الرجال وقلوبهم ، فلو خلت رقعة الأرض من وجوه الناظرين ، أو أقفرت حنايا الضلوع من خوافق القلوب ؛ لأصبح الوجود والعدم في نظرها سواء . ولو

---

(١) البِزّة: الهيئة . (٢) استَقَلَّ الشَّيْءَ: حَمَلَهُ وَرَفَعَهُ .

(٣) النّواعير: جمع ناعورة ، وهي «الساقية» ، أي الدولاب المعد لاستخراج الماء من البئر .

أن وراءها ألف عين تنظر إليها ثم لمحت في كوكب من كواكب السماء نظرة حب ، أو سمعت في زاوية من زوايا الأرض أنة وجد ؛ لأعجبها ذلك الغرام الجديد وملأقلبها غبطة وسروراً .

فقد عادت الفتاة إلى بيتها طيبة النفس قريرة العين مزهوة مختالة ، لا لأن حبًّا جديداً حلَّ في قلبها محل الحب القديم ، ولا لأن نفسها حدثتها أن تصل حياتها بحياة أحد غير خطيبها ، بل لأنها وجدت في طريقها برهاناً جديداً على جمالها فأعجبها ، فكانت لا تزال تختلف بعد ذلك بجرتها إلى البحيرة غير خائفة ولا مرتابة ، فترى ذلك السيد الحضري في غدوها أو رواحها يحييها أو يبتسم لها ، أو يسائلها عن طريق ، أو يستسقيها شربة ماء ، أو يقدم إليها زهرة جميلة ، أو يلقي في أذنها كلمة عذبة ، حتى استطاع في يوم من الأيام أن يجلس بجانبها لحظة قصيرة في ظل صخرة منفردة ، فكانت هذه اللحظة آخر عهدها بحياتها القديمة ، وأول عهدها بحياتها الجديدة !

هبط المركيز جوستاف روستان هذه الأرض منذ أيام لتفقد مزارعه فيها ، وكان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين ، فيقضي في قصره الجميل الذي بناه فيها على بعد ساعتين من البحيرة بضعة أيام ، ثم يعود إلى بلدته «نيس» . حتى رأى هذه المرة هذه الفتاة في بعض غدواته إلى ضفاف البحيرة فاستلهاه حسنها ، وما زال يفيض على قلبها من حبه ، وعلى أذنها من سحره، وعلى جيدها ومعصميها من لآلئه وجواهره ، ويصور لها جمال الحياة الحضرية في أجمل صورها وأبهاها ، ويمنيها الأماني الكبار في حاضرها ومستقبلها ، حتى أذعنت واستقادت وخضعت للتي تخضع لها كل أنثى نامت عنها عين راعيها ، وأسلمها حظها إلى أنياب الذئاب .

استيقظ الفتى جلبرت في الساعة التي يستيقظ فيها من صباح كل يوم فعمد إلى بقرته فحل عقالها، ثم هتف باسم سوزان يدعوها إلى الذهاب معه إلى المرعى فلم تجبه ، فصعد إلى غرفتها في سطح المنزل ليوقظها فلم يجدها ، فسأل عنها أمه فلم تعلم من أمرها أكثر مما يعلم ، فظن أنها خرجت لقضاء بعض الشئون ، ثم تعود ، فلبث ينتظرها وقتاً طويلاً فلم تعد .

فرابه الأمر وأعاد البقرة إلى مُعْتَلفها ، وخرج يفتش عنها في كل مكان ، ويسائل عنها الناس جميعاً غاديهم ورائحهم ، فلم يجد من يَدله عليها حتى أظله الليل ؛ فعاد حزيناً مكتئباً لا يرى أن أحداً على وجه الأرض أعظم لوعة منه ولا أشقى ، فرأى أمه قابعة في كِسر البيت مطرقة برأسها تفلي التراب بعود في يدها ، فدنا منها ، فرفعت رأسها إليه وقالت له :

« أين كنت يا جلبرت ؟ »

قال : « فتشت عن سوزان في كل مكان فلم أجدها . »

فألقت عليه نظرة مملوءة حزناً ودموعاً ، وقالت: « خير لك يا بني ألا تنتظرها بعد اليوم . »

فانتفض انتفاضة شديدة ، وقال : « لماذا ؟ »

قالت : « قد دخلت عليَّ الساعة جارتنا فلانة ، فحدثتني أنها ما زالت تراها منذ ليالي تختلف إلى البحيرة للاجتماع على ضفافها بفتى حضري غريب عن هذه المَدَرة ، أحسبه المركيز «جوستاف روستان» صاحب هذه المزارع التي تلينا والقصر الأحمر الذي يليها ، وقالت لي إنها رأتها ليلة أمس بعد منتصف الليل راكبة وراءه على فرس أشهب يعدو بها في طريق القصر الأحمر ، ولا بد أنها فرت معه . »

فصرخ جلبرت صرخة جادت لها نفسه أو كادت ، وخر في مكانه صعقاً . فلم تزل أمه جاثية بجانبه الليل كله ، تبكي عليه مرة ، وتمسح جبينه بالماء أخرى ، حتى استفاق في مطلع الفجر ، فنظر حوله نظرة حائرة ، فرأى أمه مكبة على وجهها تبكي وتنتحب ، فذكر كل ذلك فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه و وضع يده على عاتقها ، وسألها : « ما بكاؤك يا أماه ؟ »

قالت : « أبكي عليك يا بنيَّ وعليها . »

قال : « إن كنت باكية فابك على غيري ، أما

أنا فلست بحزين ، ولا باك ، فقد كنت أحببت هذه الفتاة لأنها كانت تحبني ، وقد استحال قلبي الآن إلى صخرة عاتية لا ينال منها شيء ، فلا رجعة لي إليها بعد اليوم !» ثم مسح عن خده آخر دمعة كانت تنحدر فيه ، وقام إلى بقرته فأخذ بزمامها ومضى بها إلى المزرعة وحده .

لقد كذبت المسكينَ نفسُه ، فإنه ما سلا سوزان ولا هدأت عن قلبه لوعة حبها ، ولكنها الغضبة التي يغضبها المحب المهجور ، تخيل إليه أنه قد نفض يده من المحب أشد ما يكون به عالقاً .

فإنه ما وصل إلى المزرعة وأرسل سائمته في مرعاها، حتى رأى كوكب الشمس يتناهض من مطلعه قليلاً قليلاً ، ويرسل أشعته الياقوتية الحمراء على هذه الكائنات ؛ فتنير ظلامها ، وتجلو صفحتها ، وتترقرق ما بين خضرائها وغبرائها ، فأعجبه منظر هذه الطبيعة المتلألئة بين يدي هذا الكوكب المنير . ودار بنظره في الفضاء من مشرقه إلى مغربه ، فلمح في الأفق الغربي بارقاً يخطف البصر بلألائه ، فخيل إليه أن المغرب قد أطلع في أفقه شمساً كتلك التي أطلعها المشرق حتى تبينه ، فإذا هو لوح كبير من الزجاج أصفر مستدير تعابثه أشعة الشمس فيما تعابث من الكائنات فيلتمع التماعاً شديداً ، فاسترد بصره إليه سريعاً ووضع يده على يسرى أضالعه ، كأنما يحول بين قلبه وبين الفرار ؛ لأنه علم أن ذلك اللوح الزجاجي الأصفر إنما يلوح في برج من أبراج القصر الأحمر .

هنا علم أن نفسه قد كذبته فيما حدثته ، وأن تلك البارقة التي كانت تضيء ما بين جنبيه من الحب قد استحالت إلى جذوة نار مشتعلة تقضم فؤاده قضماً ، وتمشي في نفسه مشي الموت في الحياة ، فأطلق لعبرته سبيلها . وأنشأ يئن أنيناً محزناً تردده الرياح في جوها ، والأمواج في بحرها ، والأعشاب في مغارسها ، والسائمة في مرابضها ، حتى سمع أصوات الرعاة وضوضاء السائمة ، فكفكف عبراته ، وأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب مع همومه وأحزانه إلى حيث شاء الله أن تذهب .

هكذا لم ينتفع المسكين بنفسه بعد اليوم ، فقد ذهب من الحزن إلى أبعد مذاهبه ، حتى نال منه ما لم ينل كر الغداة ومر العشي ، فأصبح من يراه في طريقه يرى رجلاً بائساً منكوباً مشرد العقل ، مشترك اللب ، مذهوباً به كل مذهب ، يهيم على وجهه آناء الليل وأطراف النهار بين الغابات والحَرَجات ، وفوق ضفاف الأنهار وتحت مشارف الجبال ، يأنس بالوحوش أنس العشير بعشيره ويفر من الناس إن دنوا منه فرار الإنسان من الوحش ، ويرد المناهل مع الظباء واليعافير[1] ، ثم يصدر إذا صدرت معها .

وربما ترامى به السير أحياناً إلى أفنية القصر الأحمر من حيث لا يشعر ، فإذا رأى أبراجه بين يديه ذعر ذعراً شديداً وصاح صيحة عظيمة ، وانكفأ راجعاً إلى قريته لا يلوي على شيء ، وكثيراً ما قضت أمه النهار كله حاملة على يدها الطعام تفتش عنه في كل مكان ، حتى تراه ملقى بين الأحجار ، على ضفة نهر ، أو في سفح جبل ، فتضع الطعام بين يديه من حيث لا يشعر بمكانها ، ثم ترفع يديها إلى السماء ضارعة متخشعة ، تسأل الله بدموعها وزفراتها أن يرد إليها وحيدها ، ثم تعود أدراجها !

مضى الليل إلا أقله ، وسوزان جالسة إلى نافذة قصرها المشرفة على النهر ، تلتفت إلى سرير ابنتها مرة وتقلب وجهها في السماء أخرى ، وكان القمر في ليلة تِمِّه ، فظلت تناجيه وتقول :

« أيها القمر الساري في كبد السماء ، ها أنذا أراك في ليلة تِمِّك وحدي للمرة الرابعة والعشرين ، فهل يعود إليَّ خطيبي «جوستاف» فينظر إليك معي كما كان يفعل من قبل ؟

« لقد كنت لي أيها الكوكب المنير نعم المعين في لياليَّ الموحشة على همومي وأحزاني ، فهل تستطيع أن تحدثني عن «جوستاف» أين مكانه ومتى يعود ؟ وهل نلتقي قريباً فتتم بذلك يدك عندي ؟

« حدثني عنه .. هل يذكرني كما أذكره ؟! وهل يحفظ عهدي كما أحفظ عهده ؟! وهل

(١) اليَعافيرُ: جمع يَعْفور ، وهو الظَّبي بلون التراب .

يجلس إليك حيناً فيسائلك عني كما أسألك عنه ؟ فإن فعل ، فقل له : إن ابنته جميلة جداً جمال الابتسامة الحائرة في فم الحسناء ، وبيضاء بياض القطرة الصافية في الزنبقة الناصعة تحت الأشعة الساطعة ، وقل له : إنها لا تهتف باسم غير اسمه ، ولا تبتسم لرسم غير رسمه ، وإنه إن رآها أغنته رؤيتها عن المرآة المجلوة ؛ لأنه يرى صورته في وجهها كما تتشابه الدميتان المصبوبتان في قالَب واحد .»

ولم تزل تناجي القمر بمثل هذا النجاء حتى رأته ينحدر إلى مغربه ، فودعته وداعاً جميلاً ، وقالت: « إلى الغد يا صديقي العزيز .» ثم قامت إلى سرير ابنتها ، فحنت عليها برفق وقبلتها في جبينها قبلة المساء ، وذهبت إلى مضجعها ، وما هو إلا أن عَبَثت بجفنها السنة الأولى من النوم ، حتى أسلمتها أحلامها إلى أمانيها وآمالها ، فرأت كأن «جوستاف» قد عاد من سفره فاستقبلته هي وابنتها على باب القصر ، فنزل من مركبته وضمهما معاً إلى صدره ضمًّا شديداً ، وظل يقبلهما ويبكي فرحاً وسروراً .

فإنها لمستغرقة في حلمها هذا ، إذ شعرت بيد تحركها فانتبهت ، فإذا صدر النهار قد علا ، وإذا خادمتها واقفة على رأسها ضاحكة متطلقة ، تقول لها : « بشراك يا سيدتي فقد حضر سيدي .»

فاستُطيرت فرحاً وسروراً ، وقالت : « أحمدك اللهمّ فقد صدقت أحلامي .» وأسرعت إلى غرفة ملابسها فبدلت أثوابها ، ثم دخلت عليه في غرفته باسمة متهللة تحمل ابنتها على يدها ، فرأته واقفاً في وسط الغرفة متكئاً على كرسي بين يديه ، فهرُعت إليه . ولكنها ما دنت منه ، حتى تراجعت حائرة مدهوشة ؛ لأنها رأت أمامها رجلاً لا تعرفه ولا عهد لها به من قبل ، لا بل هو بعينه ، ولكنها رأت وجهاً صامتاً متحجراً لا تلمع فيه بارقة ابتسام ، ولا تجري فيه نظرة بشاشة فأنكرته . إلا أنها تماسكت قليلاً ومدت إليه يدها تحييه ، فمد إليها يده بتثاقل وفتور ، كأنما ينقلها من مكانها نقلاً ، ولم يلق على وجه الطفلة – وكانت تبتسم إليه وتمد نحوه ذراعيها – نظرة واحدة ، وكانت أول كلمة قالها لها :

« أ باقية أنت في القصر حتى اليوم ؟!»

فازدادت دهشة وحيرة ، ولم تفهم ماذا يريد ، وقالت له :

« وأين كنت تريد أن تراني يا سيدي ؟»

قال : « في هذا القصر ، كما تركتك ، ولكني أظن أنك لا تستطيعين البقاء فيه بعد اليوم .»

قالت : « لماذا ؟»

قال : « لأن زوجتي قادمة إليه اليوم ، وربما كانت لا تحب أن ترى فيه من يزعجه وجودها .»

هنالك شعرت أن جميع ما كان ينبعث في عروقها من الدم قد تراجع كله دفعة واحدة إلى قلبها ، فأصبح وحده الواجب[1] الخفّاق من دون أعضائها وأوصالها جميعاً . ولكن المصيبة إذا عظمت خلت عن البكاء والأنين ، فلم تصحْ ولم تضطرب ، بل نظرت إليه نظرة طويلة هادئة ، ثم التفتت إلى ابنتها وقالت له :

« وما ترى في ابنتك هذه ؟»

قال : « ليس لي ابنة أيتها السيدة ولا ولد لي ؛ لأني لم أتزوج إلا منذ ثلاثة أيام ! فخذي ابنتك معك، وعيشي معها حيث تشائين ، وقد تركت لك هذا الكيس على المنضدة ، فخذيه واستعيني به على عيشك، وتركها ومضى .»

لم تلق على المنضدة نظرة واحدة ، ومشت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفتها ، وهنالك انفجرت باكية ، وقالت : « وا سوأتاه ! إنه يعطيني ثمن عرضي .» وسقطت مغشيًّا عليها .

فلم تستفق حتى أظلها الليل ، ففتحت عينيها فإذا ابنتها تبكي بين ذراعي الخادمة ، وإذا الخادمة تبكي لبكائها ، فضمتها إلى صدرها ساعة ، ثم قامت إلى غرفة ملابسها وأخذت تفتش عن أثوابها القروية التي دخلت بها هذا القصر منذ ثلاثة أعوام ، وكانت تخفيها عن أعين الناس حياءً وخجلاً ، فخلعت أثوابها ولبستها ، ولم تبق في معصميها ولا في جيدها

(١) وَجَبَ القلب: خفق .

لؤلؤة ولا ماسة إلا ألقت بها تحت قدميها . واحتملت طفلتها وخرجت تحت ستار الليل تترنح[١] في مشيتها كأنما تمشي على رملة مَيْثاء[٢] .

وما جاوزت عتبة الباب ووصلت إلى الموضع الذي كانت واقفة فيه في حلمها هي وابنتها منذ ساعات تنتظر خطيبها ، حتى لمحت على البعد مَرْكبة فخمة مقبلة على القصر تحمل المركيز وامرأة بجانبه ! فأغمضت عينيها وتسللت تحت جدار القصر ، ومضت في سبيلها .

لا يعلم إلا الله ما كانت تحمل هذه الفتاة المسكينة بين جنبيها في تلك الساعة من هموم وأحزان ، فقد خرجت مطرودة من القصر التي كانت تظن منذ ساعات أنها صاحبته ، وتولى طردها من كانت تزعم في نفسها أنها أحب الناس إليه ، وآثرهم عنده ، واستحالت في ساعة واحدة من فتاة شريفة ذات خطيب شريف إلى امرأة عاهرة ذات ولد مريب ، وأصبح مستحيلاً عليها أن تعود إلى بيتها القديم بعارها ؛ فترى وجه ذينك الشخصين اللذين أحسنا إليها كثيراً وأحباها حبًا جمًا فأساءت إليهما وغدرت بهما ، فقد سُدَّت دونها السبل وأظلم ما بينها وبين العالم بأجمعه فما من رحمة لها في الأرض ، ولا في السماء !

ذلك ما كانت تحدث نفسها به ، وهي سائرة تحت سوار القصر سير الذاهل المشدوه لا تعرف لها مذهبًا ولا مضطربًا ، حتى رأت رأس ابنتها يميل به الكرى ، فمشت إلى ربوة عالية على ضفة النهر الجاري على مقربة من القصر ، فأضجعتها فوق عشبها ، وأسبلت عليها رداءها ، وجلست بجانبها تفكر في مصيرها .

فإنها لجالسة مجلسها هذا ، وقد سكن الليل وسكن كل شيء فيه إلا ضوء القمر المنبعث في أجواز الفضاء ، ونسمات الهواء المترقرقة على صفحات الماء ، إذ شعرت كأنها تسمع بالقرب منها هاتفًا يهتف باسمها بصوت ضعيف ، فالتفتت حيث سمعت الصوت فإذا شبح أسود ممتد بين صخرتين على ضفة النهر ، كأنه إنسان نائم فارتاعت وفزعت ، ثم سمعت الصوت يتكرر بنغمة واحدة . فأهمها الأمر ونهضت من مكانها وأخذت تدنو من الشبح رويداً رويداً حتى دانته ، فإذا هو إنسان في زي المساكين مستلق على ظهره شاخص ببصره إلى جدار القصر . فذهبت بنظرها حيث يذهب ، فإذا عينه عالقة بنافذة غرفتها التي كانت تجلس إليها كل ليلة ، فعجبت لذلك كل العجب ، وخفق قلبها خفقًا متداركًا ورأته يضم إلى صدره هنة بيضاء أشبه بالرقعة ضمًّا شديداً ، فأكبت عليه لتتبينه ، وترى ما يضم إلى صدره ، فإذا الرقعة رسمها ، وإذا هو «جلبرت» يجود بنفسه ، ويردد بصوت خافت متغلغل كأنه أصوات المعذبين في أعماق القبور :

« الوداع يا سوزان ! الوداع يا سوزان ! »

ففهمت كل شيء ، فصرخت صرخة عظمى ، دوى بها الفضاء وقالت : « آه ! لقد قتلتك يا ابن عمي. »

ثم سقطت على يده تقبلها وتبللها بدموعها ، وتقول : « ها أنذا يا «جلبرت» جاثية تحت قدميك ، فارحمني واغفر لي ذنبي ، فقد أصبحت امرأة بائسة شقية ليس على وجه الأرض من هو أحق بالرحمة مني . »

وكأنما أحس بنغْمة صوتها فارتعد قليلاً ، ثم مال بنظره نحوها حتى رآها ، فسقطت من جفنه دمعة حارة على يدها كانت آخر عهده بالحياة ، وقُضِي :

ولما دنا مني السياق[٣] تعرضت
إليَّ ودوني من تَعَرُّضها شغل
أتت وحياض الموت بيني وبينها
وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

جثت سوزان بجانب جثة جلبرت ساعة ، قضت فيها ما يجب عليها لابن عمها وخطيبها وعشيقها الذي أحبها حبًا لم يحبه أحد من قبله أحداً حتى مات

---

(١) ترنَّح: تمايَلَ من السُّكْرِ وغيره . (٢) الميثاء: اللَّيِّنة .

(٣) السِّياق: نزع الروح .

حسرة عليها ، ثم استفاقت فذكرت ابنتها ، وأنها تركتها على تلك الربوة نائمة وحدها فعادت إليها مسرعة ، وقد قررت في نفسها أمراً .

« لا أعرف أحداً من الناس أوصيه بك يا بنيتي ؛ لأن أباك أنكرك ولأن الرجل الوحيد الذي كان يحبني في هذا العالم ذهب لسبيله ، ولكني أعلم أن لهذا الكون إلهاً رحيماً يعلم دخائل القلوب وسرائر النفوس ، ويرى لوعة الحزن في أفئدة المحزونين ولاعج الشقاء بين جوانح الأشقياء ، فأنا أكل أمرك إليه وأتركك بين يديه فهو أرحم بك من جميع الرحماء .

« لا أستطيع أن أعيش لك يا بنيتي ، فإن أحداً من الناس لا يغتفر لي الذنب الذي أذنبته ، حتى الذي أغراني به وشاركني فيه ؛ فأنا ذاهبة إلى ذلك العالم العلوي المملوء عدلا ورحمة ؛ لعلي أجد فيه من يغفر لي ذنبي إن كنت بريئة ، ويرحمني إن كنت مذنبة .

« لا أحب أن تكون حياتي يا بنية شؤماً على حياتك ، ولا أن يأخذك الناس بذنبي كلما رأوك بجانبي ، فأنا أتركك وحدك في هذا المكان لعل راحماً من الناس يمر بك فيعطف عليك ، ويضمك إليه ، من حيث لا يعلم شيئاً من أمرك ، فتعيشين في بيته بسعيدة هانئة ، لا تعرفين أباك فيخجلك مرآه ، ولا أمك فتؤلمك ذكراها .

« اللهم إن كنت تعلم أن هذه الطفلة ضعيفة عاجزة تحتاج إلى من يرحمها ويكفل أمرها ، وأنني قد أصبحت عاجزة عن البقاء بجانبها أرعاها وأحنو عليها ، وأنها بريئة طاهرة لا يد لها في الذي أذنبه أبواها ، فارحمها وأسبل عليها ستر معروفك وإحسانك ، وهيئ لها صدراً حنوناً ، ومهداً ليناً ، وعيشاً رغيداً .»

ثم بدأت تسرو ثيابها عن جسمها ، وتغطي بها جسم ابنتها وقاية لها من برد الليل ، حتى لم يبق على جسدها إلا قميص واحد ، تركته ليكون ستراً لعورتها عند انتشال جثتها ، ثم حنت على الطفلة برفق ، فلثمتها في جبينها لثمة أودعتها كل ما في صدرها من حب ورحمة ورفق وحنان ، ثم هتفت قائلة :

« الوداع يا ماري . سنلتقي عما قليل يا جلبرت. المغفرة يا كاترين .» وألقت بنفسها في الماء .

قضى المركيز الليلة الأولى من ليالي شهر العسل مع عروسه في شرفة القصر يسمران ويتناجيان ، ويذهبان بنظرهما حيث تذهب خضرة الأرض وتمتد زرقة السماء وتطرد مياه النهر ، ويتقلبان بين سعادة حاضرة وأخرى مرجوة ، ويرشفان من كل كأس من تلك الكؤوس رشفة تكثراً بما عندهما منها ، حتى ثملا واستغرقا وأصبحا لا يشعران بشيء مما حولهما ، فلم يستفيقا حتى سمعا دوي الريح في أبراج القصر ، وفي ذوائب الأشجار ؛ فعلما أنها الزوبعة فنهضا من مكانهما ليذهبا إلى مضجعهما .

فإنهما لواقفان موقفهما هذا ، إذ لمحت المركيزة في وجه المركيز دهشة واضطراباً ، ورأته يلتفت التفاتاً شديداً كأنما يتسمع لصوت غريب ، فسألته ما باله . فلم يجبها ، وأطل من الشرفة على النهر ، فرأى كما رأت هي على نور القمر ، طفلة واقفة على الضفة تصيح وتعول ، وتشير بيدها نحو الماء ، وتقول : « أماه ! أماه !» فنظرا حيث تشير ، فإذا امرأة عارية إلا قليلاً تتخبط ، في لُجَج الماء تخبط الغرقى .

فترك المركيز مكانه ونزل يعدو إلى النهر ، وهو يقول: « وا لهفتاه إن كانت هي .» وصاح بخدمه أن يتبعوه ففعلوا .

حتى بلغ موقف الطفلة فعرف أنها ابنته ، وأن الغريقة سوزان ، فأظلم الفضاء في عينيه وأشار إلى أحد خدمه أن يعود بالطفلة إلى القصر ، وأمر الباقين أن يسبحوا وراء الغريقة ، ثم سقط في مكانه واهناً متهالكاً، وكان قد اجتمع على الضفة خلق كثير من الفلاحين رجالاً ونساء ، فسبح بعضهم وراء السابحين ، ووقف الباقون حول المركيز ينتظرون رحمة الله وإحسانه .

انتشر السابحون في كل مكان ، ومشت وراءهم

عيون الناظرين وقلوبهم ، فقامت بينهم وبين الأمواج المتلاطمة معركة هائلة ، كانوا يظفرون فيها مرة ويتراجعون أخرى ، وكانوا إذا لاح لهم على البعد قميص الغريقة أو شعرها ، عظم عندهم الأمل ، فاندفعوا وراءها مستبسلين مستقتلين يغالبون جبال الأمواج المعترضة في طريقهم ، حتى إذا دنوا من المكان الذي لمحوها فيه لا يجدون أمامهم شيئاً ، ثم لا يلبث الموج أن يكر عليهم ، فيدفعهم إلى الضفة كما كانوا .

وما زالت الفترات بين ظهور الغريقة واختفائها تتسع شيئا فشيئا حتى غابت عن الأعين ولم تظهر ؛ فهبط السابحون وراءها ولبثوا ساعة يرسبون ويطفون ، ثم ظهروا على وجه الماء يحملونها على أيديهم ولا يعلم الناس أحيَّة أم ميتة ، وما زالوا يسبحون بها وأصوات الدعاء لها والبكاء عليها ترن في الضفتين فتردد رنينها آفاق السماء ، حتى وصلوا بها إلى الضفة ، فألقوها على الأرض فإذا هي ميتة .

وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى كانت الضفة مأتماً قائماً يبكي فيه النساء على الشهيدة والرجال على الشهيد .

لم ينتفع المركيز بنفسه بعد هذا اليوم كما لم ينتفع جلبرت بنفسه من قبل ، فقد مرضت ابنته على أثر تلك الحادثة مرضاً شديداً ، فلم تلبث أن لحقت بأمها بعد ثلاث ليال ، واستحال الحب الذي كانت تضمره له زوجته إلى بغض واحتقار ؛ فهجرته وسافرت إلى «نيس» ولزمه خيال ذلك المنظر الذي رآه من شرفة القصر ليلة الغرق لا يفارقه ليله ونهاره . فكان كلما مشى في طريق ، توهم أن أمامه نهراً هائجاً تتخبط سوزان في لُجّته ، وتصيح ماري على ضفته ، فيصرخ قائلاً : « لبيك يا سوزان ! » ويندفع إلى الأمام كأنما يريد أن يلقي بنفسه في النهر الذي توهمه لينجي الغريقة التي تخيلها ، فينأى عنه المنظر كلما دنا منه حتى ينال منه التعب ، فيسقط حسيراً طريحاً .

وكان يهيم على وجهه أحيانا حتى يصل إلى ضاحية قرية «ليني» ، فيرى امرأة عجوزاً مكبَّة على قبر بين يديها تبكي وتنتحب ، فيعلم أنها كاترين ، وأن القبر قبر قتلاه ، فيتراجع خائفاً مذعوراً ، ويصرخ قائلاً : « الرحمة الرحمة ! العفو العفو ! »

وكثيراً ما كان يراه نساء الفلاحين ساقطاً في بعض الأماكن التي كن يرين فيها جلبرت ، فيقلن : « لقد انتقم الله للشهيد المسكين والشهيدة المظلومة . » وكان منظر الماء يهيجه أكثر من كل منظر سواه ، فإذا رآه ثار واضطرب وتهافت عليه يريد اقتحامه ، لولا أن يتداركه من يراه من المارة .

ولم يزل هذا شأنه حتى رأى الناس جثته في صباح يوم من الأيام طافية على وجه النهر في المكان الذي غرقت فيه سوزان ؛ فعلموا أنها نهاية الجزاء .

مرَّت على هذه الحادثة أعوام طوال ، ولا يزال عجائز قرية «ليني» والقرى المحيطة بها يحفظنها حتى اليوم ويبكين كلما ذكرنها ، ويروينها لبناتهن وحفيداتهن عبرة يعتبرن بها كلما طاف بهن طائف من شرور الرجال .

* * *

العقاب
« موضوعة »

رأيت فيما يرى النائم في ليلة من ليالي الصيف الماضي كأني هبطت مدينة كبرى ، لا علم لي باسمها ، ولا بموقعها من البلاد ، ولا بالعصر الذي يعيش أهلها فيه ، فمشيت في طرقها بضع ساعات ، فرأيت أجناساً من البشر لا عداد لهم ينطقون بأنواع من اللغات لا حصر لها ، فخيل إليَّ أن الدنيا قد استحالت إلى مدينة ، وأن الذي أراه بين يدي إنما هو العالم بأجمعه من أدناه إلى أقصاه . فلم أزل أتنقل من مكان إلى مكان ، وأداول[1] بين الحركة والسكون

(١) داوَلَ كذا بينهم: جَعَلَهُ مُتَداولاً ، تارَةً لهؤلاء وتارَةً لهؤلاء .

حتى انتهى بي المسير إلى بنية عظيمة ، لم أر بين البنى أعظم منها شأناً ولا أهول منظراً ، وقد ازدحم على بابها خلق كثير من الناس ، ومشى في أفنيتها وأبهائها طوائف من الجند يخطرون بسيوفهم وحمائلهم جيئة وذهوباً ، فسألت بعض الواقفين : « ما هذه البنية ، وما هذا الجمع المحتشد على بابها ؟» فعلمت أنها قصر الأمير ، وأن اليوم يوم القضاء بين الناس والفصل في خصوماتهم .

وما هي إلا ساعة حتى نادى مناد في الناس : أن قد اجتمع مجلس القضاء فاشهدوه ، فدخل الناس ودخلت على أثرهم ، وجلست حيث انتهى بي المجلس ، فرأيت الأمير جالساً على كرسي من الذهب يتلألأ في وسط الفناء تلألؤ الشمس في دارتها ، وقد جلس على يمينه رجل يلبس مُسوحاً [١] وعلى يساره آخر يلبس طَيْلساناً [٢] ، فسألت عنهما ، فعرَفت أن الذي على يمينه كاهن الدير ، وأن الذي على يساره قاضي المدينة ، ورأيته ينظر في ورقة بيضاء بين يديه ، فأكبَّ عليها ساعة ثم رفع رأسه وقال : « ليؤتَ بالمجرمين .»

ففتح باب السجن وكان على يسار الفناء ، فتكشف عن مثل خلق الليث منظراً وزئيراً ، وخرج منه الأعوان يقتادون شيخاً هرماً تكاد تسلمه [٣] قوائمه ضعفاً و وهناً ، فسأل الأمير :

« ما جريمته ؟»

فقال الكاهن : « إنه لص دخل الدير ، فسرق منه غِرارَة [٤] من غرائر الدقيق المحبوسة على الفقراء والمساكين .»

فضج الناس ضجيجاً عالياً وصاحوا : « ويل للمجرم الأثيم ، أ يسرق مال الله في بيت الله ؟» ثم نودي بالشهود . فشهد عليه رهبان الدير ، فتسارَّ الأمير مع الكاهن هنيهة ، ثم صاح :

« يقاد المجرم إلى ساحة الموت ، فتقطع يمناه ثم يسراه ، ثم بقية أطرافه ، ثم يقطع رأسه ، ويقطع طعاماً للطير الغادي والوحش الساغب !» فجثا الشيخ بين يدي الأمير ، ومد إليه يده الضعيفة المرتعشة يحاول أن يسترحمه ، فضرب الأعوان على فمه واحتملوه إلى محبسه .

ثم عادوا وبين أيديهم فتى في الثامنة عشرة من عمره ، أصفر نحيل يضطرب بين أيديهم خوفاً وفَرَقاً ، حتى وقفوا به بين يدي الأمير . فسأل : « ما جريمته ؟»

فقال : « إنه قاتل . ذهب أحد قواد الأمير إلى قريته لجمع الضرائب ، فطالبه بأداء ما عليه من المال ، فأبى وتوقح في إبائه ، فانتهره القائد فاحتدم غيظاً ، وجرد سيفه من غمده ، وضربه به ضربة ذهبت بحياته .»

فصاح الناس : « يا للفظاعة والهول ! إن من يقتل نائب الأمير فكأنما قتل الأمير نفسه .» ثم جيء بأعوان القائد المقتول ، فأدوا شهادتهم ، فأطرق الأمير لحظة ، ثم رفع رأسه ، وقال : « يقاد المجرم إلى ساحة الموت فيصلب على أعواد شجرة ، ثم تُفْصد عروقه كلها ، حتى لا يبقى في جسمه قطرة واحدة من الدم .» فصرخ الغلام صرخة ، حال الأعوان بينه وبين إتمامها واحتملوه إلى السجن .

وما لبثوا أن عادوا بفتاة جميلة كأنها الكوكب المشبوب حسناً وبهاءً ، لولا سحابة غبراء من الحزن تتدجّى فوق جبينها ، فقال الأمير :

« ما جريمتها ؟»

فقال القاضي : « إنها امرأة زانية ، دخل عليها رجل من أهلها فوجدها خالية بفتى غريب ، كان يحبها ويطمع في الزواج منها قبل اليوم .»

فهاج الناس واحتدموا وهتفوا : « القتل القتل ! الرجم الرجم ! إنها الجريمة العظمى والخيانة الكبرى .»

فقال الأمير : « أين شاهدها ؟»

فدخل قريبها الذي كشف أمرها فشهد عليها . فهمس القاضي في أذن الأمير ساعة ، ثم قال الأمير:

(١) المسوح: جمع مِسْح بالكسر ، وهو ثوب من شَعْر يلبسه الرهبان . (٢) الطَّيلسان: الوشاح أو الشّال . (٣) أسلَمَ: خذَلَ . (٤) الغِرارَة: وعاء من الخَيْش ونحوه لحفظ الحبوب .

« تؤخذ الفتاة إلى ساحة الموت ، فترجم عارية حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد ، ولا على عظمها قطعة لحم .» فهلّل الناس وكبروا إعجاباً بعدل الأمير وحزمه ، وإكباراً لسطوته وقوته ، وهتفوا له ولكاهنه وقاضيه بالدعاء .

ثم نهض فنهض الناس بنهوضه ، ومضوا لسبيلهم فرحين مغتبطين ، وخرجت على أثرهم حزيناً مكتئباً أفكر في هذه المحاكمة الغريبة ، التي لم يسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم ، ولم يشهد فيها على المتهمين غير خصومهم ، ولم تقدر فيها العقوبات على مقدار الجرائم . وأعجب للناس في ضعفهم واستخذائهم أمام القوة القاهرة ، وغلوهم في تقديسها وإعظامها ، وإغراقهم في الثقة بها والنزول على حكمها عدلاً كان أو ظلماً ، رحمة أو قسوة ، وأردد في نفسي هذه الكلمات :

« ليت شعري : أ لا يوجد بين هذه الجماهير لص أو قاتل أو زان يعلم عذرهم فيرحمهم ، وينظر إلى جرائمهم بالعين التي ينظر بها إلى جريمته ، ويتمنى لهم من الرحمة والمغفرة ما يتمنى لنفسه ، إن قدر له أن يقف في موقف مثل موقفهم أمام قضاة مثل قضاتهم ؟

« أ لا يجوز أن تكون الزانية غير زانية ، والقاتل إنما قتل دفاعاً عن عرضه أو ماله ، واللص إنما سرق ما يسد به جَوعته أو جَوعة أهل بيته ؟

« أ لم يرتكب الأمير جريمة القتل مرة واحدة في حياته ، فيرحم القاتلين عند النظر في جرائمهم ؟

« أ لم يسقط إلى يد الكاهن يوماً من الأيام دينار من غير حله ، فتخف لوعة أسفه على الغِرارة المسروقة من ديره ويغتفر هذه لتلك ؟

« أ لم تزلّ قدم القاضي مرة واحدة فيما مر به من أيام حياته ، فتهدأ ثورة غضبه على الساقطين والساقطات ؟

« من هم هؤلاء الجالسون على هذه المقاعد يتحكمون في أرواح العباد وأموالهم كما يشاؤون ؟ ويقسمون السعود والنحوس بين البشر كما يريدون ؟

« إنهم ليسوا بأنبياء معصومين ، ولا بأملاك مطهرين ، ولا يحملون في أيديهم عهداً من الله تعالى بالنظر في أمر عباده وتوزيع حظوظهم وأنصبتهم بينهم . فبأي حق يجلسون هذه الجلسة على هذه الصورة ؟ ومن أي قوة شرعية يستمدون هذه السلطة التي يستأثرون بها من دون الناس جميعاً ؟

« من هو الأمير ؟ أ ليس هو المستبد الأعظم في الأمة ، أو سلالة المستبد الأعظم فيها ، الذي استطاع بقوته وقهره أن يتخذ من أعناق الناس وكواهلهم سلماً يصعد عليها إلى العرش الذي يجلس عليه ؟

« من هو الكاهن ؟ أ ليس هو أبرع الناس وأمهرهم في استغلال النفوس الضعيفة والقلوب المريضة ؟

« من هو القاضي ؟ أ ليس هو أقدر الناس على إلباس الحق صورة الباطل والباطل صورة الحق ؟

« ومتى كان المستبدون واللصوص والظلمة أخياراً صالحين وأبراراً طاهرين ؟

« عجيب جداً أن يقتل الرجل الرجل لغضبة يغضبها لعرضه أو شرفه فيسمى مجرماً ، فإذا قتل الأمير القاتل سمّي عادلا ، وأن يسرق السارق اللقمة يقتات بها أو يقيت بها عياله فيسمى لصًّا . فإذا أمر القاضي بقطع أطرافه والتمثيل به سمي حازماً . وأن تسقط المرأة سقطة ربما ساقتها إليها خدعة من خداع الرجال أو نزغة من نزغات الشيطان ، فيستنكر الناس أمرها ، ويستبشعون منظرها ، فإذا رأوها مشدودة إلى بعض الأنصاب عارية تتساقط عليها حجارة من كل صوب ، أنِسوا بمشهدها ، وأعجبهم موقفها ومصيرها !

« كما أن النار لا تطفئ النار ، وشارب السم لا يعالج بشربه مرة أخرى ، وكما أن مقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع اليد اليسرى ؛ كذلك لا يعالج الشر بالشر ، ولا يمحى الشقاء في هذه الدنيا بالشقاء .»

ولم أزل أحدّث نفسي بمثل هذا الحديث ، حتى أقبل الليل فمررت بساحة مظلمة موحشة تتطاير في

جوها أسراب من الطير غادية رائحة ، فاخترقتها حتى بلغت أبعد بقاعها ، فرأيت منظراً هائلاً لا يزال أثره عالقاً بنفسي حتى الساعة .

رأيت الشيخ جثة معفرة بالتراب لا رأس لها ، ولا أطراف ، ثم رأيت رأسه وأطرافه مبعثرة حواليه كأنها نوادب يندبنه حاسرات . ورأيت الفتى مشدوداً إلى شجرة فرعاء كأنه بعض أغصانها ، وقد سال جميع ما في عروقه من الدم حتى أصبح شبحاً ماثلاً ، أو خيالاً سارياً . ورأيت الفتاة كتلة حمراء من اللحم لا يستبين لها رأس ، ولا قدم ، وقد أحاطت بها أكوام من الحجارة المخضبة بدمائها ، ثم رأيت بجانب هذه الجثث الثلاث حفرة جوفاء تَفْهق بالدم ، فعلمت أنها مجمع دماء هؤلاء المساكين ، فشعرت كأن سحابة سوداء تهبط على عيني قليلا قليلاً ، حتى غاب عن نظري كل شيء ؛ فسقطت في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي ، فلم أستفق حتى مضت دولة من الليل .

ففتحت عيني فإذا شبح أسود يدنو مني رويداً رويداً ، فارتعتُ لمنظره ، وفزعت إلى ساق الشجرة فاختبأت وراءه؛ فما زال يتقدم حتى صار بجانبي ، فأشعل مصباحاً صغيراً كان في يده ، فتبينته على نوره ، فإذا عجوز شمطاء في زي المساكين وسحنتهم، فمشت تتصفح وجوه القتلى حتى بلغت مصرع الشيخ ، فجثت بجانبه ساعة تبكيه وتندبه ، ثم مشت إلى رأسه وأطرافه فجمعتها وضمتها إلى جثته ، ثم احتفرت له حفرة تحت ساق الشجرة فدفنته فيها ، وقامت على قبره تودعه وتقول :

« في سبيل الله ما لقيت في سبيلي وسبيل أحفادك البؤساء أيها الشهيد المظلوم ، وفي ذمة الله وكنفه روح طار عن جسدك ، وجسد ضمه قبرك ، فقد كنت خير الناس زوجاً وأباً ، وأطهرهم لساناً ويداً ، وأشرفهم قلباً ونفساً ؛ فاذهب إلى ربك لتلقي جزاءك عنده ، واطلب إليه الرحمة لجميع الناس حتى لقاتليك وظالميك ، واسأله أن يلحقني بك وشيكا ، فلا شيء يعزيني عنك بعد فراقك إلا الأمل في لقائك ! »

فأبكاني بكاؤها وأحزنني منظرها ، ووقع في نفسي أنها صادقة فيما تقول ، وأن شيخها شهيد من شهداء القضاء . وأحببت أن أقف على قصتها وقصته ، فبرزت من مخبئي ومشيت إليها ، فارتاعت لمرآي عند النظرة الأولى ، ثم سكتت كأنما ذكرت أن لا قيمة لمصائب الحياة بعد مصابها الذي نزل بها .

فابتدرتها بقولي : « لا تراعي يا سيدتي ، فإنني رجل غريب عن هذا البلد لا أعرف من شأنه ، ولا من شأن أهله شيئاً ، وقد رأيت الساعة موقفك على هذا القبر وتفجعك على ساكنه فرثيت لك وبكيت لبكائك ، وتمنيت لو أفضيت إليَّ بذات نفسك ، علّني أستطيع أن أكون لك عوناً على همك . »

فاستعبرت باكية وأنشأت تحدثني وتقول : « إن زوجي لم يكن في يوم من أيام حياته لصًّا ولا سارقاً ، بل قضى أيام شبابه وكهولته عاملاً مجدًّا لا يفتر ساعة واحدة عن السعي في طلب رزقه ورزق أهل بيته حتى كبر ولده ، وكان واحده ، فاشتد به ساعده واحتمل عنه بعدما كان يستقل بحمله من الهم . وما هو إلا أن نعمنا به وبمعونته حقبة من الدهر ، حتى نزلت به نازلة الموت فذهبت بحياته أحوج ما كنا إليه ، وخلف وراءه خمسة أولاد صغار لا يتجاوز أكبرهم العاشرة من عمره . وكانت قد أدركت أباه الشيخوخة ، فاجتمع عليه همُّ الكبر وهمُّ الثكل ؛ فأصبح عاجزاً عن العمل لا يستطيعه إلا في الفينة بعد الفينة [1] ، وأصبحنا جميعاً في حالة من الشقاء والبؤس ، لا يعرف مكانها من نفوسنا إلا من ألمَّ به في حياته طرف منها ، حتى طلعت علينا شمس يوم من الأيام ، وليس في يدنا ما نقوّم به أصلاب صغارنا ، ولا ما نعللهم به تعليلاً ، فأسقط في يدنا ، وعلمنا أنّا هالكون جميعاً إن لم يتداركنا الله برحمة من عنده . »

« فلم أر بداً من أن ألجأ إلى الخطة التي يلجأ إليها كل مضطر عديم ، فبرزت إلى الناس أتعرض لمعروفهم وأستندي ماء أكفهم ، فلم أجد بينهم من يحسن إليَّ

---

(١) الفَيْنة: الساعة والحين .

بجرعة أو مضغة ، ولا من يدلني على سبيل ذلك . وكان أكبر ما حال بيني وبينهم وصرف وجوههم عني ، أني لا ألبس مرقعة الشحاذين ، ولا أحمل رَكْوتهم[١] فعدت إلى منزلي وبين جنبي من الهم ما الله به عليم ، فرأيت الأطفال سهداً يتضاغون[٢] جوعاً ، ورأيت الشيخ جالساً بينهم يبل تربة الأرض بدموعه ويقرع كفه بكفه لا يعلم ماذا يصنع ، ولا كيف يحتال ، ولو أن شخص الموت برز إليّ في تلك الساعة ، لكان منظره أهون على نفسي من منظر هؤلاء الصبية ، وهم يحدقون في وجهي عند دخولي ، ويدورون حولي ليروا هل عدت إليهم بما يسد جوعتهم ، وما عدت إليهم إلا باليأس القاتل والكمد الشامل .

« فتقدمت نحو الشيخ ، وقلت له : « إن في دير المدينة كما يزعمون مالاً للصدقات ، يتولى الكاهن الأعظم إنفاقه على الفقراء والمساكين ، فلو ذهبت إليه وكشفت له خَلَّتك وسألته أن يمنحك عُلالة تستعين بها على أمرك لرجونا أن نطفئ لوعة هؤلاء الأطفال المساكين . »

« فاستنار وجهه بنور الأمل ، وقام إلى عصاه فاعتمد عليها ومشى إلى الدير حتى بلغه ، فصعد إلى حجرة الكاهن حتى وقف بين يديه ، فنفض له جملة حاله وسكب تحت قدميه جميع ما أبقت الأيام في جفنيه القريحين من دموع ، فاستقبله الكاهن بأقبح ما يستقبل به مسؤول سائلاً ، وقال له : « إن الدير لا يحسن إلا إلى الذين أسلفوه الإحسان من قبل ، وما كنت في يوم من أيام رغدك ورخائك من المحسنين إليه ؛ فاذهب لشأنك فأبواب العيش واسعة بين يديك ، فإن ضاقت بك ، فأبواب الجرائم أوسع منها ! »

« فخرج من حضرته كئيباً محزوناً لا يرى فضاء الدنيا في نظره إلا ككفة الحابل[٣] أو أفحوص[٤] القطاة ، حتى نزل إلى ساحة الدير فلمح في إحدى زواياه غرارة[٥] دقيق فحدثته نفسه بها ، وما كانت تحدثه لولا العَوْز والفاقة ، ثم أدركه الحياء ؛ فأغضى عنها واستمر سائراً في طريقه حتى صار بجانبها ، فوقع نظره عليها مرة أخرى ، فعاوده حديثه الأول فحاول دفعه ، فلم يستطع ، فجلس بجانبها يحدث نفسه ويقول : إن الطعام طعام الفقراء والمساكين ، وأنا فقير مسكين ، لا أعلم أن بين أسوار هذه المدينة ، ولا في جميع أرباضها رجلاً أحوج ، ولا أفقر مني ، فإن كان الطمع في هذه الغرارة جريمة فقد أذن لي الكاهن بارتكاب الجرائم في سبيل العيش . »

« ثم مشى إليها فاحتملها على ظهره ومشى بها جاهداً مترجحاً ، فما تجاوز عتبة الدير حتى أثقله الحمل، وشعر أنه عاجز عن المسير فحدثته نفسه بإلقائه عن ظهره . ثم تمثل له منظر أحفاده الصغار ، وهم ألقاء[٦] تحت جدران البيت يتضورون جوعاً ، فحمل على نفسه ومشى يعتمد على عصاه مرة ، وعلى الجدار مرة أخرى ، حتى نال منه الجهد فأحسَّ كأن أنفاسه قد جمدت في صدره لا تهبط ، ولا تعلو، وأن ما كان باقياً في عينيه من نور قد انطفأ دفعة واحدة ، فأصبح لا يرى شيئاً مما حوله ، وإذا نفثة من دم دفقت من صدره فانحدرت على ردائه ؛ فسقط في مكانه مغشياً عليه .

« ولم يزل على حاله تلك ، حتى مرَّ به العسس[٧] فرأوه ورأوا الغِرارة بجانبه فارتابوا به ، وكان رهبان الدير قد أخذوا يتصايحون فيما بينهم : الغرارة ، الغرارة ! وينشدونها في أنحاء الدير حتى يئسوا منها فخرجوا يطلبونها في كل مكان حتى التقوا بالعسس حول مصرع الشيخ فعرفوا ضالتهم ، وما هي إلا ساعة حتى كانت الغِرارة في الدير ، وكان الشيخ في السجن ، ثم كان بعد ذلك ما رأيت من أمره ، فوا أسفاه عليه لقد مات شهيداً مظلوماً ، و وا رحمتاه لي ولأطفالي البؤساء المساكين من بعده ! »

---

(١) الرَّكوة: وعاء للماء على صورة الزورق يحمله الشّحاذون .
(٢) يَتضَاغون من الجوع: يتضورون منه .
(٣) الحابل: الصائد لأنه يرمي الحِبالة للصيد ، وكِفته: حُبالته .
(٤) الأفحوص: حفرة تحفرها القَطاةُ أو الدَّجاجةُ في الأرض لتبيض وترقد فيها .
(٥) الغِرارة: وعاءٌ من الخَيْش ونحوه تُحْفَظُ فيه الحُبوب .
(٦) الألقاء: جمع لَقى ، واللَّقى الشيء المُلقى المطروح .
(٧) العَسَس: الطائفون بالليل لحراسة الناس أو كشف أهل الريبة .

ثم نهضت من مكانها ومسحت عَبرتها بطرف ردائها ، ونظرت إلى القبر نظرة طويلة وقالت: « الوداع يا رفيق صباي ، وعماد شيخوختي ، الوداع يا خير الأزواج وأبرّ العشراء ، الوداع حتى يجمع الله بيني وبينك في دار جزائه .» ثم انكفأت راجعة في الطريق التي جاءت منها .

وما هو إلا أن تغلغل شخصها في أعماق الظلام ، حتى رأيت شبحاً آخر يتراءى من حيث اختفى الشبح الأول ، وما زال يتقدم نحوي متسللاً يختلس خطواته اختلاساً ، فاختبأت وراء الشجرة لأرى ما هو صانع ، وكان القمر قد بدأ يشرف على الوجود من مطلعه ، ويرسل الخيوط الأولى من أشعته على تلك الساحة الكبرى ، فرأيت الشبح على نوره . فإذا فتاة جميلة باكية لم أر في حياتي دمعة على خدٍّ أجمل من دمعتها على خدها ، فدارت بعينيها لحظة ، حتى وقع نظرها على جثة المصلوب بين أعواد الشجرة ، فمشت إليه ومدت يدها إلى الحبل المشدود به فعالجت عقدته حتى انحلت ، ثم احتملته على يدها وأضجعته على الأرض و وقفت بجانبه ساعة تنظر إليه جامدة ساكنة كأنها غير آبهة ولا حافلة ، ثم هتفت صارخة : «واشقيقاه!» وسقطت فوقه تضمه وتقبله وتلثم شعره وجبينه وتزفر فيما بين ذلك زفيراً متداركاً ، كأنما تنفث أفلاذ كبدها نفثاً ، حتى نال منها الجهد فترنحت قليلاً ثم هوت بجانبه هوي الجذع الساقط لا حَراك بها .

فأهمني أمرها وخفت أن يكون قد لحق بها مكروه؛ فمشيت إليها حيث صرت بجانبها فشعرت بأنفاسها الضعيفة تتردد في صدرها ؛ فعلمت أنها حية ، فجلست فوق رأسها أندبها وأدعو الله لها حتى استفاقت بعد هنيهة ، فرأتني بجانبها فنظرت إليّ نظرة حائرة ، ثم تقدمت نحوي وقالت :

« على من تبكي أيها الرجل الغريب ؟»

قلت : « أبكي عليك يا سيدتي وعلى فقيدك البائس المسكين .»

قالت : « نعم . إنه بائس مسكين فابك عليه يا سيدي كثيراً ؛ فقد كان زينة الشباب وزهرة الحياة وريحانة النفوس ومتعة الأفئدة والقلوب ، ولقد ظلموه إذ قتلوه ؛ فما كان قاتلاً ولا مجرماً ، ولكنه رجل رأى عرضه فريسة في يد من يريد تمزيقه ، فقطع تلك اليد الممتدة إليه ، وانتقم لنفسه وللشرف والفضيلة منها ، ولو أنصفوه لا ستبقوه رحمة به وبشبابه ، فما أجرم من ذاد عن عرضه ولا أثم من قتل قاتله .»

قلت : « هل لك أن تقصي عليّ قصته يا سيدتي ؟»

قالت : « نعم . نزل قريتنا صباح يوم من الأيام قائد من قواد الأمير الذين يطوفون البلاد لجمع الضرائب فمر بأبيات القرية بيتاً بيتاً حتى بلغ منزلنا ، وكنت واقفة على بابه فنظر إليّ نظرة مريبة طار لها قلبي رعباً وفرقاً ، ثم سألني عن أخي فأرشدته إلى مكانه ، فسأله عن المال فاستنسأه[1] إياه أياماً قلائل حتى يبيع غلته ، فأبى إلا أن ينقده الساعة أو يأخذني رهينة عنده إلى يوم الوفاء .

« وغمز بي بعض أعوانه فداروا حولي ، وكنت أسمع قبل اليوم حديث أولئك الفتيات الشقيات اللواتي يدخلن رهائن في قصر الأمير ، فلا يخرجن منه إلا ساقطات أو محمولات ، ففزعت إلى أخي ولصقت به ، فوقف بيني وبين الرجل ، وقال له : « لا شأن لك مع الفتاة إنما أنا صاحب المال ، وأنا المأخوذ به من دون الناس جميعاً ؛ فإن كان لا بد لك من رهينة فأنا رهينة مالي حتى يصل إليك .» فقال له : « لا بد لي من المال أو الرهينة ولا بد أن تكون الرهينة كما أريد ، فإن أبيت فحياتك فداء عنها .»

« فغضب أخي غضبة انتفض لها في جبينه عرق ، لم أره في ساعة من ساعات غضبه قبل اليوم ، وقال له : « فلتكن حياتي فداء لشرفي .» ثم جرد سيفه وضربه به ضربة طارت برأسه ، و وقف في مكانه لا يبرحه وسيفه يقطر دماً حتى غلّه[2] الأعوان

---

(١) استنسأ غريمه الدَّين: طلب منه أن ينسئه إياه أي: يؤجله له .

(٢) غلّه: وضع في عنقه الغل .

واحتملوه إلى السجن ، فتلك حياته يا سيدي وذاك مماته ، فلئن بكيته ، أنا أبكي فتى الفتيان همة ونجدة ، ونادرة الرجال عزة وإباءً ، وأفضل الأخوة رحمة وحناناً .»

ثم قالت : « هل لك أن تعينني يا سيدي على مواراته قبل أن يحول النهار بيني وبينه فقد أصبحت واهية متضعضعة ، لا أقوى على شيء .»

فقمت إلى الشجرة فاحتفرت حول ساقها حفرة بجانب حفرة الشيخ فواريته فيها ، فتقدمت الفتاة نحو القبر وجثت بجانبه ساعة مطرقة ساكنة ، لا أعلم هل هي باكية أو ذاهلة ، حتى فارقت مكانها ، فرأيت تربة القبر مخضلة بدموعها ، ثم مدت يدها إليَّ وقالت :

« شكراً لك يا سيدي فقد أعنتني على موقف قلما يجد فيه مستعين معيناً ، ومضت لسبيلها .»

فأتبعتها نظري حتى اختفت آخر طية من طيات ردائها ، فعدت إلى نفسي ، فإذا جثة الفتاة المرجومة لا تزال مكانها ، فهاجني منظرها ، وقلت في نفسي : « إنني لا أدخر لنفسي عملاً أرجو فيه رحمة الله وإحسانه يوم جزائه ، أفضل من مواراة هذه المسكينة التراب .» فاحتفرت لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين ، ثم ألقيت عليها ردائي واحتملتها على يدي حتى أضجعتها في حفرتها .

فإني لأجثو عليها التراب إذ شعرت بحركة ورائي ، فالتفت فإذا فتى يافع متلفع ببردة سوداء لا يستبين منها غير بياض وجهه ، فابتدرني بقوله: « من صاحب هذا القبر الذي تجثو ترابه يا سيدي ؟»

قلت : « فتاة مرجومة ، رأيت جثتها الساعة منبوذة في هذا العراء ، فرحمت مصرعها ، واحتفرت لها هذا القبر الذي تراه .»

فقال : « إن لي يا سيدي مع هذه الفتاة شأناً ، فهل تأذن لي أن أودعها الوداع الأخير قبل أن يحول التراب بيني وبينها ؟»

قلت : « نعم شأنك وما تريد .»

وتنحيت قليلاً ، فدنا من القبر وجثا فوق تربته ، وظل يناجي الدفينة نجاء خلت أن الكواكب تردده في سمائها والرياح ترجعه في أجوائها ، حتى اشتفت نفسه ، فقام إلى التراب يهيله عليها حتى واراها .

ثم التفت إليَّ وقال : « لقد شكر الله لك يا سيدي هذه اليد التي أسديتها إلى هذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف الناس عن عورتها ، وحفظ ما أضاعوا من حرمتها ، فجزاك الله خيراً بما فعلت ، وأحسن إليك كما أحسنت إليها .»

وأراد الرجوع فاستوقفته ، وقلت له : « وهل ماتت هذه الفتاة مظلومة كما تقول ؟»

فانفرجت شفتاه عن ابتسامة مرة ، ونظر إليَّ نظرة هادئة مطمئنة وقال : « نعم يا سيدي . ولولا ذلك ما رأيتني الساعة واقفاً على حافة قبرها أندبها . أنا الرجل الذي اتهموها به ، وأستطيع أن أقول لك ، كما أقول لربي يوم أقف بين يديه رافعاً إليه ظُلامتها : إنها بريئة مما رموها به ، وإنها أطهر من الزهرة المطلولة ، وأنقى من القطرة الصافية .

« لقد أحببت هذه الفتاة مذ كانت طفلة لاعبة ، وأحبتني كذلك ثم شببنا وشب الحب معنا ؛ فتعاقدنا على الوفاء والإخلاص ، ثم خطبتها إلى أبيها فأخطبني[1] راضياً مسروراً ، حتى إذا لم يبق بيني وبين البناء[2] بها إلا أيام معدودات ، إذ نزلت بأبيها نازلة الموت ، فعلمنا أن لا بد لنا من الانتظار بأنفسنا عاماً كاملاً ، ففعلنا .

« حتى إذا انقضى العام أو كاد ، حدث أن ذهبت الفتاة إلى قاضي المدينة في أمر يتعلق بميراثها ، فرآها القاضي فتبعتها نفسه فأرسل وراء عمها ، وكان ولي أمرها بعد أبيها ، وهو رجل من الطامعين المداهنين الذين لا يبالون أن يخوضوا بحراً من الدم إذا تراءى لهم على شاطئه الآخر دينار لامع ، فعرض عليه رغبته في الزواج من ابنة أخيه ، فطار بهذه المنحة فرحاً وسروراً ، ولم يتردد في إجابة طلبه . وعاد إلى الفتاة يحمل إليها هذه البشرى ، فاستقبلته بوجه باسر وقالت له : إنني لا أستطيع أن

---

(١) أخطبه: قبل خطبته . (٢) البناءُ بها: الزِّفافُ إليها .

أكون خطيبة رجلين في آن واحد ، فلم يُبل بقولها وقال لها : « ستتزوجين ممن أريد طائعة أو كارهة ، فلا خيار لك في نفسك إنما الخِيار لي في أمرك وحدي !»

« وما هي إلا أيام قلائل حتى أعدوا لها عدة زواجها وسموا يوماً لزفافها ، فما غربت شمس ذلك اليوم ، حتى جمعت ما كان لها في بيتها من ثياب وحلية ، وخرجت تحت ستار الليل هائمة على وجهها لا تعلم أين تذهب ، ولا أي طريق تسلك . وكان عمها قد رفع إلى القاضي أمر فرارها ، فبث عليها عيونه وأرصاده يطلبونها في كل مكان ، حتى لمحها بعضهم جالسة تحت بعض الجدران ، فأقبل عليها فذعرت لمرآه وتركت حقيبتها مكانها ، وفرت بين يديه تعدو عدواً سريعاً .

« وكنت عائداً في تلك الساعة إلى منزلي ، فرأتني فألقت نفسها عليّ وقالت : « إنهم يتبعونني ، وإنهم إن ظفروا بي قتلوني ، فارحمني يرحمك الله .» فأهمني أمرها وذهبت بها إلى منزلي وأخفيتها في بعض حجراته . وما هي إلا ساعة حتى دخل عمها ووراءه أعوان القاضي يطلبها طلباً شديداً ، فأنكرت رؤيتها فلم يصدقني ، وأخذ يضرب أبواب الحجرات باباً باباً حتى ظفر بها ، فصاح : « ها هي الفتاة الزانية ، وهذا صاحبها .» فأقسمت له بكل محرجة من الايمان أنها بريئة مما يرميها به ، فلم يصغ إليّ ، وأمر الأعوان فاحتملوها ، وحاولت أن أحول بينهم وبينها ، فضربني أحدهم على رأسي ضربة طارت بصوابي فسقطت مغشياً علي ، فلم أستفق إلا بعد ساعة ، فوجدت الحمى قد أخذت مأخذها من جسمي ، فلزمت فراشي بضعة أيام لا أفيق ساعة ، حتى يتمثل لي ذلك المنظر الذي رأيته ؛ فأشعر بالرِّعدة تتمشى في أعضائي ، فأعود إلى ذهولي واستغراقي . حتى أدركتني رحمة الله فأبللت منذ الأمس بعض الإبلال ، واستطعت أن أخرج الليلة من منزلي ، فعلمت ما تم من أمر تلك المسكينة ، فجئت كما تراني أودعها الوداع الأخير ، وأواري جثتها التراب ، وما أنا بالسالي عنها ، ولا بالذائق حلاوة العيش من بعدها حتى ألحق بها .»

ثم ألقى على قبرها نظرة جمعت في طياتها جميع معاني النظرات البائسات من حزن ويأس ولوعة وشقاء ، ومضى لسبيله .

فما أبعد إلا قليلاً حتى رأيت القمر ينحدر إلى مغربه ، ثم ما لبث أن اختفى فإذا الفضاء ظلمة وسكون ، وإذا الساحة وحشة وانقباض ، فصعدت على ربوة عالية مشرفة على القبور الثلاثة ، ثم تلفعت بردائي، وألقيت رأسي على بعض الصخور ، وأنشأت أحدّث نفسي وأقول :

« ليت شعري ! أ لا يوجد في هذه الدنيا عادل ، ولا راحم ، فإن خلت منهما رقعة الأرض ، فهل خلت منهما ساحة السماء ؟

« أجرم الزعيم الديني ؛ لأنه ضنّ على ذلك الشيخ المسكين بدرهم من مال يسد به جوعته وجوعة أهل بيته ؛ فاضطر الرجل إلى ارتكاب جريمة السرقة، فعوقب السارق على سرقته ، ولم يعاقب القاسي على قسوته ، ولولا قسوة القاسي ما كانت سرقة السارق .

« وأجرم الأمير ؛ لأنه أرسل قائده لاختطاف فتاة حرة لا تؤثر أن تجود بعرضها ، فاضطر أخوها إلى الذود عنها فارتكب جريمة القتل ، فعوقب الفتى على جريمته وسلم من العقوبة من دفعه إلى الإجرام .

« وأجرم القاضي ؛ لأنه أراد أن يكره فتاة لا تحبه على الزواج منه ، ففرت من وجهه فعاقبوها على فرارها ، ولم يعاقبوا القاضي على ظلمه واستبداده .

« وهكذا أصبح المجرم بريئاً ، والبريء مجرماً ، بل أصبح المجرم قاضي البريء وصاحب الحق في معاقبته !

« فهل تسقط السماء على الأرض بعد اليوم ، أم لا تزال تنيرها بكواكبها ونجومها ، وتمطرها غيثها ومُزنها .»

ثم التفتُّ إلى مصرع المقبورين فوقع نظري على بركة الدم التي اجتمعت فيها دماء هؤلاء الشهداء . فرأيت خيال نجم في السماء يتلألأ فوق صفحتها ،

فرفعت نظري إلى النجم ، فإذا هو المريخ[1] يتلهب ويضطرم ، كأنه جمرة الغيظ في أفئدة الموتورين ، فعلق نظري به ساعة ، ثم رأيت كأنه يهبط من عليائه رويداً رويداً ، فيعظم جرمه كلما ازداد هبوطه ، حتى إذا لم يبق بينه وبين الأرض إلا ميل أو بعض ميل ؛ إذا به يتنفض انتفاضاً شديداً ، وإذا هو على صورة ملك من ملائكة العذاب ينبعث الشرر من عينيه ومنخريه ، ويتطاير من أجنحته وأطرافه ، فلم يزل هابطاً حتى نزل على رأس الشجرة التي تظلل قبور الشهداء ، ثم صفق بجناحيه تصفيقة اهتزت لها جوانب الأرض وأضاءت بها الأرجاء ، ثم أخذ ينطق بصوت كأنه جلجلة الرعد في آفاق السماء ، ويقول :

« ها هم الناس قد عادوا إلى ما كانوا عليه ، وها هي الأرض قد ملئت شروراً وفساداً ، حتى لم يبق فيها بقعة طاهرة ، يستطيع أن يأوي إليها ملك من أملاك السماء .

« ها هم الأقوياء قد ازدادوا قوة ، والضعفاء قد ازدادوا ضعفاً ، وها هي لحوم الفقراء تنحدر في بطون الأغنياء انحداراً ؛ فلا الأولون بمستمسكين ، ولا الآخرون بقانعين .

« ها هم الفقراء يموتون جوعاً ، فلا يجدون من يحسن إليهم . والمنكوبون يموتون كمداً ؛ فلا يجدون من يعينهم على همومهم وأحزانهم .

« ها هم الأمراء قد خانوا عهد الله وخفروا ذمامه؛ فأغمدوا السيوف التي وضعها الله في أيديهم لإقامة العدل والحق ، وتقلدوا سيوفاً غيرها ، لا هي إلى الشريعة ، ولا إلى الطبيعة ، ومشوا بها يفتتحون لأنفسهم طريق شهواتهم ولذائذهم حتى ينالوا منها ما يريدون .

« ها هم القضاة قد طمعوا وظلموا ، و وضعوا القانون ترساً أمام أعينهم يصيبون من ورائه ، ولا يصابون ، وينالون من يشاؤون تحت حمايته ، ولا يُنالون .

« ها هم زعماء الدين قد أصبحوا زعماء الدنيا ، فحوّلوا معابدهم إلى مغاور لصوص يجمعون فيها ما يسرقون من أموال العباد ، ثم يضنّون بالقليل منه على الفقراء والمساكين .

« ها هم الناس جميعاً قد أصبحوا أعواناً للأمراء على شهواتهم ، والقضاة على ظلمهم ، وزعماء الأديان على لصوصيتهم ، فلتسقط عليهم جميعاً نقمة الله ملوكاً ومملوكين ورؤساء ومرؤوسين .

« لتسقط العروش ، ولتهدم المعابد ، ولتتقوض المحاكم ، وليعم الخراب المدن والأمصار ، والسهول والأوعار ، والنجاد والأغوار ، ولتغرق الأرض في بحر من الدماء يهلك فيه الرجال والنساء ، والشيوخ والأطفال ، والأخيار والأشرار ، والمجرمون والأبرياء ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .»

وما انتهى من دعوته تلك ، حتى رأيت بركة الدم تفور كما فار التنور يوم دعوة نوح ، ثم فاضت الدماء منها ، ومشت تتدفق في الأرض تدفق السيل المنحدر، وإذا الأرض بحر أحمر يزخر ويعج ، ويكتسح أمامه كل شيء من زرع وضرع ، وقصور وأكواخ ، وحيوان وإنسان ، وناطق وصامت ، ثم شعرت به يعلو شيئاً فشيئاً ، حتى ضرب بأمواجه رأس الربوة التي أنا جالس فوقها ، فصرخت صرخة عظمى فاستيقظت من نومي ، وكان ذلك في صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩١٤ فإذا صائح يصيح تحت نافذة غرفتي : إعلان الحرب !

***

الضحية

« مترجمة »

نشأت « مرغريت جوتييه » فقيرة لا تملك مالاً تشتري به زوجاً ، ولا تجد بين الرجال من يبيعها نفسه بلا مال ، أو يحسن إليها بما يسد خَلّتها ، ويستر عورتها ، وكان لا بد لها أن تعيش ، فلم تجد

(١) كوكب ، وهو أيضا «مارس» إله الحرب في الأساطير .

بين يديها سوى عرضها ، فذهبت به إلى سوق الشقاء والآلام ؛ فساومها فيه بعض المساومين بأبخس الأثمان ، فباعته إياه كارهة مرغمة ، وكانت من الخاسرين .

ولقد كان جمالها شؤماً عليها ، فلو أنها كانت شوهاء لوجدت في الناس من يرحمها ويحنو عليها ، ولكن الجمال سلعة من السلع النافقة [1] . لا يستطيع صاحبه أن ينال ما في أيدي الناس إن كان فقيراً معوزاً، إلا من طريق المساومة فيه .

لذلك نقمت تلك الفتاة المنكوبة على الرجال جميعاً ، وأقسمت أن تتخذ من جمالها ، الذي هو مطمح أنظارهم وقبلة آمالهم ، آلة انتقام تنتقم بها منهم لعرضها وشرفها .

ولقد برّت بيمينها برّ الوفي بعهده ، فعاشرت الرجال ولم تحبهم ، ونكبتهم في أموالهم ، وفي أنفسهم ، ولم تأسف عليهم ، ونظرت إلى دموع الباكين تحت قدميها نظرات الغبطة والسرور ، وهي تقول :

« ويح لكم يا معشر الرجال ، ما كنت أطلب منكم باسم الفضيلة والشرف إلا رغيفاً واحداً لغدائي وآخر لعشائي ، فأبيتموهما عليّ ، فلما طلبت منكم باسم الرذيلة جميع ما تملك أيديكم من مال ونشَب ، بذلتموه لي طائعين مختارين ، فما أصغر نفوسكم وأخس أقداركم !

« ولقد كان في استطاعة أصغركم شأناً ؛ وأهونكم على نفسه وعلى الناس جميعاً ، أن يشتري مني جسمي وقلبي وحياتي بلا ثمن سوى سدّ خَلّتي وصيانة عرضي فلم تفعلوا ، فها هم أولاء اليوم عظماؤكم وأشرافكم يجثون تحت قدمي جَثْي الكلب الذليل تحت مائدة سيده ، فلا ينالون مني أكثر مما ينال منها !

« أحببتم المال حبًّا جمًّا ، فأبيتم إلا أن تتزوجوا ذات مال لتضموا طارفها إلى تليدكم [2] ، فابذلوا اليوم لامرأة مومس لا تمنحكم مالاً ولا حبًّا جميع ما في أيديكم من فضة وذهب ، حتى لا يبقى لكم طارف ولا تليد .»

ظهرت مرغريت في سماء باريس كوكباً متلألئاً يبعث الأنوار ويبهر الأنظار ، ويملأ أجواز الفضاء بهجة وضياء ، فطارت حولها العقول طيران النحل حول الزهر، وسال النُضار بين يديها سيلان الجدول المتدفق تحت أشعة الأصيل ، وعنَت لها الوجوه الكريمة ، وتعفرت تحت قدميها الجباه الرفيعة ، وأصبحت أعناق الرجال في يدها ، كأنما قد سلكتهم جميعاً في سلك واحد ، ثم أمسكت بطرف السلك تحركه فيتحركون ، وتمسك عنه فيمسكون .

وكان شأنها معهم شأن صاحب الكلب مع كلبه ، لا يشبعه فيستغني عنه ، ولا يجيعه فييأس منه ، فكانت تملأ نفس عاشقها أملاً ورجاء ، حتى إذا ظن أن قد دنا به حظه ، وأن ليس بينه وبين أمله إلا أن يمد إليه يده فيناله ، ذادته عنه ذود الظامئ الهيمان عن ورده أدنى ما يكون إلى فمه ، فإذا علمت أن اليأس قد بلغ من نفسه، وأنه قد أزمع أن يركب رأسه إلى حيث لا مرد له ؛ بعثت وراءه شعاعاً من أشعة ابتساماتها العذبة الخلابة فاستردته إليها صاغراً مستسلماً .

وكذلك أصبحت تلك الفتاة الجائعة العارية التي كانت تعوزها بالأمس اللقمة ، وتعييها الخرقة ، سيدة باريس وصاحبة عرشها ، ومالكة أزمّة رجالها ، وفاجعة قلوب نسائها ، والنجم الخالق الذي تبتهل إليه العيون، والسر الغامض الذي تحار فيه الظنون .

ذلك ما يعلمه الناس من أمرها ؛ أما ما تعلمه من أمر نفسها ، فهي ترى أن جميع ما يبذله لها الناس من فضة وذهب ، وأثاث ورياش ، وقصور ودور ، وجياد ومركبات ، لا يساوي دمعة واحدة من تلك الدموع التي سكبتها على نفسها يوم باعت عرضها ، وأن جميع هذه اللآلئ والجواهر والأردية والتيجان التي يهبونها ، إنما يهبونها أنفسهم ليتمتعوا بمنظرها فوق جسمها ، كما يتمتع صاحب الكلب بمنظر القلادة

---

(١) نفقت السلعة: راجت ورغب الناس فيها .

(٢) الطارف من المال: حديثه ، والتّليد: قديمه .

في عنق كلبه ، وما له من ذلك شيء ، فكأنما باعت عرضها بلا ثمن ولا جزاء !

وكانت تخلو بنفسها حيناً فتذكر أن جميع هذه القلوب الطائرة حولها إنما تطير على جمالها لا عليها ، وأنها إن حرمت هذا الجمال ساعة واحدة انفض الناس جميعاً من حولها ، وأصبحت وحيدة منقطعة في هذا العالم ، لا يعطف عليها قلب ، ولا تبكي عليها عين ، فتبكي بكاء الأشقياء على أنفسهم ، بل ترى أنها شقية مثلهم ؛ لأنها تعاشر من لا تحب ، وتحيا بين قوم لا يحبونها إلا حبًّا كاذباً .

وربما مرت في بعض غدواتها أو روحاتها بغرفة حارس قصرها وهو جالس بين زوجه وأولاده يمنحهم حبه وإخلاصه ويمنحونه من ذلك مثل ما يمنحهم ، فتتمنى أن لو كان حظها من هذه الحياة غرفة كهذه الغرفة وزوجاً وأولاداً كهذا الزوج وهؤلاء الأولاد . ثم لا تقترح على دهرها بعد ذلك شيئاً .

وما رآها الناس في يوم من أيامها استقبلت في قصرها رجلاً متزوجاً أو خاطباً ، فكانوا يحملون هذا الأمر منها على محمل الأثرة ، ويقولون إنها امرأة طامعة لا تحب إلا أن يكون عاشقها خالصاً لها ، ولو أنهم عرفوا حقيقة أمرها وألموا بسريرة نفسها ، لعلموا أنها امرأة حزينة منكوبة ، قد فجعها الدهر في سعادة الزوجية فعرفت قيمتها فهي لا تحب أن تفجع فيها امرأة غيرها .

لقد تحدث بعض الذين ألموا بشؤون حياتها الخاصة أنها وهبت مرتين أو ثلاثاً بعض الفتيات الفقيرات مهوراً يستعنّ بها على الزواج ممن يردن ، فلم يصدق الناس هذا الخبر وقالوا إن السالب لا يكون واهباً ، وإن ينبوع الخير لا يمكن أن ينفجر في قلوب النساء الفاجرات ! ولكن الحقيقة أنها فعلت ذلك ، وربما فعلت أكثر منه .

هذا هو قلب «مرغريت» ، وهذه هي سريرة نفسها، فهي فتاة فاسدة ولكنها غير راضية عن فسادها ؛ وساقطة ، ولكنها لا تحب أن ترى الفتيات ساقطات مثلها ، ولو كان في استطاعة المرأة الساقطة أن تسترجع بتوبتها وإنابتها مكانتها في قلوب الناس ، وأن تمحو بصلاحها ما سلف من فسادها لكانت هي أقرب النساء إلى التوبة والنزوع ، ولكن المجتمع الذي أسقطها وسلبها ذلك الرداء من الشرف الذي كانت ترتديه ، يأبى عليها أن يعيد إليها رداءه إن طلبته ؛ فلا بد لها من الاستمرار في سقوطها راضية أو كارهة ، وكذلك كان شأنها .

ولم يمض على «مرغريت» في حياتها هذه أكثر من بضعة أعوام ، حتى نزل بها مرض حجبها في بيتها عدة أيام ثم اشتد عليها ، فأشار عليها الأطباء أن تذهب إلى حمامات « البانيير » للاستشفاء بمائها وهوائها ، فسافرت إليها وحدها لا تصحبها إلا خادمتها ، وكان في ذلك المصطاف[1] في هذا العام شيخ من الأثرياء اسمه « الدوق موهان » حضر إليها مع ابنته وكانت مريضة بداء الصدر؛ ليستشفي لها من دائها فلم يُجْدِها العلاج وماتت بين يديه ؛ فدفنها هناك ولبث بعد موتها عدة أيام يختلف إلى قبرها ويبكيها بكاءً شديداً .

فإنه لعائد من المقبرة ذات يوم إذ لمح في طريقه «مرغريت» سائرة وحدها ، وكان ذلك اليوم الثاني من وصولها إلى « البانيير » ؛ فدهش لمنظرها دهشة عظمى، وخيل إليه أن الله قد بعث له ابنته من قبرها ، أو أرسل إليه خيالها ليعزيه عنها لمكان الشبه بين صورة هذه الفتاة وصورتها ، فتقدم نحوها ذاهلاً مشدوهاً وأمسك بطرف ردائها ، وظل يحدق في وجهها تحديقاً طويلاً ، فعجبت لشأنه وسألته ما باله ، فقال لها :

« هل تأذنين لي يا سيدتي أن أقبّل يدك ؟» فمدت إليه يدها وهي لا تعلم ماذا يريد ولا ما الذي أصابه ، فلثمها ثم اعتذر إليها عن جرأته ، بذهوله ودهشته ، ومشى معها يقص عليها قصته وقصة مصابه في ابنته وما راعه من الشبه بين صورتها ، وصورتها ، فرثت له ، وحزنت لحزنه ، واستهلت دمعة رآها الشيخ من خلال أهداب عينيها المبتلة بالدموع ، فسقط على

(١) المصْطاف: مكان الاصطياف .

يدها يقبلها ويشكر لها تلك الدمعة التي جادت بها عليه في ساعة شقائه . ولم يزل سائراً معها حتى وصلا الى النُّزل ، فودعها ومضى بعدما استأذنها أن يختلف إليها من حين إلى حين ، فأذنته بذلك وصعدت إلى غرفتها .

فلما خلت بنفسها أنشأت تفكر في أمر تلك الفتاة المسكينة التي اختطفها الموت من يد أبيها في زهرة صباها من حيث لم يستطع طبيب ولا عائد رد دعاية القضاء عنها . ثم خطر لها أنها مريضة بمثل المرض الذي ماتت به ، وأنها ربما ماتت موتتها فلا تجد بجانبها أباً كهذا الأب يندبها ويبكي عليها ، فأثر في نفسها هذا الخاطر تأثيراً شديداً ، وبكت له بكاء طويلاً ولزمت غرفتها في ذلك اليوم لا تفارقها .

وظل « الدوق » يختلف إليها بعد ذلك فيجالسها طويلاً ويجد من الأنس بها ، والاغتباط بعشرتها ، ما تسكن به لوعة نفسه كلما شبَّها [1] الوجد في صدره ، حتى أصبح لا يستطيع مفارقتها ساعة واحدة ، وكأنما لذَّ لها أن يرى ذلك الشيخ الثاكل المنكوب في وجهها سلوته وعزاءه ، فمنحته من عطفها وحبها ما لم تمنحه أحداً من قبله ، وأنست به أنساً لم تأنسه بإنسان سواه .

وما هي إلا أيام قلائل حتى أبلت من مرضها بعض الإبلال[2] ، وعاد إلى وجهها الجميل رونقه وبهاؤه ، وإلى ثغرها البديع ابتسامه وافتراره ، فلذ لها المقام في البانيير أياماً طوالاً حتى شعرت بهبوب رياح الشتاء ، فأزمعت العودة إلى باريس ، فشق ذلك على الدوق وعلم أنها إن عادت إليها لا يظفر منها في ذلك المزدحم العظيم الحافل بخلانها وأصدقائها بمثل ما كان يظفر به منها في البانيير ؛ فخلى بها ليلة السفر ساعة وحادثها حديثاً طويلاً انتهى بالاتفاق معها على أن تهجر حياتها الأولى ، حياة المخالّة والمعاشرة وتعيش في منزل يهيؤه لها ، ويقوم بنفقاتها فيه على أن تأذن له بالاختلاف إليها من حين إلى حين ، ثم سافرا في اليوم الثاني إلى باريس .

ومنذ ذلك اليوم تغيرت صورة حياتها عما كانت عليه من قبل ، فأصبحت تعيش في قصرها الذي هيأه لها الدوق عيشاً بين العزلة والاختلاط ، فلا تستقبل الناس فيه إلا قليلاً . ولا تمتزج مع الذين تستقبلهم الامتزاج كله . وربما مرت بها أيام لا يراها الناس خارج قصرها إلا قليلاً ؛ فإذا خرجت ركبت عربتها وحدها دون رفيق أو رفيقة ، ومشت في طريقها تقرأ في كتاب أو صحيفة ؛ فربما مر بها كثير ممن تعرفهم فلا تراهم ؛ فإذا وقع نظرها على واحد منهم ابتسمت له ابتسامة قصيرة موجزة ، قلما يشعر بها أحد سواه ، ثم استمرت أدراجها حتى تصل منتزه « الشانزلزيه » فتنزل من عربتها وتمشي في الغابة على قدميها ساعة ثم تعود إلى قصرها . فإذا جاء الليل ذهبت إلى ملعب التمثيل وحدها ، أو مع الرجل القائم بشأنها ؛ فتقضي فيه أكثر وقتها ناظرة إلى المسرح لا يشغلها كثرة الناظرين إليها أو المتهافتين على مقصورتها ، عن تتبع فصول الرواية والاهتمام بوقعها حتى تنتهي .

فلم تمض عليها أيام كثيرة ، حتى علم الناس جميعاً أن « مرغريت » قد استحالت حالها ، وتغيرت صورة حياتها وأنها قد قنعت بهذه الحياة الجديدة ؛ حياة الهدوء والسكينة ، والوحشة والانفراد ورضيتها لنفسها ، فلا سبيل إلى مغالبتها عليها فقصرت عنها أطماعهم وانقطعت منها آمالهم ، وظلوا يتلمسون الأسباب لتلك الحالة الغريبة التي طرأت عليها . فذهبوا في شأنها المذاهب كلها إلا المذهب الصحيح منها ، وهي أن تلك الحادثة المحزنة التي حدثت لابنة الدوق شبيهتها في صورتها ومرضها قد أثرت في نفسها تأثيراً شديداً ، وصورت لها الحياة بصورة غير صورتها الأولى؛ فأصبحت تعاف الرجال لأنهم سبب سقوطها وتستنكر سقوطها أكثر مما استنكرته من قبل لأنه سبب مرضها ، ولا تأسف على ما فاتها مما في أيدي الناس ؛ لأنها تعيش من مال الدوق في نعمة لا يطمع طامع في أكثر منها . وربما خطر لها أن حياتها مع هذا الشيخ الهرم الذي لا يطمع منها في أكثر من أن يراها ، تشبه حياة العذارى الطاهرات

---

(١) شبَّ النّارَ: أوقدها . (٢) أبلّ من مرضه: برئ منه .

اللواتي ينعمن بنعمة الشرف في ظلال آبائهن ؛ فأعجبها هذا الخيال ولذ لها ؛ وكثيراً ما بكت ذلك الشرف قبل اليوم وحنت إليه .

انقضت أيام الخريف وأقبلت أيام الشتاء ، وسالت الأجواء برداً وقُرّاً ؛ فثار ما كان كامناً من داء «مرغريت» ، وعاد إليها نفثها وسعالها ، فظلت تكابد من مرضها آلاماً جساماً ، لا تفارقها يوماً حتى تعاودها أياماً ؛ فإن ألمت بها لزمت سريرها لا تفارقه ؛ وإن روَّحت[1] عنها برزت إلى الخلاء في بكور الأيام وأصائلها تطلب الهواء الطلق والجو النقي ؛ وربما ذهبت في بعض لياليها إلى ملعب التمثيل لتتفرج[2] ما هي فيه ، فتخلو بنفسها في مقصورتها ساعة أو ساعتين ، ثم تعود إلى منزلها .

وكانت لا تزال ترى في المقصورة المجاورة لمقصورتها كلما ذهب إلى الملعب فتى في زي أبناء الأشراف وشمائلهم ، لا يزال يخالسها النظر من حين إلى حين ؛ فينظر إليها إن غضت عنه ويغضي عنها إن نظرت إليه ؛ ولا يلتقي نظرها بنظره حتى يتلهب وجهه حمرة ويرفض جبينه عرقاً ؛ كأنما جنى جناية لا مُقيل له منها ؛ فلم تحفل به كثيراً لأنها لم تر في أمره شيئاً جديداً ؛ إلا أنها كانت تعجب لسكونه وجموده ؛ وطول إغضائه وإطراقه ، ولتلك العبرة من الحزن المنتشرة على وجهه . وكان أكثر ما يدهشها منه أو يعجبها ، أنه الفتى الوحيد الذي كان يبكي في ذلك المجتمع لمنظر المشاهد المحزنة التي تمثل على مسرح التمثيل ؛ لأنها تعلم أن الفتيان الفرحين المغتبطين بشبابهم وصحتهم لا يحفلون بمناظر الشقاء الحقيقية فأحرى أن لا يحفِلوا بتمثيلها .

فإنها لخالية بنفسها في مقصورتها ذات ليلة ، وكان الجو بارداً مقشعراً إذ فاجأتها نوبة سعال اشتدت عليها كثيراً حتى كادت تسقط عن كرسيها ضعفاً ووهناً فشعرت بيد تمسك يدها ، فاعتمدت عليها دون أن تستطيع الالتفات إلى صاحبها حتى بلغت عربتها فركبتها ، فشعرت بالراحة قليلاً ، فالتفتت لتشكر لصاحب تلك اليد يده ، فلم تر أمامها أحداً ورأت على بعد خطوات منها إنساناً منصرفاً فلم تتمكن من رؤيته إلا أنها تخيلت صورته تخيلاً ، فعجبت لأمره ومضت في طريقها . فما وصلت إلى منزلها حتى شعرت برعدة الحمَّى تتمشى في أعضائها ، فلزمت سريرها بضعة أيام لا تفارقه حتى أبلَّت قليلاً ، فقدمت إليها خادمتها بطاقات الزيارة التي تركها الفتيان الذين زاروها في أثناء مرضها تجملاً وتلوماً ، فلم تقرأ واحدة منها .

ثم حدثتها الخادمة أن فتى كان يأتي للسؤال عنها في كل يوم مرة أو مرتين ، ولا يذكر اسمه ، ولا يترك بطاقته ، وأنه كان ينقبض انقباضاً شديداً كلما أخبرته أنها لا تزال طريحة فراشها تشكو وتتألم ، فاستوصفتها إياه فوصفته لها فلم تعرفه ، وعجبت لأمره كل العجب ، وتمنت لو رأته فشكرت له هذا الإخلاص النادر ، الذي لا عهد لها به في أحد من الناس .

وأمرت خادمتها أن تخبرها خبره إن جاء للسؤال عنها مرة أخرى ، فلم يلبث أن جاء ، وكانت مرغريت جالسة في شرفة المنزل المطلة على الطريق ، فرأته فعرفت أنه ذلك الفتى الحزين الذي كانت تراه في المقصورة المجاورة لمقصورتها في ملعب التمثيل ، وأنه صاحب تلك اليد التي امتدت لمعونتها ليلة النازلة التي نزلت بها هناك ، فأشارت إلى خادمتها بالنزول إليه واستدعائه إليها ففعلت ، فاضطرب الفتى لهذه الدعوة اضطراباً شديداً حتى كاد يرفضها ، ثم شعر بمكان مرغريت من الشرفة فتلوم ومشى وراء الخادمة ، حتى صعدت به إلى غرفة سيدتها فتركته وانصرفت .

فدخل عليها فحياها ووجهه يرفض عرقاً ولسانه لا يكاد يبين ، فمدت إليه يدها فتناولها وقبلها قبلة طويلة ، عرفت مرغريت سر ما أودعها من عواطف قلبه ، وهي العالمة بأسرار القبلات ، ثم أذنته بالجلوس ، فجلس ، فأنشأت تسائله عن نفسه وعن قومه ، وعن سبب اهتمامه بشأنها وتبتسم له فيما بين

---

(١) روَّح عنه : تنفس عنه ما يضيقه .

(٢) تفرج : طلب ما يفرج عنه .

ذلك ابتسامات تلاطفه بها ، وتمسح عن فؤاده ما ألمّ به من الروع .

فحدثها أنه غريب عن باريس ، وأنه وفد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته «نيس» ليقضي فيها ثلاثة أشهر أذن له أبوه بها طلباً لتغيير الهواء وترويح النفس ، ثم يعود في نهايتها إلى وطنه . فسألته :

« هل وجدت المقام حميداً هنا ؟»

فصمت هنيهة ، ثم نظر إليها نظرة منكسرة ، وقال: « لا يا سيدتي .»

قالت : « لماذا ؟»

فحارت بين شفتيه كلمة لم يستطع أن ينطق بها ، فعاد إلى صمته وإطراقه ، فأعادت عليه سؤالها .

فقال لها : « هل تأذنين لي يا سيدتي أن أقول لك كل ما في نفسي .»

فشعرت بما في نفسه قبل أن يقوله ، وقالت له: « قل ما تشاء إلا أن تطارحني حبك وغرامك ؛ فإنني امرأة مريضة لا أستطيع أن أحتمل الحياة وحدها خالصة لا مؤونة فيها ، فأحرى أن لا أحتملها مثقلة بالحب والغرام .»

فاصفر وجهه اصفراراً شديداً ، ومد يده إلى دمعة تترقرق في عينيه ، فمسحها ، ثم قال لها : « ذلك ما يحزنني يا سيدتي ويبكيني وينغص عليّ عيشي ، منذ هبطت باريس حتى اليوم ، فإنني رأيتك فأحببتك للنظرة الأولى ، ثم سألت عنك فعرفت من أمرك كل شيء ، وعلمت أنك تعيشين منذ شهور عيشة لا مطمع فيها لطامع ولا أمل لآمل ، فانقطع أملي منك ، إلا أن حبي إياك لم ينقطع . ثم رأيتك بعد ذلك في ملعب التمثيل ورأيت هذا القناع الأصفر الذي نسجته يد المرض على وجهك الجميل ، فاستحال حبي إياك رحمة وشفقة ، وأصبحت أبكي لمرضك أكثر مما أبكي لحبك . وأصبح كل ما أتمنى على الله في حياتي أن أراك بارئة ناعمة ، موفوراً لك حظك من سعادة العيش وهنائه ، ثم لا أطمع بعد ذلك في شيء مما يطمع فيه المحبون المغرمون . فأنا أقف الساعة بين يديك لا لأطارحك الحب والغرام ؛ بل لأسأل أن تأذني لي بالوقوف على بابك كلما جئته أسأل خادمتك عنك ، ثم أمضي لسبيلي من حيث لا ترين وجهي ، ولا تشعرين بمكاني .»

فسرت في أعضائها رعدة غير الرِّعدة التي تعرفها من الحمّى ، وخيِّل إليها أنها تسمع نغْمة في الحب غير النغمة التي كانت تسمعها قبل اليوم من أفواه الرجال ، فنظرت إليه نظرة لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى. ثم قالت له : « إني آذن لك بذلك يا سيدي ، وأشكره لك شكراً جزيلاً ، بل آذنك أن تزورني كلما شئت ، على أن تفد إليَّ صديقاً مساعداً ، لا محبًّا مغرما ، فإني إلى الأصدقاء المخلصين أحوج مني إلى المحبين المغرمين .»

ومدت إليه يدها ، فعلم أنها قد أذنته بالانصراف ، فقبلها وانصرف مسروراً مغتبطاً ، فأتبعته نظرها حتى غاب عنها ، فسقطت على وسادة بجانبها ، وقالت: « رحمتك اللهم ؛ فإني أخشى أن أحبه !»

لقد أحبته من حيث لا تدري ؛ فإن الخوف من الحب هو الحب نفسه ، بل شعرت في حبه بسعادة لم تشعر بمثلها من قبل ؛ فأصبحت تستقبله كل يوم في منزلها ، وتأنس به وبحديثه أنساً كثيراً ، وتفضي إليه بذات نفسها إفضاء الصديق إلى صديقه ، وتقص عليه قصة ماضيها وحاضرها لا تكذبه شيئاً ولا تكتم عنه أمراً ، ثم ترامى بها الأمر ، حتى أصبحت تشعر بالوحشة إن تخلف عن ميعاد زيارته بضع دقائق . ثم حدث أن انقطع عن زيارتها ثلاثة أيام لأمر عرض له ، لم يتمكن من إخبارها به ، فحزنت لانقطاعه حزناً عظيماً وذهبت بها الوساوس والظنون كل مذهب . ثم ذكرت أن ذلك الحزن وهذا الوسواس ليس من شأنها قبل اليوم ، فقلقت لذلك قلقاً شديداً ، وخفق قلبها خفقة الرعب والخوف ، وعلمت أنها قد وقفت على حافة الهوة ، ولم يبق إلا أن تتردى فيها ، فسهرت ليلة طويلة عالجت فيها من نوازع النفس وخوالجها ما عالجت حتى أصبح الصباح، وقد أضمرت في نفسها أمراً .

جاء « أرمان » في صباح اليوم الرابع ، فوجدها

طريحة فراشها ، وفي عينيها حمرة البكاء والسهر ؛ فارتاع لمنظرها ، وقال لها :

« لعلك سهرت بالأمس كثيراً يا سيدتي أو بكيت ؛ فإني أرى في عينيك أثر واحد منهما .»

قالت : « هما معاً يا أرمان .»

قال : « وهل حدث شيء جديد ؟»

قالت : « اجلس بجانبي قليلاً أيها الصديق أحدثك حديثاً قصيراً ، وربما كان آخر حديث بيني وبينك ، ثم لا أراك بعد ذلك ولا تراني .»

فذعر ذعراً شديداً ، وداخله من الرعب والهول ما ملك عليه عقله ولسانه ، فلم يستطع أن يقول شيئاً وسقط بجانبها واهياً متضعضعاً ، وظل ينظر إلى وجهها نظر المتهم إلى وجه قاضيه ساعة نطقه بالحكم .

فأقبلت عليه تحدثه وتقول :

« عرفتك يا أرمان ، فعرفت فيك الرجل الكريم الذي أحبني لنفسي أكثر مما أحبني لنفسه ، والصديق الوفي الذي امتزجت في قلبه عاطفة الحب بعاطفة الرحمة والحنان ، فأوى إليَّ مريضة حينما جفاني الناس لمرضي ، وعاش معي بلا أمل حينما انقطع الناس عني لانقطاع أملهم مني ؛ فأضمرت لك في قلبي من الحب والاحترام ما لم أضمره لأحد سواك ، وسعدت بك سعادة لم أشعر بمثلها في يوم من أيام حياتي .

« ولكن الله الذي كتب لي الشقاء في لوح مقاديره من ضجعة المهد إلى رقدة اللحد ، لم يشأ أن يمتعني طويلاً بهذه السعادة ، وأبى إلا أن يسلبنيها وشيكاً ؛ فقد أصبحت أشعر منذ أيام أن تلك العاطفة الشريفة المقدسة التي كنت أستمد منها سعادتي وهنائي قد أخذت تستحيل في أعماق قلبي إلى عاطفة أخرى غيرها لا أريدها لنفسي ، ولا أرى إلا أنها ستكون سبب شقائي وبلائي ؛ فخادعت نفسي عنها حيناً ، أكذبها مرة وأصدقها أخرى ، حتى كان ما كان من انقطاعك عني تلك الأيام الثلاثة ، فشعرت لغيابك بحزن أقلقني وأمضني ، وملك عليَّ جميع عواطفي ومشاعري ، ولو شئت أن أقول ، لقلت إنه أبكاني كثيراً ، وأسهرني طويلاً .

« فعلمت وا أسفاه أنني قد أصبحت عاشقة ، وأن هذا الذي يختلج في قلبي ، ويقيمني ويقعدني ، إنما هو الحب والغرام ، فقضيت ليلة الأمس كلها أفكر في طريق الخلاص من هذه النكبة العظمى التي نزلت بي فلم أجد أحداً يخلصني منها سواك ، فأنا أسألك يا أرمان ، باسم الصداقة والود الذي تعاقدنا عليه بالأمس، بل باسم الدموع التي طالما كنت تسكبها رحمة بي وإشفاقاً عليَّ ، أن تنقطع عن زيارتي منذ اليوم ، وأن تسافر إلى أهلك الليلة إن استطعت ، ثم لا تعد إليَّ بعد ذلك ، فأحمل نفسي على الصبر عنك حتى يمنَّ الله عليَّ براحة اليأس منك !»

ثم نظرت إليه لترى ما يقول ، فإذا هو جامد مصفر، كأن وجهه وجه تمثال منحوت ، وإذا عيناه شاخصتان إليها شخوص العين القائمة [1] التي تنظر إلى الشيء ولا تراه وبعد لأي ما [2] استطاع أن يحرك شفتيه ، ويقول لها بصوت خافت كصوت الضمير :

« وما يخيفك من الحب يا مرغريت ؟»

قالت : « يخيفني منه العقاب الأليم الذي أتوقع أن يعاقبني به الله على ما اقترفت من الذنوب والآثام في فاتحة حياتي ، فقد كتب الله لنا – معشر النساء الساقطات – في لوح مقاديره أن لا نزال نعبث بقلوب الرجال وعقولهم ، ونبتليهم بصنوف العذاب وأنواع الآلام ، حتى يغضب الله لهم ويغار عليهم ؛ فيبتلينا بحب نحمل فيه من العذاب جميع ما حمّلناه الناسَ من قبل ، ونشقى فيه شقاء لا ينتهي إلا بانتهاء حياتنا ، فنموت بين يدي أنفسنا مهملات مغفلات ، لا ينعانا ناع ولا يبكي علينا باك ، فهذا الذي أخافه وأخشاه ، وأحب أن يسبق إلى أجلي قبل أن أراه .

« أنا لا أتهمك بالخيانة والغدر يا أرمان ؛ فأنت أجل من ذلك عندي ، ولكني أعلم أنك باق في هذا البلد إلى أجل ، فإذا انقضى الأجل سافرت إلى أهلك

(١) العين القائمة: التي ذهب نورها وبقيت حدقتها صحيحة .

(٢) اللأْيُ: الجهد والمشقة ، و (ما) هنا زائدة .

سفراً لا تملك بعده العودة إليَّ . فإن أبيت إلا البقاء بجانبي حال أهلك بينك وبين ذلك ؛ لأنهم قوم شرفاء يضنون بك وبشرفك أن تلوثهما امرأة مومس بعارها وشنارها ، فلا تجد لك بداً من الخضوع لهم والنزول على حكمهم ، وهنالك أقف موقف الحيرة واللوعة أطلب السبيل إليك فلا أجدك ، والسلو عنك فلا أستطيعه . وربما حاولت بعد ذلك العودة إلى كنف ذلك الشيخ الكريم الذي أحسن إليَّ إحساناً كبيراً ؛ فطردني من بين يديه عقاباً لي على خيانة عهده وكفر نعمته ، فلا أجد لي بداً من الرجوع إلى حياتي الأولى– حياة الشرور والآثام ، والهموم والآلام– التي أبغضها بغض الأرض للدم ، وهنالك العذاب الدائم والشقاء الطويل .

« إني أعلم يا أرمان أنك تحبني حبًّا جمًّا ، وأنك ستكابد في ابتعادك عني عذاباً كثيراً ، ولكني أعلم أن لك قلباً شريفاً يحتمل العذاب في سبيل الرحمة ، فاحتمل هذا العذاب من أجلي ، فإنك أقدر مني على احتمال الآلام والأوجاع ، وسأدعو الله تعالى ليلي ونهاري أن يمنحني الصبر عنك ، ويرزقني راحة النفس وسكونها من بعدك ، وأن يمنحك من ذلك مثل ما يمنحني ؛ فلعله يرحمنا جميعاً !»

فلم يكن له جواب على كلمتها هذه سوى أن نهض من مكانه متضعضعاً متهالكاً ومشى إلى باب القاعة يسوق نفسه سوقاً حتى بلغه ، فوقف على عتبته ، والتفت إلى مرغريت ، وألقى عليها تلك النظرة التي يلقيها المُحْتَضَرُ على أهله في آخر لحظات حياته ، وقال لها : « الوداع يا مرغريت !» ومضى .

فما غاب شخصه عن عينيها حتى نهضت من فراشها هائمة مختبلة ، واندفعت إلى الباب تريد اللحاق به ! ثم تراجعت ثم حاولت ذلك مرة أخرى ؛ فأدركها رشدها وأناتها ، فعادت إلى فراشها تبكي وتنتحب ، وتعول إعوالاً شديداً ، وتدور في أنحاء الغرفة دوران الثاكلة المفجوعة ، وهي تصيح: « أرجعوه إليَّ . لا أستطيع فراقه ، سأموت من بعده .»

وإنها لكذلك إذ سمعت صرخة عظمى آتية من ناحية الحديقة ، فخرجت تعدو إلى حيث سمعت الصوت ، حتى بلغت باب المنزل فرأت «أرمان» ساقطاً تحت عتبته مغشيًّا عليه ، فرفعت طرفها إلى السماء وقالت : ليكن ما أراد الله ، ثم ألقت نفسها عليه ولثمت ثغره لثمة هي أول لثمة ذاقت فيها لذة العيش في حياتها ، فشعر بها « أرمان » فاستفاق ، وضمها إلى صدره ضمة لو مات على أثرها ما بكى على شيء من نعيم الدنيا وهنائها !

انقضى الشتاء فانقضى بانقضائه شقاء « مرغريت » وعناؤها ، فقد أبلَّت من مرضها ، وأصبحت سعيدة بحبها ، فلم يبق بين يديها إلا أن تبلغ من تلك السعادة نهايتها ، فاقترحت على أرمان أن يتركا باريس وضوضاءها ، ومزدحم الحياة فيها إلى مصيف يختارانه لنفسهما في بعض الأماكن الخالية ؛ فقبل مقترحها وسافرا معاً يفتشان عن المكان الذي يريدان حتى بلغا قرية «بوجيفال» . وهي ضاحية من ضواحي باريس على بعد ساعتين منها ، فوجدا في بعض أرباضها منزلاً صغيراً منفرداً واقعاً على رأس هضبة عالية في سفح جبل مخضر ، تجري من تحته بحيرة صافية بديعة كأنما بناه بانيه لهما ، فاكترياه ، ونقلت «مرغريت» إليه من منزلها في باريس بعض ما يحتاجان إليه من أثاث ومتاع .

ثم عاشا فيه بعد ذلك عيشاً ناعماً هنيئاً ، لا تضطرب في سمائه غَيْمَة ، ولا تمر بصفحته غَبْرة ، ولا يكدر عليهما مكدر من خواطر الشقاء ووساوسه ، فكانا يقضيان نهارهما صاعدين إلى قمة الجبل أو منحدرين إلى سفحه ، أو راكبين زورقاً صغيراً يسبح بهما على صفحة البحيرة جيئة وذهوباً ، أو جالسين تحت شجرة فرعاء تظللهما من لفحات الهجير وتضمهما إليها كما تضم ثمارها ، أو مضطجعين على بساط من العشب الممتد في تلك البطحاء الفسيحة . يتناجيان ويلهوان بمنظر الجمال الماثل في الشاطئ ، والأمواه والأخاديد ، والوديان والغابات والحَرَجَات ، والكهوف والأغوار ، والغيوم والسحب والأضواء في تشكلها وتلونها ، والظلال في تحولها وانتقالها ، وفي رؤوس الجبال اللاصقة بجِلْدة السماء كأنها بعض سحبها ، وفي قطع الصخور المبعثرة على

جوانب الغدران كأنها بعض أمواجها ، وفي تلك المعركة التي تدور في كل يوم مرتين بين جيشي الأنوار والظلمات فينتصر في صدر النهار أولهما ، ثم يُدال في آخره لثانيهما . حتى إذا جاء الليل ، عادا إلى منزلهما فنعما فيه بألوان النعيم وضروبه ، ورشفا من كل ثغر من ثغور السعادة رشفة تسري حلاوتها في قلبهما حتى تصيب صميمه .

مر بهما على ذلك عام كامل هو كل ما استطاعا أن يختلساه من يد الدهر في غفلته ، ثم انتبه لهما بعد ذلك — وويل للسعداء من انتباهه بعد إغفائه — فقد نضب أو أوشك أن ينضب ما كان في يد «أرمان» من المال ، وكان في يده الكثير منه ، فكتب إلى أبيه يطلب إليه أن يبعث إليه بما يستعين به على البقاء في باريس مدة أخرى ، زاعماً أنه لا يزال مريضاً متألماً لا يستطيع السفر ، وكذلك كان يفعل من حين إلى حين . فلم يأته الرد ، فأقلقه ذلك قلقاً شديداً ، وظل يختلف إلى المدينة في كل يوم ، يسأل في فندق «تورين» الذي كان ينزل به قبل اتصاله بمرغريت عن الكتاب الذي ينتظره فلا يجده ، فيعود حزيناً منقبضاً ، حتى إذا وصل إلى بوجيفال ورأى مرغريت بين يديه ، تَطَلَّق وتبسَّم كأنه لا يضمر في نفسه همًّا قاتلاً .

ولكن عين مرغريت أقدر من أن يعجزها النفاذ إلى أعماق قلبه ، فاكتنهت سرَّه فكاشفته به ، وقالت : « لا يحزنك شأن المال يا أرمان ؛ فإن عندي منه ما يكفينا العيش معاً سنين طوالاً .»

ولم تكن صادقة فيما تقول لأن الدوق قاطعها ومنع عنها رِفْده مذ عرف قصتها مع «أرمان» ، وعلم أنها خانته وخانت بعهده ، بل كانت مدينة بمال كثير لبعض تجّار الجواهر والثياب ، بل أصبح دائنوها يتقاضونها ديونهم بعدما علموا أن الدوق قاطعها ونفض يده منها .

ولكنها خاطرت بكلمتها مخاطرة لم تفكر في عاقبتها ، فأكبر «أرمان» ذلك وأعظمه ، وأنف منه أنفة شديدة ، وأبى أن يعيش معها بمال غير ماله ، وعزم أن يسافر إلى «نيس» ليأتي منها بالمال الذي يريده ، فأزعجها عزمه هذا إزعاجاً شديداً وخافت عاقبته ، فجثت بين يديه تستعطفه وتسترحمه ، وتبذل في ضراعتها ورجائها في سبيل بقائه أكثر مما بذلت قبل اليوم في سبيل رحيله ، حتى أذعن واستقاد ، ورضي بالتي لم يكن يرضى بمثلها لولا لهفة الحب وضراعة الدموع ؛ وقد أضمر في نفسه أن يتنازل لها عن نصيبه في الميراث الذي ورثه من أمه ؛ مكافأة لها ووفاء بحقها . فلم يكن لمرغريت بعد ذلك بد من أن تمد يدها إلى جواهرها وذخائرها ، فأنشأت تبيع القطعة بعد القطعة ، لتسد بعض دينها ، وتقوم بنفقة بيتها ، من حيث لا يعلم أرمان ! واستمرا على ذلك بضعة أشهر . حتى دخل عليهما في يوم من الأيام في ساعات أنسهما وصفائهما خادم فندق «تورين» الذي كان ينزل به أرمان في باريس وقال له إن والده قد وصل الساعة إلى الفندق ، وإنه ينتظره هناك .

قال دوفال لولده: « لقد كذبت عليَّ كثيراً يا أرمان ؛ وما كنت قبل اليوم كذاباً ، ولا خادعاً ، ورضيت لنفسك بحياة كنت أضن الناس بنفسك على مثلها من قبل ؛ ومزقت بيدك ذلك القناع الجميل من الحياء الذي لا يزال مسبلاً على وجهك؛ وأصبحت تتبذل في العيش مع امرأة عاهرة ؛ كل ما لها من الشأن عند نفسها ؛ وعند الناس جميعاً أنها نفاية من نفايات الرجال وفضلة من فضلات الفساق ؛ وفُتات المائدة العامة التي يجلس عليها الناس جميعاً صباحهم ومساءهم ، فحسبك هذا ، وقم الساعة لتعد نفسك للسفر معي إلى «نيس» ؛ فلست بتاركك بعد اليوم في هذا البلد ساعة واحدة .»

فرفع « أرمان » رأسه إلى أبيه ؛ وقال له بصوت هادئ مطمئن : « لا أستطيع يا أبتاه !»

فنظر إليه أبوه نظرة شزراء ، وقال له : « وتلك سيئة أخرى ؛ فقد أصبحت لا تعبأ بي ، ولا تبالي بمخالفة أمري من أجل امرأة ساقطة ، لا شأن لها معك إلا أن تعبث بعقلك ؛ وتسلبك مالك وشرفك ؛ وتفسد عليك حاضرك ومستقبلك .»

قال : « لا يا أبتاه ؛ إنها ليست بعابثة ولا خادعة،

ولكنها تحبني حبًا جمًّا لم يحبه أحد من قبلها أحداً ، وأحسب أني إن فارقتها قتلتها ، وجنيت عليها جناية لا يفارقني الندم عليها حتى الموت .»

قال : « ذلك ما يخدع به أمثالُها أمثالك ، فليس للنساء العاهرات قلوب يحببن بها ، بل لهن ألسن يختِلن بها الرجال ويسلبنها حجباً بين بعضهم وبعض ! حتى يظن كل واحد منهم أنه الأثير عندها ، وصاحب الحظوة لديها ، من دون أصحابه جميعاً .»

قال : « ربما كان ذلك شأنها قبل اليوم ، أما اليوم فهي لا تحب أحداً غيري ، بل لا تعرف أحداً سواي ، فهي تعيش عيشة تشبه عيشة النساء الشريفات ، بل أشرف من عيشة الكثيرات منهن ؛ لأن الخليلة التي تخلص لخليلها ، أشرف من الزوجة التي تخون زوجها ، وأخشى إن فارقتها أن تثور في نفسها ثورة من ثورات اليأس فتردها إلى تلك الحياة الأولى ؛ حياة الشر والفساد ، والشقاء والعذاب ، بعدما استنقذت نفسها !»

قال : « وهل ترى أن وظيفة الرجل الشريف في هذه الحياة إصلاح النساء الفاسدات ؟»

قال : « ذلك خير له من أن تكون وظيفته إفسادهن ؛ فإن الأشراف في هذا العصر يفخرون بإفساد النساء الصالحات ، واستدراجهن إلى مواطن الفسق والفجور ، وإصلاح المرأة الفاسدة ، أدنى إلى الشرف من إفساد المرأة الصالحة .»

قال : « لقد أصبحت كثير الرحمة يا أرمان .»

قال : « لم لا أرحم فتاة مريضة مسكينة ليس لها في الناس من يعولها من ذي قرابة أو ذي رحم ، وقد نزل داؤها من صدرها منزلة لا يبرحها ولا يتحلل عنها ، إلا أن يهدأ عنها حيناً ويستيقظ أحياناً ، فهي تكابد الألم مرة ، والخوف من الألم أخرى ؟ ولا عزاء لها في حالتيها إلا هذه السعادة التي تتوهمها في الحب ، وترى أنها ناعمة بها ، فإن فقدتها فقدت كل شيء في الحياة ، وعظم حزنها وبؤسها ، وثقلت وطأة الداء عليها حتى كادت تأتي على البقية الباقية من حياتها .

« فدعني معها يا أبتاه عاماً آخر أو عامين أهوّن عليها فيهما شقاءها ، فربما كان ذلك آخر ما قدر لها أن تقضيه من أيامها في هذا العالم ، ثم أعود بعد ذلك إليك هادئ القلب ، ساكن الضمير ، راضياً عن نفسي وعن عملي ، أبكيها بدموع الحزن ، لا بدموع الندم ، ويُهون وجدي عليها كلما ذكرتها أنني لم أخنها ، ولم أغدر بعهدها .»

فأطرق دوفال هنيهة كأنما يعالج في نفسه همًّا معتلجاً ، ثم رفع رأسه ، ونظر إلى ولده نظرة تشبه نظرة العطف والرحمة ، وقال له : « لا أستطيع أن أسافر بدونك يا بني فحسبي ما كابدت من الألم لفراقك قبل اليوم ، وقد تركت أختك ورائي تندبك وتبكي عليك صباحها ومساءها ؛ وتحنُّ إلى لقائك حنين الظامئ إلى الورود ! واعلم أن جميع ما تعتذر به عن نفسك في هذا الشأن ، لا يغني عنك ولا عني شيئاً يوم يقول الناس كلمتهم التي لابد أن يقولوها غداً . وربما قال كثير منهم قبل اليوم إن أرمان دوفال سلالة آل تاليراند يعيش مع امرأة مومس في بيت واحد ؛ فعد إلى نفسك يا بني واستلهم الله الرشد يلهمك ، ولا تجعل لهواك سبيلاً على عقلك . ودع هذه الحياة الساقطة التي يحياها من ليست له همة مثل همتك ، ولا مجد ولا بيت مثل مجدك وبيتك ، وإني تاركك الآن وحدك وذاهب عنك لبعض شأني لتخلو بنفسك ساعة تسترد فيها ما عزب عنك من صوابك ، ثم أعود إليك بعد قليل لأسمع منك الكلمة التي أرجو أن تكون شفاء نفسي ، و رواء غُلّتي .»

ثم تركه ونزل فمشى إلى قهوة قريبة من الفندق فكتب فيها لبعض الناس كتاباً خاصًّا . ثم طاف ببعض أصدقائه الذين يعرفهم في باريس ، فزارهم زيارة طويلة ؛ فلم يعد إلى الفندق حتى أظل الليل ، فرأى أرمان لا يزال في مكانه . فسأله ماذا رأى ، فلم يجبه إلا بدموعه تنحدر على خديه تحدُّر القطر على أوراق الزهر ، وجثا بين يديه يستعطفه ويسترحمه ويكشف له من خبيئة نفسه ما كان يكتمه من قبل . يقول :

« والله يا أبت لو علمت أني أستطيع الحياة بدونها ، لفارقتها براً بك وإيثاراً لطاعتك ، ولكني أعلم أني إن فعلت فقد وضعت أمري في موضع الغَرَر[1] ، وخاطرت بعقلي أو بحياتي مخاطرة لا أعلم ماذا يكون حظي فيها. ولا أحسبه إلا أسوأ الحظين ، وأنحس النجمين ، ولو أن أحداً من قبلي استطاع أن يدفع هواه عن قلبه أو يمحو ما قدر له في صحيفة قضائه من شقاء الحب وبلائه لسلكت سبيله التي سلكها ، ولكنه بلاء بليت به لحين أريد لي ، فلا رأي لي في رده ، ولا حيلة لي في اتقائه ، وقد نزلت هذه الفتاة من نفسي منزلة هي منزلة الحياة من الجسم ، والغيث من التربة القاحلة ، فإن كنت لا بد آخذي فخذ معك جسماً هامداً لا حَراك به ، ونبتة ذاوية لا حياة فيها ! »

فوضع أبوه يده على عاتقه ، وقال له : « قم الآن يا بني واذهب لشأنك ، وعد إليَّ صباح الغد لأتمم حديثي معك ، وأرجو أن تكون في غدك خيراً منك في أمسك . »

فخرج محزوناً مكتئباً يمشي مشية الذاهل المشدوه، لا يرى ما أمامه ولا يشعر بما حوله حتى رأى عربة ، فركبها إلى بوجيفال حتى بلغها بعد هَدْأة من الليل ، فلم ير مرغريت في شرفة البيت تنتظره كعادتها ؛ فدخل عليها غرفتها فرآها مكبة على منضدة بين يديها كأنما هي نائمة أو ذاهلة ، فشعرت به عند دخوله ، فنهضت مذعورة متلهفة . فخيل إليه عند نهوضها أنه لمح في يدها رسالة تضم عليها أصابعها ، فظنها بعض تلك الرسائل التي كان يرسلها إليها المركيز «جان فيليب» من حين إلى حين ، وهو فتى من أبناء الأشراف الأثرياء كان يحبها في عهدها الأول حبًّا شديداً ، وينفق عليها أموالاً طائلة ، فلما انقطعت عنه لم ينقطع منها أمله ، فظل يرسل إليها رسائل كثيرة يعرض فيها حبه وماله ، ويمنّيها الأماني الحسان في عودتها إليه ، واتصال حياتها بحياته ، فكانت تمزقها عند اطلاعها عليها أو على عنوانها .

فلم يحفل « أرمان » بذلك ومشى إليها فقبلها ، فقالت له : « ماذا جرى يا أرمان ؟ »

قال : « أرادني أبي على السفر معه فأبيت ، وبكيت بين يديه كثيراً فلم أنل منه منالاً ، وقد أمرني بالعودة إليه غداً ولا أريد أن أفعل ؛ لأني لا أحسب حظي منه في الغد خيراً منه اليوم . وقد أصبحت نفسي تحدثني بعصيانه ، والبقاء هنا على الرغم منه ؛ لأني أعلم أني قد تجاوزت السن التي يحتاج فيها الأبناء إلى إرشاد الآباء ، ولأني لا أعرف أحداً بين الناس يستطيع أن يرسم لي خطة سعادتي كما أرسمها لنفسي . »

ثم أنشأ يقص عليها قصته مع أبيه حتى أتمها ، ونظر إليها فإذا هي مطرقة صامتة ، وإذا وجهها أصفر مربد كأنما قد نفض الموت عليه غباره !

فقال : « ما بالك يا مرغريت ؟ »

قالت : « أشعر بألم شديد في رأسي ، وأريد الذهاب إلى مخدعي . »

فأخذ بيدها إليه ، وجرَّعها بضع قطرات من الدواء فاستفاقت قليلاً ، ثم نامت في مخدعها نوماً مشرَّداً مذعوراً ، تتخلله أنات طويلة وأحلام مزعجة ، حتى أصبح الصباح ، فقالت له : « أرى لك يا أرمان أن تعود إلى أبيك كما أمرك ، وأن تعاود استرحامه واستعطافه لعلك بالغٌ منه اليوم ما عجزت عنه بالأمس. إني لا أكون راضية عن نفسي ، ولا هانئة بحياتي ، إن لم يكن أبوك راضياً عنك . »

ولم تزل به حتى أذعن لها وقام إلى ثيابه فارتداها. ثم مشى إليها وضمها إلى صدره ضمة شديدة ، كأنما يضن بها أن ينتزعها من ذراعيه منتزع ، ثم قبلها ، وقال لها : « إلى المساء يا مرغريت . » فلم ترد عليه تحيته حتى أبعد عنها ، فقالت بينها وبين نفسها : « أرجو أن يكون كذلك . » وتهافتت على كرسي بين يديها باكية منتحبة .

ولم يزل أرمان سائراً في سبيله حتى وصل إلى باريس ، فذهب إلى فندق « تورين » فلم يجد أباه هناك ، ووجد رسالة تركها له قبل ذهابه يأمره فيها أن

(١) الغَرَرُ: التعرض للهلكة .

ينتظره حتى يعود ، فلبث ينتظره وقتاً طويلاً حتى عاد بعد منتصف النهار ، وقد رقت قليلاً تلك الغمامة السوداء التي كانت تلبّس وجهه بالأمس ، فتقدم نحوه أرمان ، فحيّاه ، فقال له :

« لقد فكرت ليلة أمس في أمرك كثيراً يا بنيّ فرأيت أني قد قسوت عليك وغلوت في أمرك غلواً كبيراً ، ونظرت إلى مسألتك بعين أقصر من التي كان يجب عليّ أن أنظر إليها ، فإن للشباب شأناً غير شأن الكهولة والشيخوخة ، وحالاً خاصة به ، لا يخرج عن حكمها شريف ولا وضيع ، ولا يختلف فيها سوقة عن ملك ، فلك أن تبقى يا بني كما تشاء ، وأن تعاشر الفتاة التي تحبها كما تريد ، على أن تعدني بالعودة إليّ في اليوم الذي تنقطع فيه الصلة بينك وبينها انقطاع حياة أو موت ، فإني إن أمنت عليك شرها فلا آمن عليك شر غيرها من النساء . »

فاستُطيرَ أرمان فرحاً وسروراً ، وأهوى على يد أبيه يقبلها ويبللها بدموعه ، ويقول : « أعدك بذلك يا أبتاه وعداً لا أخالفه ، ولا أخِيس به ، ولك حكمك ما تشاء إن رأيتني بعد اليوم كاذباً أو حانثاً . »

ثم نهض يريد الذهاب ، فقال له :

« أين تريد ؟ »

قال : « أريد الذهاب إلى مرغريت لأبشرها بهذا النبأ وأمسح عن فؤادها ما ألمّ به من الروع منذ الأمس . » فانتفض أبوه انتفاضة خفيفة لم يشعر بها أرمان . ثم أدار وجهه ليغالب دمعة كانت تترقرق في عينيه .

ثم التفت اليه وقال : « ابق معي اليوم يا بنيّ فربما سافرت غداً ، ولا أعلم بعد ذلك متى أراك . »

فبقي معه اليوم كله حتى جاء الليل ، فاستأذنه في الذهاب إلى بوجيفال فأذن له فحيّاه وخرج ؛ فأتبعه نظره حتى غاب عن عينيه ؛ فانحدرت من جفنه تلك الدمعة التي كان يحبسها من قبل ، وقال: « وا رحمتاه لك أيها الولد المسكين ! »

حمل أرمان بين جنبيه آماله وآمال مرغريت وسعادتهما التي يرجوانها في مستقبل حياتهما ، وطار بها إليها ليقاسمها إياها حتى دنا من بوجيفال ، فأدهشه أن رأى البيت مظلماً ساكناً لا يضطرب فيه شعاع ، ولا يتراءى فيه ظل ؛ فمشى إلى الباب فرآه مرتجاً ، فوضع أذنه على خَصاصه ، فلم يسمع حركة ، فأخذ يقرعه قرعاً شديداً ، ويهتف باسم «مرغريت» مرة واسم «برودنس» أخرى ، فلم يجبه أحد ، فقال في نفسه : «لعلها ذهبت إلى بيتها في باريس لبعض شأنها واستصحبت خادمتها ، ولا بد أن تعود الآن . »

فجلس على صخرة أمام باب المنزل ينتظرها حتى مضت هدأة من الليل فلم تعد ، فحدثته نفسه بالعودة إلى باريس للبحث عنها في مظان وجودها ، ثم منعه من ذلك خوفه أن يسلك في ذهابه طريقاً غير الطريق التي تسلكها في عودتها ، فاستمر في مكانه يقعد مرة ويقوم أخرى ، ويقف حيناً ويتمشى أحياناً ، ويحدث نفسه بكل حديث يمر بخاطر القلِق المرتاع إلا حديث خيانتها وغدرها .

ولم يزل في حيرته واضطرابه حتى رأى جذوة الفجر تدب في فحمة الظلام ، فساء ظنه ، وانتشرت عليه وساوسه وأوهامه ، وقال في نفسه : « ما لمرغريت بد من شأن ، ولا بد لي من المصير إليها ، والنظر في الشأن الذي شغلها ! » وكان القلق والسهر قد أخذا مأخذهما من جسمه ونفسه من حيث لا يشعر ؛ فمشى في طريقه إلى باريس يترنح ترنح الشارب الثمل حتى وصل إلى منزل مرغريت وقد علا صدر النهار .

فرأى حارس المنزل قد استيقظ من نومه ووقف بفأسه على شجرة من أشجار الحديقة يُشذِّب أغصانها، فسأله عن مرغريت ، فقال : « إنها حضرت هنا بالأمس في منصرف النهار ووراءها خادمتها تحمل حقيبة كبيرة فصعدت إلى المنزل فلبثت فيه ساعة ثم نزلت ، وقد لبست ثوباً من أثواب الولائم ، فأعطتني كتاباً ، وقالت لي إذا جاء هنا المسيو أرمان للسؤال عني فأعطه إياه ، ثم ركبت عربتها هي وخادمتها وانصرفت . »

قال : « أ لا تعلم أين ذهبت ؟ »

قال : « أحسب أني سمعتها تقول للحوذي عند ركوبها : إلى منزل المركيز جان فيليب .»

فجمد أرمان في مكانه جمود الصنم ، واستحال لونه إلى صفرة الموت ، ومر بخاطره مرور البرق ذلك الكتاب الذي رآه في يدها بعد عودته إليها من مقابلة أبيه ، فتركه الحارس مكانه وذهب إلى غرفته ، وعاد إليه بالكتاب ، فتناوله منه بيد مرتجفة ونشره وأمرَّ نظره عليه إمراراً فأحاط بما فيه للنظرة الأولى ، فارتعد جسمه ارتعاداً شديداً ، وتراجع خطوة أو خطوتين إلى باب القصر ، فأسند ظهره إليه وأعاد قراءاته ، فإذا هو مشتمل على هذه الكلمات :

« هذا آخر ما بيني وبينك يا أرمان ؛ فلا تحدث نفسك بمعاودة الاتصال بي ، ولا تسألني عن السبب في ذلك ، فلا سبب عندي إلا أني هكذا أردت لنفسي ، والسلام .»

فعلق نظره بالكتاب ساعة لا يرفع طَرْفه عنه ، ولا يقرأ منه حرفاً ، كأنما هو تمثال من تماثيل الحديقة ، وكان الحارس قد عاد إلى شجرته يشذب أغصانها ويتغنى في صعوده إليها وانحداره عنها بقطعة من الشعر الغرامي يعجبه لحنها ، وإن كان لا يفهم معناها .

فإنه لكذلك إذ سمع صوت جسم ثقيل قد سقط على الأرض ، فرمى بفأسه وهُرع إلى ناحية الصوت فرأى أرمان صريعاً معفراً تحت عتبة الباب ، ففزع فزعاً شديداً وظنها الصرعة الكبرى ، فأهوى بأذنه إلى صدره ، فسمع ما بقي من دقات قلبه ، فاطمأن قلباً وعمد إلى جرة بين يديه فأخذ ينضح بمائها وجهه ، ويدلك براحة يده صدره وصدغيه حتى استفاق بعد قليل ، ففتح عينيه فرأى الحارس جالساً بجانبه ، ورأى الكتاب لا يزال في يده . فدار بعينيه حول نفسه فمرت بخاطره في الحال ذكرى مصرعه القديم في هذا المكان عينه منذ خمسةَ عشرَ شهراً يوم ألقت مرغريت بنفسها عليه ووسمت على ثغره أول قبلة من قبلات الحب ، فهاجته تلك الذكرى وصاح : « ما أبعد اليوم من الأمس !»

وأنشأ يبكي بكاء الطفل الذي حيل بينه وبين ثدي أمه ، حتى بكى الحارس لبكائه وأقبل عليه يعزيه عن مصابه ، ويهوِّنه عليه حتى هدأ قليلاً . فأمره أن يستدعي له عربة ففعل ، فقام يتوكأ على يد الحارس حتى بلغها فركب ، وقال للسائق : « إلى فندق تورين .» فسارت به العربة إليه ، حتى إذا لم يبق بينه وبينه إلا منعطف واحد مرت بجانبه عربة فخمة مرور البرق الخاطف ، تحمل رجلاً وامرأة لم يتبينهما للنظرة الأولى ، ثم راجع صورتهما في خياله فإذا هما: « جان فيليب ومرغريت » ، وكانت مَرْكَبَته قد وصلت به إلى الفندق ، فدخل على أبيه هائماً مختبلاً ، فقال :

« ما دهاك يا بنيَّ ؟!»

قال : « قد خانتني يا أبتاه .»

قال : « ذلك ما أنذرتك به من قبل يا بنيَّ .»

ثم انقضى النهار ، وجاء الليل فقضاه أرمان ساهراً في مخدعه يراجع فهرس حياته مع مرغريت صفحة صفحة ، ويستعرض في نفسه جميع أطوارها وشؤونها فلم تبق حركة من حركاتها ، ولا كلمة من كلماتها ، ولا صورة من صور أعمالها ، كان يراها بالأمس حسنة من حسنات الإخلاص والوفاء ، إلا رآها اليوم سيئة من سيئات الخديعة والمكر ، حتى وصل في مراجعته إلى الأمس واليوم الذي قبله .

فذكر عدم انتظارها إياه في شرفة البيت كعادتها يوم عاد إليها من مقابلة أبيه ، وشدة احتفاظها بكتاب المركيز في يدها عندما دخل عليها غرفتها وضنها به ضنًّا شديداً ، ولم تكن تفعل ذلك من قبل ، وإعراضها عن التبسط معه في الحديث بعدما قص عليها قصته مع أبيه ، وزعمها أنها مريضة خائرة لا تستطيع البقاء معه ، وإلحاحها عليه في صباح اليوم الثاني إلحاحاً شديداً في العودة إلى مقابلة أبيه واستعطافه ، وقولها إنها لا تكون راضية عن نفسها ولا هانئة بعيشها إن لم يكن أبوه راضياً عنه ، فاستنتج من هذا كله أنها مذ شعرت بفراغ يده من المال وأن أباه إما أن يحول بينه وبينها وإما أن يقتر عليه الرزق

تقتيراً ، ملته واجتوته ، وفكرت في سبيل الخلاص منه، ولم تزل تنتظر ما يأتيها به القدر حتى أتاها بكتاب المركيز فكان هو طريق خلاصها .

ولم يزل هائماً ما شاء الله أن يهيم في تصوراته وأوهامه حتى غلبته عيناه فهجع قليلاً ، ثم استيقظ في الصباح فدخل على أبيه في مخدعه ، وقال له :

« لي عندك أمنية يا أبتاه لا أريد غيرها وأريد أن أبتاعها منك بخضوعي لك ونزولي على حكمك أبد الدهر فيما سرني أو ساءني ، فهل لك أن تبلغنيها ؟»

قال : « وما هي ؟»

قال : « أريد أن تعطيني الساعة خمسة عشر ألف فرنك .»

قال : « وما تريد منها ؟»

قال : « أحب أن أستأثر بهذا السر لنفسي من دون الناس جميعاً حتى من دونك .»

فنظر إليه أبوه نظرة الملم بما دار في نفسه ولم يعاوده، وأعطاه صكوكاً بالمال الذي أراد ، فأخذها وأرسلها إلى مرغريت وأرسل معها كتاباً طويلاً ختمه بهذه الكلمة :

« أما وقد عرفت أنني كنت أعيش مع أمرأة عاهرة ساقطة لا عهد لها ولا ذمام ، فها هي ذي أجرة لياليك الماضية مرسلة إليك .»

ثم خرج ليعد نفسه للسفر ، فقضى اليوم كله خارج الفندق ، ثم عاد إليه دُبُر النهار ؛ فوجد فيه كتاباً باسمه ففض خِتامه فإذا الأوراق التي أرسلها إلى مرغريت عائدة إليه كما هي وليس معها كلمة واحدة ، فحاول أن يعيدها إليها مرة أخرى ، فمنعه أبوه من ذلك وقال له : « قد وعدتني ألا تخالفني في أمر فلا بد لك من الإذعان .» فأذعن ثم سافرا معاً تلك الليلة إلى نيس .

وكذلك قضى الله أن يفترق ذلك الصديقان الوفيان والعاشقان المخلصان ، فعاد الفتى إلى أحضان أبيه ، وعادت الفتاة إلى حياتها الأولى التي كانت تأباها الإباء كله ، وتخافها الخوف الشديد ، وفي نفس كل منهما من الوجد بصاحبه والحسرة عليه ما لا تنيه [1] الأيام ، ولا تنتقص منه السنون والأعوام .

الأشقياء في الدنيا كثير ، وأعظمهم شقاءً ذلك الحزين الصابر الذي قضت عليه ضرورة من ضروريات الحياة أن يهبط بآلامه وأحزانه إلى قرارة نفسه فيودعها هنالك ، ثم يغلق دونها باباً من الصمت والكتمان ، ثم يصعد إلى الناس باش الوجه باسم الثغر متطلقاً متهللاً ، كأنه لا يحمل بين جنبيه همًّا ولا كمداً .

ذلك كان شأن « مرغريت » بعد عودتها إلى حياتها الأولى ، فقد أصبحت تعيش مع الناس بصورة غير الصورة التي تعيش بها مع نفسها ، أما حياتها مع الناس فحياة ضاحكة لاعبة مرحة وثابة ، تضيء المجامع والمحافل ، وتملأ الأنظار والأسماع ، فإذا ضمها مخدعها وخلا لها وجه الليل مرت أمام عينيها صورة تلك الساعات السعيدة التي قضتها بجانب « أرمان » .

ثم ذكرت أنها قد أفلتت من يدها إفلات الطائر من يد صائده ، وصارت بعيدة عنها بعد الشمس عن يد متناولها ، وأنها قد أصبحت تعيش بين أقوام لا تعرفهم، ولا تجد في نفسها لذة الأنس بهم ، ثم لا تجد لها بداً من مماذقتهم والتحبب إليهم والتجمل لهم بما يريدون ويشتهون ، فتقبل الأفواه التي لا تشتهيها وتعتنق القامات التي لا تطيق رؤيتها ، وتشرب مع كل شارب ، والشراب يحرق أحشاءها ، وترقص مع كل راقص ، والرقص يمزق أوصالها وتضحك ضحكات السرور من قلب باك ، وتنشد أناشيد الهناء من فؤاد محترق .

فكأنها في يد الناس العود في يد المغني يقطع أوتاره ضرباً ليطرب لنغْماته ، أو الزهرة في يد المقتطف يعصر أوراقها عصراً لينعم بشذاها ، فتهيجها ذكرى ذلك الماضي السعيد ، وهذا الحاضر الشقيّ ، فتطلق السبيل لزفراتها وعبراتها يصعد منها ما يصعد ، وينحدر ما ينحدر ، حتى تشتفي نفسها ، فتقوم إلى خزانة ملابسها فتستخرج منها صورة تضعها بين

(١) تنيه: تضعفه .

سَحْرها ونحرها ، ثم تأوي إلى مضجعها فتجد برد الراحة في صدرها لأنها صورة أرمان .

ولم تزل تكابد من الشقاء في تلك الحياة الساقطة وآلامها ما لا طاقة لمثلها باحتمال مثله ، حتى استيقظ في صدرها داؤها القديم بعدما نام عنها حيناً من الدهر ، فهزل جسمها وشحب لونها وغاض ماء ابتساماتها وانطفأ شعاع نظراتها ، وشغلها شأن نفسها عن شأن المركيز فلم يلبث أن ملها وفارقها ، واستبدل بها أخرى غيرها . ثم اختلف عليها من بعده الأخلاء الرفقاء فكان شأنهم معها شأنه ، لا يلبث أحدهم أن يعرفها حتى يهجرها ؛ فكسدت سلعتها في سوق الجمال ، وطمع فيها من لم يكن يطمع قبل اليوم في لثم مواطئ أقدامها ، وخلت منها المجامع والمحافل ، ثم خلت من ذكرها وحديثها ، وأعوزها المال إعوازاً شديداً ؛ فمدت يدها إلى ما كان باقياً عندها من جواهرها ولآلئها فباعته فلم يف بدينها ، فطلبت المعونة من كثير من أصدقائها الماضين ، فأرسل إليها قليل منهم القليل منها ، فلم يغن عنها شيئاً .

واختلفت إليها جرائد الحساب يطلب أصحابها سداد ما فيها ، فدافعتهم عنها حيناً ثم عجزت ، فحجزوا على جميع مقتنياتها وذخائرها وأثاث بيتها ورياشه ، ولؤموا في مقاضاتها لؤماً ضاعف حزنها ومرضها ، وقضى على بقية ما كانت تضمره في نفسها من الأمل في الحياة والسعادة فيها ، فنسيت العالم خيره وشره والحياة سعادتها وشقاءها ، وأصبحت لا تفكر إلا في أمر واحد تقوم وتقعد به ليلها ونهارها ، وهو أن ترى أرمان ساعة واحدة قبل موتها ، ثم تذهب إلى ربها .

ولم تكن قد كتبت إليه قبل اليوم كلمة واحدة مذ فارقها ولا كتب إليها ؛ فنهضت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى منضدتها فكتبت إليه هذا الكتاب :

« تعال إليَّ يا أرمان راضياً كنت أو غاضباً ؛ فإنني مريضة مشرفة وأحب أن أراك قبل موتي ، لأفضي لك بسر الذنب الذي أذنبته إليك فيما مضى ، والذي لا تزال واجداً عليَّ بسببه حتى اليوم ؛ فلعلك تعفو عني في ساعتي الأخيرة فيكون عفوك ورضاك هو كل ما أتزوده من هذه الحياة لقبري . واذكر يا أرمان ، أن أول عاطفة جمعت بيني وبينك وألفت بين قلبي وقلبك ، كانت عاطفة الرحمة والشفقة ، فها هي الفتاة المريضة المسكينة التي رحمتها بالأمس وعطفت عليها قبل أن تحبها تدعوك اليوم أن ترحمها وتعطف عليها ، وإن تكن قد سلوتها . أما كتابك الذي كتبته إليَّ قبل سفرك فقد اغتفرت لك كل ما فيه ، حتى قولك إنني كنت كاذبة في حبك ، طامعة في مالك ؛ لأني أعلم أن المرأة التي تكذب الناس في حبها طول حياتها لايمكن أن تجد من يصدقها إذا صدقت فيه ، وعدل من الله كل ما صنع .»

ثم لبثت تنتظر حضوره أياماً طوالاً فلم يأت ، فأحزنها ذلك حزناً شديداً ، وساء ظنها به ، ووقع في نفسها أنه قد سلاها واطرحها ، وأصبح لا يعبأ بها ، ولا يبالي بحياتها أو موتها ، وسعادتها أو شقائها ، وكانت مخطئة فيما ظنت . فإن أرمان لم يطلع على الكتاب الذي أرسلته إليه مذ فارقها في العام الماضي وسافر إلى « نيس » ولم يستطع البقاء فيها إلا أياماً قلائل ، ثم ملكه الضجر وأحاطت به الوحشة ، وضاقت في وجهه مذاهب السلوى فاستأذن من أبيه أن يسافر إلى بعض بلاد المشرق ترويحاً عن نفسه وتفريجاً من كربته ، فأذن له فسافر إلى الإسكندرية فأقام بها بضعة أشهر كاتب أباه فيها قليلاً ، ثم تركها وأخذ يتنقل في أنحاء البلاد لا ينزل ببلد حتى يطير به الضجر إلى غيره ، فانقطعت رسائله عن أبيه ، فأصبح لا يعلم مكان وجوده .

فلما أرسلت مرغريت إليه كتابها في نيس قرأه أبوه وحفظه عنده ولم يستطع أن يرسله إليه ، ومرغريت لا تعلم بشيء من ذلك ؛ فحزنت لخيبة أملها حزناً شديداً ، ودب اليأس في قلبها دبيب الموت في الحياة ، ووقع في نفسها أنها ستخرج من الدنيا فارغة اليد من كل شيء حتى من هذه الأمنية التي بقيت في يدها من بين جميع آمالها الضائعة .

فتنكر شأنها ، واستحالت حالها ، ولجأت إلى صمت طويل لا تقول فيه خيراً ولا شراً ، وأصبحت تنظر إلى نفسها وإلى ما يحيط بها من الأشياء كأنها تنظر إلى شيء تنكره ولا تعرفه ؛ فربما دخل عليها طبيبها وهي في أشد حالات ألمها فلا تشكو له ألماً ، أو سمعت ضوضاء الدائنين وصخبهم في فناء المنزل فلا تسأل ماذا يريدون !

وكانت إذا شعرت بقليل من الراحة والسكون ركبت عربتها إلى بوجيفال فزارت البيت الذي قضت فيه أيام سعادتها الذاهبة ، وكان لا يزال باقياً على الصورة التي تركته عليها يوم فارقته ومرت بغرفه وقاعاته ، وجلست في كل مكان كانت تجلس فيه مع أرمان ، وأشرفت من كل نافذة كان يشرف منها معها ، وقبلت جميع آثاره وبقاياه ، ولثمت الكأس التي كان يشرب بها ، والزهرة التي كان يحبها ، والقلم الذي كان يكتب به ، والكتاب الذي كان يقرأ فيه .

فإذا نال منها التعب جلست على بعض المقاعد لتأخذ لنفسها راحتها ، فربما طار بها خيالها إلى ذلك العهد القديم ، فتمثل لها أن أرمان جالس تحت قدميها يسرد عليها حادثة من حوادث طفولته في نيس ، أو يبثها ما يضمره لها في نفسه من الوجد والغرام ، فتبتسم لحديثه ابتسام السعيد الهانئ ، وتستشعر في نفسها لذة لا يشعر بمثلها إلا المتقون في جنات النعيم ، ثم تفتح عينيها فلا ترى أمامها غير الوحشة والسكون ، والوحدة والانفراد ، فتبكي ما شاء الله أن تفعل ، ثم تعود إلى بيتها في باريس ، فتجلس على كرسيها بجانب منضدتها وتناجي أرمان في مذكراتها بجميع ما تحدثها به نفسها كأنه حاضر بين يديها يراها ويسمعها !

***

مذكرات مرغريت

١٥ ديسمبر سنة ١٨٥٠

« أرمان :

« لم تكتب إليّ ولم تأتني ، كأنما ظننت أني أريد أن أستعيد معك عهد الماضي ، وأين أنا من ذلك العهد! فلو رأيتني لرأيت امرأة ذائبة مدبرة لا تصلح لشأن من شئون الحياة ، ولم يبق فيها من صورتها الماضية إلا كما بقي من الزهرة الساقطة عن غصنها بعد ما عصفت الريح بأوراقها ، وكل ما كنت أريده منك ، أن أراك بجانب فراشي في ساعتي الأخيرة ؛ لأعتذر لك عن ذنبي الذي أذنبته إليك ، ثم أنظر إليك نظرة وداع أغمض عليها جفني وأذهب بها إلى قبري .

« ما أنا بخائنة يا أرمان ولا خادعة ، فإن الرسالة التي رأيتها في يدي يوم عدت إليّ من مقابلة أبيك ليست رسالة المركيز كما ظننت ، بل رسالة أبيك نفسه وصلت منه قبل وصولك إلى بوجيفال بساعة واحدة ؛ وهذا نصها الذي لا يزال عالقاً بذهني حتى الساعة :

« « سيدتي :

« « أريد أن أقابلك غداً في منزلك في الساعة العاشرة صباحاً في شأن خاص بي وبك ، وأريد ألا يكون « أرمان » حاضراً تلك المقابلة ولا عالماً بها ، ولا بأني أرسلت هذه الرسالة إليك ، ولي من حسن الرأي فيك ما يطمعني في أن يكون ما سألتك إياه سراً بيني وبينك حتى نلتقي . والسلام . »

« دوفال »

« فلما قرأتها علمت ماذا يريد من تلك المقابلة ، وشعرت بما وراءها ، بل علمت بما دار بينك وبينه من الحديث ، وأنك امتنعت عليه حتى يئس منك ، فحاول أن يدخل عليك من بابي ؛ فحدثتني نفسي أن أرفض مقابلته ، وأن أكاشفك بكل شيء ، ثم

استحييت من نفسي ، وأكبرت أن يعتمد عليّ رجل شريف كأبيك في كتمان سر بسيط كهذا السر فلا يجدني عند ظنه ، وطمعت في أن أنال منه عند المقابلة ما يطمع أن يناله مني ، فكتمتك أمر الرسالة ، وكتمتك ما في نفسي منها . ولم أكن كاذبة في شكاتي وألمي حينما قلت لك في تلك الليلة : « إنني لا أستطيع البقاء بجانبك .» وسألتك أن تقودني إلى مخدعي ؛ فقد قضيت في فراشي بعدما فارقتك ليلة لم أقض مثلها في جميع ما مر بي من ليالي الهموم والأحزان حتى أصبح الصباح فألححت عليك أن تذهب لمقابلة أبيك ، وأنا أعلم أنك إن ذهبت إليه لا تراه ، ولا تنتفع بمقابلته إن رأيته ، ولكني خفت أن يزورني فيراك عندي فأصغر في عينيه ، ولا أشد عليّ من ذلك .

« وما هي إلا لحظات قليلة حتى وصل إلى بوجيفال في الموعد الذي ضربه في كتابه ، فاستأذن عليّ فأذنت له ، فدخل فرأيت في عينيه جمرة من الغضب تلتهب التهاباً ، فلم أحفل بها ، ودعوته للجلوس فلم يفعل ، ولم يحيني بيده ، ولا بلسانه .

« وكان أول ما استقبلني به قوله : ماذا تريدين أن تصنعي بولدي أيتها السيدة ؟ وظل ناظراً إليّ نظراً جامداً ساكناً لا يطرف ، ولا يختلج ! فعجبت لمدخله الغريب، ونظراته المترفعة ، ولهجته الجافة الخشنة ، وامتعضت في نفسي امتعاضاً شديداً حتى كدت أقول له ، ولا أكتمك ذلك : « تذكر يا سيدي أنك في منزلي ، وأنني لم أدعك إلى زيارتي، بل أنت الذي دعوت نفسك بنفسك .»

« ثم ذكرت مكانه منك فأمسكت عن كل شيء حتى عن الجواب على سؤاله ، فمشى يضرب الأرض بعصاه وبقدمه حتى دنا مني ، وألقى عليّ تلك النظرة التي اعتاد الأشراف المترفعون أن يلقوها في طريقهم على وجوه النساء العاهرات ، وقال: « لقد أنفق ولدي عليك جميع ما كان بيده من المال، وكان في يده الكثير منه ، ثم جميع ما أرسلته إليه بعد ذلك ، وقد أرسلت إليه فوق طاقتي ، فلم يبق في استطاعته أن يمدك بأكثر مما أمدك ، ولا في استطاعتي أن أستنزل له من السماء ذهباً يمطره عليك ، فدعيه وشأنه ، فالبلد مملوء بالأبناء الذين لا يحتاج آباؤهم إليهم والذين لا يحتاجون إلى أنفسهم . أما أنا فإني في حاجة إلى ولدي ؛ لأني لم أرزق ولداً سواه ، ومن كانت بيده هذه الثروة من الجمال التي تملكينها لا يضيق به مذهب من مذاهب العيش ، ولا يتلوى عليه مأرب من مآرب الحياة .»

« فسرت كلماته في نفسي سريان الحمى في عظام المحموم وخيل إليّ أن هذا الماثل أمامي لا يحدثني ، إنما يجرعني السم بيده تجريعاً ، وشعرت بذلة لم أشعر بمثلها في يوم من أيام حياتي ، إلا أنني تجلدت واستمسكت ورددت نفسي على مكروهها ، وقلت له بصوت هادئ ساكن لا يمازجه غضب ولا نزق : « لا يا سيدي ، نعم إنني أحب ولدك ، ولكني لا أطمع فيه ، ولو كان الذي يعنيني منه الطمع في ماله لفارقته منذ ثلاثة شهور ، أي منذ خلت يده من المال وأصبح لا يجد السبيل إليه بحال من الأحوال ، بل لفارقته قبل ذلك لأن الذين لا يزالون يساومونني في نفسي من أشراف هذا البلد ونبلائه منذ اتصلت به حتى اليوم أفضل منه وأكثر رغداً . على أن ولدك لم ينفق عليّ من هذا المال الذي تذكره إلا النزر القليل ، وربما أنفق باقيه على نفسه ؛ ولو استطعت أن أرفض ذلك القليل وآباه لفعلت ، ولكني كنت أضن به أن يداخل نفسه ما يريبها أو يؤلمها ؛ فقبلت منه هداياه الصغيرة التي كان يقدمها إليّ من حين إلى حين إرعاء عليه ، وإبقاء على عزة نفسه وكرامتها ، ولو أن ما كان بيده من المال انتقل إلى يدي ، كما تقول ، لأصبحت غنية موفورة ، لا أحمل همًّا من هموم العيش ، ولا أعاني من بأساء الحياة وضرائها ما أعانيه اليوم !

« « فإنني ، لو تبينت أمري ، امرأة فقيرة معوزة لا أملك من متاع الدنيا إلا حلاي ومركبتي وأثاث بيتي ، وليتها كانت خالصة لي ، فقد امتدت يد الضرورة إليها منذ عهد قريب ، فأصبح الكثير منها سلعة في يد المرابين ، ولا أعلم ما يأتي به الغد . وإن أبيت إلا أن تعرف ذلك بنفسك فسأطلعك على ما

كتمته عن الناس جميعاً حتى عن ولدك .» ثم قمت إلى خزانة أوراقي ، فجئته منها بالصكوك والوثائق المشتملة على بيع ما بعت من جواهري وخيولي وأثاث بيتي ورهن ما رهنت منها ، فظل يقلبها بين يديه ساعة ، ويتأمل في تاريخها طويلاً ثم طواها وأعادها إليَّ مطرقاً صامتاً لا يقول شيئاً . ومد يده إلى كرسي بين يديه فاجتذبه إليه وجلس عليه معتمداً برأسه على عصاه ، وقد هدأت في نفسه تلك الثورة التي كانت تضطرم وتعتلج منذ دخوله، وطارت عن وجهه تلك الغبرة السوداء التي كانت تظلله من قبل .

« فعدت إلى حديثي معه أقول : « على أنني يا سيدي غير شاكية ولا ناقمة ، فقد مر بي من نُوَب الأيام وأرزائها ما محا من نفسي كل شهوة من شهوات الحياة وأنساني جميع مظاهر الدنيا ومفاخرها، فأصبحت لا أبالي بما تأتي به الأيام ، وسواء لديَّ الفقر والغنى ، والحَلْيُ والعطل ، وسكنى القصر وسكنى الكوخ ، وركوب المَرْكَبَة وركوب النعل .

« « وكل ما أرجو من حياتي وأضرع إلى الله وإليك فيه ، أن أرى أرمان يقاسمني همَّ الحياة وبؤسها ، ويعينني على شدتها ولأوائها حتى يقضي الله في أمري بما هو قاض .

« « فإن كان في الأجل فسحة قضيتها في شكرك وحمدك ، والإخلاص لك في سري وعلني ، وإن كانت الأخرى كان آخر ما أنطق به في ساعتي الأخيرة أن أدعو لك الله تعالى ضارعة مبتهلة أن يبارك لك في نفسك ، وفي أهلك ، وأن يسبل ستره الضافي عليك في حاضرك ومستقبلك !»

« ثم جثوت بين يديه وتعلقت بأهداب ثوبه ، وقد عجزت في تلك الساعة عن أن أملك من دموعي ما كنت مالكة من قبل ، فظللت أبكي ، وأقول :

« « رحماك يا مولاي ، إنني امرأة بائسة مسكينة قد قضت عليَّ بعض ضرورات العيش في فاتحة حياتي أن أقف على حافة تلك الهوة التي يقف على رأسها النساء الجائعات ؛ فسقطت فيها كارهة مرغمة ، ثم أردت نفسي على الرضا بتلك الحياة التي قدرها الله لي فلم أستطع ، فأصبحت في منزلة بين المنزلتين ، لا أنا شريفة أنعم بعيش النساء الشريفات ، ولا ميتة القلب أسعد سعادة الفتيات الساقطات . وقد وجدت في ولدك الرجل الوحيد الذي أحبني لنفسي ، ومنحني من وده وإخلاصه ما ضن به عليَّ الناس جميعاً ، فأنست به أنساً أنساني سقوطي وعاري ، وحبب إليَّ الحياة بعدما أبغضتها وبرمت بها ، وكدت أقضي على نفسي بالخلاص منها ، فلاتحرمني جواره، ولا تفرق بيني وبينه ؛ فإنك إن فعلت أشقيتني وبرحت بي ، وملأت حياتي همًّا وكمداً ، وأنت أجل من أن ترضى لنفسك بأن تبني سعادتك وهناءك على شقاء امرأة مسكينة مثلي .

« « ماذا يكون مصيري غداً إذا أصبحت وحيدة منقطعة في هذا العالم لا صديق لي ولا معين ؟ أ أعود إلى حياتي التي أبغضها وأخشاها ؛ فأعود إلى جرائمي وآثامي ؟ أم أقتل نفسي بيدي فراراً من شقاء الدنيا وبلائها ؛ فأختم حياتي بأقبح مما ختم امرؤ به حياته ؟ لا أستطيع واحدة من هاتين ، فامدد إليَّ يدك البيضاء ، وأنقذني من هذه الهوة العميقة التي لا يستطيع أحد أن ينقذني منها سواك .

« « أنا أعلم أنك في حاجة إلى ولدك ، وأنك أولى به من كل مخلوق على وجه الأرض ، ولكني أعلم أنك شفوق رحيم لا تأبى أن تتصدق على امرأة مريضة بائسة مثلي بساعات من السعادة تتعلل بها في مرضها الذي تكابده حتى يوافيها أجلها . لا أسألك يا سيدي مالاً ولا نسباً ولا عرضاً من أعراض الحياة ؛ بل أسألك أن تأذن لأرمان بالبقاء معي ؛ فإن في بقائه بقاء حياتي وسعادتي ، فتصدق بهما عليَّ إنك من المحسنين .»

« وهنا شعرت كأنه يتحرك في كرسيه فخفق قلبي خفقاناً شديداً ، ثم رفع رأسه ونظر إليَّ نظرة أهدأ ناراً وأقصر شعاعاً من نظرته الأولى ، وقال : « ومن أين تعيشان ؟»

« قلت : « عندي بقية من جواهري وحلاي سأبيعها وأعيش بثمنها معه في زاوية من زوايا باريس

عيش الفقراء المقلّين ، لا يرانا أحد ، ولا يشعر بوجودنا شاعر ، وحسبنا الحب سعادة نغنى بها عن كل سعادة في هذا العالم وهناءٍ .»

« قال : « ذلك هو الشقاء بعينه ؛ فإن الحب نبات ظلي تقتله شمس الشقاء الحارة ، وكل سعادة في العالم غير مستمدة من سعادة المال أو لاجئة إلى ظلاله فهي كاذبة لا وجود لها إلا في سوانح الخيال .

« « أنتما اليوم سعيدان لأن في يدكما مالاً تعيشان به ، ولأنكما تسكنان هذا المنزل البديع ، فوق هذه الهَضْبة العالية ، بجانب هذه البحيرة الجميلة ، فإذا خلت يدكما من المال ، وحرمتما هذا النعيم الذي تنعمان به شقيتما وشغلكما شأن نفسيكما عن شأن الحب ولذائذه ، وسرى إلى نفسيكما الضجر والملل ، وربما امتدت تلك السآمة بينكما إلى أبعد غايتها .

« « إن للحب فنونًا من الجنون ، وأقبح فنونه أن يعتقد المتحابان أن حبهما دائم لا تغيره حوادث الأيام ، ولا تنال منه الصروف والغِيَر ، ولو عقلا لعلما أن الحب لون من ألوان النفس ، وعرض من أعراضها الطائرة ، تأتي به شهوة وتذهب به أخرى ، ولا يذهب به المثل مثل الفاقة إذا اشتدت واستحكمت حلقاتها ، فإن النفس تطلب حياتها وبقاءها ، قبل أن تطلب لذائذها وشهواتها !

« « أنا أعلم من شأن ولدي يا سيدتي ما لا تعلمين ، وأعلم أنه لا يستطيع أن يعيش هذه العيشة النكداء التي تظنين ، وهو فتى فقير لا يملك من الدنيا إلا قطعة صغيرة من الأرض ورثها عن أمه لا تغني عنه ولا عنك شيئًا . وما أنا بذي ثروة طائلة أستطيع أن أحفظ له بها زمنًا طويلاً هذا العيش السعيد الرغد الذي يعيشه اليوم في باريس ، فلم يبق بين يديه إلا أن يعيش بمالك ، وهو ما لا أرضاه له ولا يرضاه لنفسه . واسمحي لي يا سيدتي أن أقول لك : إن جميع مصائب الدنيا وأرزائها أهون عليّ وعليه من أن يقول الناس إن خليلة أرمان دوفال قد باعت جواهرها وحلاها التي أهداها إليها عشاقها الماضون لتنفق ثمنها عليه .

« « سامحيني يا بنيتي ، واغتفري لي حدتي وخشونتي، فإن شديداً جداً على والد شيخ مثلي أن يرى ولده الذي وضع فيه كل آمال بيته يهوي أمام عينيه في هذه الهوة السحيقة التي لا قرار لها دون أن يطير قلبه خوفًا وهلعاً .

« « إنه مذ عرفك نسيني ونسي أخته ، فلا يذكرني ولا يذكرها ، وقد مرضت منذ شهور مرضاً مشرفًا فكتبت إليه أن يأتي ليعودني فلم يفعل ، ولم يرد على كتابي ، أي أنني كنت على وشك أن أموت ولا أراه ، ولو تم ذلك لذهبت إلى قبري بحسرة لم يحمل مثلها في صدره راحل عن الدنيا من قبلي !

« « أنت صادقة يا سيدتي في قولك إنه لم ينفق عليك جميع ما كان بيده من المال ؛ لأنني علمت بالأمس أنه قامر منذ عهد قريب ، وخسر في مقامرته كثيراً ، كما علمت أنك لا تعلمين شيئًا من ذلك فما يؤمنني إن أنا تركته في هذا البلد ألا يستمر في هذه الغواية الجديدة التي خطا الخطوات الأولى في طريقها ، ولا يخسر في بعض مواقفه خسارة عظمى لا أجد لي بداً من أن آخذ بيده فيها، فأقدم إليه ذخر شيخوختي ، ومهر ابنتي ؛ فنهلك نحن الثلاثة في يوم واحد ؟

« « من أين لك يا بنيتي أنه إن طال عهده بك لا يملُّك ، ولا تمتد عينه إلى امرأة سواك ، فتكون فجيعتك فيه غداً شراً من فجيعتك فيه اليوم ؟ ومن أين له أنك لا تضيقين ذرعًا يومًا من الأيام بعيشة الوحشة والوحدة فتحنين إلى حياتك الأولى ؛ حياة الأنس والاجتماع ، والضوضاء واللجب ، وهو فتى غيور مُستَطار ، فربما أنفت نفسه أن يزاحمه فيك مزاحم ، وربما امتدت يده بشرٍّ إلى ذلك الذي يزاحمه ، فتنازلا ، فأصابته من يد منازله ضربة تقضي على حياته وتفجعني فيه ؟

« « كيف يكون موقفك يا سيدتي غداً إن نفذ فيه هذا السهم من القضاء أمام هذا الأب الثاكل

المسكين إذا جاءك يسألك عن دم ولده ؟ وكيف تكون آلام نفسك ولواعجها أمام مشهد بكائه وتفجعه ؟»

« ثم ارتعش ارتعاشاً شديداً ، وظل نظره حائراً مضطرباً كأنما يخيل إليه أنه يرى أمام عينيه ذلك المنظر الذي يتحدث عنه ، ثم سكن قليلاً ، ونظر إليَّ نظرة هادئة مملوءة عطفاً وحناناً ، وأنشأ يقول :

« « مرغريت ، أنت أعظم في عيني مما كنت أظن ، وأكرم نفساً من أولئك النساء اللواتي يزعمن أنك واحدة منهن ، وقد وجدت فيك من فضائل النفس ومزاياها ما لم أجده إلا قليلاً في أفذاذ الرجال ، وأقل من القليل في فضليات النساء ، ولو قسّم الشرف بين الناس على مقدار فضائلهم وصفاتهم لكان نصيبك منه أوفر الأنصبة وأوفاها .

« « لا أنسى لك يا مرغريت ما دمت حيًّا كتمانك أمر الكتاب الذي أرسلته إليك ، واحتفاظك بسره في ساعة تنفرج فيها الصدور عن مكنوناتها ، ولا سكوتك وإغضاءك – وأنت في منزلك ، وموضع أمرك ونهيك– أمام حدتي وخشونتي وجنون غضبي ، ولا بذلك ما بذلت من ذات نفسك وذات يدك لولدي – من حيث لا يعلم – وفاءً له وإبقاءً على عزة نفسه وكرامتها !

« « لقد كانت ضحيتك التي قدمتها لولدي بالأمس عظيمة جداً ، واليوم جئتك أطلب إليك أن تقدمي ضحية أعظم منها لابنتي ولا معتمد لي أعتمد عليه في تلبية رجائي عندك إلا شرف نفسك وفضيلتها .

« « لقد تركت « سوزان » ورائي تتقلب على فراش المرض ، وتكابد منه فوق ما يحتمل جسمها الناشئ الغض ؛ لأن خطيبها الذي تحبه حبًّا جمًّا قد هجرها منذ شهرين فلا يزورها ولا تراه ، وقد كنت أجهل قبل اليوم سبب مرضها إلا الظن والتقدير حتى سهرت بجانب فراشها ليلة كانت الحمى فيها قد نالت منها منالاً عظيماً ، و وصلت بها إلى درجة الخبل والهذيان ، فسمعتها تهتف باسم خطيبها مرات كثيرة ، وتبكي كلما جرى ذكره على لسانها كأنها حاضرة مستفيقة ، فعلمت موضع دائها ، وذهبت في اليوم الثاني إلى والد ذلك الخطيب أسأله عما راب ولده من أمر ابنتي ، وقطعه عن زيارتها ، فذكر لي سبباً غريباً لك فيه يا سيدتي بعض الشأن ، فإن أذنت لي حدثتك حديثه .»

« فخفق قلبي خفقاناً شديداً ، وأحسست بالشر يدنو مني رويداً رويداً ، إلا أنني تماسكت ، وقلت له : « نعم آذن لك يا سيدي .» قال : « لقد أجابني الرجل على سؤالي بقوله : إن أسرتي أسرة شريفة لا تصاهر إلا أسرة شريفة مثلها من جميع وجهها ، وقد عرفت أسلوب المعيشة السافلة التي يعيشها ولدك في باريس ، إنه يعاشر منذ عهد طويل امرأة مومساً معروفة هناك معاشرة تهتك وتبذل يشهدها الناس جميعاً ، ولا أسمح لنفسي أن يكون مثل ولدك في تبذله واستهتاره ، وصغر نفسه وفُسولتها [١] صهراً لولدي ولا عاراً على بيتي . فاستقبلت خشونته وجفاءه بصبر واحتمال ؛ لأن الخوف على ابنتي شغلني عن الغضب لنفسي ، وقلت له : « أواثق أنت مما تقول ؟» فأدلى لي بما أقنعني ، فلم أر بداً من أن أسلم له بصواب ما فعل ، وسألته أن لا يبت في أمر الخطبة شيئاً حتى أسافر إلى باريس وأعود منها .

« « ذلك ما حملني على المجيء إلى باريس . وهذه هي قصتي التي جئت أعرضها عليك ، وأنتظر حكمك فيها ، وقد كتمتها عن الناس جميعاً حتى عن ولدي أرمان ؛ فانظري ماذا تأمرين ؟»

« وهنا أطرق برأسه طويلاً ، ثم رفعها ، فإذا عبرة تترقرق في عينيه ، وإذا هو يحاول الكلام فلايستطيعه ، فرحمته مما به ، وأعظمت مصابه حتى نسيت مصابي بجانبه ، وساد السكون بيننا ساعة لا يقول لي شيئاً ، ولا أدري ماذا أقول ، حتى هدأ ثائره قليلاً ، فمد يده إلى يدي فأخذها بين ذراعيه ، وعاد إلى حديثه يقول :

« « مرغريت ، إن حياة ابنتي بين يديك ،

(١) الفُسولة: الانحطاط وضعف المروءة .

فامنحيني إياها تتخذي عندي يداً لا أنساها لك حتى الموت .

« « إنني لا أستطيع أن أراها تموت بين يدي . ولو تم ذلك لمتُّ على أثرها حزناً وكمداً ، وضمنا في يوم واحد قبر واحد ؛ لقد رأيت مصرع أمها منذ خمس سنين ، ولا يزال أثره باقياً في نفسي حتى اليوم ، ولا أستطيع أن أرى هذا المشهد مرة أخرى في ابنتها وصورتها الباقية عندي من بعدها .

« « إنني أحبها حبًّا جمًّا ، ولا أستطيع أن أراها في ساعة من ساعاتها حزينة أو مكتئبة ؛ فكيف أن أراها تعالج سكرات الموت !

« « إنك لا تعرفينها يا مرغريت ، وأعتقد أنك لو رأيتها لأحببتها كما أحبها ، ولرحمتها كما أرحمها ، ولفديتها بما تستطيعين رأفة بها وإشفاقاً عليها .

« « إنها جميلة جداً ، وبيضاء مثل الكوكب ، وطاهرة طهارة الملك ، وغريرة غرارة الطفل ، فاسمحي لهذه الحياة الغضة الزاهرة بالبقاء والسعادة ؛ فإنها لا تستحق الشقاء .

« « إنها اليوم تعيش بالأمل الذي أودعته قلبها يوم سفري ، فإن عدت إليها بالخيبة عدت إليها باليأس القاتل والقضاء النازل !

« « إنك تحبين أرمان يا مرغريت ، وقد أصبحت أعتقد أنك مخلصة في حبه إخلاصاً عظيماً ، فاصنعي ما يصنع المحبون المخلصون ، وضحي حبك من أجله، ومن أجل مستقبله ، فإلا تفعلي ذلك من أجله ، فافعليه من أجلي .

« « لقد قلت لي إنه الرجل الوحيد الذي أحبك لنفسك أكثر مما أحبك لنفسه . فبادليه هذا الحب ، بل كوني خيراً منه فيه ، وليكن عزاؤك عما تلاقيه بعد فراقه من حزن وألم أنه قد أصبح سعيداً من بعدك ، وأنك قد أنقذت من يد الموت فتاة مسكينة ، ومن يد الشقاء شيخاً حزيناً .» وهنا اختنق صوته بالبكاء فهبط على كرسيه بين يدي ، وقال بَنغْمة المشرف المحتضر :

« « ارحميني يا مرغريت ، واشفقي على ضعفي وشيخوختي ، وتصدّقي عليَّ بمستقبل ولدي ، وحياة ابنتي .»

« ثم لم يستطع أن يقول بعد ذلك شيئاً ، فألقى رأسه على كرسيه الذي كان جالساً عليه وانفجر باكياً .

« آه لو رأيتني يا أرمان في موقفي هذا ، ورأيت لوعتي وتفجعي ودموعي المنهمرة على خديّ انهمار الدِّيمة الوَطْفاء رحمة بأبيك وإشفاقاً عليه !

« لقد كان يتكلم فتسيل مدامعي مع حروفه وكلماته ، كأنما هو ينشد مرثية محزنة ، أنا المبكية عليها فيها !

« إن العظيم عظيم في كل شيء حتى في أحزانه وآلامه ، فلقد كان يخيل إليَّ وأبوك يبكي بين يدي وينتحب أن كل دمعة من دموعه تستنزل غضب الله على الأرض ، وكل زفرة من زفراته تلتهب بها آفاق السماء .

« لقد أكبرت في نفسي جداً أن يجثو مثل هذا الشيخ الشريف الطاهر بين يدي فتاة ساقطة مثلي ، واستحييت من ذلك حياء تمنيت معه أن لو انشقت الأرض تحت قدمي فَسِخْتُ فيها أبد الدهر .

« وبينما هو مطرق صامت أخذت أفكر فيه ، وفي مصابه ، وفي قصته التي قصها عليَّ ، وفي الشأن الذي لي فيها ؛ فعلمت أني قد أصبحت شؤماً على هذه الأسرة السعيدة جميعها ، أبيها وابنها وابنتها ، فثقلت نفسي عليَّ ، وسمج منظرها في عيني ، حتى خيل إليَّ أنها لو كانت حاضرة بين يدي لرميت بها من حالق إلى حيث لا يجمعني وإياها مكان بعد اليوم .

« ثم قلت في نفسي : « إن حياتي الماضية التي قضيتها في الشرور والآثام قد قطعت عليَّ طريق الشرف ، فلا حق لي في أن أطمع في حياة الشرفاء ، ولا أن أنازعهم سعادتهم وهناءهم ، وإن الإثم الذي اقترفته في ماضيَّ قد أثمته وحدي ، فلا بد لي أن أستقل بعبئه دون أن ألقيه على عاتق أحد غيري ، فإن

كان مقدراً عليَّ أن أموت موت النساء الساقطات ؛ فذلك لأنني امرأة ساقطة ، أو ألاقي في مستقبل حياتي شقاءً وآلاماً ؛ فذلك لأن المستقبل نتيجة الماضي وثمرته الطبيعية .»

« هنا ذكرتك يا أرمان ، وذكرت فراقك وكيف أستطيعه ، وذكرت أنا التي سأتولى قتل نفسي بيدي ؛ لأن الطريق التي لا طريق غيرها إلى بلوغ رضا أبيك وموافاة رغبته ، أن أقاطعك وأغاضبك ، وأظهر أمامك بمظهر الخائنة الغادرة . وربما اضطررت إلى الاتصال بغيرك على مرأى منك ومسمع ، حتى تنصرف عني انصراف يائس مغلوب على أمره من حيث لايكون لأبيك مدخل في ذلك ، فأكون قد جمعت على نفسي بين فراقك وغضبك في آن واحد . وذكرت أن لا بد لي متى فارقتك أن أعود إلى حياتي الأولى التي أبغضها وأمقتها ؛ لأن الدوق موهان لم يستطع أن ينسى ذنبي الذي أذنبته إليه حتى اليوم ، ولأني في حاجة إلى بسطة من العيش أستعين بها على معالجة مرضي ووفاء ديني . فدارت هذه الخواطر في رأسي ساعة ، وطالت دورتها حتى كادت تغلبني على أمري ، ثم وقع نظري على وجه أبيك المخضل بدموعه فتجلدت وجمعت أمري ومضيت قدماً لا ألوي على شيء مما ورائي .

« لقد كان شديداً عليَّ جداً أن أفارقك يا أرمان ، ولكن كان أشد عليَّ منه أن أرى أباك يبكي بين يدي ، وأن أكون سبباً في موت أختك أو شقائها .

« إنني أحب يا أرمان ، وأعرف آلام الحب ولوعته في النفوس ، ولقد كان يخيل إليَّ وأبوك يحدثني عن أختك وشقائها أنني أراها من خلال دموعي طريحة فراشها ، وهي تمد يدها إليَّ ضارعة متوسلة وتقول : أنقذيني يا سيدتي وارحمي ضعفي وشبابي ، فأجد لكلماتها من الأثر في نفسي ما لا يستطيع أن يشعر به إلا من كان له شأن مثل شأني .

« إنني حرمت في مبدأ حياتي السعادة الزوجية وهناءها ، ولقيت بسبب ذلك من الشقاء ما لا أزال أبكيه حتى اليوم ، فلا يهيج حزني ، ولا يستثير كامن لوعتي مثل أن أرى بين الناس فتاة محرومة السعادة مثلي .

« إنني أحب وهي تحب ، ولا بد لواحدة منا أن تموت فداء عن الأخرى ، فلأمت أنا فداء عنها ؛ لأنها أختك ، ولأنها لم تقترف في حياتها ذنباً تستحق بسببه الشقاء .

« وكنت كلما ذكرت أنها ستصبح سعيدة هانئة من بعدي ، وتراءى لي شبحها ، وهي لابسة ثوب عرسها الأبيض الجميل ، وسائرة إلى الكنيسة بجانب خطيبها ، طار قلبي فرحاً وسروراً وهان عليَّ كل شيء في سبيل غبطتها وهنائها .

« نعم إن الضربة التي سأستقبلها شديدة جداً ، لا يقوى عليها قلبي ، ولكني سأحتملها بصبر وسكون ؛ لأن أباك سيصبح راضياً عني ، ولأنك ستعلم في مستقبل الأيام سر تضحيتي ، فتحبني فوق ما أحببتني ! ولأن أختك ستصبح سعيدة مغتبطة بعيشها وحبها ؛ وسيكون اسمي بين الأسماء التي تدعو لها الله في صلواتها بالرحمة والرضوان .

« جاءت الساعة التي أقول فيها لأبيك كلمتي الأخيرة ، ولقد كانت شديدة هائلة أسأل الله أن يغفر لي بما لقيت فيها من الآلام ماضي ذنوبي وآتيها ، كما أسأله ألا يذيق مرارتها قلب امرأة على وجه الأرض من بعدي !

« قمت من مكاني كأنني أنتزع نفسي من الأرض انتزاعاً ، ومشيت إلى أبيك كما يمشي الحائن[1] إلى مصرعه حتى جثوت بين يديه ، وأخذت بيده ، فاستفاق من غشيته ونظر إليَّ ذاهلاً مشدوها ، فقلت له : « أ تعتقد يا سيدي أنني أحب ولدك ؟» قال : « نعم .» قلت : « حبًّا هو منتهى ما تستطيع امرأة أن تحتمل ؟» قال : « نعم .» قلت: « وأن هذا الحب هو كل آمالي وسعادتي ، وما أملك في الحياة ؟» قال : « نعم يا بنيتي .» قلت : « قد ضحيته من أجل ابنتك فعد إليها وبشرها بسعادة المستقبل وهنائه ، وقل لها : إن امرأة لا تعرفك ، ولم

(١) الحائنُ: الذي حان هلاكه .

ترك في يوم من أيام حياتها ، ولكنها تحبك وتشفق عليك ، تموت الآن من أجلك ، فاسألي الله لها الرحمة والغفران .

« فتهلل وجهه بشراً وسروراً ، ولم يدع كلمة من كلمات الشكر والثناء إلا أفضى بها إليّ ، فأنساني سروره واغتباطه ألم الضربة التي أصابت كبدي ، واستحال حزني واكتئابي إلى راحة وسكون ، فحمدت الله على أن لم ير في وجهي في تلك الساعة ما ينغص عليه سروره واغتباطه .

« وهنا شعرت بحركة عند باب الغرفة فالتفت فإذا «برودنس» تشير إليّ بيدها . فذهبت إليها فأعطتني كتاباً جاء به البريد فقرأت عنوانه ، فإذا هو بخط المركيز «جان فيليب» فعلمت ما يتضمنه قبل أن أراه ، و وقع في نفسي أن الله قد أوحى إليّ بما أفعل . فذهبت مسرعة إلى غرفة مكتبي كأنني أخاف أن يعرض لي في طريقي ما يزعزع عزيمتي ، وهناك قرأت الكتاب وكتبت لصاحبه في بطاقة صغيرة هذه الكلمة : « سأتعشى عندك الليلة .» ثم أعطيتها برودنس لتلقيها في صندوق البريد .

« وعدت إلى أبيك فوجدته حيث تركته ، فقلت له : « إن أرمان لا يعلم شيئاً من أمر زيارتك هذه فاكتمها عنه حين تلقاه ، وسأكتب إليه كتاب مقاطعة لايشك في أني صاحبة الرأي فيه ، وأن لا يد لك فيما كان ، وسيعلم اليوم أو غداً أنني قد اتصلت برجل غيره ؛ فيرى أنني قد خنته وغدرت بعهده ، فلا يجد له بداً من أن يسافر معك قاطعاً رجاءه مني ، وربما تألم لهذه الصدمة بضعة أيام أو بضعة أسابيع فلاتحفل بذلك ، فسيبلى حبي في قلبه ، كما يبلى كل حب في كل قلب .

« غير أن لي عندك طلبة واحدة لا أريد منك سواها ، فهل تسمح لي بها ؟» قال : « نعم أسمح لك بكل شيء .» قلت : « إني مريضة مشرفة ، وإن العلة التي أكابدها كثيراً ما يتحدث الناس عنها أنها لا تترك صاحبها طالت أم قصرت حتى تذهب به إلى قبره ، فكل ما أسألك إياه أن تأذن لأرمان في اليوم الذي تعلم فيه أنني قد أصبحت على حافة قبري أن يأتيني لأراه وأودعه الوداع الأخير ، وأعتذر له عن ذنبي الذي أذنبته إليه حتى لا أخسر حبه واحترامه حية وميتة .»

« فنظر إليّ نظرة دامعة ، وقال : « وارحمتاه لك يا بنيتي ، إنني أعدك بما أردت ، وأسأل الله لك الشفاء والعزاء .» ثم حاول أن يعرض عليّ شيئاً من المعونة فأبيت ذلك إباء شديداً ، وقلت له : « إنني لم أبع نفسي يا سيدي بيعاً ، بل وهبتها هبة .» فأخذ رأسي بين يديه وقبلني في جبيني قبلة كانت خير جزاء لي على تضحيتي التي ضحيت بها وودعني ومضى .

« فما ابتعد إلا قليلاً حتى قمت إلى خزانتي ، فجمعت ثيابي وما بقي لي من حلاي ، ووضعتها في حقيبتي ، وسافرت مع بروودنس إلى باريس ، وذهبت إلى منزلي هناك فكتبت إليك فيه ذلك الكتاب الذي تعلمه . والله يعلم كم سكبت من الدموع ، وكم وقف قلبي بين كل كلمة وما يليها أثناء كتابته حتى أتممته ، فأعطيته حارس المنزل وأوصيته أن يسلمه إليك عند مجيئك . ثم ذهبت للوفاء بعهد المركيز .

« أما حياتي مع ذلك الرجل فلا أستطيع أن أقص عليك منها شيئاً سوى أن أقول لك : إنه لم ير فيّ المرأة التي كان يتخيلها ، ويمني نفسه بها ، ولم أر فيه الرجل الذي يؤنسني ويخلط نفسه بنفسي ؛ فافترقنا ، فأصبحت لا أعرف لي في العالم صديقاً صادقاً ، ولا كاذباً .

« هذه قصتي يا أرمان كما هي ، وهذا ذنبي الذي أذنبته إليك . فهل ترى بعد ذلك أني خائنة أو خادعة ؟

« قلبي يحدثني أنني سأموت قبل أن أراك ، وأملي يخيل إليّ أن ما في نفسك من الموجدة عليّ لا يستمر إلى ما بعد الموت ، وأنك ستعود إلى باريس في الساعة التي ينعاني لك فيها الناعي ؛ لتزور قبر تلك المرأة المسكينة التي تولت سعادة قلبك وهناءه حقبة من أيام حياتك ، ثم خرجت من الدنيا فارغة اليد من كل

شيء حتى من حبك وعطفك ، وربما بلغ بك الاهتمام بشأنها أن تحاول معرفة ما تم لها من بعدك إلى أن ذهب بها الموت إلى قبرها .

« فهأنذا أكتب هذه المذكرات ، وأتركها لك عند برودنس لعلك تقرأها في مستقبل الأيام ، فتنظر إليها كما تنظر إلى كتاب اعتراف مقدس قد ألبسه الموت ثوب الطهارة والبراءة ، فتُصدِّق ما فيها وتعفو عني ، فينير عفوك ظلمات قبري ، ويؤنس وحشة نفسي .»

٣ يناير ١٨٥١

« أين أنت يا أرمان ؟ أنت بعيد عني جداً ، بعيد بجسمك وبقلبك ؛ لأنك لم تهمل كتابي الذي كتبته لك ودعوتك فيه لزيارتي وسماع اعترافي الأخير ، إلا لأن ما كان في نفسك من العتب والموجدة عليَّ قد استحال إلى نسيان وإغفال ، فأصبحت لا تذكرني كما يذكر المحب حبيبه ، ولا تعطف عليَّ كما يعطف الصديق على صديقه، فليكن ما أراد الله ولتدم لك تلك السعادة التي تنعم بها بين أهلك وقومك ، فإني غير واجدة عليك ، ولا ناقمة منك شيئاً ، ولا حاملة لك في نفسي إلا الحب والإخلاص والرضا بكل ما تأتي ، وما تدع .

« لي عدة أيام لم أر فيها أحداً من الناس ؛ لأن الطبيب منعني من الخروج ، ولأن أصدقائي الذين كانوا يعرفونني فيما مضى قد أصبحوا يقنعون من زيارتي بإرسال بطاقاتهم إليَّ مع خادمتي ، ثم ينصرفون مسرعين كأنما يفرون من أمر يخيفهم ، ولقد كانوا قبل اليوم إذا أرسلوها لبثوا ينتظرون الساعات الطوال حتى آذن لهم بالمقابلة ، فإذا ظفروا بها طاروا بها فرحاً وسروراً ، وإن حرموها عادوا آسفين محزونين !

« ولا أدري لِمَ لا يقطعون بطاقاتهم كما قطعوا زياراتهم ؟ فإن كانوا يظنون أنهم سيرونني بينهم في مستقبل الأيام صحيحة الجسم طيبة النفس ، أصلح للمعاشرة والمخادنة كما كانوا يعهدونني من قبل ، فهم في ظنهم مخطئون .

« لقد أحسنوا فيما عملوا ؛ فإنني أصبحت لا آنس بأحد في العالم سوى نفسي ، ولا آنس بنفسي إلا لأني أستطيع متى خلوت بها أن أسائلها عنك فتذكرني بك وبتلك الأيام السعيدة التي قضيتها معك في بوجيفال ، وذكرى تلك الأيام هي العزاء الباقي لي عن جميع ما خسرت يدي .

« ما كنت أظن يا أرمان أن جسم الإنسان يحتمل كل هذه الآلام التي أكابدها ، فلقد تمر بي ساعات أعتقد فيها أن الألم الذي أكابده إنما هو ألم النزع ، وأنني في الساعة الأخيرة من ساعات حياتي ، فإذا استفقت قلت في نفسي : هذا ألم المرض ، وقد عجزت عنه ، فمن لي باحتمال ألم الموت ؟

« على أن نفسي تحدثني أحياناً أنه إن قدر لي أن أراك بجانبي في يوم من الأيام برئت من مرضي ، وتراجعت نفسي وعدت إلى راحتي وسكوني ، فهل يقدر لي الله ذلك ؟

« لا أعلم ؛ فالمستقبل بيد الله فليقدر الله ما يشاء وليفعل ما يريد .»

٢٤ يناير ١٨٥١

« لم أفارق سريري منذ أيام طوال إلا صباح هذا اليوم ، فجلست قليلاً بجانب نافذتي ، وأشرفت منها على الحياة العامة ، فوقع نظري على كثير ممن كنت أعرفهم من قبل سائرين في طريقهم لاهين مغتبطين، ولم أر بينهم من وقع نظره إلى نوافذ غرفتي مرة واحدة كأنما يمرون ببيت لا يعرفونه ، ولا عهد لهم به من قبل .

« ما أشد وحشتي ! وما أضيق صدري ! وما أثقل هذا الجدار الذي يدور حولي !

« لا أطيق النظر إلى سريري ؛ لأن نفسي تحدثني أنه سيكون عما قليل سلم قبري ، ولا الوقوف أمام مرآتي ؛ لأنها تحدثني عن نفسي أسوأ الأحاديث وأشأمها ، ولا الإشراف من نافذتي لأنها تذكرني بحياتي الماضية السعيدة التي حيل بيني وبينها ، فأين أذهب وكيف أعيش ؟

« لا آكل إلا طعاماً واحداً ، ولا أرى إلا منظراً متكرراً ، ولا أسمع إلا صوت طبيبي وخادمتي حينما

يسألها عني صباح كل يوم ومساءه فتجيبه بجواب واحد ، حتى مللت وسئمت ، وأصبحت أشعر أن نفسي سجينة في صدري ، سجن جسمي في غرفتي ، وربما مرت بي ساعات يقف فيها ذهني عن التفكير وخاطري عن الحركة ، وينقطع ما بيني وبين يومي وأمسي وغدي وكل شيء في الحياة حتى نفسي .

« السعال يهدم أركان صدري هدماً ، والنوم لا يلمُّ بعيني إلا قليلاً والطبيب يعذبني بمشارطه وضِماداته [1] عذاباً أليماً ، وكل يوم أشعر أن نفسي يزداد ضيقاً ، وبصري يزداد ظلمة ، وأن الحياة تبعد عن ناظري شيئاً فشيئاً ، حتى أكاد أحسبها شبحاً من الأشباح النائية فمتى ينقضي عذابي ؟!»

٣٠ يناير ١٨٥١

« سمعت صباح اليوم لجباً كثيراً في فناء المنزل ، فسألت برودنس : « ما الخبر ؟» فذهبت وعادت إليَّ تبكي ، وتقول : « إنهم يحجزون أثاث المنزل ياسيدتي .» فقلت : « دعيهم يفعلوا ما يشاؤون .» وما هي إلا لحظات قليلة حتى دخلوا غرفتي مندفعين متصايحين ، ولم يمر بخاطر واحد منهم أن يرفع قبعته عن رأسه احتراماً لصاحبة المنزل ، أو يخفض صوته إشفاقاً على المريضة المعذبة . فمشوا يسجلون كل ما وقع نظرهم عليه ، وخفت أن يسجلوا دفتر مذكراتي فأشرت إلى برودنس أن تخفيه عنهم ففعلت ، فحمدت الله على ذلك . ثم وصلوا إلى سريري فطلب أحد الدائنين حجزه ، وقال إنه ثمين ، سيكون له يوم البيع شأن عظيم ، فأفهمه الحاجز أن القانون يستثني الأسرة وفرشها ، وألقى في أذنه كلمة أحسب أني سمعته يقول فيها : « إنك تستطيع أن تفعل ذلك بعد موتها !» ثم انصرفوا بعدما تركوا على باب بيتي حارساً لا يفارقه ليله ونهاره .

« فكتبت إلى « الدوق موهان » . وهي أول مرة كتبت إليه فيها أستغفره ذنبي الذي أذنبته إليه ، وأشكو له ما نالته يد الأيام مني وأستحلفه بذكرى ابنته الكريمة عليه أن يأتي لزيارتي ، ففعل فبكى عندما رآني ، ولا أدري هل بكاني أو ذكر عند رؤية مصرعي مصرع ابنته الأخير فبكاها ، ثم قضى بجانب فراشي ساعة مطرقاً صامتاً لا يحدثني إلا قليلاً ولا يذكر الماضي بكلمة واحدة ، ثم ذهب وترك في يد برودنس ضمة أوراق ، استبقت بعضها للنفقة واستعانت بباقيها على تأجيل بيع الأثاث بضعة أشهر .

« لا أستطيع أن أكتب إليك اليوم أكثر مما كتبت فإن الطبيب ما زال يلح على جسمي بالفَصْد حتى أوهاه واستنزف دمه ، فأصبحت لا أتحرك حركة إلا شعرت بألم عظيم .»

٢ فبراير ١٨٥١

« إن هذا اليوم أسعد أيامي وأهنؤها ، فقد وصل إليَّ من أبيك كتاب هذا نصه :

« « سيدتي :

« « إني أتوجع لك توجعاً شديداً ، فقد علمت بالأمس من بعض الوافدين إلى «نيس» أنك مريضة مرضاً شديداً منذ شهرين ، وأنك لا تخرجين من منزلك إلا قليلاً ، فأسأل الله لك الشفاء والعزاء ، وأضرع إليه أن يجزيك خيراً بما قاسيت من الآلام والأوجاع في سبيلي وسبيل ابنتي . وأبشرك أن الله قد تقبل قربانك الذي قدمته إليه ، فإن سوزان قد تزوجت من خطيبها منذ عشرين يوماً وأصبحت هانئة بحبها وعيشها كما أردت لها ، وإنها وإن لم تكن تعلم من أمر تلك القصة التي نعلمها شيئاً فقد قلت لها : إن بعض الناس – ولم أسمه لها – قد ضحى بنفسه وبسعادته في سبيل سعادك وهنائك ، فلا تتركي الدعاء له في جميع صلواتك بجزيل الأجر وحسن المثوبة ، فهي لا تزال تدعو لك صباحها ومساءها أن يحسن الله إليك كما أحسنت إليها .

« « أما الكتاب الذي أرسلته إلى أرمان في أوائل الشهر الماضي فلم يصل إليه إلا اليوم ؛ لأنه منذ فارقك وسافر إلى «نيس» لم يستطع البقاء فيها إلا

---

[1] المشارط: جمع مِشْرَط ، وهو ما يشرط به الجلد لاستفراغ الدم . والضِّمادات: العصابات توضع على العضو المجروح أو المكسور.

بضعة أيام ، ثم رحل عنها إلى الشرق حزيناً مهموماً من أجلك ، وكنت لا أعرف الجهة التي يقيم فيها ، فلم أستطع أن أرسله إليه حتى عرفتها منذ أيام قلائل فأرسلته وأرسلت معه كتاباً أطلعه فيه على قصتك ، وأقول له إنني لا أرى مانعاً يمنعني بعد زواج أخته من أن آذن له بالسفر إلى باريس والبقاء فيها ما شاء أن يبقى ، وأحسب أنه يصل إليك في عهد قريب .

« « أرسلت إليك مع كتابي هذا عشرة آلاف فرنك أرجو أن تقبليها مني ، وأن تنظري إليها بالعين التي تنظر بها الفتاة إلى هدية أبيها الذي يحبها ويجلها ، فإن فعلت أحسنت إليّ بذلك إحساناً عظيماً .

« لي الأمل أن أسمع عما قليل خبر شفائك ، وأرجو أن أراك في مستقبل الأيام ناعمة بصحتك وسعادتك .»

« دوفال »

« فما قرأته حتى شعرت بهزّة من السرور في قلبي ، لم أشعر بمثلها مذ فارقتك حتى اليوم ؛ فقد علمت أن سوزان قد تزوجت ، وذلك ما كنت أرجو لها ، وأنك لاتزال تحبني، وقد أخاف نسيانك أكثر مما أخاف عتبك ، وأنني سأراك عما قليل ، وتلك آمالي في الحياة .

« أما الهَدية التي أرسلها إليّ أبوك فقد نظرت إليها بالعين التي أرادها ؛ فقبلتها شاكرة له حامدة ، أحسن اللّه إليه كما أحسن إليّ .»

٣ فبراير ١٨٥١

« استطعت أن أنام ليلة أمس أكثر من كل ليلة ؛ لأن السرور الذي تركه كتاب أبيك في نفسي شغلني عن كل شيء حتى عن ألمي ، وفي الصباح قال لي طبيبي إنك اليوم خير منك في كل يوم ، وإن الشمس مشرقة ، والهواء فاتر عليل ، فاخرجي في مركبتك إلى بعض المتنزهات ساعة ، ثم عودي .

« فخرجت إلى غابات « الشانزلزيه » فرأيتها زاهرة بالحياة والجمال ، ورأيت الناس فيها ضاحكين متهللين مغتبطين بسعادة لا يعرفون قيمتها كما تعرفها امرأة محرومة منها مثلي ، فلم أحسدهم على نعمتهم التي آتاهم اللّه ، بل دعوت لهم ببقائها ودوامها ، إلا أنني حزنت على نفسي حزناً شديداً حينما رأيت أن كثيراً من معارفي الماضين قد مروا على مقربة مني ، ولم يعرفوني ، ورأيت أحدهم ينظر إليّ ، وقد مر بجانب مركبتي نظر المتخيل المتوهم ، ثم لم يلبث أن لوى وجهه عني ومضى لسبيله ، وقد استقر في نفسه أنه يرى امرأة غير المرأة التي يعرفها .

« فعلمت أني قد تغيرت تغيراً عظيماً ، وأن مرآتي ما كانت تكذبني حينما تحدثني عن نحولي واصفراري ، واستحالة صورتي ، بل صدقتني كما صدقني الناس .

« ثم رأيت الشمس قد توارت وراء حجابها فعدت إلى منزلي ، وقد زال من نفسي ذلك الخاطر الذي أحزنني ، وحل محله خاطر آخر خير منه ، وهو أنني سأراك عما قليل .

« وسينقضي بلقائك عهد بؤسي وشقائي .»

٧ فبراير ١٨٥١

« ما أحسب أنك مدركي يا أرمان ، فقد بلغت بي العلة منتهاها وأصبحت لا أجد الراحة في قيام ولا قعود ، ولا نوم ولا يقظة ، وانتشرت الآلام والأوجاع في جميع أعضائي ومفاصلي ، وكأن حجراً من الأحجار العاتية ممتد على صدري يمنعني التنفس والحركة ، وقد عجزت اليوم عن أن أنتقل من سريري إلى مكتبي ، فأمرت برودنس أن تأتني بمحبرتي ودفتري حيث أنا ، فجاءت بهما إليّ ، فأنا الآن أكتب إليك وأنا في فراشي؛ فمتى أراك يا أرمان لأحيا برؤيتك أو أودعك قبل أن أموت ؟»

١٠ فبراير ١٨٥١

« أملي في الحياة ضعيف جداً ، ها هو الموت يدنو مني رويداً رويداً ، لم تأت إليّ حتى الساعة يا أرمان ، وأظن أني سأموت قبل أن أراك ، إن الموت مخيف جداً يملأ قلبي رعباً وهولاً ، لا أعلم كيف أستطيع أن أسكن وحدي تلك الحفره الموحشة المظلمة التي لا أنيس لي فيها ولا سمير ، لم أتمتع بالحياة طويلاً

وكانت كل سعادتي فيها آمالاً وأحلاماً ، وهأنذا أموت قبل أن أرى شيئاً من آمالي وأحلامي .

« ما أحلى الحياة وأمرّ فراقها ، لم أنل منها طائلاً ، ولكني لا أحب أن أتركها ، لقد سعد الذين يُعَمَّرون في الحياة طويلاً ، ثم يموتون فيتركون من بعدهم ذرية صالحة أو عملاً طيباً يعيشون به بعد موتهم زمناً أطول مما عاشوا . أما أنا فإني سأموت في ربيع حياتي ، وسيموت ذكري في الساعة التي أموت فيها ، وكأني لم أعش في الحياة يوماً واحداً ، وا أسفاه على ما فرطت في حياتي الماضية ، إنني أدفع اليوم ثمن ذنوبي وآثامي أضعافاً مضاعفة !

« لقد كنت أستطيع أن أقنع بالمضغة والجرعة ، ولا أمدُّ عيني إلى ما تقصر عنه يدي فلم أفعل ، فها أنذا لا أسيغ المضغة ولا الجرعة ولا أجد السبيل إلى العيش على أية صورة كانت .

« أ هكذا أخرج من الدنيا غريبة عنها كما دخلت فيها لا يحضر موتي قريب ، ولا يبكي عليَّ صديق ؟! أ هكذا تنتهي حياتي في الساعة التي أحببتها فيها وأصبحت على مرحلة واحدة من أحلامي وآمالي ؟!

« آه لو يمهلني الموت قليلاً فربما كنت على مقربة مني ، فأنظر إليك نظرة واحدة ثم أموت . لا أمل لي في ذلك ؛ فقد رأيت طبيبي صباح اليوم يلقي في أذن خادمتي وهو خارج من عندي كلمة ، فسألتها عنها فدارت حولها ولم تقلها ، وما أحسبها إلا تلك الكلمة الهائلة . لا أكاد أبصر شيئاً مما حولي حتى بياض الصحيفة التي في يدي . كنت قبل اليوم أنفث الدم وحده ، والآن أنفث أفلاذ رئتي مصبوغة بالدم .

« من لي بكأس من السم أشربها جرعة واحدة فأستريح من هذا العذاب الذي يساورني ، ولكن أي فائدة لي من ذلك ، وها هو ذا الموت يمشي إليّ بأسرع مما أمشي إليه ؟ رحمتك اللهم وإحسانك ، فأنت وحدك العالم بمقدار ألمي وعذابي ، فارحمني وهون عليَّ أمري ، وامنحني إحدى الراحتين .

« لا أرى شيئاً ، ولا أعرف ماذا أقول ، وربما كانت هذه الكلمات آخر ما تخطه يدي !»

١٤ فبراير ١٨٥١

« لا تحزن عليَّ كثيراً بعد موتي يا أرمان ، فحسبي منك أن تذكرني ولا تنساني ، وأبشرك أن الله قد استجاب لدعائي ؛ فألقى في نفسي منذ الأمس برد الراحة واليقين ، ومحا من قلبي جميع مخاوفه ووساوسه ، فعلمت أنه قد رضي عني ، وغفر لي ذنبي ، وأصبحت لا أخشى الموت ولا أخاف بعده ، ولا أجزع من الألم ، ولا أبكي أسفاً على الحياة ، فلا يحزنك أمري حين تعلمه ، وعش سعيداً بين قومك ، وأهلك ، وأكرم أباكَ فهو خير الآباء وأحبب أختك فهي أطهر الفتيات ، وأوصيك خيراً ببرودنس فهي فتاة طيبة القلب ، عظيمة الإخلاص لي ولك ، وأخاف أن يتنكر لها الدهر من بعدي .

« إن الله قد خلق لكل روح من الأرواح روحاً أخرى تماثلها وتقابلها ، وتسعد بلقائها وتشقى بفراقها . ولكنه قدر أن تضل كل روح عن أختها في الحياة الأولى . فذلك شقاء الدنيا ، وأن تهتدي إليها في الحياة الثانية . وتلك سعادة الآخرة .

« فإن فاتتني سعادتي بك في الأرض ، فسأنتظرها في علياء السماء !»

وهنا كتبت بعض كلمات مضطربة ، قد محا الدمع أكثرها فلم يبق منها واضحاً بعض الوضوح إلا كلمة « الوداع » !

***

بقية المذكرات
بقلم الخادمة برودنس

١٤ فبراير ١٨٥١

« لم تستطع مرغريت يا سيدي ، أن تكتب لك أكثر مما كتبت ؛ لأن الطبيب منعها الحركة ، ولو أرادتها لعجزت عنها .

« أ تذكر يا سيدي ذلك الجسم الغض الناعم ، الذي كان يموج بالنور موجاً ويشرق وراء بشرته إشراق الخمر في كأسها ؟ لقد أصبح اليوم عظماً مجلداً وهيكلاً قائماً لا يساوي ثمن النظر إليه !

« وا رحمتاه لك ! لقد مات كل شيء فيها إلا قلبها وشعورها ، وليتهما ماتا معها ؛ فإنه لا يعذبها شيء مثل خواطرها وأفكارها !

« لا يدخل من باب غرفتها داخل ، حتى ترفع نظرها إليه تظن أنك قد جئتها ، فإذا دنا منها ورأته أطبقت جفنيها على دمعة تنحدر من بينهما بالرغم منها .

« إنها لا تتكلم كثيراً فإذا تكلمت كان أول حديثها : « أ لم يأت أرمان ؟» فإذا أجبتها أن لا ، سألت عن أمر آخر تتلهى به ، أو عادت إلى صمتها مرة أخرى .

« لقد رابها اليوم أن طبيبها لم يأتها ، فلما أردت أن أعتذر لها عنه لم تصدقني ، وقالت : « الآن عرفت كلمته التي ألقاها إليك بالأمس .» فسكتُّ ، ولم أعرف ماذا أقول .»

١٤ فبراير ١٨٥١

« أصبح اليوم صوتها ضعيفاً جداً لا أكاد أسمعه، وأظلم بصرها فهي تنظر إليّ ولا تراني ، وقد أشارت إليّ في الصباح مراراً أن أفتح لها نوافذ الغرفة لتستنشق الهواء وتروح عن نفسها ، ونوافذ الغرفة مفتوحة يجري منها الهواء متدفقاً ، ولكنه لا يصل إلى صدرها .

« آه لو أستطيع يا سيدي أن أبيع حياتي لأشتري لها بضعة أنفاس تتردد في صدرها ، أو بعض سنات من النوم تأوي إلى جفنها ، فإن تنفسها يؤلمني ويعذبني عذاباً شديداً ، وقد مرت بها ثلاث ليال لم تنم فيها لحظة واحدة !»

١٥ فبراير

« بعد صمت طويل لم تنطق فيه بحرف واحد فتحت عينيها ، ونادتني بصوتها الخافت الضعيف فدنوت منها ، فقالت لي : « أريد الكاهن فأتيني به .» فعلمت أنها قد أصبحت على يقين من أمرها ؛ فغالبت عبراتي حتى خرجت من الغرفة ، فبكيت ما شاء الله أن أفعل ، ثم ذهبت إلى الكاهن فتردد عندما ذكرت له اسم المرأة التي يريد الذهاب إليها ، فضرعت إليه وقلت له : « إن رحمة الله يا سيدي لا يستحقها أحد مثل الآثمين المسرفين .» فأذعن بعد لأي وجاء معي فخلا بها ساعة ثم خرج ، فسألته :

« أ يرحمها الله يا سيدي ؟» قال : « إنها عاشت عيش الآثمين ، ولكنها ستموت موت المؤمنين .» فحمدت الله على ذلك .

« ومنذ تلك الساعة لم أعد أسمع منها كلمة واحدة ، ولا أرى عضواً من أعضائها يتحرك ، إلا ما كان في صدرها يترجح بين الصعود والهبوط .»

١٥ فبراير – ساعة الغروب

« إن مرغريت تتعذب كثيراً يا سيدي ، وأحسب أنها تعالج سكرات الموت .

« لم يقاس إنسان في حياته مثل ما تقاسيه الآن من آلامها وأوجاعها . إنها تصرخ من حين إلى حين صرخات تذوب لها حبات القلوب .

« ولقد اشتد بها الألم الساعة فهبت من مكانها صارخة ، وانتصبت على قدميها في سريرها حتى كادت تسقط عنه ، فأدركتها وأضجعتها في مكانها ، ففتحت عينيها فسقطت منهما دمعتان كبيرتان ، وكأنما أحست بي فاعتنقتني وضمتني إليها ضمًّا شديداً ، ثم ما لبثت أن تراخت يداها وعادت إلى نزاعها وجهادها .»

١٥ فبراير – نصف الليل

« قُضي الأمر وماتت مرغريت ، ولم يبق منها على سريرها إلا جثتها التي ستذهب غداً إلى قبرها ، تلك غايتها وغاية كل حي ؛ فصبراً على قضاء الله وبلائه !

« لقد هتفت باسمك كثيراً يا سيدي في ساعتها الأخيرة ، وكان آخر عهدها بالحياة أن نظرت إليّ نظرة طويلة مملوءة حزناً ودموعاً ! ثم حركت أصبعها حركة خفيفة ، وأشارت إلى دفتر مذكراتها الذي

كان ملقى بجانبها وقالت : « أرمان » ففهمت أنها توصيني أن أبلغه إليك ، ثم أسلمت روحها .

« عزيز عليَّ يا سيدتي ما لقيت من العذاب قبل موتك، وعزيز عليَّ أن تموتي ، ولا تجدي بجانبك من يغمض عينيك ويلقي رداءك عليك سواي ! وفي سبيل الله تلك النفس الطاهرة الكريمة التي ما حملت في حياتها شراً لمحسن ، ولا لمسيء ، وذلك الصدر الرحب الذي كان يسع الدنيا بأرضها وسمائها فلايضيق عنها ، وذلك القلب النقي الأبيض الذي ما أضمر في حياته غير الخير أو الإحسان ، ولا فاض إلا بالرحمة والحنان .»

بكت برودنس بجانب جثة سيدتها ما بكت ، ثم أنارت حولها الشموع ، وبعثت إلى الكاهن فجاء وجثا عند رأسها يقرأ في كتابه ، ومشت هي إلى المكتب فجلست إليه تكتب آخر مذكراتها حتى فرغت منها .

ثم قامت من مكانها فراعها أن رأت شبحاً ماثلاً على باب الغرفة ، فمشت إليه فإذا هو أرمان في لباس السفر ، وقد ألقى من مكانه على سرير الميتة نظرة غريبة هائلة كتلك النظرة التي تسبق صرعات الجنون، ثم استردها وألقاها عليها ، وسألها :

« من هذا المسجى على هذا السرير ؟» فبكت برودنس ولم تقل شيئاً ، فسقطت حقيبته من يده ، وجمد في مكانه لحظة لا ينطق ولا يتحرك .

ثم اندفع إلى سرير الميتة صارخاً يريد أن يلقي بنفسه عليه ، فأدركته برودنس و وقف الكاهن في وجهه ، وقال له :

« احترم الموت أيها الفتى .» فاختنقت عبراته في صدره وارتعد ارتعاداً شديداً وسقط مغشيًّا عليه .

فلم يستفق إلا مطلع الفجر حينما شعر أنهم قد أقبلوا يحملون الجثة ، فقام يتحامل على نفسه حتى دنا من السرير، وقال :

« رحمة بي أيها الناس ؛ فقد فاتني أن أودعها ، وهي حية ، فأذنوا لي أن أودعها ميتة .»

فرحموه وأفرجوا له عنها حتى داناها ، ورفع الغِطاء عن وجهها وقبلها في جبينها ، وقال :

« الوداع يا أعز الناس عندي ! الوداع يا خير فتاة في الأرض وأشرف روح في السماء !» ثم أعاد الغطاء على وجهها ، وتراجع عنها وأذنهم بحملها .

ثم مشى وراء نعشها يبكي وينتحب ، ولم يمش وراء النعش غيره وغير الخادمة برودنس ، والدوق موهان، وهو يتوكأ على عصاه ، ويقول في ندبه وبكائه :

« هأنذا أرى ابنتي تموت أمامي مرة أخرى ، ولا أزال حتى الساعة على قيد الحياة ، وبعض نسوة بائسات من ضحايا تلك المقادير .»

وما انقضى النهار حتى انقضى كل شيء ، وأصبحت مرغريت رهينة قبرها ، وأرمان طريح فراشه يقرأ في مذكراتها ويبكي بكاء الثاكل المفجوع .

ثم اشتد به المرض بعد ذلك ، فلم تر برودنس بداًّ من أن تكتب إلى أبيه تشرح له سوء حاله ، فحضر وحضرت معه ابنته وزوجها ، ولبثوا بجانبه شهراً يعللونه ويشتفون له ، حتى أَبَلَّ ونجا من خطره .

ثم ذهبوا جميعاً إلى قبر مرغريت ليودعوها قبل سفرهم ، فبكوا حوله بكاء شديداً ، وكانت سوزان أشدهم بكاء عليها ، وإن كانت لا تعلم أنها تبكي المرأة التي ضحت بنفسها في سبيلها .

ثم تقدم المسيو دوفال إلى ولده ، وقال له :

« أ تغفر لي ذنبي يا بنيَّ ؟»

قال : « نعم يا أبتاه لأنها غفرت لك ذنبك إليها .» ثم انصرفوا .

مرت الأيام وانقضت الأعوام ، ومات المسيو دوفال ، وسعد ولده كما أراد له أبوه ، ولكن بقيت بين جنبيه لوعة معتلجة ، لا يروحها عنه كلما ساورته إلا قراءة مذكرات مرغريت ومحادثة برودنس عنها وزيارة قبرها من حين إلى حين .

***

الفضيلة

أو

بول وفرجيني

إهداءُ الرِّواية

يُعجبني من الفَتى الشَّجاعةُ والإقْدامُ ، ومن الفَتاةِ الأدبُ والحَياء ، لأنَّ شجاعةَ الفَتى مِلاكُ أخلاقهِ كلِّها ، ولأنَّ حَياءَ الفتاةِ جَمالُها الَّذي لا جَمالَ لها سِواهُ ، فأنا أهْدي هذه الرِّوايةَ إلى فِتْيانِ مصرَ وفَتَياتِها ؛ ليستفيدَ كلٌّ من فريقَيْهِما الصِّفةَ الَّتي أحِبُّ أنْ أراها فيه ، وليضَعا حياتَهُما المُستقْبَلَةَ على أساسِ الفَضيلةِ كما وضَعها : پول و ڤرجيني .

مصطفى لطفي المنفلوطي

(١)
جزيرة موريس*

هي إحدى الجزر الإفريقية الواقعة في المحيط الهندي على مقربة من جزيرة «مدغشقر» ، وعلى مدى غير بعيد من جزائر «سيشيل» ، وهي جزيرة قفراء بلقع إلا قليلا من السكان السود متفرقين في جبالها وغاباتها ، يستعبدهم بضعة أفراد من المهاجرين الأوروبيين النازلين بينهم ، ويسخِّرونهم في حراثة الأرض واستنباتها واستخراج معادنها واستنباط أمواهها وتقليم أشجارها ، كما هو شأن المستعمرين الأوروبيين في جميع الأصقاع التي يعيشون فيها .

يرى المقبل على هذه الجزيرة شرقيَّ الجبل القائم خلف عاصمتها « پور لويس » وادياً مستطيلاً مُسَوَّراً بسور طبيعي من الآكام [١] والصخور ، قد تراءت في وسطه أطلال كوخين دارسين ، لم يبق منهما إلا أنصاف جدرانهما ، وبضعة جذوع ناخرة سوداء متناثرة حولهما . ويرى الأرض المحيطة بهما مختلفة الألوان ما بين سوداء وخضراء وصفراء ، مختلفة السطوح ما بين أنجاد [٢] وأغوار ، وأحافير [٣] وأخاديد ، ومتعرجات ومستدقات ، إلى كثير من الجداول والغدران القائمة والمتداعية ، كأنما كان يعيش فيها ، قبل اليوم ، قوم يتولّون حرثها وزرعها وتقسيمها وتخطيطها ، ثم ضربها الدهر بضرباته فرحل عنها ساكنوها ، أو رحلوا عن العالم أجمعه .

ولم يكن لذلك الوادي على اتساعه وانفراجه إلا فجوة [٤] واحدة من ناحيته الشمالية ، وعلى يساره ذلك الجبل العظيم الذي يسمُّونه جبل الاستكشاف ؛ لأنهم كانوا يرقبون من قمته السفن القادمة إلى الجزيرة ، وبسفحه تقع مدينة « پور لويس » ، قصبة الجزيرة ومقر حاكمها الفرنسي ، وهي مدينة صغيرة نصف متحضرة ، يتفرَّع من يمينها طريق لاحب [٥] عريض ينتهي بضاحية «پَمْبَلْموس» .

وهناك الكنيسة المسماة بهذا الاسم قائمة بمماشيها المتدرجة المتصاعدة المحفوفة بأشجار الخيزران وسط أفْيَحَ فسيح ، ثم الحرجات والآجام بعد ذلك منبسطة ممتدة إلى ساحل البحر ، حيث يرى هنا خليج « تومبو » أي خليج القبر ، وعلى يمينه رأس يسمى «كاب ماليرو» أي الرأس البائس ، ثم الخضم الفسيح بعد ذلك تنتشر على صفحته عدة جزر صغيرة مقفرة ، كأنها السفن السابحة على سطح الماء ، وأكبر ما فيها جزيرة «كوان دمير» تتهادى بينها كأنها البرج العظيم .

ولا يزال يَسمع المقبل على ذلك الوادي حين يدنو منه عصف الرياح الضاربة في بطون الجبال وأحشاء الغابات وذوائب الأشجار ، ودمدمة [٦] الأمواج المتوثبة على صخور الشاطئ وهضابه ، حتى إذا وصل إلى مكان الكوخين انقطع عن سمعه كل شيء ؛ فلا يحس إلا صدًى ضعيفاً لحفيف سعف النخل ، ولا يسمع إلا وسوسة الأمطار المتساقطة برفق ولين على رؤوس الصخور الملساء ، فترسم على جوانبها المكسوة بالطحلب ألوان الطيف [٧] ، ثم تنحدر عنها متسلسلة إلى حيث تسقي أحواض الأزهار المهملة ، التي لا تمتد إليها يد ، ولا يقتطفها مقتطف ، ثم تفضي بعد ذلك إلى الغدران والأفنية فتمدها بالجَمّ الكثير من أمواهها ، وإلى خمائل الأشجار ولفائف الأعشاب ، فتنسرب في أحشائها انسراب الأفاعي الرقطاء في بطون الرمال . ولا يرى بين يديه إلا هضاباً شماء قد نبتت في سفوحها وعلى قممها وبين فروجها مجاميع الأشجار الباسقة ، التي تعابث أشعة الشمس أوراقها الخضراء المترعرعة وتكسوها بما شاءت من ضروب الألوان ؛ ذهبيها وفضيها ، وأرجوانيها وناريها .

---

* جزيرة موريشيس .

(١) الآكام: جمع أكمة، وهي التل .

(٢) الأنجاد: جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض وصلُب .

(٣) الأحافير: ما حُفِرَ من الأرض . (٤) الفجوة: الفتحة .

(٥) اللاحب: الواضح . (٦) دَمْدَمَةُ الأمواج: ضجيجها .

(٧) ألوان الطيف: هي الألوان المنحلة عن أشعة الشمس .

ولا تنحدر إلى قاع الوادي وتنبسط في أرجائه إلا وقت الظهيرة ، فإذا أدبر النهار وطفلت [١] الشمس للإياب ، كان منظر الأصيل أبدع منظر رآه الرائي في جمال ألوانه ، وانسجام ظلاله ، ورقة أضوائه ، وتلهُّب أفقه ، وذهاب العين بين أرضه وسمائه في أبهى من الحلة السِّيَراء [٢] والروضة الغناء .

فإذا انحدرت الشمس إلى مغربها خيم السكون على كل شيء من ماء وهواء ، وكوكب ونجم ، واستحال المنظر إلى وحشة مخيفة كوحشة القبور ، لا نأمة فيها ولا حركة ، ولا بارق ، ولا خافق .

* * *

(٢)
الشيخ

كان يلذ لي كثيراً أن أختلف إلى هذا المكان الجميل صباح مساء ، وأن أستريح إلى منظره الهادئ الساكن . فإني لجالس ذات يوم على صخرة من صخوره العالية ، أقلب الطرف بين أرضه وسمائه ، وأفكر في شأن هذين الكوخين الدارسين ، وفيما تنطق به آياتهما من العظات والعبر وآثارهما من الأحاديث والسير ؛ إذ مر بي شيخ هرم من سكان تلك الجزيرة ، قد نيِّف على السبعين من عمره ، يعتمد على عصا عجراء [٣] في يده ، ويلبس سراويل واسعة وصِداراً ريفيًا بسيطًا ، وقبعة عريضة من الخوص ، كشأن سكان تلك الأصقاع [٤] ، وله شعر أبيض مستطيل مسترسل على كتفيه ، وقد تلألأ وجهه الأبيض النحيف الضارب إلى السمرة بذلك النور الساطع الذي يتلألأ دائماً في وجوه الريفيين الأتقياء ؛ نور البساطة والطهارة ، والنبل والشرف ، فأنست به وبمنظره الجميل الأنيق .

وبدأته بالتحية فرفع رأسه إليَّ متوسماً وألقى عليَّ نظرة هادئة مطمئنة ، ثم رد تحيتي رداً جميلاً ، وكأنما شعر لي بمثل الذي شعرت له به من العطف والود ، فأقبل نحوي باسماً متهللاً .

وجلس على صخرة محاذية للصخرة التي أجلس عليها ، وألقى عصاه تحت قدميه و وضع قبعته بجانبه ، فأقبلت عليه ، وقلت له :

« لعلك تعيش في هذه الجزيرة يا سيدي منذ زمن طويل ؟»

قال : « نعم طويت فيها رداء شبابي ، وها أنذا أطوي فيها رداء شيخوختي ، وستبرد عظامي غداً تحت صخورها وجنادلها .»

قلت : « هل لك أن تحدثني قليلاً عن شأن هذين الكوخين الدارسين ، وعمن كان يسكنهما قبل أن تعبث بهما يد البلى ، وتعصف بهما عواصف الدهر وأرزاؤه ؟»

فوجم قليلاً وظل صامتاً لا يقول شيئاً ، وقد انتشرت على جبينه اللامع المتلألئ غمامة رقيقة من الهم والاكتئاب ، ثم تنهّد تنهدة طويلة ، اختلجت لها أعضاؤه وقال :

« نعم يا بني . إن هذا الوادي الذي تراه اليوم خراباً يباباً [٥] ، لا يمر به المار إلا ليقف على ربوعه وأطلاله وقفة المتأمل المعتبر ، كان منذ عشرين عاماً روضة غناء ، يعيش فيها أقوام سعداء بأخلاقهم وفضائلهم ما كان يخطر ببالهم ، ولا ببال من يراهم أن مصيرهم سيكون هذا المصير الذي تراه اليوم .

« وإن قصتهم لقصة غريبة مؤثرة تستثير الأشجان وتستذرف الدموع ؛ إلا أن أبطالها ليسوا ملوكاً ، ولا قادة ، ولا من أصحاب القصور والدور ، والحدائق والبساتين ، والمسارح والملاعب والوقائع العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، كما هو شأن أبطال الروايات التي تقرؤونها ، بل قوم فقراء مغمورون تقتحمهم

(١) طفلت الشمس: أي دخلت في الطفل، أي الأصيل .
(٢) السِّيَراء: المخططة .
(٣) عصا عجراء: ذات عَجَر، أي عقد في وسطها
(٤) الأصقاع: جمع صقع، وهو الناحية .
(٥) اليباب: الخالي، الذي لا شيء فيه .

العيون وتتخطاهم الأنظار .

« ومن كان هذا شأنهم لا يحفل بهم أحد من الناس ، ولا يُعنى بسماع شيء من أخبارهم وتواريخهم ؛ لأن الناس لا يستطيعون أن يفهموا السعادة من الطريق الذي ألفوه واعتادوه ؛ فهم لا يصدقون أن قوماً فقراء متقشفين يعيشون في أرض قفرة جرداء ، منقطعة عن العالم بأجمعه ، قد استطاعوا أن يكونوا سعداء من طريقة الفضيلة والبساطة .»

فأكبرت الرجل في نفسي وأعظمته ، وعلمت أنه يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة سامية ، تختلف صورتها عن صورة هذه الأسمال الحقيرة التي يلبسها ، وقلت له :

« نعم يا سيدي ، إنني أعترف لك أننا – معشر الأوروبيين – لا نفهم من معنى السعادة إلا ذلك المعنى الذي تقوله ، ولا نعجب بالقصة إلا إذا كان أبطالها أولئك الملوك الظلمة ، والقواد السفاكين ؛ ولكننا نستطيع أن نصغي في بعض الأحايين بلذة وسرور إلى أحاديث الفقراء والبائسين .

« ومهما بلغت القسوة بالقلب الإنساني وغمرت الشهوات شعوره و وجدانه ، فلا بُدَّ أن تهب عليه من حين إلى حين نفحة من نفحات الفطرة الإلهية ، تنعشه وتوقظ شعوره ؛ فيستطيع أن يعود إلى نفسه قليلاً ، وأن يفهم أن في العالم صنوفاً من السعادة التي لا يعرفها ولا يألفها ، وربما أكبرها وأعظمها وتمناها لنفسه و ودَّ لو طال استمتاعه بها .

« فقص عليَّ قصتك يا سيدي ، فما أنا ، لو علمت ، إلا رجل بائس مسكين قد أخطأته السعادة حيث طلبها ، من المدن والحواضر ، بين الدور والقصور ، فلعله يجدها في القفر الموحش ، بين الهضاب والصخور .»

فوضع يده على جبينه المغضّن[1] ، كأنما هو يفتش في طياته عن بعض الذكريات القديمة ، أو يستجمع ما تفرق من شواردها ، وأنشأ يحدثني ، ويقول :

* * *

(٣)

مدام دي لاتور

في عام ١٧٢٦ قدم هذه الجزيرة فتًى من «نورماندي» اسمه «مسيو لاتور» ؛ ليطلب رزقه في هذه الجزيرة المقفرة بعدما أعياه طلبه في فرنسا وعجز عن أن يجد له فيها معيناً حتى من أهله وذوي رحمه .

وكانت تصحبه زوجته وهي فتاة نبيلة ، جميلة الصورة ، كريمة الخلق ، طيبة العنصر ، أحبها وأحبته وأراد أن يخطبها إلى قومها فأبوها عليه ؛ لأنه كان فقيراً مقلًا ، ولأنهم كانوا من المدلين بأنفسهم وبوفرهم وثرائهم ومكانتهم في الهيئة الاجتماعية ، فلم يكن مما يهون عليهم أن يُصهروا[2] إلى رجل ليس من أكفائهم ولا نظرائهم ، فتزوجها سراً بدون مهر وهاجر بها إلى هذه الجزيرة ؛ علّه يجد سبيلاً إلى العيش فيها ، فتركها هنا وسافر إلى جزيرة «مدغشقر» ليبتاع منها طائفة من الزنوج يستعين بهم عند عودته على استصلاح بعض الأراضي المهجورة فيقتات منها هو وزوجته .

فلم يتح له الحظ الذي أراد ؛ لأنه سافر إلى «مدغشقر» في الفصل الذي يَوْبَأُ[3] فيه مناخها ويمتلئ فيه جوها بالحميات والرياح السامة القاتلة ، فلم يلبث أن اشتكى شكاة ذهبت بحياته ، وكان يحمل معه بعض الأثاث وشيئاً من المال فتناهبته الأيدي هناك ، كما هو الشأن دائماً في تراث الغرباء من الأوروبيين الذين يموتون بعيداً عن أوطانهم في تلك الجزر النائية ؛ فأصبحت امرأته بعده أرملة مسكينة لا سند لها ولا عضد ، ولا من يعينها على أمرها ، إلا جارية زنجية كانت قد ابتاعتها عند

(١) المغضّن: المليء بالتجاعيد .

(٢) أصهر إليه: صاهره .

(٣) وبئت الأرض توبأ: كثر فيها الوباء .

حضورها ببعض دريهمات .

ولم تكن تعتمد على ما يعتمد عليه أكثر المهاجرين المقيمين في هذه الجزيرة من عون الحاكم ومساعدته ، أو الصلة ببعض أصحاب الجاه والنفوذ ؛ لأنها كانت أجلَّ في نفسها من ذلك ، ولأنها لم يكن يعنيها بعد أن فقدت ذلك الزوج الكريم الذي كان موضع آمالها و وجهة حياتها أن تكون لها صلة مع أحد من الناس كائناً من كان .

أكسبها يأسها هذا قوة وجلداً ، وصحت عزيمتها على أن تعتمد في حياتها على نفسها ، وأن تتخذ لها قطعة من الأرض تستصلحها بيدها هي وجاريتها ؛ علها تجد فيها قوتها ومرتزقها .

والأرض في هذه الجزيرة ، على جدبها وإقفارها، لا يعدم أن يجد فيها الإنسان بضع قطع خصبة صالحة للنماء والاستثمار . ولكنها كانت تريد العزلة والانفراد والفرار بنفسها عن أبصار الناس وأسماعهم؛ فتركت المواضع الخصبة الميثاء [١] وأوغلت في المجاهل البعيدة ، تفتش عن قطعة أرض معتزلة في سفح جبل ، أو بطن غور ، أو وراء منقطع ، لا يطرقها طارق ولا يمر بها سابل [٢] ، حتى وصلت إلى هذا المكان الذي نحن فيه ، فأعجبها منظره الهادئ المنفرد ، وسكنت نفسها إليه سكون الطائر الغريب إلى العش المهجور .

وكذلك شأن البائسين المنكوبين يشعرون دائماً بحاجتهم إلى الفرار بأنفسهم من ضوضاء العالم وجلبته ، إلى المعتزلات النائية القصية والمواطن الخشنة الوعرة ، كأنما يخيَّل إليهم أن صخورها وهضابها قلاع حصينة يعتصمون بها من كوارث الدهر وأرزائه، أو كأنما يتوهمون أن هدوءها وسكونها يسري إلى قلوبهم وأفئدتهم ، فيروح عنها بعض ما بها ويملؤها راحة وسكوناً .

إلا أن العناية الإلهية التي تتولى حراسة الإنسان ، وتمده بلطفها وعنايتها ، من حيث لا يقدر ولا

(١) الميثاء: اللينة السهلة .

(٢) السابل: المار في الطريق المطروقة ، الجمعُ سوابل وسابلون .

يحتسب ، وترى له دائماً خيراً مما يرى لنفسه ، أبت أن تسلمها إلى وحشتها وكآبتها ، فأتاحت لها صديقة كريمة تؤنس وحشتها ، وتعينها على أمرها .

* * *

(٤)

مرغريت

كانت تعيش في هذه الأرض قبل عام واحد من حضور «مدام دي لاتور» امرأة صالحة كريمة رقيقة الحال اسمها «مرغريت» ، وفدت إليها على أثر نكبة حلَّت بها في مسقط رأسها «بريتانيا» ، وخلاصتها أن نبيلاً من النبلاء الاصطلاحيين ، أي الذين اصطلح الناس على تلقيبهم بهذا اللقب ، نزل بلدتها للاصطياف بها ، فرآها فأحبها ، وكانت فتاة غَرِيرة ساذَجة تصدق كل ما يقال لها ، فصدقت ما حدثها به عن الحب والزواج والسعادة والرغد .

كأنما خيِّل إليها أن العظماء عظماء في أحاديثهم وعهودهم ، كما هم عظماء في مظاهرهم وأزيائهم ، لا يخلفون إذا وعدوا ، ولا ينكثون إذا عاهدوا ؛ فاتصلت به اتصال الزوج بزوجها حينما وعدها أن يتزوج منها عند عودته إلى وطنه واستئذان أبويه .

وما هي إلا أيام قلائل حتى ملَّها واجتواها [٣] كما ملَّ الكثيرات من أمثالها من قبلها ، فرحل عنها فجأة أعظم ما كانت غبطة به وأملا فيه ، وترك لها تحت وسادتها شيئاً من المال ، خيل إليه أنه الثمن الذي يقوم لها بوفاء ما بذلت من عرضها وشرفها ؛ فجن جنونها ، وهرعت إلى فُرضة [٤] البحر التي علمت أنه سيسافر منها ، فلم تر من سفينته الماخرة على سطح الدأماء [٥] إلا ما يرى الرائي من أعقاب النجم المُغرِّب [٦]؛ فبكت إلى ما شاء الله أن تفعل ،

(٣) اجتوى الشيء: كرهه .

(٤) فرضة البحر: محط السفن ، أو الميناء .

(٥) الدأماء: البحر . (٦) المغرِّب: المنحدر إلى مغربه .

ثم عادت إلى منزلها دامية العين قريحة القلب ، ولم تلبث إلا قليلا حتى شعرت أنها تحمل جنيناً في أحشائها ، فأسقط في يدها [١] ، وعلمت أنه قد استحال عليها البقاء بين أهلها وقومها ، بعدما فقدت تلك الجوهرة الثمينة التي هي كل ما تملك العذراء في يدها ، وكل ما تستطيع أن تقدمه مهراً لزوجها .

فأزمعت الرحيل إلى إحدى المستعمرات النائية لتواري في قاعها السحيق سوأتها وعارها ، فوفدت إلى هذه الجزيرة بعد عناء كثير وعقبات عظمى ، واستطاعت بمعونة بعض المحسنين الراحمين أن تبتاع لها خادماً زنجيًّا ، يعينها على أمرها ويساعدها على حراثة الأرض التي أوت إليها ، واستخراج ثمراتها .

وعاشت هنا عيش الصالحات القانتات ، لا تعرف أحداً من الناس ، ولا يعرفها أحد سواي ، وكانت تجلس دائماً على هذه الصخرة العالية أمام كوخها ، ترضع ولدها وتنسج نسيجها .

فلما وفدت هيلين «مدام دي لاتور» رأتها جالسة في مكانها الذي اعتادت الجلوس فيه ؛ فعجبت لأمرها وأنست بمرآها أنساً عظيماً ؛ لأنها ما كانت تتصور قبل أن تراها أن في الناس إنساناً له حال تشبه حالها ؛ فدنت منها وحيتها ، ثم جلست بجانبها وأخذت تسائلها عن شأنها ، فقصت عليها مرغريت قصتها كما وقعت ، وكشفت لها بشجاعة وإخلاص عن مكان المصرع الذي زلت فيه قدمها ، ولم تكتمها من أمرها شيئاً ، ثم ختمت حديثها بقولها :

« إن اللّه لم يظلمني ، ولم يقسُ عليَّ فيما فعل، بل عاقبني على جريمتي التي اقترفتها عقاباً عادلاً شريفاً ؛ فله العتبى [٢] معطياً وسالباً ، وله الحمد على نعمائه وبأسائه .»

رثت لها هيلين «مدام دي لاتور» وأوت [٣] إليها وأعجبها منها إخلاصها وصراحتها ، وقوة يقينها وإيمانها ، فلم تر بدأً من أن تمنحها من بنات قلبها [٤] مثل ما منحتها ؛ فأفضت إليها بسرها وحدثتها حديثها من مبدئه إلى منتهاه ، فقالت لها مرغريت :

« أما أنا يا سيدتي فقد لاقيت عقوبتي التي أستحقها ، بما أسرفت على نفسي ، وفرطت في أمري ، فما شأنك أنت وأنت فتاة صالحة شريفة ، لا ذنب لك ، ولا جريرة ؟»

ثم دعتها إلى كوخها الحقير ، فلبت دعوتها ودخلت معها راضية مغتبطة ، وهي تقول :

« أحمدك اللهم ؛ فقد وجدت لي في هذا المغترب النائي أختاً لم أجد مثلها بين أهلي وقومي ، وما أحسب إلا أن آلامي قد انتهت .»

وكنت أسكن في ذلك الحين وراء هذا الجبل على بعد مرحلة ونصف من كوخ مرغريت ، ولكني كنت – على بعد ما بيني وبينها ، واعتراض هذه العقبات دوننا – متصلاً بها أزورها ، وأتفقد حالها ، وأرعى لها ما يرعى الجار لجاره الملاصق ، وتلك خلة لا توجد إلا في سكان القفار المهجورة ، والمغتربات النائية . فلا الجبال الشامخة ، ولا الصحارى الشاسعة ، ولا الشقة البعيدة بقادرة على أن تفرق بينهم وتمنع اتصال بعضهم ببعض ، كأنما هم يقطنون محلة واحدة ، أو منزلاً واحداً .

أما في أوروبا فكثيراً ما يعيش الرجل بجانب الرجل لا يفصل بينه وبينه إلا جدار قائم أو ممر ضيق، أو ظُلّة دانية ، ثم هو لا يعرفه ، ولا يحييه ، وربما أنكر وجهه وصورته . و هناك قلّما يستطيع القادم الغريب أن ينزل ضيفاً إلا عند نفسه ، في أخصب البلاد وأغناها ، وأرغدها عيشاً ، وأصلحها حالاً .

وهنا يجد ساعة نزوله المنزل الرحب ، والمناخ الكريم في كل دار وكوخ ، سواء في ذلك فقراء الناس وأغنياؤهم ، وسوقتهم وأشرافهم ؛ كأن الناس حين يعودون إلى حياتهم الفطرية الأولى ؛ حياة

(١) أسقط في يده–على صيغة المبني للمجهول–تحير وندم .
(٢) له العتبى: أي له الرِّضا .
(٣) أوى له: رق له وأشفق عليه .
(٤) بنات القلوب: همومها وأسرارها .

البساطة والسذاجة ، والعيش في الأجواء الحرة المطلقة ، تعود لهم معها أخلاقهم الطبيعية الجميلة التي فطروا عليها من كرم وسماحة ، وجود وإيثار ، و ودٍّ وإخاء .

وبعد ، فلما سمعت أن جارتي قد نزلت بها ضيفة غريبة ، أتيت إليها أتفقد حالها وأعينها على أمرها ، فإذا أنا بين يدي فتاة جميلة رائعة تحيط بوجهها المشرق المتلألئ هالة وضّاءة من الشرف والنبل ، تغشاها سحابة خفيفة من الهم والكآبة ، ويتراءى في عينيها المتضعضعتين[١] الذابلتين الأثر الذي يراه الإنسان دائماً في عيون الفتيات المنكسرات ؛ الذل والانكسار في ميدان الحياة .

وما هو إلا أن جلست إليها جلسة خفيفة حتى ألمت بشأنها كله ، فأخذت أحدثها وصديقتها عن مستقبل حياتهما في هذه الجزيرة ، وكيف تستطيعان أن تعيشا فيها سعيدتين هانئتين ، فاقترحت عليهما أن تتخذا هذا الوادي مزرعة لهما تقتسمانها بينهما ويعينهما على استصلاحها واستثمارها خادماهما الزنجيان ، فأعجبهما مقترحي ، وعهدا إليّ بتنفيذ ما أشرت به .

وكانت مساحة الوادي نحو عشرين فداناً ، فقسمته قسمين : قسماً أعلى ، وقسماً أدنى ؛ أما الأول فيبتدئ من رؤوس تلك الصخور العالية التي تكسوها السحب أرديتها الشفافة البيضاء ، وتنبعث من خلالها أمواه نهر «اللاتينيه» وينتهي عند هذه الفجوة التي تراها أمامك ، ويسمونها هنا «لامبرازير» ؛ لأنها تشبه في شكلها فوهة المدفع ، وتكثر في هذا القسم الصخور والوعور[٢] التي يتعذر السير فيها ؛ إلا أنه كثير الأشجار والنخيل ، حافل بالينابيع والغدران .

وأما الثاني فيبتدئ من هذا المكان منحدراً مع النهر الجاري بجانبه إلى نهاية الوادي ، حيث ينحرف النهر بعد ذلك سائراً في رملة ميثاء بين جبلين شامخين إلى مصبه في البحر ، وأرض هذا القسم سهلة لينة كثيرة الخضرة والأعشاب ، إلا أن المستنقعات تكثر فيها في فصل الأمطار ، وتكاد تتحجر تربتها أيام الجفاف ؛ فتصبح كأنها أرض صخرية ، فهما في الحقيقة قسمان متعادلان ، تتكافأ حسناتهما وسيئاتهما .

فلما فرغت من تهيئتهما اقترعت بين السيدتين عليهما ، فكان القسم الأعلى نصيب هيلين «مدام دي لاتور» ، والقسم الأدنى نصيب مرغريت ، فرضيت كل منهما بنصيبها ، إلا أنهما أبتا أن تفترقا في مسكنهما وعيشهما ، فرأيت أن أنشئ لهما كوخين متجاورين ، تجدان فيهما من السعة والراحة لهما ولولديهما أكثر مما تجدان في الكوخ الواحد ، وأن أجعل أحدهما في ذيل القسم الأول ، وثانيهما في رأس القسم الثاني ، فتسكن كل منهما في أرضها ، وكأنها تعيش مع صاحبتها في مسكن واحد ، فأعجبتهما تلك الفكرة واغتبطتا بها .

فاستعنت بالزنجيين على قطع الأحجار من الجبال ، واجتلاب الأخشاب من الغابات ، وصنع مواد البناء ، وأنشأت لهما كوخين فسيحين يدور بهما سياج متين من الأغصان المتشابكة ، وغرست حولهما خميلة من أشجار اللاتينيه تظللهما ، وتقيهما وهج الشمس وغائلة[٣] المطر .

وهنا صمت الشيخ وأطرق ، ثم رفع رأسه بعد قليل ، فإذا دمعة رقراقة تترجح في مقلتيه ، كلما حاولت أن تسيل أمسكها ، واستمر في حديثه يقول :

« نعم بنيتهما وشيدتهما وأنشأت لهما السقوف والأبواب والكوى والنوافذ ، وها أنذا أراهما الآن بين يدي ساقطين متهدمين ، فلا أبواب ولا سقوف ولا نوافذ ولا كُوى ، ولا قُطّان[٤] ولا سكان .

« وكأن الله تعالى أراد أن يستديم تلك الذكرى في نفسي ، فلا تبرح مخيلتي حتى تذهب معي إلى قبري ، فأبقى على هذه البقايا الماثلة من جدرانهما وأحجارهما ؛ ليستثير مرآها شجني ويهيج آلامي

(١) المتضعضعتين : الضعيفتين .

(٢) الوعور : الأماكن الصلبة المخيفة .

(٣) غائلة : شر .

(٤) القُطّان جمع قاطن ، أي السّاكن .

وأحزاني ، أو كأن طوارق الحَدَثان[1] التي لا تبالي أن تعصف بقصور الملوك وصروح الجبابرة وتذهب ببقاياها وآثارها إلى الأبد ، وقفتْ وقفة الإجلال والإعظام أمام هذه الأكواخ الحقيرة المشعَّثة ، فأبت أن تقضي عليها القضاء كله ؛ إجلالاً لها واحتراماً لذكرى أصحابها الأوفياء المخلصين .

« وبعد ، فلم أكد أفرغ من بناء الكوخين حتى شكت هيلين وجاءها المخاض ، فولدت طفلة جميلة ، كأنها النجم اللامع في سطوعه وإشراقه ، وسألتني أن أكون (عرابها) وأن أتولى تسميتها كما توليت تسمية ولد صديقتها ، فأشرت على مرغريت أن تفعل ؛ لأني أردت أن تكون لها أمًّا ثانية ، فسمتها «ڤرجيني» ، وقالت لأمها :

« سيهب الله ابنتك نعمة الفضيلة والعفة ؛ فتحيا حياة سعيدة هانئة ، فإني ما فقدت السعادة إلا منذ اليوم الذي انحرفت فيه عن طريق الفضيلة .»

* * *

(٥)
الحياة الطبيعية

نهضت هيلين من نفاسها بارئة نشطة ، فأخذت هي وصديقتها مرغريت تعملان في أرضهما بمعونة الزنجي «دومينج» ، وهو رجل كهل قد نيَّف على الخمسين من عمره ، إلا أنه كان فتيَّ الهمة والعزيمة واسع الخبرة في شئون الزراعة الجبلية وأساليبها ، فكان يغرس في كل أرض ما يناسبها من البذور والأغراس ، لا يفرق ذلك بين القسمين ولا يمنح أحدهما من اهتمامه وعنايته أكثر مما يمنح الآخر .

فزرع الذرة في التربة المتوسطة ، والحنطة في الأرض الجيدة والأرز في التربة السبخة ، والقرع والقثَّاء وما أشبههما من النبات المتسلق حول الصخور

(١) الحدثان: الليل والنهار، وحدثان الدهر: نوائبه وحوادثه .

وفوق رؤوس الهضاب ، وزرع البطاطا في التربة الجافة اليابسة ، وشجيرات القطن في الربوات العالية ، وقصب السكر في الأرض القوية المتينة ، وغرس على ضفة النهر حول الكوخين أشجار الموز ذات الأوراق العريضة والأفياء [٢] الظليلة ، ولم يفته أن يزرع لنفسه بضع شجيرات من التبغ يروِّح بتدخينها عن نفسه هموم دهره وآلامه .

وكان يذهب — فوق ذلك — إلى الغابات البعيدة والأحراش النائية ؛ لاحتطاب الحطب واجتلاب أعشاب الوقود ، ويقضي جزءاً عظيماً من يومه في تمهيد الأرض ، وتذليلها ، وتكسير الصخور، ورصف الحصى ، وإنشاء الممرات والمستدقات والجداول والأقنية .

وكان يقوم بهذا العمل كله وحده راضياً مغتبطاً، لا أعينه عليه إلا بالرأي والإرشاد ؛ لأنه كان يحب سيدتيه حبًّا جمًّا ، ويخلص لهما إخلاصاً عظيماً .

وربما كان للغرام يد خفية في ذلك النشاط الغريب المنبعث في أنحاء نفسه ، كما هو الشأن في أكثر حركات الناس وسكناتهم ، فإنه كان مغتبطاً كل الاغتباط بتلك الصلة التي نشأت بينه وبين الزنجية «ماري» في العمل ، وبودِّه لو استحالت إلى صلة أخرى غيرها أدنى إلى نفسه ، وألصق بفؤاده ، وقد تمَّ له بعد عام واحد من اتصاله بها ما أراد ؛ فقد سمحت له سيدتاه بالزواج منها فبنى بها ليلة عيد ميلاد ڤرجيني ، وسعد بجوارها سعادة لا تختلف في روحها وجوهرها عن السعادة التي يهنأ بها البيض المتمدينون .

وكانت ماري فتاة نشطة حاذقة ، ذكية الذهن ، صناع [٣] اليد ، متحلية بكثير من الصفات الفاضلة، وقد استفادت في مسقط رأسها «مدغشقر» العلم ببعض الصنائع اليدوية التي يزاولها الناس هناك ؛ فكانت تجيد صنع السلال من لحاء أشجار القصب ، ونسج المآزر والمطارف من خيوط بعض الأشجار الليفية .

(٢) الأفياء: جمع فيء، وهو الظل بعد الزوال ، ينبسط شرقًا .

(٣) صناع اليد: ماهرة في العمل باليدين .

وكانت تحسن القيام على خدمة المنزل ، ومناظرته ، وترتيب أثاثه ، وتربية الطيور الداجنة ، ورعي الماشية ، ومزاولة الطبخ والغسل ، فإذا فرغت من عملها حملت ما فضل عن حاجة البيت من فاكهة وحبوب — ولم يكن بالشيء الكثير — إلى سوق المدينة ، فباعته فيها ، ثم عادت ببضعة دريهمات تعطيها لسيدتيها .

أي أن المزرعة كان يعيش فيها امرأتان وطفلان وخادمان وكلب للحراسة وعنزتان للبن وبضع دجاجات للبيض ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل .

وكان لا بد للسيدتين من أن تعملا عملاً يعينهما على عيشهما ، ويروح عنهما سآمة الوحدة ومللها ، فكانتا تغزلان بياض نهارهما وأحياناً سواد ليلهما على ضوء القمر ، فاستطاعتا أن تجدا رزقهما ، ولكن مقتّراً مكدوداً ؛ فأكلتا الدُّخْن[١] والذرة ، وشربتا الماء الرَّنق[٢]، ولبستا القمص البنغالية الخشنة التي يلبسها الإماء في هذه الجزيرة ، ومشتا على الأرض حافيتين غير منتعلتين ، إلا في اليوم الذي كانتا تذهبان فيه إلى الكنيسة في حي «بمبلموس» لأداء الصلاة .

وقلما كانتا تذهبان إلى «بور لويس» ، عاصمة الجزيرة إلا في الدرجة القصوى من الضرورة ؛ حياء من نفسيهما وفراراً من أعين الساخرين والهازئين . فإن فعلتا نالهما من الألم والامتعاض ما ينغص عليهما يومهما ، ويستثير كامن حزنهما وألمهما .

ولا يزال هذا القلق يساورهما حتى تعودا إلى مزرعتهما ، فإذا أشرفتا عليها ، ورأتا على بعد منظر خادميهما المخلصين وهما يهبطان إليهما من قمة الجبل ليساعداهما على صعوده وتسلقه ، وشعرتا بنسيم الحرية العليل يهب عليهما ويمازج أنفاسهما، نسيتا في هذا المعتزل المنفرد كل ما لحقهما ، وآلم نفسيهما من خشونة الناس وقسوتهم وفضولهم ، وكبريائهم ، وكأنما قد نبتتا في هذه البقعة بين نخيلها وأشجارها ، ولم تريا طول حياتهما بقعة سواها.

ولقد عشت في كل جو وبيئة وخالطت جميع الطبقات والأجناس وعاشرت الناس أخياراً وأشراراً ، وأعلياء ، وأدنياء ، وحضرت مواقف الحب بين المتحابين ، والصداقة بين المتصادقين ، فلم أر في حياتي منظراً أجمل ولا أبهج ، ولا أحلى في العين ، ولا أوقع في النفس ، من منظر الحب والصداقة بين هاتين السيدتين الكريمتين ، حتى كان يخيل إليَّ أحياناً أن نفسيهما قد استحالتا إلى نفس واحدة يحملها جسدان .

وكنت إذا حدثت إحداهما شعرت كأني أحدث الأخرى معها ، وإذا حدثتهما معاً كنت كأني أحدث نفساً واحدة ذات صورة واحدة ولون واحد ، فلقد وَحَّدت بينهما الهموم والآلام ، ومازجت بين نفسيهما الوحدة والعزلة والفكرة والرأي ، والحاجة والمصلحة ، والذكرى المؤلمة ، والبؤس المشترك ، فنطقت كل منهما بما نطقت به الأخرى ، وشعرت بما شعرت به ، وفكرت فيما فكرت فيه .

وكأن الله تعالى إذ زوَّى[٣] عنهما الأرض الفسيحة ذات الطول والعرض ، وحرمهما فيها نعمة العيش الهني ، أبدلهما منها بتلك الروضة الغناء من الحب والإخلاص ؛ لتعيشا فيها ناعمتين هانئتين ، لا تمر بسمائهما غيمة ، ولا ترجف بأرضهما رجفة .

فإن اضطرمت بين جوانحهما في بعض الأحايين نار أقوى من نار الصداقة وأشدُّ منها لهيباً واستعاراً ، لا تلبث أن تهب عليها عاصفة من دينهما وتقواهما ، فتلوي بها عن سبيلها وتطير بها إلى العالم الثاني كما تتطاير الشعلة الملتهبة في جو السماء ، إذا فقدت مادتها التي تتغذى بها على وجه الأرض .

وكان أعظم ما يؤنسهما ويروِّح عنهما ويمازج بين شعورهما وإحساسهما رؤية طفليهما الصغيرين بين أيديهما يمرحان ويلعبان ويعدوان ويطفران [٤] ، وينامان في مهد واحد ، ويستحمان في إناء واحد ، ويطير كل منهما شوقاً إلى صاحبه إذا فقد مكانه وغاب عنه وجهه ، كأنهما أخوان شقيقان ، بل

---

(١) الدُّخْن: نبات عشبي حبه كالسمسم (٢) الرَّنْق: العكر .

(٣) زوّى الشيء: طواه وجمعه وقبضه، أي ضيّق عليهم الأرض.

(٤) يطفر: يقفز .

توأمان متشابهان .

وكثيراً ما كانت ترضع إحداهما ولد الأخرى ، فتمنحه من عطفها وحنانها ما تمنح ولدها ، حتى قالت هيلين مرة لمرغريت : « سيكون لكل منا ولدان ولكل من ولدينا أمّان .»

وكان اجتماع ذينك الطفلين اليتيمين على ثدي واحد بعدما فجعهما الزمان بأسرتيهما ، وحرمهما حنان أبويهما وعطفهما ، سبباً في نموهما وترعرعهما ، وسرورهما وغبطتهما ، كالصنوين الباقيين من شجرتين ، قد عصفت الريح بهما وبأغصانهما ، إذا لُقّح أحدهما بالآخر ، أورقا وأثمرا بأبهى وأجمل مما لو بقي كل منهما في مكانه .

وكان يلذ لأميهما كثيراً الحديث عنهما ، وعن مستقبل حياتهما ، وعن اتصالهما بعقدة الزواج متى بلغا أشدهما ، كأنما قد بقيت في زوايا قلبيهما بقية من ذلك الألم الماضي ؛ ألم حرمانهما الهناء الزوجي ، الذي كانتا تتعللان به في مؤتنف[1] حياتهما ، فهما تتعللان عنه برؤية ولديهما متمتعين به .

إلا أن حديثهما هذا كان ينتهي أحياناً ببكائهما ونشيجهما ، حينما تذكران أنهما قد أساءتا إلى نفسيهما بطموح إحداهما إلى منزلة في الحياة فوق منزلتها ، ونزول الأخرى فيها إلى مقام دون مقامها ، فعاقبتهما الطبيعة على تمردهما وشذوذهما بهذا العقاب المؤلم الشديد ، الذي تقاسيانه وتذوقان مرارته.

ولكنهما لا تلبثان أن تسمعا صوت طفليهما الصغيرين يَبْغَمان [2] في مهدهما ، ويتناغيان حتى تعودا إلى سكونهما واستقرارهما ، وتشعران ببرد العزاء يتدفق في صدريهما ، خصوصاً عندما تذكران أن الهناء الذي فاتهما في ماضيهما لن يفوت ولديهما في مستقبل أيامهما . وكانتا تقولان إنهما سيقضيان حياتهما بعيدين عن مفاسد المدنية ، وشرورها ، وتقاليدها العمياء ، وأوهامها الباطلة ؛ فلا ينالهما من أذاها شيء .

* * *

(٦)

حياة الطفولة

ولم أر فيما رأيت من عجائب الأشياء وغرائبها ، أغرب من تلك الصلة التي كانت بين هذين الطفلين الساذجين الطاهرين ، ولا أعجب من ذلك الامتزاج الذي بين روحيهما ، فإذا شكا پول شكت ڤرجيني لشكاته ، وإذا بكا لا يخفض عبرته ، ولا يسرّي حزنه إلا رؤيتها باسمة بين يديه ، وكثيراً ما كانت تتألم بينها وبين نفسها لبعض الشئون ، فلا يدل على ألمها وحزنها إلا بكاؤه ونشيجه ، فكانت إذا ألمّ بها ألم طوت عليه ضلوعها ، وكاتمته نفسها ؛ ضنًّا به أن تراه باكياً أو متألماً .

وما جئت هنا مرة في شأن من الشئون إلا رأيتهما معاً يحبوان ، أو يدرُجان أو يتداعبان ، أو يتماسكان ، أو يستبقان إلى غاية ، أو يتخاطفان لعبة ، فلم يكن شيء من الأشياء بقادر على أن يفرق بينهما حتى ظلام الليل ووحشته ؛ فقد كان لهما مهد واحد يناماًن فيه معاً عاريين كعادة الأطفال في هذه الجزيرة ، وقد تلازما وتآخذا ، وتوسّد كل منهما ذراع صاحبه ، كأنما يخشيان أن يفرق بينهما حادث من حوادث الدهر .

وكان أول ما نطقا به من الكلمات كلمتا الأخ والأخت ، وهي كلمة جميلة جداً ما خلق الله في الكلم أجمل ، ولا أحلى ، ولا أشرف معنى ، ولا أطرب نغمة منها ، ويزيدها جمالا وحسناً صدورها من أفواه الأطفال الصغار ، كأنها عهد يأخذونه على أنفسهم منذ اليوم أن يكون كل منهما لصاحبه غداً ، أو كأنها راية السلام البيضاء ، يرفعونها على

---

(١) مؤتنف: أول حياتهما ، أي في شبابهما .

(٢) يبغمان: بغمت الظبية ، أي صوتت إلى ولدها بألين صوت، وبَغَم الحديث لفلان: لم يوضحه له، وهو المقصود .

رؤوسهم ، ويلوحون بها في الآفاق .

ثم أخذت تلك العلاقة الطفلية البسيطة تستحيل مع الأيام إلى صداقة جِدِّيَّة ، يشعر فيها كل منهما بحاجته إلى الآخر ، وإلى معونته ومساعدته ، فبدآ يشتركان في خدمة المنزل ومناظرة شئونه ، ومعاونة أميهما فيما هما بسبيله ، من طلب العيش ومعالجة القوت ، كل فيما هيأته طبيعته له .

فلحقت ڤرجيني بالزنجية «ماري» تتعلم منها الطبخ ، والغسل ، والنسيج ، وإعداد المائدة ، وتهيئة الفراش ، وخياطة الملابس ، وصنع السلال ، إلا أنها كانت تعنى بما يتعلق بأخيها پول قبل كل شيء . ولحق پول بدومينج يعينه بفأسه الصغيرة ، التي كانت لا تفارق عاتقه ، على فلح الأرض ، وحرثها ، وتخطيطها ، وتقسيمها ، وتحويل مياهها ، وقلع حشائشها ، وتسلق رباها ، وتقليم أشجارها ، فإذا عثر في طريقه بزهرة جميلة ، أو فاكهة طيبة ، أو طائر في عشه ، أو حشرة في حفرتها ، أو سمكة ملونة ، أو محارة ظريفة ، احتفظ بها في جيبه ؛ ليقدمها هدية لڤرجيني حين يعود إليها .

وكانا على اختلاف شأنهما ، واستقلال كل منهما بعمله عن عمل صاحبه على اتصال دائم ببعضهما ، فحيث وجدت ڤرجيني فقد وجد پول معها ، أو على مقربة منها ، أو منحدراً إليها ، أو مشرفاً عليها ، أو هاتفاً بها ، ما من ذلك بدٌّ .

وأذكر أني كنت منحدراً ذات يوم من قمة الجبل ، وكان الجو ماطراً مكفهراً ، فرأيت ڤرجيني مقبلة نحو المنزل من أقصى الحديقة ، وقد رفعت إزارها من خلفها وأسبلته على رأسها لتتقي به المطر المتساقط ، فهُرعت إليها لأساعدها على المسير ، فلما دنوت منها رأيت أن ذلك الإزار الذي يضمها لا يضمها وحدها ، بل يضم معها أخاها پول ، فنظرا إليَّ ضاحكين متهللين ، كأنهما مغتبطان باهتدائهما إلى تلك الفكرة الجميلة ، التي استطاعا بها أن يلجآ من ذلك الغيث المنهمل إلى ظُلَّة واحدة ، فذكرني منظرهما هذا ومنظر رأسيهما الصغيرين المتلاصقين في ذلك الإزار بمنظر طفليْ «ليدا» ، وقد حفرا معاً في محارة واحدة .

وكانت حياتهما بسيطة ساذَجة ؛ لأن ذهنهما كان بسيطاً ساذَجاً خالياً من مشاغل الحياة المركبة وهمومها ، فلا يفكران في شأن غير شأنهما ، ولا يسبحان في محيط غير محيطهما ، ولا يتنقلان بذهنهما من الحاضر إلى الماضي أو المستقبل ، ولا تترامى أبصارهما إلى ما وراء الأفق المحيط بهما ، كأنما يظنان أن العالم ينتهي حيث تنتهي جزيرتهما .

ولقد أراحهما من عناء البحث والتفكير جهلهما وأميتهما وبعدهما عن هموم العلم ومشاغله ؛ فلم يقدر لهما أن يسهرا ليلهما منكبين على المذاكرة والمدارسة ، حتى يغلبهما النوم فيناما في مكانهما ، ولم يذرفا الدموع الغزار يوماً من أيامهما أمام معضلة من معضلات العلم ، أو مشكلة من مشكلاته ، حتى تتقرح أجفانهما ، ولم يثر غيظهما وحنقهما عجزهما عن التغلب على خصومهما في ميدان المجادلة والمناظرة ، حتى تنشق مرارتهما غيظاً وحنقاً . وما شعرا في ساعة من ساعات حياتهما بحاجتهما أن يعرفا غير ما يعرفان ؛ لأنهما يعلمان أنهما ما خلقا إلا ليعيشا سعيدين هانئين ، وها هي السعادة تظللهما بأجنحتها البيضاء ، وتتدفق بحراً زاخراً تحت أقدامهما ، وإلا ليؤديا واجب الحب والإخلاص لذينك الشخصين الكريمين عليهما ، وها هما يقومان بهذا الواجب بأفضل ما يقوم به عبد لسيده ، بل عابد لمعبوده .

فما بهما من حاجة إلى من يعلمهما أن الكذب حرام ؛ لأنهما لا يكذبان ، ولا أن السرقة جريمة ؛ لأن جميع ما يقع تحت متناول يدهما ملك مشترك للجميع ليس أحد أولى به من الآخر ، ولا أن الجشع رذيلة ؛ لأن ما يشتمل عليه كوخهما بسيط محدود ، لا يحتمل جشعاً ولا نهماً ، ولا أن البر بالوالدين واجب ؛ لأنهما كانا يعبدان أميهما عبادة هي فوق البر والإحسان ، ولا أن الصلاة فريضة ؛ لأنهما وإن لم يذهبا إلى الكنيسة إلا قليلاً ، فقد كانا يصليان

في كل أرض ، وفي كل جو ؛ في البيت والمزرعة ، والقمة والرابية ، والسهل والجبل ، وفي بكور الأيام وأصائلها ، وأوائل الليالي وأواخرها .

وكذلك أشرقت حياتهما الأولى إشراق الفجر المنير في صفحة الأفق ، مبشراً بيوم صحو جميل ، وأخذت تمر بهما الأيام عذبة صافية ، جريان الغدير المترقرق على بياض الحصباء[١] ، سواء ليلها ونهارها، وصبحها ومساؤها .

وكان من شأن ڤرجيني أن تستيقظ صباح كل يوم مبكرة ، والطير لم يفارق وكره ، فتحمل جرتها وتذهب بها إلى نبع صاف كان على بعد مرحلة من المزرعة ، فتستقي منه ثم تعود فتجلس لتهيئة طعام الإفطار ، حتى إذا برزت الشمس من خِدْرها ، وأخذت تنفض بيدها غبار الظلام عن وجه الأرض ، وتمسح جبين الطبيعة المكتئب بريشة أشعتها الذهبية ، أقبلت مرغريت من كوخها هي و ولدها ، فتبادلوا جميعاً تحية الصباح ، ثم اصطفوا لأداء الصلاة ، وبسطوا أيديهم إلى السماء ضارعين إلى الله تعالى أن يكلأهم [٢] بعين رعايته ، ويبسط عليهم جناح رحمته ، وأن يهيئ لهم من أمرهم رشداً .

فإذا انتهوا من صلاتهم خرجوا خارج الكوخ لتناول الطعام على مائدة من العشب الأخضر تحت ظلة دانية من الأغصان المتشابكة تتساقط عليهم قطع النور من فجواتها كأنها النِّثار الفضي اللامع .

فكان أثر ذلك الغذاء الطبيعي البسيط ، تحت هذه السماء الصافية ، وفوق تلك الأرض الندية المخضلّة [٣]، عظيماً في نمو الولدين وترعرعهما ، ونضرة وجوههما ، وحلاوة ملامحهما ، فلم تبلغ ڤرجيني الثانية عشرة من عمرها حتى استقام عودها ، واعتدل قوامها ، وتهدل شعرها الأصفر اللامع على كتفيها ، كأنما قد نسج من خيوط الشمس ، وأضاءت عيناها الزرقاوان بنور سماوي غريب ، كأنه قبس من النور الإلهي . فإن ابتسمت ابتسمتا معا ، كأنهما ثغران ضاحكان ، وإن قطبت سبحتا وحدهما في جو السماء ، حتى تلتقيَ زرقتهما بزرقتها .

أما بول فقد كانت قامته أطول قليلاً من قامة ڤرجيني ، ونظره أحدَّ من نظرها ، وأنفه أكثر شمماً من أنفها ، ولونه أقرب إلى السمرة من لونها ، أي أن ملامحه كانت تذهب مذهب الرجولة في تكوينها واستدارتها ، وكانت تنبعث من عينيه نار من القوة والنشاط ، تكاد تلتهب التهاباً ، لولا تلك الأهداب الندية الحافة بهما .

وكان لا يزال ثائراً مهتاجاً ، ما يهدأ ولا يسكن حتى تقبل عليه ڤرجيني وتجلس بجانبه ، فإذا هو الطفل الصغير بساطة وسذاجة و وداعة ولطفاً .

وكثيراً ما كانا يجلسان معاً صامتين هادئين ساعات طوالاً على ضفة نهر ، أو حافة ينبوع ، أو ربوة عالية ، أو قمة مشرفة ، وقد اضطجع كل منهما بجانب الآخر ومد قدميه العاريتين ، فكأنهما تمثال رخامي عتيق من تماثيل أولاد « پنيلوپي » [٤] ، وكأن حياتهما حياة الملائكة الأبرار في عالمها العلوي ، لا تشعر بحاجتها إلى الحروف والكلمات في التعبير عن شعورها وإحساسها .

ولِمَ يتكلمان وقد قامت لهما نظراتهما المتمازجة وابتساماتهما المتماوجة مقام الألسنة في نطقها وإفصاحها ؟ ولم يكن حبهما حبًّا صناعيًّا ولا متكلفاً فيحتاجا إلى استدامته واستبقائه ، وتأريث [٥] ناره في قلبيهما بالملق والدهان والتدليل والترفيه وخلابة الألفاظ وسحر البيان . لا بل لو سئل أحدهما عن الحب وتعريفه وصفاته ، لما استطاع أن يجيب بشيء ؛ لأنه لا يفهم من الحب سوى أنه حاجة إلى بقاء صاحبه بجانبه لا يفارقه ، ولا يغيب عن وجهه ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص شيئاً .

ولقد استقر هذا الشعور في نفسيهما وملك عليهما حواسهما وخوالجهما ، فلم يفكرا في تشخيصه وتحديده واستعراض صوره وألوانه ؛ فكان

(١) الحصباء: صغار الحجارة .
(٢) يكلأهم: يرعاهم . (٣) المخضلة: المبتلة .

(٤) في الأساطير اليونانية ، هي زوجة أوديسيوس أحد أبطال اليونان . (٥) أرّث النار: أوقدها .

أشبه شيء بالإيمان في قلوب العجائز ، والإلهام في أنفس الحيوان ، والعبقرية في أذهان الخاملين المغمورين ؛ فهما ينعمان بحب هادئ لطيف ، لا جلبة فيه ولا ضوضاء ، ولا تجاذب ولا تآخذ ، ولا شكوى ولا عتاب ، ولا سهر ولا قلق ، ولا خوف من الطوارق ، ولا خشية من الفواجئ .

إلا أن هيلين وقد رأت فتاتها تنمو وتترعرع ويتلألأ وجهها بتلك المحاسن الباهرة ، بدأت تفكر في أمرها وأمر مستقبلها ، وتقول في نفسها :

« ماذا يكون مصير هذه الفتاة المسكينة غداً إن عدت عليَّ عوادي الدهر ، وفرقت المنية بيني وبينها ، وخلّفتها وحدها هنا في هذه القفرة المجدبة ، بين هذه الخلائق الغريبة وحيدةً منقطعة ، لا سند لها ولا معين ؟! »

وكانت لها في فرنسا عمة مثرية ثراء واسعاً ، إلا أنها كانت امرأة متكبرة تياهة شديدة الذهاب بنفسها، مُدلّة بجاهها ونفوذها ، مشردة في آرائها وأفكارها ؛ فنقمت عليها أشد النقمة لاتصالها بذلك الفتى الفقير الذي اختارته زوجاً لها ، واعتبرت حادثتها هذه نكبة من أعظم النكبات ، التي حلت بها وبأسرتها ، فأبت أن تغفر لها زلتها ، وأن تمد لها يد المعونة ، عندما عزمت على السفر إلى هذه الجزيرة ، واستهانت بدموعها وآلامها ، وضراعتها ومناشدتها ، فسافرت وقد آلت على نفسها أن لا تلجأ إليها في شأن من شئون حياتها ، ما تردد لها نفس على وجه الأرض .

أما الآن وقد أصبحت أمًّا يعنيها من أمر فتاتها ما يعني الأمهات من أمر فتياتهن ، فلم تر بداً من أن تحمل نفسها على ذلك المكروه ، الذي عافته برهة من الزمان ؛ فكتبت إلى تلك العمة القاسية كتاباً طويلاً أفضت إليها فيه بخواطر نفسها ، و وساوس قلبها ، وقصت عليها قصة حضورها إلى هذه الجزيرة ، وما كان من وفاة زوجها على أثر حضورها ، وحياتها الشقية التي تحياها الآن من بعده وحيدة منقطعة ، لا ناصر لها ولا معين .

وظلت تحدثها حديثاً طويلاً عن ابنتها وما تخشاه عليها في مستقبل حياتها ، إن نشب بها ظُفر جارح من أظفار الدهر ، وفرقت المنية بينها وبينها ، ثم قالت في ختام كتابها :

« إن كنت ترين أنني لا أزال مذنبة بعد ذلك ، وأن تلك الدموع السخية التي رويت بها ثرى الأرض اثني عشر عاماً ، لا تكفي لمحو زلتي من صحيفة أعمالي ؛ فارحمي هذه الفتاة المسكينة ، من أجلها ، لا من أجلي ؛ فهي حفيدة أخيك وغصن دوحتك ، والبقية من أسرتك . »

لبثت تنتظر رداً على كتابها ، فلم يأتها ، فأتبعته بآخر ، ثم بآخر ، وضرعت في ذلك ضراعة لم يكن مثلها مما يهون على مثلها لولا عاطفة الأمومة ورحمتها ، حتى كانت سنة ١٧٣٨ ، أي بعد قدومها هنا باثني عشر عاماً ، وبعد مرور ثلاث سنوات على قدوم مسيو «دي لابوردنيه» حاكماً على الجزيرة ؛ إذ علمت أن ذلك الرجل يسأل عنها ليسلمها كتاباً ورد عليها من عمتها ، فاستطيرت فرحاً وسروراً ، وعلمت أن أيام شقائها قد انتهت ، وأن الله رحمها ، ورثى لبؤسها وشقائها .

وهُرعت إلى «بور لويس» لمقابلته ، فدخلت عليه في ذلك الثوب البنغالي الخشن الذي اعتادت أن تلبسه في بيتها ، غير حافلة بشيء إلا تلك السعادة التي ستقدمها عما قليل لابنتها ، فاستقبلها الرجل استقبالا جافًّا خشناً ، وهي المرأة الشريفة الطاهرة التي تغضي العيون بين يديها إجلالا وإكباراً ، والبائسة المسكينة التي تهابها النفوس ؛ مرثاة لها ومرحمة لبؤسها وشقائها .

ولم يزد على أن أومأ إليها برأسه إيماءة خفيفة ، ثم تقدم نحوها بعظمة وكبرياء وأعطاها كتابها ، فاختطفته من يده وأنشأت تقرؤه بلهفة وسرور ، إلا أنها لم تقرأ منه بضعة سطور حتى امتُقع لونها ، وارتعشت يدها ، وترنحت في مكانها ترنح الشارب الثمل ؛ فقد كتبت إليها عمتها تؤنبها وتقرعها تقريعاً مؤلما مهيناً ، وتشمُت بها وبمصيرها ، وتقول لها :

« هذا جزاء تمردك وعصيانك ، وخروجك عن أهلك وقومك ، وانقيادك إلى شهوتك البهيمية ، واسترسالك فيها استرسالاً دفع بك إلى أحضان ذلك الفتى الوضيع المهين ، الذي لا يليق به أن يحل سيور حذائك ، حتى جلبت على نفسك وعلى أهلك العار الذي لا يمحى .

« ولقد أحسنتِ كل الإحسان بمغادرتك هذه البلاد ، وفرارك إلى تلك الجزيرة النائية المنقطعة ؛ لتدفني فيها نفسك وعارك إلى الأبد . وما موت زوجك ، و ولادة ابنتك ، وشقاء عيشك ، والوساوس التي تعتلج في صدرك خوفاً على فتاتك ، وعلى مستقبلها ، إلا عقوبة أنزلها الله بك ليمحّص[١] عنك ذنوبك ، ويمهد لك سبيل غفران سيئاتك ؛ فاصبري ، ولا تجزعي ، حتى يقضي الله قضاءه فيك .»

ثم أنشأت تُدِلُّ [٢] عليها بنفسها ، وتفاخرها بعفتها وطهارتها وترفعها وإبائها ، وأنها قضت أيام حياتها عانساً متبتلة ، ما تزلق بها شهوتها في هُوَّة من تلك الهوى التي تزلق فيها أقدام النساء الجاهلات ، ولا تسلم قيادها إلى رجل من الرجال كائناً من كان ؛ ضنًّا بحريتها أن تعبث بها أيدي المطامع والأهواء .

وكانت كاذبة فيما تقول ؛ فهي امرأة دميمة شوهاء ، غريبة الأخلاق والأطوار ، ليس لها من المزايا إلا ثروتها الطائلة ، وجاهها الواسع ، ومكانتها من البلاط الملكي ، وكان كبرياؤها الكاذب يأبى عليها إلا أن تتزوج من رجل من ذوي البيوتات العظيمة والألقاب الضخمة. وليس بين هؤلاء جميعاً من يرضى أن يبيعها نفسه بيعاً ، مهما بلغ من رقة الحال ، وشظف العيش ، ولم يزل هذا شأنها حتى تجاوزت سن الزواج وضاعت بين سخافتها وكبريائها.

ثم ختمت كتابها بقولها: « لا بد لك أن تعملي لنفسك ؛ فقد علمت أنك في جزيرة صالحة للعمل والاستثمار ، وأن جميع المهاجرين الذين يؤمونها يعودون منها بالثروة الطائلة والربح الكثير . على أنني قد كتبت إلى مسيو دي لابوردنيه ، حاكم الجزيرة ، أوصيه بك خيراً فاعتمدي عليه ، وعلى معونته ، ولا تكتبي إليَّ بعد اليوم .»

وكانت صادقة في كلمتها هذه ؛ فإنها كتبت إلى ذلك الرجل كتاباً توصيه بها فيه ؛ إلا أنها ملأته بذمها وثلبها ، والاستطالة عليها في عرضها وشرفها ، كأنها تلتمس لنفسها عذراً عنده في قسوتها عليها ، وعنفها بها وضنها عليها بالمعونة والمساعدة .

فكان من أثر ذلك في نفسه أن ازدراها واحتقرها ، وتجهم لها حين رآها ، ثم ودعها بمثل ما استقبلها به ، لم يسألها عن شأن من شئونها ، ولم يمنحها غير وعود كاذبة ، كان ينطق بها بلهجة جافة خشنة مملوءة ضجراً ومللاً ، فكأنما أوصته بقتلها والقضاء عليها .

* * *

(٧)
العزاء

عادت هيلين إلى المزرعة ونفسها تسيل لوعة وأسى ، فما بلغت كوخها حتى ألقت بالكتاب على المنضدة ، وتهافتت على سريرها باكية مُنْتحبة ، فهرعت إليها صديقتها تسألها ما شأنها ، فأشارت إلى الكتاب وقالت :

« ها هي ذي خلاصة حياتي ، من أولها إلى آخرها .»

ولم تكن مرغريت تحسن القراءة ، فأتتها بالكتاب ، فأنشأت تقرؤه عليها وفؤادها يتمزق لوعة وأسى ، فقاطعتها مرغريت وأقبلت عليها تقول لها :

« متى تخلى الله عنا يا هيلين فنلجأ إلى الناس في شئوننا ، ونعتمد عليهم في رزقنا ، ونحن أغنياء عنهم بما هيأ الله لنا من القوت في هذه الجنة الصغيرة التي نعيش فيها ؟! فما فينا من يشكو جوعاً أو عطشاً ، ولا من يمشي عارياً أو حافياً ، ولا من

(١) مَحَّصَ: خلّص وطهّر . (٢) تُدِلّ: تتيه وتفاخر .

يبيت مغتمًا أو محزونًا ، فروِّحي عن نفسك ؛ فالله أرحم بك وبنا من الأقارب والأصدقاء .»

ثم عجزت عن امتلاك نفسها ومتابعة حديثها ، فاختنق صوتها بالبكاء ، فتهافتت هيلين على عنقها وضمتها إلى نفسها وظلت تقول لها : « آه يا صديقتي ! آه يا صديقتي !»

وكانت ڤرجيني واقفة بجانبها فأثر في نفسها هذا المنظر المحزن ؛ فاستعبرت [١] باكية ، وظلت تتناول يد أمها مرة ويد مرغريت أخرى ، فتقبلهما وتبللهما بدموعها وتقول لهما : « أرجو أن لا يكون ذلك من أجلي !» فبكى لبكائها الزنجيان – وكانا واقفين عند الباب – واشتد نحيبهما ونشيجهما .

أما پول فقد عصفت في رأسه عاصفة الغضب وظل يضرب الأرض بقدميه ويشير بيديه مهدداً متوعداً ، لا يعلم من يهدد ، ولا من يتوعد ، ولا على أي رأس من الرؤوس يرسل صاعقة غضبه ؛ لأنه لم يفهم مما كان شيئاً .

فكان هذا المأتم الغريب ، في تلك الساعة الرهيبة ، مظهراً من مظاهر الإخلاص والولاء بين قوم جمعتهم جامعة البؤس والشقاء ، و وحدت بين قلوبهم الهموم والآلام ، وما اجتمعت القلوب على شيء هو أجمع لشملها وأوثق لرباطها من اجتماعها حول مواقف الهموم والأحزان ، فسُرِّي [٢] عن هيلين قليلاً ، وضمت پول وڤرجيني إلى صدرها ، وقالت لهما :

« إنكما ، وإن كنتما يا ولديَّ سبب أحزاني وآلامي ، ولكن الشقاء لم يأتني منكما .» فلم يفهما شيئاً مما تقول ، ولكنهما علما أنها قد هدأت وسكنت ، وأنها تبتسم لهما ، فاعتنقاها وقبلاها .

وما لبثوا جميعاً أن عادوا إلى سرورهم وغبطتهم ولعبهم ومرحهم .

وكانت تلك الحادثة أشبه شيء بسحابة اعترضت وجه الشمس ساعة ثم اضمحلت .

* * *

(٨)
الاستعمار الأوربي

مضت على ذلك أيام والولدان ينموان في جوهما نمو النبات المحيط بهما ، وينمو معهما طيب أخلاقهما وحسن سجاياهما . فبينا ڤرجيني جالسة في الكوخ ذات يوم تهيئ طعام الإفطار لأسرتها كعادتها والشمس لا تزال في خدرها ، وأمّاها قد ذهبتا مع دومينج لأداء صلاة الأحد في كنيسة «پمبلموس» وپول في الحديقة يشذِّب بعض أشجارها ، وماري وراء الكوخ تشتغل ببعض شئونها ، إذ دخلت عليها زنجية مسكينة آبقة [٣] كأنها الهيكل العظمي نحولاً وهزالاً ، ليس عليها من الثياب إلا خرقة بالية تدور بِحَقْوِها [٤] ، فجثت على ركبتيها بين يديها باكية منتحبة ، وأنشأت تقول لها :

« الرحمة يا سيدتي ؛ فإني أكاد أموت جوعاً ، وقد مرَّ بي يومان ، وأنا أجوب هذه الأحراش والغابات ، أتوارى مرة وأظهر أخرى ، وأقتات كل ما هو فوق التراب ؛ مخافة أن تقع عليَّ عيون بعض الفضوليين من الصيادين فيعيدوني إلى سيدي ، والموت أهون عليَّ من أن أعود إليه ؛ فهو رجل قاس غليظ لا يزال يجلدني ويمزق لحمي بسوطه ، كلما بدا له أن يفعل ذلك .»

ثم كشفت ثوبها عن جسمها ، وأشارت إلى مواضع الضرب منه ، فإذا خطوط حمراء ملتهبة ، لا يستطيع نظر الناظر أن يثبت أمامها لحظة واحدة ، ثم قالت :

« ولقد حدثت نفسي كثيراً بالانتحار ، فما كان يمنعني منه إلا الخوف والجزع ، ثم سمعت الناس يتحدثون عنكم حديثاً حسناً ، ويقولون إنكم ، وإن

(١) استعبرت: سال دمعها . (٢) سُرِّيَ عنه: زالَ ما به من هَمٍّ .

(٣) الآبقة: الهاربة من مولاها . (٤) الحَقو: الخصر .

كنتم من هذا الجنس الأبيض المخيف ولكنكم قوم محسنون راحمون ؛ فأضرع إليك يا سيدتي أن ترحميني ، وتعودي عليَّ بلقمة أتبلَّغ [١] بها ، وأن تحولي بيني وبين الشقاء .»

وهنا اشتد بكاؤها ونحيبها ، فأوت [٢] لها فرجيني ورقت لها رقة شديدة ، ونهضت إلى الطعام الذي كانت أعدته لأسرتها ، فأتتها به ، فالتهمته في لحظات قليلة ، وأخذ وجهها يتطلّق فرحاً وسروراً ، فقالت لها فرجيني :

« أ تحبين أن أذهب معك إلى سيدك وأشفع لك عنده ؛ عله يعفو عنك ويرحمك ، ويكون لك في مستقبله خيراً منه في ماضيه ؟ وما أحسبه إلا فاعلاً حين يرى بؤسك وشقاءك ومنظر جسمك المعذب المقروح .»

فشكرت لها الجارية فضلها ورحمتها ، وقالت لها: « سأتبعك يا سيدتي حيث شئت ؛ فأنت ينبوع الرحمة والإحسان .»

فهتفت فرجيني ببول فحضر فحدثته حديث الجارية ، والرأي الذي رأته لها ، فوافقها على رأيها واقترح عليها أن يرافقها في رحلتها ، ثم سارا معاً والجارية تتقدمهما ، وتخترق بهما الغابات والأجمات[٣]، في ممرات مستدقة غامضة تعرفها ، وكانت تعترضهما في مسيرهما بعض هضبات عالية، كانا يجدان مشقة عظمى في تسلقها ، حتى أشرفا وقت الظهيرة على ضفة النهر الأسود حيث مقام الرجل ، فانحدرا إليه .

وهناك شاهدا أبنية عظيمة فخمة تحيط بها حدائق غنّاء ، وأدواح ملتفة ومزارع منبسطة ، وعبيد كثيرون منتشرون في كل مكان يحرثون ويحصدون ، ويحفرون وينقبون ، ويخوضون الأوحال ، ويحملون الأثقال ، ويقطعون الصخور ، ولمحا صاحب المزرعة يتمشى بينهم مشية الخيلاء و « غليونه » في فمه ، ينفث منه الدخان ، وبيده عصا خيزران طويلة ، وهو رجل طويل القامة ، مهزول الجسم ، غائر العينين ، مقطب الجبين ، كأنما قد جثمت روحه الشريرة بين عينيه واستعدت للوثوب على كل من يدنو منها .

فارتاعت فرجيني لمنظره المرعب المخيف ، إلا أنها لم تجد بداً من التقدم ، فمشت نحوه خائفة مضطربة ، تعتمد على يد بول ، والجارية من خلفهما تتبعهما حتى بلغته ، فجثت بين يديه ، وأخذت تضرع إليه أن يعفو عن جاريته المسكينة ويرحمها ، وتناشده الله والكتاب في ذلك ، فلم يكترث في مبدإ أمره لمنظر فتى وفتاة فقيرين ، زريين في ملبسهما وهيأتهما .

إلا أنه لما وقع نظره على فرجيني ، ورأى منظرها البديع الجذاب ، وشعرها الأصفر الذهبي المسترسل على ظهرها ، وتلك العصابة الزرقاء التي تدور بجبينها الأبيض المشرق ، ورأى ماء الحياة يترقرق في وجهها ترقرق الطل في ورقات الورد ، وسمع صوتها الرخيم المتهدج ، كأنه ينبعث من آلة موسيقية شجية ، بهت رشده ، وأخرج غليونه من فمه ، وابتسم ابتسامة نكراء ، وتقدم نحوها قليلاً وألقى عليها نظرة فاجرة مريبة ، وقال لها :

« أيتها الفتاة الجميلة قد عفوت عنها ، لا من أجل الله ، ولا من أجل الكتاب ، بل من أجلك أنت !»

فأشارت فرجيني إلى الجارية أن تتقدم لتشكر لسيدها نعمته وفضله . ثم انكفأت راجعة تركض ركض الهارب وبول يتبعها ، حتى ارتقيا الجبل الصغير الذي هبطا منه وجلسا تحت دوحة من أدواحه يستريحان ، وكان التعب قد نال منهما منالاً عظيماً ؛ فقد قطعا في ذلك اليوم خمسة فراسخ في أرض صخرية وعرة لا يستريحان فيها ، ولا يهدآن ، ولا يتبلغان بطعام ، ولا شراب ، فقال بول لفرجيني :

« ها قد مال ميزان النهار ، وبيننا وبين مزرعتنا مفازة منكرة ، لا أحسب أننا نستطيع قطعها قبل الغروب ، وليس في هذه البطحاء المحيطة بنا شجرة واحدة ، ذات ثمر صالح نَطعمه أو نَنقع ظمأنا بعصارته ، وأنت ظامئة جائعة ، لا طاقة لك بالصبر

(١) تبلَّغ بالشيء: اكتفى به وقنع .
(٢) أوى له وإليه: رحمه ورثى له .
(٣) الأجمات: الأشجار الكثيرة الملتفة، مفردها أجمة .

على ذلك أكثر مما صبرت ، فخير لنا أن نعود إلى مزرعة مولى الجارية ، ونطلب اليه أن يمدنا بشيء من الطعام والشراب ، وما أحسبه ضانًّا علينا بهما .»

فوجمت ڤرجيني وقالت : « لا يا پول . إن هذا الرجل قد ملأ قلبي خوفاً ورعباً ، وما أحب أن أرى وجهه مرة أخرى ، واذكر تلك الكلمة التي كانت تقولها لنا أمي دائماً : إن خبز الأشرار يملأ الفم حصى . فلنمض في سبيلنا ، وما أحسب أن الله يخذلنا ، أو يتخلى عنا .»

قال : « وما العمل ، والشقة بعيدة ، والمنال وعر ، والأرض قاحلة جدباء لا ماء فيها ، ولا ثمر ، ولا شيء مما يتبلغ به المتبلغ ، أو يتعلل به الظامئ ؟»

قالت : « إن الله الذي يسمع زقزقة العصفور الصغير في عشه فيرسل إليه الحبة التي تقوته ، والقطرة التي ترويه ، سيسمع دعاءنا ، ويرد لهفتنا ، وما ذلك عليه بعزيز .»

ثم سارا في طريقهما فما أبعدا إلا قليلاً ، حتى سمعا خرير ماء على البعد ، فانتعشا وصاحا بصوت واحد : « إن ههنا ماء !» وتبعا الصوت حتى وصلا إلى صخرة عظيمة عالية ، ينفجر من صدوعها ماء زلال رقراق ، كأنه ذَوْبُ [١] البلور في شفوفه ولمعانه ، فشربا منه حتى ارتويا ، و وجدا من حوله بعض الأعشاب التافهة ، فأصابا منها قليلاً ، ثم جلسا في مكانهما .

وإنهما لكذلك إذ لمحا على البعد نخلة ساحقة من نخيل الجوز ، والجوز أنواع كثيرة متعددة ، وهذا النوع منها دقيق مستطيل ، لا يزيد حجم ساقه عن حجم ساق الإنسان إلا قليلاً ، و ربما ذهب في الهواء ستين قدماً أو أكثر ، وله في شعَفاته [٢] لفائف ضخمة متراكمة أشبه بلفائف الكرنب ، تحمل في جوفها طلعاً أبيض ناصعاً ، حلو الطعم جيد الغذاء .

فاتجها بها إذ رأياها ، وهرعا إليها ، وكانا بين أن يصعداها ، وهو ما لا سبيل إليه ، أو يقطعاها ، وهو ما تعيا به قوتهما ؛ لأن جذعها على رقته ونحافته مؤلف من خيوط ليفيَّة متداخلة متينة النسيج ، سميكة القشرة ، تعيا بها الفؤوس القاطعة ، فلم يبق أمامهما إلا أن يحرقاها فتهوي بين يديهما فيظفرا بثمرها ، ولم يكن لديهما نار ، ولا شيء مما تقتدح به النار .

وليس في تلك المدرة جميعها على كثرة صخورها وأحجارها ، واختلاف صورها وأشكالها حجر من أحجار الاقتداح ، ففتقت الحاجة لپول حيلة من أغرب الحيل وأبدعها .

وقديماً فتقت الحاجات حيل الرجال ، واستثارت دفائن ذكائهم وفطنتهم ، وما انتفع العالم في جميع شؤونه وأحواله بمثل ما تفتقه الحاجات والضرورات ، ولا نبتت أغراس المعارف والعلوم والمستكشفات والمخترعات إلا في تربة الفقر والإقلال ، فعمد إلى ظِرٍّ [٣] رقيق الأطراف ، مما يقوم لدى سكان تلك الأصقاع مقام المُدى في منفعتها وجدواها ، فبرى به طرف غصن يابس متين حتى صيره كالسهم ، ثم عمد إلى غصن آخر من نوع غير نوعه فثقبه ثقباً دقيقاً بحد ذلك الحجر نفسه ، ثم أدخل طرف الغصن الأول في ثقب الغصن الثاني بعدما شد عليه بقدمه، وظل يديره بكلتا يديه بسرعة عظيمة ، فما هي إلا لحظات حتى التهب الغصنان وانبعث منهما دخان وشرر ، فجمع بضعة أعواد يابسة وأوراق جافة وألقاها على النار فاشتعلت ، فأدناها من ساق النخلة فنشبت بها ، ولم تلبث إلا قليلاً حتى هوت بين يديه هويَّ الكوكب الناري من سمائه ، فأخذ يفض اللفافات عن طلعها الأبيض النضير .

وجلس هو وڤرجيني يشتويان ويأكلان ألذ طعام وأهنأه حتى اكتفيا ، ومرت بهما ساعة سرور وغبطة ، نسيا فيها بؤسهما وشقاءهما ، ثم ما لبثا أن جمعا شتات نفسيهما وأخذا يتمثلان حيرتهما وضلالهما ، وبعد الشُّقة [٤] بينهما وبين أرضهما ، ويذكران قلق أميهما عليهما وجزعهما لغيابهما ، ويقولان في نفسيهما لا بُدَّ أن تكون الظنون قد ذهبت بهما مذاهب سيئة في شأنهما ، حينما عادتا من الكنيسة إلى المزرعة فلم تجداهما ، ولم تعرفا الوجه الذي

(١) الذَّوْبُ: ما ذُوِّب من الشيء . (٢) شعفاته: أعاليه . (٣) الظر: الحجر المحدد . (٤) الشُّقَّة: السَّفَر .

ذهبا فيه .

ثم نهضا من مكانهما وأخذا يدوران بأنظارهما يمنة ويسرة ليتعرفا الطريق التي أتيا منها فأضلاها فسُقط في أيديهما [١]، ولم يعرفا كيف يعودان ، وكان پول أهدأ من ڤرجيني روعاً وأثبت جأشاً ، فظل يعللها ويهدئ روعها ، ويقول لها :

« إن كوخنا يكون دائماً في مثل هذه الساعة تحت قرص الشمس ، فإذا نحن اتجهنا جهة الشرق ، لا نحيد عنه يمنة ولا يسرة ، ثم إذا صعدنا هذا الجبل المثلث الرأس الذي نراه أمامنا لا نلبث أن نجد أنفسنا في مزرعتنا .»

وأخذا يسيران في الوجهة التي توهماها ، فمرّا بغابات كثيرة ، وأدواح ملتفة ، وهضاب عالية ، وأنهار جارية ، لم يطأ السائحون لها أرضاً حتى اليوم. وظلا على ذلك ساعتين حتى اعترض طريقهما نهر واسع يتدفق ماؤه تدفقاً ، فذعرت ڤرجيني لمنظره ومنظر الصخور السوداء الجاثمة في مجراه ، واستحال عليها أن تضع قدمها فيه فلم ينشب[٢] پول أن حملها على ظهره وخاض بها الماء ، لا يحفل بتياره المتدفق ، ولا بصخوره المتزلقة ، وظل يقول لها وهو سائر بها :

« لا تخشي شيئاً يا أختاه ؛ فإنني جلد قوي ، لا يعجزني حمل شيء من الأشياء كيفما كان شأنه ، وأشعر أني أزداد قوة وجلداً حين أكون معك ؛ وأستطيع أن أقول لك إن نفسي كانت تحدثني بشر عظيم لذلك الرجل مولى الجارية ، حينما ظننت أنه احتقرك وازدراك ، فلم يحفل بك ولا برجائك ، ولو أنه فعل لبطشت به بطشة لا أبالي بعواقبها .»

فاضطربت ڤرجيني وقالت له : « ولكنك لا تفعل يا پول إلا إذا أردت أن تكون غلاماً شريراً ، دع الأشرار يا صديقي وشأنهم ، لا تهجم ، ولا تعترض طريقهم ، عسى أن يموت شرهم في صدورهم ، حينما لا يجد له مضرباً ولا منتدحاً .»

ثم تنهدت ورفعت رأسها إلى السماء وقالت : « آه يا رب ! لِمَ لَمْ تجعل طريق الخير سهلاً ليناً كطريق الشر؟»

ولم يزل سائراً بها حتى بلغ الضفة الأخرى ، وأراد أن يستمر في سبيله حاملاً إياها على ظهره ، ويصعد بها الجبل المثلث الرأس اعتزازاً بقوته وبأسه فألحت عليه ألا يفعل فأنزلها .

واستمرا سائرين في أرض وعرة كأداء [٣] كاطراد السيف تحفى فيها النعال ، وتدمى الأقدام ، وكانت ڤرجيني قد نسيت نعلها في كوخها ، حينما ورد عليها من أمر تلك الزنجية المسكينة ما أذهلها وطار بلبها ، فأضر بها الجهد ، وأدمى قدميها المسير ، فلم تزل تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى جدول ماء جار فترامت على ضفته ، وأخذت تنضح قدميها بمائه ، ثم مدت يدها إلى شجرة فرعاء حانية عليها ، فاقتطعت بعض أعوادها وأوراقها ، ونسجت منها لنفسها ما يشبه النعل ، فانتعلته ، فهدأ بعض ما بهما ؛ وأقبلت على پول تقول له :

« ها هي ذي الشمس قد أشرفت على المغيب ، ولا تزال الشقة بيننا وبين المزرعة بعيدة جداً ، وقد نال مني التعب ولم يبق لي جلد على المسير ؛ فاتركني وحدي هنا ، واذهب إلى المزرعة لتخبر أهلنا خبرنا فيطمئنوا علينا ، وابعثوا إليَّ من قبلكم من يحملني إليكم .» فأبى پول مستعظماً الأمر ، وقال :

« الموت أهون عليَّ من أن أتركك وحدك في هذا المكان الموحش المقفر ، فسأبقى معك ما بقيت ، فإن أظلنا الليل قطعت لك نخلة من نخيل الجوز ، فأطعمتك ثمرها ، كما فعلت الغداة ، ثم نسجت لك من أعوادها وأغصانها مهاداً [٤] ليناً تنامين عليه ، وأنا ساهر بجانبك حتى الصباح .»

فأذعنت لرأيه ، وكانت قد شعرت بشيء من الراحة بعد ما خصفت قدميها بتلك الأعواد المخضلة ، فقامت تعتمد بيمناها على فرع قطعته من تلك الشجرة ، وبيسراها على كتف پول حتى بلغا غابة كثيفة ، قد أحاط بها من جميع أقطارها كثير من الأدواح الباسقة الملتفة فدخلاها ، وما أمعنا

---

(١) سُقِطَ في يده: تَحَيَّرَ . (٢) لم ينشب: لم يلبث .

(٣) الأرض الكأداء: الشاقة الوعرة . (٤) المِهاد: الفِراش .

فيها إلا قليلا حتى احتجب عنهما وجه الشمس وراء تلك الهضاب الشامخة ، والأدواح العالية ، وغاب عن عينيهما الجبل المثلث الرأس ، وكان علمهما الذي يهتديان به ، فإذا هما في مَضَلّة بهماء ، لا يريان فيها غير الصخور العالية ، والهضاب المشرفة ، والأشجار المتشابكة ، والمسالك المتشابهة ، والأعماق المتغلغلة ؛ فذعر پول ذعراً شديداً و وقف في مكانه حائراً ذاهلاً لا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع ، ثم اندفع يعدو ههنا وههنا هائماً مخبولاً ؛ عله يجد طريقاً أو مسلكاً ، أو دليلاً يهديه الطريق ، فلم يجد ، فتسلق شجرة عالية و وقف بين فرعين من فروعها وظل يدور بنظره حوله ليرى موضع الجبل المثلث الرأس ، أو يرى قرص الشمس في منحدرها إلى مغربها ، فلم ير غير ذوائب الأشجار العالية تتلألأ على أوراقها الخضراء أشعة الشمس الذهبية قبل انحدارها إلى الغروب ، وغير الظلال الممتدة التي يرسلها الليل طلائع لجيوشه الزاحفة المتدفقة .

وكانت الريح قد هدأت وخفت صوتها شأنها ساعة الغروب ، وساد السكون على كل شيء ، فأصبحت الغابة كأنها كوكب من كواكب السماء السابحة في أجواز الفضاء ، لا يدب فيها حيوان ، ولا يخطر إنسان ؛ فملك الخوف قلب پول ، وجن جنونه ، وأخذ يصيح بأعلى صوته ، لا يدري من يحدث ومن ينادي :

« الغوث ، الغوث ! النجدة ، النجدة ! إليَّ أيها الناس ؛ لتنقذوا ڤرجيني البائسة المسكينة ! » فلم يجبه غير الصدى المتردِّد .

ولم يزل يكرر هذا النداء والصدى يردد صوته ، حتى خيِّل إليه أن صوته قد أصبح صدى من تلك الأصداء ، فنزل من مكانه خائراً متضعضعاً ، ليس وراء ما به من الهم غاية . ثم وقف وأجال نظره في الفضاء فلم ير ماء ولا ثمراً ولا نخيلاً ولا شجراً ، ولا كنًّا [1] ولا مأوى ، ولا شيئاً مما يقتات به المقتات ، أو يتعلل به المتعلل ؛ فصرخ صرخة عظمى وتهافت على الأرض باكياً منتحباً ، فذعرت ڤرجيني حين رأته على تلك الحال ، وهرعت إليه وضمته إلى نفسها وظلت تقول له :

« لا تبك يا پول ؛ فإن بكاءك يقتلني همًّا وكمداً ، واغفر لي جريمتي التي أجرمتها إليك ؛ فلولاي لما قاسيت هذا البلاء الذي تقاسيه الآن ، ولقد كان خيراً لي ألا أقدم على عمل من أعمال الخير أو الشر إلا بعد استشارة أمي . »

ثم قالت له : « دع البكاء وتوجه إلى الله تعالى بالضراعة والابتهال ؛ عسى أن يفرج كربتنا ، ويجعل لنا من أمرنا مخرجاً . »

وجثيا يصليان صلاة طويلة استغرقت شعورهما و وجدانهما ، وذهبت نفساهما فيها حيث تذهب نفوس القانتين [2] المتبتلين ، في مواقف خشوعهم وابتهالهم . وكانت الشمس قد انحدرت إلى مغربها ، ولم يبق منها في حاشية الأفق إلا كما يبقى على صفحة البحر الهادئ من آثار السفينة الماخرة ، فلبثا على ذلك هنيهة ثم استفاقا على صوت كلب ينبح نباحاً شديداً فصاح پول :

« إنه كلب أحد الصيادين الذين يرصدون الأيائل في أعماق هذه الغابات ؛ ليطلقوا عليها كلابهم فتعقرها . »

ثم اشتد نباح الكلب ، وأخذ يدنو منهما شيئاً فشيئاً ، فارتعدت ڤرجيني وقالت : « يخيل إليَّ يا پول أني أسمع صوت كلبنا « فيديل » ! لا بل هو بعينه ، وما ارتبت فيه قط . »

وما أتمت كلمتها حتى كان الكلب «فيديل» تحت أقدامهما ، يتمسح بهما ويجاذبهما أثوابهما ، ويكاد ، لو استطاع ، أن يبكي فرحاً بهما ، ثم ما لبثا أن رأيا الزنجي دومينج مقبلا عليهما ؛ فازداد سرورهما واغتباطهما ، وما وقع نظر الرجل عليهما حتى هرع إليهما وجثا تحت أقدامهما باكياً مستعبراً ، وظل يقول لهما :

« لقد مر بأميكما اليوم يا ولديَّ يوم ما مر بهما

(١) الكِنُّ : كلُّ ما يردُّ الحرَّ والبردَ من الأبنية ونحوها .

(٢) القانِتُ : المطيع لله والخاشع له .

مثله منذ نزلا هذه الأرض حتى اليوم ، ولقد كان جزعهما عظيماً جداً حينما عادتا من الكنيسة فلم تجداكما ، ولم تعرفا أي سبيل سلكتما ، ولا أي أرض اشتملت عليكما . ولم تستطع ماري أن تقول لهما شيئاً ؛ لأنها كانت مشتغلة ببعض الشئون وراء الكوخ في الساعة التي خرجتما فيها فلم تركما . وقد فتشنا عنكما كل غاد ورائح ، فلم نجد من يدلنا عليكما ؛ فرأيت أن أستعين بالكلب « فيديل » على تتبع آثاركما ، فأحضرت له بعض أثوابكما وألقيتها بين يديه فاشتمها ، وكأنه علم ما يُراد منه ، فألصق خيشومه بالأرض ، وانبعث في الطريق التي سرتما فيها فِعْل الدليل الحاذق ، فتبعته أخترق الغابات والأجمات وأتسلق الصخور والهضاب ، وأجتاز الجداول والأنهار ، وأشعر بجميع ما شعرتما به من المتاعب والآلام ، حتى بلغنا ضيعة الرجل الأوروبي ، على شاطئ النهر الأسود . وهنالك حدثني بعض الذين عرفتهم من عبيده وأجرائه أنكما حضرتما إليه لتسألاه العفو عن زنجية مسكينة ، كانت قد أبِقَت منه وخافت الرجوع إليه ، فوعدكما بالعفو عنها ، ثم ما لبثتما أن عدتما أدراجكما قبل أن تعلما ما تم في شأنها .»

فاضطربت ڤرجيني وقالت : « وماذا تم في شأنها ؟ أ لم يعفُ الرجل عنها ؟»

فابتسم دومينج وقال : « نعم ، عفا عن قتلها وإزهاق روحها ، أما ما دون ذلك فلا ، فإنه ما لبث على أثر ذهابكما أن أمر بشدها إلى بعض الأشجار عارية ، وظل يجلدها بسوطه حتى تناثر لحمها ، وتدفق دمها ، ثم تركها مكانها تتأوه آهات تستبكي العيون وتذيب الأكباد ، وقد رأيتها بعيني فلم أستطع البقاء أمامها لحظة واحدة .»

وما أتم كلمته حتى صعقت ڤرجيني وهتفت بكلمتها التي كانت ترددها دائماً : « آه يا رب ! لِمَ لَمْ تجعل طريق الخير سهلاً ليناً كطريق الشر ؟!»

ثم عاد الزنجي إلى حديثه يقول : « ثم انكفأ « فيديل » راجعاً فتبعته فسار قليلا على شاطئ النهر الأسود ، ثم صعد الجبل الصغير المشرف عليه ، فصعدت وراءه حتى قادني إلى عين ماء جارية ، رأيت على مقربة منها نخلة من نخيل الجوز ساقطة محترقة ، لا يزال ينبعث دخانها ، وبقايا طلع مشويّ متناثر حولها ، فعلمت أنكما عُجْتما [1] بهذا المكان، وأن الجوع قد نال منكما منالاً عظيماً فتجشمتما في طلب الطعام هذا العناء الكثير ، ثم قادني الكلب بعد ذلك إلى هنا كما تريان ، ونحن الآن على مقربة من الجبل المثلث الرأس ، وبيننا وبين المزرعة أربعة فراسخ . وقد أرسلت لكما سيدتاي هذا الطعام فكلاه ، وخذا لنفسكما راحتها وسكونها ، ثم نرى بعد ذلك كيف نعود .»

وأخرج لهما طعاماً كثيراً وأثماراً متنوعة ، وركوة[2] ماء قراح [3] ، وشيئاً من شراب الليمون المحلى بالسكر ، وجلسوا جميعاً يأكلون ويشربون فرحين مغتبطين ، لولا ما كان ينغص على ڤرجيني أحياناً من ذكرى تلك الزنجية المسكينة المعذبة ، حتى فرغوا من الطعام وتهيأوا للمسير ، فإذا پول وڤرجيني ضعيفان متضعضعان ، لا يستطيعان الانتقال خطوة واحدة لما نالهما من الأين والإعياء .

فوقف دومينج وقفة الحائر المضطرب ، لا يدري ماذا يصنع ، أ يحملهما على عاتقه ، وهو ما لا طاقة له به ، أم يقضي الليل بجانبهما و وراءهما أمّاهما تنتظرانهما انتظار الظامئ الهيمان عُلالة الماء البارد ، أم يرجع إلى المزرعة وحده ليعود منها بمن يساعده على حملهما ؟ وكيف له بتركهما وحدهما في هذه القفرة الموحشة ، التي لا يعلم إلا الله ماذا تضم بين أقطارها من مخاوف وأهوال ؟!

فتنفس تنفُّسة طويلة وأنشأ يقول : « أسفي على تلك الأيام المواضي ، حين كنت أحملكما فيها يا ولديَّ على ذراع واحدة ، ما أشكو ولا أتبرم ! أما

(١) عاج بالمكان يعوج: أقام، وعاج على المكان: عَطَف ومال عليه، ومنه قول الشاعر:

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

(٢) الرَّكوة: إناء صغير من الجلد يشرب فيه الماء .

(٣) ماء قراح: ماء صاف خالص .

اليوم فقد وهن عظمي ، وضعُفت مُنّتي [١] ، وتقاربت خطاي ، ولم يبق لي في الحياة إلا هذه الخطوات البطيئات التي أخطوها إلى قبري .»

وإنه لكذلك إذ لمح أشباحاً سوداء تنحدر إليه من قمة الجبل كأنها قطع الليل ؛ فراعه منظرها ، ثم تبينها ، فإذا قوم من الزنوج السود الآبقين من ظلم مواليهم البيض في شعاب الجبال ومخارمها [٢] ، وكانوا قد سمعوا وهم في مكمنهم حديثه مع الولدين ، ورأوا حيرته في أمرهما ، فجاءوا لمساعدته ، وقال له زعيمهم :

« إن هذين الأبيضين الصغيرين من أطيب الناس قلباً وأشرفهم نفساً ، وأدناهم رحمة ؛ فقد جشّما اليوم نفسهما عناء عظيماً في سبيل مساعدة زنجية مسكينة ، كان قد بلغ بها الشقاء والبلاء مبلغهما ، فرحماها وأويا إليها وذهبا بها إلى سيدها ؛ ليشفعا لها عنده ويسألاه العفو عنها والمرحمة بها .

« وقد رأيناهما صباح اليوم وهما سائران معها إلى شاطئ النهر الأسود فشكرنا لهما في أنفسنا فضلهما ونعمتهما ، وعجبنا كيف استطاع ذلك الإهاب الأبيض الدميم أن يضم بين أقطاره قلباً غير أسود ، وقد سمعنا الآن حوارك معهما وعلمنا أنهما في حاجة إلى من يحملهما إلى مزرعتهما ، فجئنا لنتولى ذلك بأنفسنا ؛ مكافأة لهما على نعمتهما التي أسدياها إلى تلك الطريدة المسكينة .»

ثم أشار إلى أصحابه فاقتطعوا في لحظات قليلة بضعة أعواد من الأشجار العاتية ، وصنعوا منها ما يشبه المحفة ، فصعد إليها پول وفرجيني ، وحملها أربعة منهم على عواتقهم ، ومشى الباقون أمامهم ينيرون الطريق بمشاعلهم ، ويغنون أغانيهم الخاصة ، كأنما قد نسوا جميع همومهم وآلامهم التي يعالجونها في أنفسهم ، حتى وصلوا عند منتصف الليل إلى المزرعة .

وكانت هيلين ومرغريت تنتظران ولديهما منذ غروب الشمس عند سفح الجبل ، وقد نصبتا حولهما على أبعاد مختلفة بعض المشاعل الكبيرة لتريا على ضوئها وجوه القادمين ، فما لمحتا المحفة على بعد حتى طارتا إليها ، وضمتا ولديهما إلى صدرهما باكيتين ، منتحبتين ، فبكى الولدان لبكائهما ، وبكى الجميع لبكائهم ، والتفتت هيلين إلى ابنتها ، وقالت لها : « أين كنتما أيها الولدان الشقيان ؟ ومن أذنكما بالذهاب وحدكما في هذه الفلاة الموحشة؟» فجثت فرجيني بين يدي أمها ، وقالت لها :

« العفو يا أماه ! فقد جاءتني اليوم زنجية مسكينة آبقة من سيدها تتضور جوعاً ، وتسيل نفسها همًّا وكمداً ، فسألتني أن أطعمها وأسقيها ، وأن أنقذها من بؤسها وبلائها ، فقدمت لها ما شاءت من الطعام والشراب ، ثم حرت في أمرها بعد ذلك ، فلم أر خيراً لها من أن أصحبها إلى سيدها ، وأسأله العفو عنها والمرحمة بها ، وأبى پول إلا أن يصحبني ؛ فذهبنا إلى شاطئ النهر الأسود .

« فلما فرغنا من شأننا وأردنا الرجوع ضللنا الطريق ، وظللنا حائرين ساعات طوالا حتى وافانا دومينج ، وكان التعب قد نال منا منالا عظيماً ، فعجزنا عن المسير ، فتقدم هؤلاء السود الطيبون لمساعدتنا ، وصنعوا لنا هذه المحفة وحملونا عليها ؛ رحمة بنا ، ووفاء بذلك المعروف القليل الذي بذلناه لمواطنتهم المسكينة ، وكذلك يجزي الله المحسنين خير جزاء بما فعلوا .»

فضمتها أمها إلى صدرها ، وقالت : « قد عفوت عنكما يا ولديّ ، ولا حرمكما الله نعمة العطف على البائسين والمنكوبين .»

ثم عادوا جميعاً إلى أكواخهم فرحين مغتبطين ، وقدموا للزنوج كثيراً من الطعام والشراب ، فشكروا لهم فضلهم وانصرفوا .

* * *

(١) المُنّة: القوة .

(٢) المخارم جمعُ مَخْرِم ، وهو الطريق في الجبل أو الرمل .

(٩)
السعادة

وهنا تنفس الشيخ الصعداء ثم قال: أستطيع أن أقول لك يا بنيَّ إن السعادة ينبوع يتفجر من القلب ، لا غيث يهطل من السماء ؛ وإن النفس الكريمة الراضية البريئة من أدران الرذائل وأقذارها ، ومطامع الحياة وشهواتها ، سعيدة حيثما حلت ، وأنّى وجدت ؛ في القصر وفي الكوخ ، في المدينة وفي القرية ، في الأنس وفي الوحشة ، في المجتمع وفي العزلة ، بين القصور والدور ، وبين الآكام والصخور . فمن أراد السعادة فلا يسأل عنها المال والنّسب ، والفضة والذهب ، والقصور والبساتين ، والأرواح والرياحين ، بل يسأل عنها نفسه التي بين جنبيه ؛ فهي ينبوع سعادته وهنائه إن شاء ، ومصدر شقائه وبلائه إن أراد .

وما هذه الابتسامات التي نراها تتلألأ في أفواه الفقراء والمساكين ، والمحزونين والمتألمين لأنهم سعداء في عيشهم ، بل لأنهم سعداء في أنفسهم . وما هذه الزفرات التي نسمعها تتصاعد من صدور الأغنياء والأثرياء ، وأصحاب العظمة والجاه ، لأنهم أشقياء في عيشهم ؛ بل لأنهم أشقياء في أنفسهم ، وما كدَّر صفاء هذه النفوس ، وأزعج سكونها وقرارها ، وسلبها راحتها وهناءها مثل عاطفة البغض ، ولا أنار صفحتها وجلّى ظلمتها مثل عاطفة الحب .

فأشقى الناس جميعاً المبغضون الذين يضمرون الشر للعالم ، فيجزيهم العالم شراً بشر ، وأسعدهم جميعاً المحبون الذين يحبون الناس ويمنحونهم ودهم وصفاءهم ؛ فيمنحهم الناس من بنات قلوبهم مثل ما منحوهم .

وكذلك استطاعت تلك الأسرة الفقيرة المسكينة أن تكون سعيدة هانئة على فقرها وإقلالها وجعجعة المصائب بها ؛ فقد كانت تحمل بين جنوبها نفوساً طاهرة شريفة ، لا تضمر حقداً ، ولا تعرف غلا ، فأحبت القريب والبعيد ، والمحسن والمسيء ، وعطفت على الناس جميعاً ، من تمت إليه بصلة ، ومن لا تمت إليه بشيء .

ولم تحقد على الناس ، أو تضمر لهم في نفسها شراً ، وما لها إلى الناس حاجة ، ولا رأي لها في مطالبتهم بشيء مما في أيديهم من مال أو جاه ، أو قوة أو سلطان ، فقد قنعت من عيشها بما قسم الله لها ، ولم تطلب مزيداً ، ورضيت من حياتها بهذه العُلالة القليلة التي تتعلل بها ، فأراحت نفسها من هموم المطامع ومتاعبها .

وكانت أحاديثها التي تجري بينها أحاديث طاهرة بريئة ، لا تطغى فيها الألسنة والأفكار ، ولا تتناول شيئاً من شئون الناس خاصها أو عامها ، والغيبة رسول الشر بين البشر ، بل هي أسُّ الشرور جميعها قديمها وحديثها ؛ لأن المرء إذا اعتقد من طريقها الشر في صديقه أو عشيره ، وملكته فكرة سوء الظن به ، أبغضه واجتواه ، وحذره واتقاه ، وكان لا بد له من إحدى اثنتين: إما أن يصارحه ببغضه إياه ؛ فتصبح حياته معه حياة نكدة ، لا نهاية لهمومها وآلامها ؛ أو يماذقه[1] ويداوره ، فيصبح رجلاً منافقاً كذاباً ؛ وخير له من هذا وذاك ألا يسمع عن الناس خيراً أو شراً .

نعم ، إنها لم تكن تعتمد في حديثها على العلم والتاريخ ، كما يعتمد الناس في مجتمعاتهم ، ولا كانت محاضراتها حافلة بالشواهد والأمثال ، والعظات والعبر ، والمقارنات والموازنات ، ولكنها كانت لذيذة شهية ، رقيقة مستملحة ؛ لأنها كانت تستمد جمالها ورونقها من كتاب الطبيعة المفتوح أمامها ، وكتاب الطبيعة هو الكتاب المشرق المنير الذي لا يقبل تأويلاً ، ولا يحتاج إلى تفسير ، والذي يرى فيه قارئُه الحياة كما خلقها الله ؛ فلا حاجة به إلى من يدلُّه عليه ، أو يرشده إليه .

وما هي إلا أيام قلائل ، حتى انتشر لتلك الأسرة الكريمة بين سكان تلك الجزيرة ذكر عطر ، فأخذ الناس يتحدثون بأدبها ولطفها ، ومروءتها وكرمها ، وأياديها الظاهرة والخفيَّة ، ورحمتها الخاصة والعامة ،

---

(١) ماذَقَ فلان فلاناً: لم يخلص له الود .

وإن لم يعرفوا لها اسماً ولا لقباً ، فإذا سأل السائل من السابلة أو الطارئين : « من هم ؟» كان جواب المجيب : « إنهم قوم طيبون وكفى .» كشجرات البنفسج المختبئة بين لفائف الأدغال ، ينشقُّ الناس طِيبها ، ويحمدون عَرْفها ، وإن لم يعرفوا مكانها !

* * *

(١٠)

العمــل

وكان پول وهو في الثالثة عشرة من عمره كأنه في الخامسة عشرة قوة ونشاطاً وهمة وعزيمة وذكاء وفطنة ، فكان لا يمل العمل نهاره ولا ليله ، ولا يتلهى عنه بما يتلهى به أمثاله من الغلمان في مثل هذه السن ، وكأنما كان يشعر في نفسه أنه مسئول عن هذه القفرة الموحشة أن يحيلها إلى جنة فيحاء من جنان الأرض ؛ فلا بد له أن يعمل حتى يصل إلى الغاية التي يريدها ، وكان لا يعمل قبل أن يفكر ، ولا يفكر إلا تفكيراً صحيحاً مستقيماً ، وقد وهبه الله قريحة وقادة وذهناً خصباً ، وذوقاً سليماً ، ومخيلة قوية قادرة على جمع شوارد الأشياء والتأليف بين متنافراتها ، فرسم في ذهنه صورة بديعة لذلك الوادي الجميل ، كما يفعل المهندس الماهر ، وأخذ نفسه بالعمل لإبرازها وتحقيقها فلم يخطئ ، ولم يضطرب ، ولم يلجأ إلى الاستشارة إلا في القليل النادر مما يستعصي مثله على أمثاله .

فكان لا يراه الرائي إلا غادياً أو رائحاً أو مصعداً أو منحدراً ، أو متسلقاً شجرة ، أو مكبًّا على قناة ، أو حاملا غرساً ، أو خائضاً نهراً ، ودومينج وراءه يعينه على ما يعجز عنه من حمل الأثقال وتحويل المياه ونقل الأغراس ، فأنشأ الحظائر المختلفة للحنطة والشعير ، والدخن والذرة والقطن والقصب ، تزخر كل حظيرة بما فيها من ماء وثمر ، وغرس أشجار الليمون ، والبرتقال ، والتمر الهندي ، ونخيل البلح ، والجوز ، وألواناً من الأزهار والأنوار تتألق في أغصانها تألق الأحجار الكريمة في التيجان المرصعة . وأجرى المياه حول تلك الأغراس وفي خلالها بنظام دقيق ، كأنما قد خطها بالبركار ، وزرع الأكمات والروابي المشرفة على الوادي من جميع نواحيه ؛ فتراءت لعين الناظر كأنها قباب لطاف أو أهرام صغار مكسوة برقاق الخز والديباج على اختلاف أصباغها وألوانها ، ولم يترك بقعة جدبة ، ولا أرضاً صلبة إلا هز تربتها ، وأحيا مواتها فاستحالت إلى روضة أُنُفٍ[٢] تتدفق ثماراً وأزهاراً ، وتسيل عيوناً وغدراناً .

وأعجب ما كان يعجب الناظر في هذه الروضة الزاهرة منظر المياه المتدفقة من أعالي الجبال ، تنثر الخصب حولها نثراً ، وتدور بالرُّبى والهضاب قلائد وعقوداً ، والخمائل والأشجار أوشحة ومناطق ، وتتلوى في سيرها وتدفعها تلوي الحيات المذعورة الهائمة على وجهها ، حتى إذا انتهت إلى السفح مشت برفق وهدوء تتبسَّط في مذاهبها ومناحيها ، ثم تتلاقى أطرافها ، فتكوِّن بركاً صغيرة مستديرة ، تحف بها الأعشاب المخضرَّة كما تحف بالعيون أهدابها ، فإذا انعكست على تلك البرك زرقة السماء خيل إليك أنها المرايا الصافيات في أطرها [٣] ، أو أحجار الفيروز في خواتمها .

ولما كانت الأرض في تلك الدائرة متدرجة غير مستوية ؛ فقد راعى أن يغرس الأدواح الباسقة في البقاع المنخفضة ، والأشجار المتوسطة في الأماكن المتوسطة ، والشجيرات القصيرة في المشارف العالية ، فاستوت رؤوس الأشجار في علوها وارتفاعها ، كأنما قد قرضت ذوائبها بمقراض ؛ أو كأنما غرسها غارسها في بطحاء مستوية .

وكان يعمد إلى الهضاب العالية ذات الجباه البارزة ، فيغرس بين يديها الأشجار العظيمة المورقة ، فتتلاقى ذؤابة الشجر بذؤابة الهضبة ؛ فتتكون منهما قبة جوفاء تشرف على مجلس رطب ظليل ، كانوا

(١) العَرْفُ: الرائحة مطلقا ، وأكثر ما يستعمل في الرائحة الطيبة .

(٢) الأنف من الرياض: ما لم يرعه أحد .

(٣) الأطر: جمع إطار، وهو ما يحيط بالشيء .

يفيئون إليه من حر الهاجرة ، فإذا هم في روضة يانعة من رياض الجنة ، تزخر أشجارها ، وترن أطيارها وترف ظلالها ، وتتهادى نسائمها . وأجمل من هذا وذاك أنه غرس صفين متقابلين من الأشجار الوحشية الضخمة ، يمتدان على مدى بعيد فتألف منهما دهليز ضيق مستطيل ، لا تنفذ إليه أشعة الشمس ، ولا تكاد تصل إليه أضواء النهار ، فإذا دخله الداخل خيل إليه أنه يسير في نفق مظلم تحت الأرض ، وشعر بوحشة غريبة أشبه بتلك الوحشة التي يشعر بها سكان السراديب في سراديبهم ، أو عملة المناجم في أعماق مناجمهم .

في أحضان ذلك الوادي الجميل ، وفي ذمة تلك الجنة الزاهرة ، وبين أعطاف تلك الدائرة الواسعة المخضرّة من الرُّبى والهضاب كان يعيش هؤلاء القوم في أكواخهم البسيطة عيشاً سعيداً هانئاً ، متمتعين بما لا يتمتع به الأثرياء في قصورهم وبساتينهم والسعداء في جناتهم وعيونهم .

فإذا انقضى النهار و أوت الشمس إلى خدرها ، صعدوا إلى صخرة عظيمة تشرف على ذلك الوادي جميعه ؛ فيتجلى أمامهم منظره العام بعيونه وغدرانه ، وأعشابه وأشجاره ، وخمائله وكرومه ، ومروجه وحرجاته ، وظلاله وأضوائه .

فإذا ألقوا بأنظارهم في جو السماء المائج فوق رؤوسهم بأضوائه وأنواره ، خيل إليهم أنهم بين سماءين متقابلتين ؛ سماء تنبت الكواكب والنجوم ، وأخرى تنبت الأزهار والأنوار ؛ أو روضتين متراثيتين ، تتألق في إحداهما الزنابق البيضاء على ديباجة زرقاء ، وفي أخراهما الورود الحمراء على قطيفة خضراء .

* * *

(١١)
التاريخ

وكانوا يسمُّون هذه الصخرة «اكتشاف الصداقة» ؛ لأن بول غرس في قمتها شجرة دقيقة من شجر الأثل ، ورفع في أعلاها منديلاً أبيض يشبه العلم ، وناطه[1] بخيوط مختلفة تسترسل في أسفل الشجرة ، فإذا لمحني مقبلاً على البعد شد الخيط ، فانتشر المنديل واضطرب في الهواء ، وكان ذلك إعلاناً للأسرة بقدومي ، كما يرفع العلم على قمة الجبل إعلاناً بقدوم سفينة إلى الشاطئ .

وكذلك كان شأنهم دائماً في تسمية الأماكن والبقاع والجذوع والأشجار التي يحبونها بأسماء لطيفة يرمون بها إلى غرض خاص ، ويسجلون بها فكرة معينة ، فكان يخيل إليَّ أنهم يلقون عليها أشعة أرواحهم النورانية السامية ؛ فتدب فيها حياة جديدة فوق حياتها الأولى ، فأطلقوا اسم « ميدان الاتفاق » على بساط من العشب الأخضر مسوَّر ببضع شجيرات متّسقات من أشجار البرتقال ، كان بول وفرجيني يرقصان عليه معاً في ضوء القمر . وأطلقوا اسم « الدموع الممسوحة » على شجرة عتيقة جلست تحتها هيلين ومرغريت لأول عهدهما باللقاء ، وأخذت كل منهما تقص على صاحبتها قصتها وتبثها أحزانها وآلامها ، فتضمها الأخرى إلى نفسها وتعزيها عن همها وتمسح لها دموعها ، وسموا حقلاً من القمح باسم « نورماندي » مسقط رأس هيلين ، وآخر من الأرز باسم « بريتانيا » مسقط رأس مرغريت ، إلى كثير من أمثال تلك الذكريات القديمة ، كأنما أرادوا – وقد هجروا بلادهم إلى الأبد ، وحالت الحوائل بينهم وبينها – أن يستصحبوها معهم تصوراً وخيالاً ، بعدما فقدوها سكناً وموطناً ؛ ليأنسوا بها بعض الأنس ، ويلطفوا من حرارة شوقهم إليها .

وأغرب من ذلك أن الزنجيين « ماري و دومينج » لم يكن قلبهما خالياً من ذلك الشعور الطيب الشريف ؛ شعور الوفاء للوطن والحنين إليه ؛ فأطلقوا اسم « أنغولا » و « فول پوانت » على بعض حقول الدخن ومنابت القرع ؛ شغفاً بأوطانهما وعهود صباهما وضنًّا بذكراها أن تزول .

---

(١) ناطه: وصله .

وكانت تعجبني من هؤلاء القوم كثيراً تلك الروح الأثرية الغالبة على شعورهم و وجدانهم ؛ لأني أعتقد أنها هي بعينها روح الوفاء والإخلاص ، وأن من لا خير فيه لماضيه ، فلا خير فيه لحاضره ومستقبله .

وما زلت مذ نشأت لا أوثر منظراً من مناظر الحياة، ولا مشهداً من مشاهد الحسن والجمال على منظر أثر قديم ، أعثر به في سفرة من أسفاري في بادية منقطعة ، أو صحراء شاسعة ، فأقف بين يديه ساعة من نهار ، وأرى في نؤيه وأحجاره ، وصخوره المبعثرة ، وأعمدته المتناثرة ، ونقوشه المحفورة على بقايا جدرانه ، صورة أولئك القوم البائدين ، الذين كانوا يسكنونه ويعمرون عرصاته ومغانيه ، وكأني أسمع في صفير رياحه وعزيف جنه وغيلانه صائحاً يصيح بي :

« لقد كان يعيش في هذا المكان عالم مثل عالمكم ، يشعرون كما تشعرون ويفكرون كما تفكرون ، ويؤمّلون في الحياة الطيبة الهانئة كما تؤملون ، وهم وإن ذهبوا بأجسامهم ، وخلا وجه الأرض من سميرهم وأنيسهم ، فهم باقون بينكم بأرواحهم وآثارهم ، وما أنتم يا أبناءهم وأحفادهم وحملة أسرار حياتهم إلا أرواحهم وآثارهم ، التي بقيت على الأرض من بعدهم .»

هنالك أشعر أنني قد انتقلت من حاضري إلى ماضيّ ، وأنني أعيش في تلك العصور القديمة بين آبائي وأجدادي ، أحدثهم ويحدثونني ، وأفضي إليهم بذات نفسي ، ويفضون إليّ بذوات نفسهم ، فأقضي على ذلك ساعة من الزمان ، ثم أذهب لشأني وقد فاضت نفسي شعوراً بأن النفس الانسانية خالدة باقية ، لا تنال منها عاديات الزمان ، ولا تعبث بصورتها الأيام والأعوام .

وكنت لذلك شديد الشغف بحفر الكلمات أو نقشها على كل ما يقع عليه نظري من الجذوع والأشجار ، والصخور والأحجار ، وكل ما أمر به في طريقي مما أحبه وأرضاه ، وأتمنى له الخلود والبقاء ، كأنني كنت أريد أن أمد الأجيال المقبلة بالذكريات العظيمة ، كما أمدتنا الأجيال الماضية بذكرياتها وعهودها ، فحفرت على ساق شجرة العلم كلمة « هوراس » اللاتيني : « وقاك الله شر العاصفة ، ولا عبثت بك إلا أيدي النسائم » ، وعلى جذع شجرة كان پول يجلس تحتها أحياناً ليشاهد منظر البحر الهائج ، قول الآخر : « ما أعظم سعادتك ، لأنك لا تعرف إلهاً غير إله النبات !» وعلى باب كوخ هيلين ، وكان هو مجتمع الأسرة ومنتداها ، هذه الكلمة : « هنا ضمير صالح ونفس لا تعرف الخداع .»

وكانت ڤرجيني تستثقل هذه الكلمات وتراها غامضة ومتكلفة ، وقالت لي مرة :

« حبذا لو أنك كتبت على شجرة العلم : ثابتٌ دائماً رغم اضطرابه ، بدلاً من كلمتك التي كتبتها .»

فأجبتها : « ذلك إنما يقال في موقف الحث على الفضيلة .» ، فاحمرّ وجهها خجلا وصمتت .

ذلك كان شأن هذا الوادي فيما مضى ، أما اليوم فقد عفا فيه كل شيء ، ودرس كل أثر ، ولم يبق من تلك الرسوم الماضية إلا كما يبقى من الوشم في ظاهر اليد ، وأصبحت أعيش في هذا المكان ، كأنني أعيش بين خرائب أثينا أو أطلال منف ، وما مضى على تاريخنا أكثر من عشرين عاماً .

* * *

(١٢)
مخدع ڤرجيني

ولم أر فيما رأيت من المناظر الجميلة والمشاهد الفاتنة المؤثرة منظراً أبدع ، ولا أجمل ، ولا أعلق بالقلوب ، ولا أشهى إلى النفوس من منظر ذلك المكان ، الذي كانوا يسمونه « مخدع ڤرجيني » ، وهو كهف صغير منحوت في أصل الصخرة الكبرى ، كأنه مضجع النائم يتفجر بين يديه نبع

غزير صاف ، تحف به نخلتان من نخيل الجوز كانت مرغريت قد بذرت بذرة إحداهما منذ أربعة عشر عاماً يوم ولادة ولدها پول، وبذرت هيلين بذرة أخرى منذ ثلاثة عشر عاماً يوم ولادة ابنتها ڤرجيني ، فنبتتا مع الولدين وسميتا باسميهما . وما ذهبتا مذهبهما في جو السماء حتى تدانت شعفاتهما واشتبكتا كأنهما تتعانقان ، وكانت نخلة پول أطول قليلا من نخلة ڤرجيني ؛ لأن پول كان أسن من ڤرجيني لعام واحد وأطول قامة منها .

و ربما كان هذا المكان هو المكان الوحيد الذي تركوه للطبيعة ، تذهب في شأنه حيث شاءت من مذاهبها ، دون أن يتناولوه بتهذيب ولا تنسيق ؛ فنبتت من حول المياه المنبسطة بضع شجيرات مختلفة الألوان والأشكال والأحجام والأطوال ، ما بين ضخم الجذوع ودقيقها ، ومنتشر الفروع ومجتمعها ، وضارب في أعماق الأرض ، وذاهب في جو السماء؛ فاختلفت ثمراتها وزهراتها ، وطعومها ومذاقاتها ، وروائحها ونفحاتها ، ودب بعضها إلى ظهر تلك الصخرة المشرفة ؛ فنشر عليها غلالة رقيقة من أزهاره ورياحينه ، ثم انحدر عنها خيوطاً دقيقة ناعمة ، ترفرف في الهواء كما ترفرف شعور الحسناء على ضفاف الماء .

و لم يكن شيء من الأشياء أحب إلى ڤرجيني وأشهى إلى نفسها من أن تأوي في أوقات راحتها وفراغها إلى هذا المكان الجميل ؛ لتمتع نظرها بمرأى تلك المياه الثلجية البيضاء المتفجرة من ذلك النبع الغزير ، ومرأى تينك النخلتين البديعتين المتعانقتين على ضفته ، ومنظر تلك المروج الخضراء المنبسطة من حوله ، وكانوا لذلك يسمونه « مخدع ڤرجيني » .

وكانت تستصحب معها كلما ذهبت إلى هناك غنيماتها وأعنزها فتتركها ترعى بين يديها ، ويعجبها أن ترى واحدة منها قد وثبت إلى ظهر الصخرة ، و وقفت على مؤخر أطرافها ، واشرأبت بعنقها لتتناول بفمها بعض الأغصان فتقضمها قضماً ، فكأنها معلقة في الهواء ، أو كأنها تمثال مائل في الفضاء.

و ربما أخذت معها ملابسها وملابس الأسرة ، فغسلتها على حافة النبع ، أو جلست ناحيةً تحلب ألبان ماشيتها ثم تمخضها .

وكان پول يختلف إلى هذا المكان من حين إلى حين كلما أمكنته الفرصة ، فيجلس إلى ڤرجيني جلسة هانئة سعيدة ، يغتبطان فيها بتلك العزلة الهادئة الساكنة ، وذلك المنظر الساحر البديع .

وكان أعظم ما يروقهما ويستثير سرورهما وغبطتهما منظر الطيور البحرية وهي مقبلة من شاطئ البحر الهندي مع الظلام زُمَراً زُمَراً ، ترسم في صفحة السماء خطوطاً مستقيمة ومتعرجة ودوائر تامة وناقصة ، وتغرد أغاريدها المختلفة الألحان والنغمات حتى تنزل بهذا المعتزل الساكن الظليل لتقضي فيه سواد ليلها ، فإذا انقضت دولة الظلام ونشر الفجر رايته البيضاء في آفاق السماء طارت مع أشعته وأضوائه ، وذهبت من مذاهبها حيث تشاء .

وكأن پول قد عز عليه ألا تتمتع ڤرجيني بذلك المنظر البديع الرائق في جميع أوقاتها ؛ فأخذ ينقل إلى الأشجار المحيطة بهذا المكان من الغابات القريبة فراخ الطير في أعشاشها فيتبعها أمهاتها . وما هي إلا أيام قلائل حتى اتخذت لها في الروض الأريض[1] موطناً جديداً تروح إليه وتغدو ، فأنست بها ڤرجيني أنساً عظيماً ، وعطفت عليها عطف الأم الرءوم على صغارها ، فكانت تطعمها وتسقيها ، وتحمل لها في حجرها حبوب القمح والذرة ، فتنثرها بين يديها . فإذا رأتها الطيور مقبلة من بعيد تطايرت إليها من أوكارها وأعشاشها صادحة مترنمة ، وحامت فوق رأسها تلتقط الحب من يدها مرة ومن الأرض أخرى ، فيكون منظرها في اختلاف ألوانها وتَمَعُّجها [2] واضطراب حركاتها أشبه شيء بمنظر الثوب المُفوَّف[3]، قد عبثت أشعة الشمس بخيوطه الحريرية فماج بعضه في بعض ، فتظل ڤرجيني لاهية

---

(١) الأريضُ: كثير النبت، والخير . (٢) التمعج: التَّلوّي والتَّثنّي .
(٣) المُفَوَّف: الثوب الرقيق، أو الذي فيه خيوط بيضاء على الطول.

بهذا المنظر مفتتنة به ، وبول مغتبط باغتباطها ، راض عن نفسه برضاها حتى يعودا معاً ساعة الغروب إلى كوخهما .

و هنا تنفس الشيخ الصعداء وألقى أمامه نظرة بعيدة جامدة ، كأنما ينظر إلى شبح مقبل عليه ، فألقيت نظري حيث ألقى نظره فإذا هو محدق في تلك البقعة التي سماها « مخدع فرجيني » وأخذ يهمهم كأنما يحدث نفسه ويقول :

أيها الولدان العزيزان ، إن أنس شيئاً فإنني لا أنسى أيامكما العذبة الجميلة التي ملأتما فيها حياتي سروراً وغبطة ، وكنتما لي صديقين حميمين ، ما أنكر منكما ولا تنكران مني شيئاً ، ولا أنكما كنتما أبرّ الناس بي وأحدبهم عليّ ، حتى أصبحت أشعر أنني أعيش بجانبكما في أسرتي بين أهلي وقومي ، وأن أيام صباي قد عادت لي بوجهها الطلق النضير ، فسلام عليكما حيث كنتما ، و سلام على عهدكما البائد الدارس ؛ عهد الصلاح والبر ، والفضيلة والشرف ، والحب والوفاء !

* * *

(١٣)
ليالي الشتاء

وكان إذا جاء الشتاء وسالت الأجواء برداً وقراً ، وأوت الطيور إلى أوكارها ، والوحوش إلى أحجارها ، قضوا داخل أكواخهم ليالي سمر جميلة ، يجتمعون فيها حول منضدتهم العارية على ضوء مصباح ضئيل ، يلقي أشعته الصفراء الخفاقة على ما نيط بجدران الكوخ من معاول وفؤوس وقواطع ومناشير ، وما كدّس في أركانه من حقائب وجوالق وقرب وروايا ، فترى كأنها الأشباح الجاثمة ، أو الوحوش الرابضة ، فيتحدث بول عن حقوله وأغراسه ، وغلاته وثمراته ، وأحواضه ومستنبتاته ، وما نضج من أزهارها ، وما لم ينضج ، وما نقل منها إلى الظل ، وما أبقي تحت أشعة الشمس ، وعن الكروم وعناقيدها ، والقمح وسنابله ، والذرة وأعوادها .

وتحدثهم فرجيني عن عصارة القصب ، ومنقوع الشعير ، وشراب الليمون ، وأمثال ذلك من الأشربة التي تعلمت من أمها صنعها ، واعتادت أن تقدمها لأسرتها صباح كل يوم ومساءه ، وقد تحدثهم أحياناً عن حديقتها الصغيرة ، فتظل تصف لهم نبعها المتفجر الثّجّاج[1] ، ونخلتيها الباسقتين المتعانقتين ، وما نبت حولها من ألوان الزهر وصنوف العشب ، وما يختلف إلى خمائلها وأشجارها من أسراب الطير وجماعاتها ، ليلها ونهارها ، صادحة مترنمة ، كأنها فرقة موسيقية تتحد نغماتها وتختلف رناتها .

وتقص عليهم مرغريت بعض القصص الغريبة المملوءة هولاً ورعباً ، كقصة السائح المسكين الذي ضل به طريقه في إحدى الليالي الداجية المدلهمة في بعض غابات بريتانيا الموحشة ، فخرج عليه بعض اللصوص من مكمنهم فسلبوه ماله وراحلته ، ثم خافوا جريرتهم فقتلوه وألقوه في أحشاء الغابة . أو قصة السفينة التي عصفت بها الريح في بحر الشمال ، وأحاط بها الموج من كل جانب ، وأخذت عليها جميع السبل ؛ فغرقت وغرق معها ركابها ، ولم يبق من آثارها إلا بضعة ألواح ألقاها الموج على جوانب بعض الصخور الناتئة ؛ فيتأثر بول وفرجيني لسماع أمثال هذه القصص تأثراً شديداً ، ويتفجر في قلبيهما ينبوع صاف من الرقة والرحمة بهؤلاء البائسين المنكوبين ، ويتمنيان بكل ما تملك أيديهما أن لو وفقا في يوم من أيام حياتهما إلى هداية سائح ضال عن طريقه ، أو إنقاذ غريق من مخالب الموت .

وكثيراً ما كانت تقرأ عليهم هيلين شيئاً من قصص « العهد القديم » وبعض آيات من « العهد الجديد » فيسمعها الآخرون ساكنين خاشعين تسيل نفوسهم أسى ، وعيونهم أدمعاً ، إلا أنهم ما كانوا يحفلون كثيراً بتفهم مضامينها ، واكتناه أسرارها ،

(١) الثجّاج: الشديد الانصباب .

كأنما كانوا يشعرون أنفسهم أنهم أغنياء عن هذا كله ، بما وهبهم الله من إيمان فطري بسيط لا يحتاج إلى تفسير ، ولا توضيح ، ومن يقين راسخ في أعماق قلوبهم ، يثلج صدورهم ، ويملأ فضاء نفوسهم راحة وسكينة ، حتى كان يخيل إليهم أحياناً أن الفضاء الذي بين أيديهم إنما هو معبد مقدس ، يصلون لله في أية بقعة من بقاعه شاءوا ، ويرون الله في أي مطلع من مطالعه أرادوا . فكأن الطبيعة بين أيديهم إنجيل مفتوح تقوم فيه الآيات المنظورة مقام الآيات المتلوة ، والبراهين الحسية مقام البراهين التوقيفية المقروءة .

وهل الرحمة الإلهية إلا تلك الثمرات التي نبتت لهم في أرض مقفرة مجدبة ، لا ينبت مثلها غير الجهد والشقاء ؟ وهل القدرة الربانية إلا تلك الجنة الأرضية الزاهرة التي اختلفت أوضاعها وأشكالها وطعومها وروائحها ، وقد سقيت بماء واحد ، وأشرقت عليها شمس واحدة ؟ وهل العناية الصمدانية إلا ذلك التوفيق الغريب ، الذي ضم بعضهم إلى بعض ، على بعد دارهم واختلاف مواطنهم ؟ فتكونت منهم أسرة واحدة متحابة متآلفة ، يغنيها اجتماعها واتفاقها عن الأهل والوطن والمال والنسب .

وكانت تجري بينهم تلك الأحاديث والطبيعة خارج الكوخ هائجة صاخبة ، تجلجل رعودها ، وتعصف رياحها ، وتتدفق سيولها ، وتصخب أمواجها؛ فيحمدون الله تعالى على أن كفاهم شرورها و ويلاتها ، ومنحهم هذا الملجأ الأمين ، الذي يفزعون إليه من كوارثها وأرزائها ، ثم لا تلبث السِّنة أن تخالط أجفانهم ؛ فينسلوا إلى مضاجعهم ويناموا فيها نوماً هادئاً ساكناً ، لا قلق فيه ولا اضطراب ، ولئن كان صحيحاً ما يقولون من أن لكل امرئ في الحياة يومين ؛ يوم بؤس ويوم نعيم ، لقد كان لهؤلاء القوم من دون الناس جميعاً يوم واحد لا يرون فيه غير وجه النعيم ، ولا تطلع عليهم شمسه إلا بما يحبون ويرتضون .

وكان الدهر يأبى عليهم أحياناً إلا أن يُجريَ حكمه فيهم كما يجريه على الناس جميعاً ، فيأذن لبعض غيومه القاتمة أن تلم بسمائهم الصافية فتغَشّي صفحتها ، وتكدر صفاءها ، فإذا نزلت بأحدهم نازلة مرض أو همّ ، رأيت الباقين قد أحاطوا به وبسطوا عليه جناح عطفهم ورحمتهم ، وكأنما قد أصيبوا من دونه بالذي أصيب به ، ولا يزالون يلاطفونه ويداورونه ، حتى ينتزعوا الهم من بين جنبيه انتزاعاً ، فإذا هو بارئ سليم ، كأن لم يشكُ قبل اليوم همًّا ولا ألمًا .

وكانوا يذهبون أيام الآحاد لأداء الصلاة في كنيسة « بَمْبَلْموس » ذات القبة العالية ، التي تراها هناك في وسط ذلك السهل الفسيح ، مشاة على أقدامهم ، لا يشكون تعباً ولا نصباً ، فإذا وصلوا إليها رأوا كثيراً من الأثرياء وأرباب النعمة مقبلين في هوادجهم المحمولة على أعناق عبيدهم في رونق بديع ، يملأ العين بهجة ، والقلب روعة ، فلا يحفلون بهم ، ولا يكترثون ، ولا يحسدونهم على ما آتاهم الله من نعمة ، بل كانوا يتجنبون جهدهم أن يخالطوهم أو يجيبوا داعي مودتهم ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن القوي لا يمنح الضعيف وده ومحبته إلا ليبتاع منه ماء وجهه وكرامة نفسه ، ولا يبذل له القليل من بره ومعروفه إلا ليستعبده ويستأثره ، ويملك عليه زمام حياته ، وهم لا يريدون أن يبذلوا من ذلك شيئاً .

كما أنهم يتجنبون جهدهم مخالطة الهمج والرعاع وأسقاط الناس وأشرارهم ؛ ضنًّا بنفوسهم أن يسري إليها من طريق المخالطة الساقطة ما يشوّه جمالها ويغشي لألاءها [1] ؛ فاتهمهم الناس بالضعف مرة وبالكبرياء أخرى ، ومضوا معهم على ذلك عهداً طويلاً حتى عرفوهم حق المعرفة ، واستشفوا سريرة نفوسهم ؛ فعلموا أنهم أشرف من هذا وذلك ؛ فإنهم ما كانوا يضنون بأنفسهم أن يقفوا الوقفات الطوال مع من يعترض طريقهم من الناس ، فيسألهم حاجة من الحاج [2] ، أو يستعين بهم على

(١) اللألاء: الضوء والنور . (٢) جَمْعُ حاجة .

كارثة من كوارث الدهر ، أو يدعوهم إلى زيارة مريض ، أو مساعدة منكوب ، ولا يأبون أن يدخلوا الأكواخ القذرة الوبيئة لزيارة المرضى ومواساتهم ، وتفقد حالة المنكوبين والبائسين .

فإذا دخلوا على مريض جلسوا حوله طويلاً وعللوه كثيراً وحاطوه بعطفهم وعنايتهم ، فتقدم له مرغريت الدواء ، وفرجيني الابتسامات ، وهيلين التعزية ، وبول النصائح الطبية ، فكانوا يعالجون في آن واحد نفسه وجسده ، ثم يعودون وقد خالطت نفوسهم عاطفتان مختلفتان ؛ عاطفة الحزن على أولئك المعذبين المتألمين ، وعاطفة الغبطة بما وفقهم الله إليه من تسرية همومهم وتهوين آلامهم .

وكان منزلي على مقربة من تلك الكنيسة ، ليس بينها وبينه إلا طريق واحد يمتد بجانب الجبل صعداً حتى يصل إليه ، فإذا قضوا حاجتهم من مؤاساة البائس ، وتعليل المريض ، وتعزية المنكوب ، سلكوا تلك الطريق إلى منزلي ؛ ليقضوا عندي بقية يومهم ، فكنت أعد لهم الغداء على شاطئ جدول صغير تحت ظُلّة دانية من شجر الموز . وكان غداؤنا بسيطاً جداً ؛ لا يزيد على ما يقذفه إلينا البحر من أسماكه ، وما يسقطه علينا الشجر من أثماره ، وما نظفر به في فضاء الجو من سارح أو بارح . و ربما ضممنا إليه شيئاً من التوابل والأفاويه المركّبة من الأعشاب الهندية الحارة ، فإذا قضينا غداءنا جلسنا للراحة فوق هضبة عظيمة على شاطئ البحر ؛ لنمتّع أنظارنا برؤية أمواجه، وهي مقبلة علينا يتلو بعضها بعضاً حتى تتكسر تحت أقدامنا ، ثم تنبسط قليلا على ذلك الشاطئ الرملي الفسيح ، ثم تتلاشى كأنها لم تكن .

وكان بول إذا رآها مقبلة فرّ من بين يديها كأنه طريدها الذي تطلبه ، وربما تلكأ في جريه عمداً حتى تدركه فإذا هو مكفن في كفن صاف من نسيجها الأبيض ، فتصرخ فرجيني حين تراه على هذه الحالة صرخة عظمى ، كأن الأمر قد بلغ عندها مبلغ الجد ، أو كأنها ترى من وراء حجب الغيب منظراً مخيفاً يروعها ويزعجها ، فتظل تقول بينها وبين نفسها : « يخيل إليّ وأنا أنظر إلى هذا البحر المائج المصطخب أنني أرى بين كل موجتين قبراً محفوراً ! » ثم لا تلبث أن تعود إلى نفسها ، وتثوب إلى رشدها وتستأنف سرورها ومرحها ، فيدعوها بول إلى الرقص معه فيرقصان معاً على بساط الرمل الأصفر تلك الرقصة الزنجية البسيطة التي لا هُجر فيها ، ولا يشوبها عار ولا إثم ، ثم يغنيان بعض قطع جميلة ، لا أزال أذكر منها حتى اليوم قطعة « البحر الزاخر » التي يثني فيها قائلها على الحياة الهادئة البسيطة فوق ظهر اليبَس ، ويذم الحياة القلقة المضطربة على سطح الماء ، وينعى نعياً كثيراً على أولئك الذين يدفعهم شرههم وطمعهم إلى ركوب البحر واحتمال مخاطره وكوارثه ؛ طلباً للثراء الواسع ، والمال الكثير بدلا من بقائهم في أوطانهم بين أهليهم وعشيرتهم، والقناعة بما قسم الله لهم من الرزق .

وكان يخطر لفرجيني أحياناً أن تمثّل بعض الروايات القصيرة التي سمعتها من أمها ؛ فتظهر على مسرح الشاطئ الرملي حاملة جرتها على رأسها ، كأنها ذاهبة إلى بعض الآبار للاستقاء ، حتى إذا بلغت مكان البئر وقف دومينج وماري ومرغريت في طريقها ، كأنهم رعاة مَدْيَنَ يحولون بين ابنة شعيب وبين البئر ، فيلمحها بول على البعد فيسرع لنجدتها ويحمل على الرعاة حملة شديدة حتى يمزقهم كل ممزق ، كما فعل موسى ، ثم يضع لها فوق رأسها طاقة جميلة من الزهر الأحمر ؛ لتضع الجرة فوقها ، فكأنه يكللها بإكليل الزواج ، فأقوم أنا بتمثيل دور «شعيب» وأزوّج ابنتي «صفورة» من الفتى «موسى» .

وأحياناً كانت تمثل دور البائسة «راعوث» ، حينما عادت إلى بلدها بعد غياب طويل فترى نفسها غريبة منقطعة لا أهل لها ولا رحم ؛ فتظل سائرة في طريقها مطرقة الرأس ساهمة الوجه حتى تلمح جماعة الصيادين ، وكان يمثلهم دومينج وماري ومرغريت ، يحصدون في مزرعتهم ، فتتبع خطواتهم ، وتلتقط بعض السنابل الساقطة لتتبلغ بها فيراها بول ، وهو يمثل دور « بوعز » أحد نبلاء المدينة ، فتدركه رقة لها فيتقدم نحوها ويسألها عن شأنها ، فترتعد بين يديه ،

وتجيبه على أسئلته بصوت خافت متهدج ، فتذرف عيناه الدموع ؛ رحمة بها ومرثاة لها ، ويأخذ بيدها حتى يقف بها أمام شيوخ المدينة في منتداهم ، ويعلن زواجه منها رغم فقرها وإقلالها .

و هنا تذكر هيلين حياتها الأولى ، وأنها كانت أشبه شيء بحياة تلك الفتاة الإسرائيلية المسكينة ، وأنها لقيت من أهلها وجفائهم وغلظتهم مثل ما لقيت ، وكابدت من آلام الحياة وهمومها مثل ما كابدت ، فتبكي بكاء طويلاً .

ثم لا تلبث أن تصل بخيالها إلى النهاية الطيبة التي ختمت بها تلك الرواية فتهدأ نفسها قليلاً ، وتتفاءل خيراً لابنتها أن يكون مصيرها هذا المصير السعيد .

و جملة القول إننا كنا نتمتع في ذلك اليوم بجميع ما يتمتع به السعداء في منتدياتهم ومجتمعاتهم ومعاهد أنسهم ولهوهم ، من أكل وقصف[1] ، ورقص وتمثيل ، ولعب ومزاح ، لا فرق بيننا وبينهم إلا أننا لا نزخرف المسرح الذي نتنقل عليه بالصور الكاذبة للبحر والشاطئ ، والصحراء والسماء ، والكواكب والنجوم ، والنبات والعشب ، وهدير الأمواج وزفيف الرياح ، ودمدمة الرعود كما يزخرفون ؛ فكل ذلك حاضر بين أيدينا حقيقة لا خيالاً .

ولا نزال هكذا حتى تدنو ساعة الأصيل ويقف قرص الشمس وقفة الوداع على قمة الجبل متوهجاً كاللهب الأحمر ، فيظل ينثر ذراته الذهبية في عرض الفضاء ، وتظل قطع الأنوار تتساقط من بين فجوات الأغصان ، كأنها الدنانير المبعثرة ، وتستحيل أوراق الزهر في سكون ذلك الجو وهدوئه إلى أحجار جامدة من الزمرد والياقوت والماس والفيروزج ، ويخيل للناظر إلى الجذوع المائلة كأنها بقايا بركان قديم قد غمرها في سالف العهد ، ثم انحسر عنها فإذا هي أعمدة صدئة من البرنز القاتم . ثم لا يلبث الظلام أن يمتد وينبسط فإذا الفضاء سكون و وحشة ، وإذا البحر خشية وجلال ، وإذا الطير حائمة على أوكارها، تفر إليها من وحشة الظلام وهوله ، وإذا كل شيء صامت جامد إلا ما كان من جرجرة الآذي[2] تصل إلى آذاننا من حين إلى حين كأنها الزئير المنبعث من حلوق الوحوش الضارية ، فنجمد أمام هذا المنظر الرهيب ساعة ذاهلين مستغرقين ، وكأننا قد انتقلنا إلى عالم آخر من عوالم الملأ الأعلى حافل بعجائب المنظورات ، وغرائب المشاهدات ، ثم نعود إلى أنفسنا فيودع بعضنا بعضاً ، ثم نفترق إلى أكواخنا .

* * *

(١٤)
آدم و حواء

نشأ پول و ڤرجيني في هذه الجنة الأرضية ، منشأ أبوينا الأولين في جنتهما السماوية ، فكان پول مثال آدم ، له قامة الرجل وشَطاطه[3] ، وبساطة الطفل وسذاجته ، وكانت ڤرجيني مثال حواء لها جمال الأنوثة وحلاوتها ، ودعة النفس وعذوبتها .

وكانا يعيشان في معتزلهما هذا حرَّين مطلقين ، لا يسيطر عليهما مسيطر من تلك القيود التي تسيطر على عقول الناشئين وضمائرهم ، في تلك البلاد التي يسمونها بلاد الحرية والطلاقة ، ولا تسجنهما العلوم والمعارف في سجنها الضيق المظلم ، الذي يحول بينهما وبين التبسط والاضطراب في فضاء الكون كما يشاءان .

و لم تكن لديهما ساعة لمعرفة أوقات الليل والنهار ، ولا تقويم لمعرفة الفصول والأعوام ، و لم يتلقيا درساً واحداً في علم الهيئة ، ونظام الكواكب والنجوم ، ولكن الطبيعة استطاعت أن تمنحهما من نفسها ما تمنح العلوم والمعارف أمثالهما ؛ فاستعانا بالأشعة والظلام على معرفة الأوقات ، وبنضوج النبات وظهور الأثمار وتلون الأزهار على معرفة

(١) القَصْفُ: اللهو واللعب، والافتنان في الطعام والشراب .

(٢) الآذِيّ: موج البحر . (٣) الشَّطاط: الطول وحسن القوام .

الفصول ، وبعدد ما غرسا من الأشجار على عدد ما مر بهما من السنين والأعوام ، فكانا يقولان : « قد حان وقت الغداء .» إذا انقبضت ظلال أشجار الموز وتضاءلت تحتها ، و « قرب الليل .» إذا التفت أوراق التمر الهندي على أثمارها .

وكانا إذا وعدا أحداً بزيارة ، جعلا ميعادها ظهور قصب السكر أو نضوج أثمار النارنج ، وإذا سُئلت ڤرجيني عن عمرها أجابت : « قد أثمرت الكروم مذ ولدت أربع عشرة مرة ، وأشجار البرتقال ثمانية وعشرين .»

و إذا سئل پول بكم يكبر ڤرجيني[١] أجاب: « بمقدار ما بين النخلتين المائلتين على حافة النبع .» ، كأن حياتهما متصلة بحياة النبات ، أو كأنهما إلهان من آلهة الحقول التي تعيش بينها وترعاها .

فكانا لا يعرفان تاريخاً غير تاريخهما ، ولا يطالعان مصوراً غير مصور جزيرتهما ، ولا يقرءان كتاباً غير كتاب الطبيعة المفتوح أمامهما ، ولا يفهمان فلسفة غير أن عمل الخير سعادة ، وعمل الشر شقاء ، ولا يحفظان آية غير آية التفويض إلى الله تعالى في كل ما يأخذان وما يدعان .

وكانا إذا خلوا بنفسهما جرت بينهما أحاديث بسيطة ساذجة لا يتكلفان فيها ولا يتعملان ، ولا يحاولان أن يضعا حجاباً بين ما يدور في سريرتهما ، وما ينطق به لسانهما .

ولقد سمعتهما مرة يتحدثان من حيث لا يشعران بمكاني ، وكان پول قد عاد من عمله ساعة الغروب، فرمى بفأسه وحقيبته إلى الأرض ، وجلس إلى ڤرجيني يقول لها :

« إني لأراك يا ڤرجيني وأنا متعب مكدود ، ما أكاد أتماسك ؛ فأنسى تعبي وشقائي ، وكأنني لم أحمل في يومي فأساً ، ولم أفلح أرضاً ، و ربما وقع نظري عليك وأنا على قمة الجبل وأنت في سفحه ، فيخيَّل إليَّ أنك وردة بين الورود النابتة حولك ، إلا أنك أنضر منها حسناً وأطيب أريجاً . فإذا غبت عن ناظري وراء أكمة من الأكمات أو تحت ظلة من الظلل استطعت أن أعرف المكان الذي أنت فيه ؛ لأنني أشعر أن موجة من النور تحيط بك حيثما ذهبت وأنى حللت ، فإذا برق لي شعاعها علمت أين تحلين من بطن الوادي ؛ فلا أحتاج للسؤال عنك . فإذا رأيتك وأنت عائدة إلى المنزل خُيِّل إليَّ لجمال مشيتك ورشاقة حركاتك ، كأنك قطاة تتنقَّل على بساط الخضرة ، وأنك موشكة أن تستقلي بجناحك في جو السماء .

« إنك كل شيء يا ڤرجيني ، إنك حياتي التي لا أستطيع أن أعيش بدونها بل لا أستطيع فراقها لحظة واحدة . إن زرقة عينيك أصفى من زرقة السماء ، وإن نضارة وجهك أجمل من نضارة الربيع ، وإن ماء الحسن الذي يجول في أديمك لهو الكوثر الذي يصفه الكتاب المقدس فيما يصف من بدائع الجنان .

« أسمع صوتك الذي هو أشبه شيء بصوت الطائر الغرد فيخفق قلبي خفقان أجنحة ذلك الطائر، وأضع يدي في يدك فتنبعث في جسمي رعشة شديدة كرعشة الخائف المذعور ، وما أنا بخائف ولا مذعور!

« أ تذكرين يا ڤرجيني يوم حملتك على ظهري واجتزت بك ذلك النهر المتدفق ، ونحن عائدان من زيارة ذلك الرجل الشرير ؟

« لقد كنت في ذلك الوقت تعباً واهناً ، ولكنني ما شعرت بملامسة جسمك لجسمي ، حتى خيل إليَّ أنني قد استحلت إلى طائر خفاق الجناحين ، ولو أنك اقترحت عليَّ في تلك الساعة أن أطير بك في آفاق السماء لفعلت !

« لا أستطيع أن أفهم ما هذا الذي يؤثر عليَّ منك يا ڤرجيني ؛ فإنني لا أخافك ولا أخشاك ، بل أحبك وآنس بك ، فلِمَ أضطرب حين أراك ، ولِمَ أرتعد حين يلمس جسمي جسمك ؟!

« إنك لا تستطيعين أن تحبيني كما تحبني أمي ، أو تعطفي عليَّ عطفها ، أو تقاسميني همومي وآلامي مقاسمتها ، ولكنني أشعر أن الذي أضمره لك من

(١) يكبر فلان فلانا: يزيد عليه في العمر .

الحب والعطف فوق الذي أضمره لها ، ولقد عدت الآن من المزرعة وكان أمامي الطريقان ؛ طريقي إلى الكوخ فلم أنتبه إليه ، وطريقي إليك فجئتك دون أن أشعر بما أفعل أو أعرف لذلك سبباً .

« ما أحسب إلا أن حادثة الجارية الآبقة كانت هي السبب في ذلك ، فإن أنسَ لا أنسى صورة ذلك الألم الشديد الذي ارتسم على وجهك يوم جئت لك البائسة المسكينة تحت قدميك وقصت عليك قصتها ، ولا تلك الدموع الغزار التي ذرفتها رحمة بها وإشفاقاً عليها ، ثم ما خاطرت به بعد ذلك من راحة نفسك وهدوئها في سبيلها .

« إنك طيبة القلب يا فرجيني ، إنك تحبين الخير للخير ، لا تطلبين عليه جزاء ولا أجراً ، إنك تتألمين لمصاب المساكين والبائسين أكثر مما يتألم جميع الناس .

« تعالي إلى جانبي وخذي هذا الغصن الأخضر الذي قطعته لك الساعة من شجرة الليمون الكبرى ، وضعيه حين تنامين تحت سريرك ؛ فإنه يملأ لك فضاء الكوخ عطراً وشذى . وخذي هذا القرص من العسل ، فقد عثرت به في جوف صخرة عالية في قمة الجبل ، وسيكون فطورنا في الصباح شهياً جميلا .

« تعالي إليَّ يا فرجيني ، وضعي رأسك على فخذي ؛ لأشعر بالراحة من جميع متاعبي وآلامي ، وتحدثي إليَّ قليلا ؛ فحديثك غذاء نفسي وراحة ضميري .»

فتخرج منديلها من جيبها وتمسح له عرق جبينه ثم تضطجع وتضع رأسها على فخذه وتظل تقول له :

« أ ترى يا بول منظر هذه الأشعة الصفراء الساقطة على رؤوس الصخور وذوائب الأشجار ؟ ومنظر ذلك الشفق الأحمر الممتد على حافة الأفق ، وتلك اللآلىء اللامعة الجميلة ، المنتثرة على سطح الماء ؟!

« إنها جميلة جداً ، ولكنها لا تستطيع أن تبعث السرور إلى نفسي كما يبعثه جلوسي بجانبك ، وامتزاج أنفاسي بأنفاسك .

« إنني أحب والدتي حبًّا جمًّا ، ولكنني أحبها أكثر من كل وقت في الساعة التي أراها تحنو عليك فيها وتضمك إلى نفسها وتدعوك : يا ولدي . و ربما غفرت لها إغضاءها عني أحياناً ، و لكني لا أستطيع أن أغفر لها إغضاءها عنك .

« إنك تتساءل في نفسك : لِمَ تحبني أكثر من كل شيء في العالم ؟ أما أنا فإنني أحبك هذا الحب نفسه ، و لكنني لا أسأل نفسي عن سبب ذلك ؛ لأني أعلم أن الطائرين اللذين ينشآن في منشأ واحد ، وجو واحد ، يتعاطفان ويتآلفان ، حتى ما يكاد يصبر أحدهما عن صاحبه لحظة واحدة .

« انظر إليهما ، ها هما يتصايحان ويتهافتان على بعد ما بينهما ، كأن كلا منهما يقول لصاحبه : تعال إلى جانبي ولا تفارقني ؛ فإنني لا أستطيع أن أجد لذة الحياة بعيداً عنك !

« كذلك نحن يا بول نشأنا في منشأ واحد ، ورضعنا ثدياً واحداً ، ونمنا في مهد واحد ، وابتردنا في حوض واحد فأصبحنا شخصاً واحداً ، فإذا افترقنا ساعة ظل كل منا يهتف بصاحبه ويناجيه ، أنت بمزمارك على قمة الجبل ، وأنا بأنشودتي في سفحه ، كما يفعل ذلك الطائران المتناجيان على أفنانهما حتى نلتقي .

« تقول إنك أحببتني منذ ذلك اليوم الذي رأيتني فيه أعطف على تلك الجارية المسكينة ، وأنا أقول لك إنني أحببتك من ذلك اليوم نفسه ؛ فإنني لا أستطيع أن أنسى أنك أوشكت أن تخاطر بنفسك في سبيلي ، حينما عزمت على مقاتلة الرجل الشرير من أجلي ، بل خاطرت بها فعلاً حينما حملتني على ظهرك وأنت تعب مكدود ، واجتزت بي ذلك النهر الزاخر المتدفق ، لا تعلم أ تصل إلى ضفته أم تسقط دون ذلك .

« إنني أجثو كل يوم بين يدي ربي أسأله الرحمة لأمي وأمك وماري ودومينج ، حتى إذا مر ذكرك على لساني ارتعشت شفتاي ، وشعرت كأنني أرتشف

على الظمأ جرعة باردة ، ما خلق الله أهنأ ولا أطيب منها !

« لِمَ تتسلق الصخور من أجلي يا پول ؟ ولِمَ تجشّم نفسك هذا العناء الشديد فوق عنائك الذي تكابده طول يومك ؟ إنني لا أفكر في شيء وأنت غائب عني سوى أن تعود إليّ سالمًا موفوراً ، فإذا رأيتك كنت أنت الهدية الثمينة التي تقدمها إليّ ، وتستحق من أجلها شكري وحمدي .»

* * *

(١٥)
الخفقة الأولى

ما لڤرجيني حزينة مكتئبة ، لا تضيء الابتسامات ثغرها كما كانت تضيئه من قبل ؟!

ما لها واجمة صفراء ، تمشي مطرقة ، وتجلس واهنة ، وكأن همًّا من هموم الحياة الثقال يملأ ما بين جانحتيها، ولا هم هناك ولا حزن ؟! ما لها تلجأ إلى الخلوات والمعتزلات ، وتتجنب جهدها أن تخالط الناس حتى أسرتها وقومها ، وحتى صديقها الوحيد الذي هو أعز عليها من نفسها التي بين جنبيها ؟!

ما لهذه الخضرة الزاهية البديعة ، ولتلك السماء الصافية المتلألئة ، ولذلك المنظر البديع الجذاب ؛ منظر الشمس في طلوعها وغروبها ، والطير في غدوها ورواحها ، لا يروقها ولا يستثير سرورها وبهجتها ، ولا يسرّي عنها همومها ، كما كان شأنها قبل اليوم ؟!

ذلك لأن قلبها قد خفق الخفقة الأولى ، والحب إذا خالط قلب الفتاة لأول عهدها به نقلها من حياة السرور والبهجة إلى حياة الهموم والأكدار .

نعم قد تحولت الصداقة في قلب ڤرجيني إلى حب ، وللحب شأن غير الصداقة وحال غير حالها ، وشعور وإحساس غير شعورها وإحساسها . وكما أن المرأة الفارغة تشعر بتغيير في جميع حالاتها الجسمية إذا بدأت بذرة الجنين تنمو في أحشائها ، كذلك الفتاة الخالية تشعر بتغير في جميع حالاتها النفسية إذا أحست بدبيب الحب في قلبها . و ربما كان هذا الشعور هو دليلها الوحيد على أنها قد أحبت قبل أن تعرف ما الحب وما الغرام .

لقد كانت ڤرجيني تجهل في مبدأ أمرها حقيقة الحال التي طرأت عليها ، ولا تفهم منها شيئًا سوى أنها قلقة مستوحشة ، لا تأنس بالناس أنسها الأول ، ولا تجد في الجلوس إلى أسرتها ولا في الذهاب إلى « مخدعها » الراحة التي كانت تجدها من قبل؛ فكانت تهيم على وجهها في القفار والغابات وضفاف الأنهار وقمم الجبال ، ما تكاد تستقر في مكان واحد .

فإذا وقع نظرها على پول في بعض غدواتها أو روحاتها ، طارت إليه فرحًا وسروراً ، وبسطت إليه يدها لتعانقه ، فإذا دانته انقلبت فجأة من سرور إلى حزن ، ووقفت في مكانها جامدة جمود الدمية في محرابها، يتلهب وجهها حمرة ، ويرفضّ[١] جبينها عرقًا !

فيعجب پول لشأنها ، ويظل يقول لها : « إن الخضرة اليوم زاهية جداً ، وإن الشمس ساطعة متلألئة، تضيء كل شيء حتى الأنفاق والأغوار . وكل ما في الوجود ضاحك مستبشر ما عداك يا ڤرجيني . فهل لك أن تحدثيني ما الذي ألمّ بك ؟ وما هذه الغبرة القاتمة التي تلبس أديم وجهك ؟»

ثم ينقضُّ عليها ليضمها إلى صدره كعادته ، فتملّس[٢] من بين يديه إملاسًا ، وتركض هاربة إلى أمها لتضع رأسها في حجرها ، فيظل پول واقفًا مكانه يعجب لأمرها عجبًا شديداً ، لا لأن الذي يضمر لها من الحب أقل من الذي تضمر له ، ولا لأن نفسه خالية من الهم الذي يخالط نفسها ؛ ولكن المرأة ضعيفة خائرة ، لا تملك من الصبر والجلد بين أيدي النكبات النفسية التي تنزل بها ما يملك الرجل . فإذا أحبت لأول عهدها بالحب ،

---

(١) ارْفَضّ: سال وترشّش .

(٢) إمّلس: أفلتَ .

وكانت شريفة فاضلة ، خرج بها الحب إلى حالة أشبه بالجنون والخبل ، وما هي بجنون ولا خبل ، ولكنها حيرة النفس وضلالها !

و لم يزل هذا شأنها حتى جاء شهر ديسمبر ، وهو الشهر الذي تشتد فيه حرارة الشمس في تلك المنطقة اشتداداً عظيماً ، وتظل تصب عليها أشعتها عمودية ، كأنها السهام المنبعثة من أقواسها ، وتنقطع عنها ريح الجنوب التي تعتادها طول العام ، وتهب عليها بدلا منها أعاصير شديدة تزلزل أرضها زلزالا ، وتطير بما شاءت من معالمها ومجاهلها ، وتُشقق ما أرادت من أطرافها وأنحائها ؛ فيثور الغبار ملتفًّا في جو السماء ، ثم يجمد في مكانه ما يتزحزح ولا يتحلل ، كأنه العُمُد[1] المنتصبة .

و تصبح سفوح الجبال وجوانب الهضاب كأنها أتنٌ[2] مشتعلة ، تنفث أوارها من حولها فتلتهب الأجواء بالتوائها ، حتى ما يستطيع متنفس أن يتنفس إلا زفيراً ، ولا مستنشق إلا شُواظاً ولهيباً ، وحتى ما يجد المبترد ضحضاح ماء في غدير من الغُدُر أو خليج من الخلجان يبترد فيه ، ويزحزح عن عاتقه ذلك القميص الناري اللاصق به .

و تتساقط الماشية في ظلال الأشجار وفي سفوح الجبال ، واهنة متضعضعة ، مادة ألسنتها إلى السماء كأنها أيد مبسوطة بالدعاء إلى الله تعالى أن يجود عليها بقطرة تبل غلتها ، وتطفيء لاعجها ، وكأن ثغاءها وعجيجها وصفير الرياح السافيات من حولها وطنين البعوض الحائم عليها مناحة قائمة على هذه الطبيعة الميتة ! فإذا أقبل الليل عجزت يده الباردة الندية أن تخفف شيئاً من لهيب ذلك الأتُون المستعر ، وظهر القمر في أفق السماء أحمر كامداً كأنه الوجه المخضب بالدم ، ثم يمشي في طريقه متثاقلا متطالعاً ، كأنما هو يسبح في لجة عميقة من السحب المحيطة به .

في ليلة من تلك الليالي الداجية السوداء عجزت فرجيني عن أن تأخذ لنفسها راحتها في مضجعها ، وعجز الكرى عن أن يلم بأجفانها فثارت من مكانها متململة وأخذت سمتها إلى مخدعها ؛ عساها أن تجد فيه ما يروِّح عن نفسها ، وكان القمر لا يزال يرسل ذلك النزر القليل من أشعته الكامدة ، فأزعجها أنها لم تجد من جدولها المترع المتدفق إلا خيطاً دقيقاً يلمع في ضوء تلك الأشعة الباهتة ، كأنه ثعبان ممدود يتقلب على حرة[3] سوداء ، ثم مشت إلى حوضها الصغير الذي اعتادت أن تستحم فيه ، فلم تجد فيه إلا ضحضاحاً من الماء ما يكاد يغمر جسمها ، فخلعت ملابسها ونزلته ، فاستطاعت أن تجد قليلاً من الراحة .

وكان أول ما مر بخاطرها في تلك الساعة ، بعد أن عادت إليها نفسها ، ذكرى تلك الأيام الماضية التي كانت تستحم فيها مع بول وهما طفلان صغيران في هذا الحوض الصغير ، وذكرت كيف كانا يقضيان الساعات الطوال على ضفافه عاريين يرقصان ويمرحان ، ويعتليان الهضاب والربى ، ويتسلقان النخيل والأشجار ؛ ليقطعا أغصانها أو يجنيا ثمارها .

ثم ألقت رأسها على صدرها فرأت بين ثدييها وفوق ذراعيها العاريين ظل النخلتين المسماتين باسمها واسم بول ، وقد طالت عثاكيلهما[4]، وانتشرت سعفاتهما ، وكبر جوزهما ، ولصقت كل منهما بالأخرى لصوقاً شديداً ، فأثار ذلك المنظر في نفسها شعوراً غريباً لم تستطع أن تفهمه ، ولا أن تفهم ما الذي يقلقها منه ، فلم تطق البقاء في مكانها لحظة واحدة ، فنهضت إلى ثوبها فأسبلته على جسمها ، واندفعت راكضة إلى كوخها ، وأيقظت أمها من منامها واضطجعت بجانبها ، وأخذت بيدها وظلت تضغط عليها ضغطاً شديداً ، كأنما تريد أن تبثها ألمها ، وتفضي إليها بسرها فلا تستطيع ، وتحاول أن تنطق باسم بول فيحتبس لسانها في فمها ، ثم لا يلبث ذلك السعير المتأجج

---

(١) العُمُد: جمع عمود . (٢) الأتُنُ: موقد النار، والمفرد: أتُون .

(٣) الحَرَّة: أرض ذات حجارة نَخِرَة سود ، كأنها أحرقت بالنار .

(٤) العَثَاكيلُ جمع عُثْكُول: وهو في النخل بمنزلة العنقود في الكرم .

في صدرها أن يستحيل إلى زفير فشهيق فبكاء ؛ فتذرف من دموعها ما شاء الله أن تذرف حتى يهدأ ما بها ، وأمها صامتة ساكنة ، تفهم كل شيء ، ولا تقول شيئاً سوى أن ترفع نظرها إلى السماء ، سائلة الله تعالى بنظراتها السابحة في ذلك الفضاء أن يمنح ابنتها الهدوء والسكينة ، وأن يقيها العثرات والزلات .

و لم يزل الحر آخذاً في اشتداده حتى استثار من مياه البحر أبخرة عظيمة ، ما زالت تتكاثف وتتجمع حتى انعقدت في سماء الجزيرة ظلة سوداء ؛ فاحتجب قرص الشمس ، وتلفعت الجبال والهضاب والرُّبى والآكام بأردية بيضاء من الضباب ، فما تكاد تقع عين الناظر على منظر مستبين .

ثم ما لبث الرعد أن قصف قصفاً شديداً دوَّت به أرجاء الجبال ، وأخذ البرق يرسل شرارته الحمراء في خلال السحب الكثيفة المتراكمة ؛ فأثار بعضاً منها ، وعجز عن بعض ، ثم انفجرت السماء عن أمطار غزار سالت بها الأودية والقيعان ، وسبحت فيها الربى والهضاب .

وما هي إلا لحظات قليلة حتى أصبح ذلك الحوض الواسع بحراً عجَّاجاً ، يعُب[1] عبابه وتصطخب أمواجه ، اختفى كل شيء من هواديه وأعلامه ، وأطمه وذراه ، ولم يبق طافياً منه على سطح الماء إلا تلك الربوة العالية التي يرفرف فوقها العلم الأبيض ؛ علم الاستكشاف ، فكان منظرها في وسط ذلك البحر العجَّاج منظر السفينة المضطربة ، في أيدي الأمواج السائرة ، فصعدت إليها تلك الأسرة المسكينة تنتظر قضاء الله فيها وفي زروعها وضروعها.

و ظلت الحال على ذلك عدّة ساعات ثم هدأت العاصفة ورقت السحب واستطاعت الشمس أن ترسل من خلالها بعض الأشعة البيضاء في أنحاء الفضاء ، وأخذ پول ودومينج يفتحان للمياه المتراكمة شعاباً ممتدة في أطراف الحوض تنحدر منها إلى البحر ، حتى لم يبق منها بعد ساعة إلا ما ركد في الحفائر والأغوار ، والبطون والوهاد ، فذعر پول و ڤرجيني لمنظر الأشجار الساقطة ، والجذوع المتهافتة ، والأغصان المتناثرة ، والأزهار المبعثرة ، كأنهم يشهدون أطلالاً بالية قد عصفت بها وبساكنيها أيدي الحدثان ، وعوادي الزمان .

وخطر لڤرجيني أن تذهب لزيارة حديقتها لترى ما فعلت تلك الحوادث بها ، فعرض عليها پول أن يصحبها ، فسارا معاً حتى أشرفا عليها ، فإذا هي قفر يباب ، لا شجر ، ولا طيور ، ولا أعشاب ، ولا جداول ، ولا غدران ، إلا ما كان من تلك البلابل الضاويَّة الواقفة على ذوائب بعض الأشجار ترعد برداً ، وتغرد تغريداً شجيًّا ، هو بالأنين والبكاء أشبه منه بالترجيع والغناء .

فأطرقت ڤرجيني إطراقة طويلة ، ثم رفعت رأسها والتفتت إلى پول ، وقالت له :

« لقد ضاعت كل آمالي في الأرض يا أخي ، فلم يبق لي إلا أملي في السماء ! لقد غرست تلك الجنة الزاهرة ، وأجريت في خلالها الجداول والغدران ، وأنشأت في أنحائها ما شئت من الحظائر لماشيتي ، والأعشاش لطيوري ، وكانت أنسي وراحتي، وملجأ همومي وأحزاني .

« وها هي ذي أيدي الحدثان قد عصفت بها ، وعفت رسومها ومعالمها ، ومحت سطورها من كتاب الدهر ، كأن لم تغنَ بالأمس ، فلم يبق لي ما آنس به في هذا العالم ، ولا ما أسكن إليه ، فلا أطلب لنفسي سعادة غير هذه السعادة ، في عالم غير هذا العالم لا تعصف به العواصف ، ولا تجتاحه السيول، ولا تنال منه أيدي الصروف والغير .»

فاضطرب پول عند سماع هذه الكلمات ، وسرت في نفسه رعدة شديدة ملكت ما بين أقطاره ، فصمت هنيهة ، ثم التفت إليها وقال لها :

« هوِّني عليك الأمر يا ڤرجيني ، فكلما يعرض الموت على الحياة تعرض الحياة على الموت ، وأعدك وعداً صادقاً أن كل شيء سيعود إلى ما كان عليه ، وسترين عما قليل خمائلك ، وأشجارك ، ومياهك ،

---

(١) عَبَّ البَحْرُ: ارتفعَ مَوْجُهُ واصْطَخَبَ .

وظلالك ، وأطيارك وأعشاشك ، عائدة إلى شأنها الأول ؛ فيعود لك أنسك واغتباطك ، وسرورك وابتهاجك .»

فرفعت طرفها إلى السماء وظلت على ذلك ساعة ، كأنما تحاول أن تطير بروحها إلى ذلك الملأ الأعلى ، ثم وضعت يدها على عاتقه وقالت له :

« أ تدري ما هو خير من هذا كله يا پول ؟»

قال : « لا .»

قالت : « إن لسميِّك « پول » الرسول عندي منزلةً لا تعدلها منزلة أخرى ، وقد رأيت له صورة عندك تحتفظ بها في أطواء ثيابك ، فرجائي إليك أن تهديني إياها .»

قال : « لا أحب إليّ من ذلك .»

وانطلق يعدو إلى كوخه عدو الظَّليم ليأتي بها ، وهي صورة أثرية قديمة ، كانت تحملها مرغريت في قلادتها منذ زمن بعيد ، فلما ولدت ولدها پول ، ورأت في ملامح وجهه ما يشبه ملامح ذلك القديس العظيم سمته باسمه ، وناطت تلك القلادة بعنقه كتميمة تحفظه من عاديات الدهر ، وغوائل الأيام . ولم يزل حاملا إياها حتى كبر وأينع ، فاحتفظ بها في صندوقه ، بين ملابسه ، كأعز شيء لديه حتى سمع ڤرجيني تقترح عليه أن يهديها إياها ، فلم يكن شيء من الأشياء أحب إليه من أن يفعل راضياً مغتبطاً . وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى عاد بها طائراً فرحاً فقدمها إليها ، فسرت بها سروراً عظيماً ، وجرى ماء البشر في وجهها طلقاً غدَقاً ، وقالت له :

« ستبقى هذه الصورة تذكارك الدائم عندي ما حييت ، ولن تفارق عنقي قط حتى الساعة الأخيرة من ساعات حياتي ، ولن أنسى أبد الدهر أنك قد أهديت إليّ الشيء الوحيد الذي تملكه .»

فحنا عليها ، وهم أن يحتضنها إلى صدره ، فأفلتت من يده برفق ، وركضت هاربة إلى حجر أمها كعادتها ؛ فوقف پول في مكانه حائراً مكتئباً مذهوباً به كل مذهب ، تعبث بعقله الوساوس والأوهام .

ولقد طال هذا الأمر بينهما ، وأصبحت حياتهما غريبة مضطربة ، لا عهد لهما بمثلها من قبل ، فخلت مرغريت يوماً من الأيام بهيلين ، وقالت لها :

« لم لا نزوّج پول من ڤرجيني ؟ قد بدآ يشقيان في عيشهما ، وأخاف أن يمتد بهما الأمر إلى ما هو أعظم شراً من ذلك . وعندي أنه متى تكلمت الطبيعة وجب الإصغاء إليها والإذعان لها . وما شقي الناس هذا الشقاء الذي نراهم يعالجونه كل يوم إلا لأنهم تمردوا على الطبيعة ، وخلعوا طاعتها ، وسوّلت لهم نفوسهم السير في طريق غير طريقها .»

فقالت هيلين : « إن الولدين لا يزالان صغيرين وفقيرين ، فماذا يكون شأنهما غداً إن قسم لهما أن يلدا أولاداً كثاراً في قفرة مثل هذه القفرة ، لا يعين المرء فيها على العيش غير المال ؟

« إننا كابدنا أعظم ما يكابد امرؤ في العالم من عناء وشقاء في سبيل تربيتهما وتغذيتهما ، فمن لهما – وهما ضعيفان ساذجان ، وقد رحلنا عنهما إلى عالمنا الآخر الذي ينتظرنا ، ورحل معنا دومينج وماري – بقوة تعينهما على أمرهما ، وأمر حياتهما العائلية المستقبلة ؟

« وإن الزمان قد دار دورته ، وقد أصبحت أشعر منذ أعوام بآلام شداد تخالط كل جزء من أجزاء جسمي ، وأرى أنني أسير سيراً حثيثاً في تلك الطريق التي يسير فيها الذاهبون إلى حفائرهم ، وأن ليس بيني وبينها إلا خطوات قليلة ، وقد أصبح دومينج شيخاً هرماً ، لا يكاد يحمل عبء نفسه ، وأصبحت ماري مقربة من ذلك ؛ فلا يبقى لهما مساعد ولا معين .

« والرأي الذي أراه أن نباعد بينهما ، فنرسل پول إلى بعض أصقاع الهند ؛ ليتّجر فيها بما يتجر به الأوربيون المنتشرون في تلك البلاد ؛ عله يتلهى عن ڤرجيني بشواغله وأعماله ، وربما عاد عليه من ذلك ما يعينه على أمرها وأمره غداً .»

ثم اتفقتا على أن تستشيراني في هذا الأمر ، فأشرت عليهما بما رأتا ، وقلت لهما :

« إن في هذه الجزيرة وفيما حولها من الجزر كثيراً من السلع التي تنفق نفاقاً عظيماً في الأسواق الهندية ، كالقطن والآبنوس والأصباغ وما إليها ، فإذا سافر پول بها فباعها هناك ، ثم عاد ببعض السلع الهندية الغريبة فباعها هنا ، وطال مرانه على ذلك واعتياده ، رجوت له في مستقبل حياته خيراً كثيراً .»

فعهدتا إليّ أن أفاتحه في هذا الشأن ، فخلوت به ذات يوم ، وأنشأت أحدثه حديثاً طويلا عن التجارة وفضائلها ومزاياها ، وعن الضرب في آفاق الأرض وثمراته وفوائده ، ثم أفضيت إليه بذلك المقترح فأصغى إليه ، وهو صامت واجم ، لا يقول شيئاً حتى انتهيت من حديثي ، فرفع رأسه إليّ وقال :

« و هل يوجد عمل أعظم ثمرة ، وأعود فائدة من عمل الفلاح الذي يقوم بزراعة حقل من الحقول ، لا يعطيه إلا القليل من جهده ، وأقل من القليل من ماله ، فيعود عليه منه ضعف ما بذل له خمسين أو ستين مرة ؟! ومتى كانت البحار يا سيدي وِطاء ليناً أخاطر فيه بنفسي ؛ لأربح شيئاً أستطيع أن أربحه من بيع ما فضل عن حاجتنا من حبوب وأثمار في أسواق هذه الجزيرة ، وما حولها من الجزر ؟! وأية حاجة بنا إلى المال الكثير ؛ ونحن والحمد لله في سعة من العيش ، لا نشكو جوعاً ، ولا ظمأ ، ولا ضيقاً ، ولا ضجراً ، ولا نطلب لأنفسنا منزلة في الحياة فوق المنزلة التي نحن فيها ؟

« ولا أكتمك يا سيدي أنني أخاف المال وأخشاه خشية شديدة ، وأقشعرُّ من ذكره كلما سمعت به ، وأعتقد أننا لا نزال سعداء في هذه الحياة ما دمنا بعيدين عنه ، وعن التفكير فيه ، فإن قدر لنا يوماً أن نشقى فيها ، فإنما شقاؤنا يكون على يده وبشؤم طالعه ؛ فلنتمتع بالسعادة التي قسم الله لنا ، ولا نجني على أنفسنا بالتكليف والمحاولة ، وركوب الطريق الهوجاء التي لا نعرفها ، ولا نعرف غايتها ، ولا منتهاها ، والله أعلم بنا منا ، وأحنى علينا من آبائنا وأمهاتنا .»

فوقفت بين يدي هذه الكلمات الحكيمة المملوءة شرفاً وفضيلة موقف الجمود والصمت ، لا أستطيع أن أقول له شيئاً ، ولا أنكر عليه أمراً ، ولا أفضي إليه بسر ذلك المقترح الذي اقترحته عليه ؛ ضنًّا به أن يهلك يأساً وجزعاً .

* * *

(١٦)
الرسالة

وهنا وصلت سفينة من فرنسا تحمل كتاباً لهيلين من عمتها ، تقول لها فيه إنها ندمت على ما كان منها في الماضي من قسوتها عليها ونبوِّها بها واطِّراحها إياها ، وإنها قد بلغت السن التي تحتاج فيها إلى قلب رحيم من قلوب أهلها أو ذوي رحمها يخفق بجانبها ؛ لأنها تعيش في بلد لا أهل لها فيه ولا رحم ، فهي تقترح عليها أن تحضر إليها بنفسها ، فإن حالَ دون ذلك حائل أرسلت إليها ابنتها بدلاً منها لتكون بجانبها في ساعتها الأخيرة ، وقالت لها إنها قد عزمت على أن توصي لڤرجيني بجميع ثروتها من بعدها .

فوقع ذلك الكتاب من نفوسهم جميعاً موقع الدهشة والعجب ، وكأنما قد نزلت بهم كارثة من أعظم كوارث الدهر ؛ فقد تمثل لهم أن هيلين ستفارقهم وينقطع أنسها عنهم ، وأن ذلك الوادي سيقفر منها ، ومن فواضلها وأياديها بعد ما عمرته أعواماً طوالا ، فوجمت مرغريت وأطرقت ڤرجيني ، وجمد پول مكانه جمود الصنم ، واستعبر دومينج وماري ، ومرت بهم على ذلك ساعة لم تمر بهم مثلها مذ وطئت أقدامهم هذه الأرض حتى اليوم ، ثم التفتت هيلين إلى مرغريت باسمة وقالت لها :

« هدئي روعك يا صديقتي ؛ فإنني لن أفارقك قط ، وما أحسبني مستطيعة ذلك لو أردته ؛ فقد سعدت بك برهة من الزمان ، لا أستطيع أن أنساها أو

أنسى يدك البيضاء فيها .»

ثم أقبلت عليهم جميعاً وقالت لهم : « كونوا مطمئنين يا أولادي ، فسأبقى معكم حتى أموت بينكم وأدفن في التربة التي تعيشون فيها . ولقد جرح الدهر قلبي فيما مضى جرحاً دامياً ، فكنتم أنتم أطباءه وأساته ، وما زلتم به تنفون عنه غثاثته ، وتنضحونه بالبارد العذب من ودكم وإخلاصكم ، وعطفكم ورحمتكم ، حتى التأم أو كاد ؛ فلن أكفر بنعمتكم قط ، ولن أجازيكم على إحسانكم شر الجزاء . ولئن كانت قد بقيت في أعماق قلبي بقية من ذلك الشجن القديم ، والذكرى المؤلمة ، فذلك ما لا يد لكم فيه ، ولا حيلة لكم في أمره ، ولا توجد قوة في العالم سواء أ عشت في هذا الكوخ الحقير أو في ذلك القصر العظيم ، تستطيع أن تشفيني من دائي ، إلا أن يمد الله إليّ يد معونته ورحمته .»

فما سمعوا منها ذلك حتى استطيروا فرحاً وسروراً ، وداروا بها يقبلونها ويعتنقونها ، ويهنئونها بوفائها وإخلاصها . الله ما أشرفهم وأكرم نفوسهم ! إن الثروة الطائلة التي يقتتل عليها الناس اقتتالا وينحر بعضهم بعضاً في سبيلها ، تعرض نفسها عليهم عرضاً فيأبونها ، ويطيرون فرحاً بالخلاص منها !

وإنهم لكذلك إذ سمعوا ضوضاء خارج الكوخ وأصواتاً غريبة ، فدخل عليهم دومينج وأخبرهم أن سيداً عظيماً يركب مركباً فارهاً ووراءه عبيد كثيرون يقصد هذا الكوخ . وما أتم كلمته حتى دخل ذلك السيد العظيم ، فإذا هو حاكم الجزيرة المسيو «لابوردينيه» ، فنهضوا له إجلالا وإعظاماً ، وحيوه بتحية الحاكمين ، وقدمت له مرغريت كرسيًّا من القش فجلس عليه ، وقدمت هيلين شراب الأرز في إناء بسيط من القرع ، فتناوله مغالباً نفسه على كتمان ما شعر به من التقزز حينما شربه ، ثم دار بعينيه في أنحاء الكوخ ، فعجب لحقارته ورثاثته ، وبساطة ما يشتمل عليه من الآنية والأثاث . وبدأ حديثه بمعاتبة هيلين في انقطاعها عن زيارته تلك المدة الطويلة ، وأنها لم تلجأ إليه في ساعات شدتها وبؤسها ليمدها بالمعونة التي تحتاج إليها . وكان بول واقفاً بجانب الباب ، يسمع حديثه ويلقي عليه نظرة شزراء ، وكأنما قد ألهمَ ما يدور في نفسه ، وما قدم من أجله ، فتقدم نحوه خطوة ، وقال له :

« إنك لست بصادق فيما تقول يا سيدي ؛ لأن أمي ذهبت إليك في بيتك منذ أعوام فازدريتها واحتقرتها ، ولم تأذن لها أن تجلس على كرسي بين يديك ، ولقد أراد الله بها خيراً ؛ إذ كفاها مؤونة حمل منتك ، أو منة أحد من الناس غيرك .»

فالتفت الحاكم إلى هيلين ، وقال لها : « أ لك ولد أيضاً يا سيدتي ؟»

قالت : « لا ، ولكنه ولد صديقتي مرغريت ، وهو يسميني أمه ؛ لأنه رُبِّي مع فرجيني في مهد واحد ، ورضع معها ثدياً واحداً ، وأحبها حبًّا ، لا يحبه الأخ أخاه .»

فنظر إليه الحاكم ، وقال له : « أُدْنُ مني يا ولدي .»

فدنا منه ، فمسح بيده رأسه ، وقال له : « إنك لا تزال صغيراً يا بنيَّ ، فإذا بلغت مبلغ الرجال ، وفهمت ضرورات الحياة وأحكامها ، أدركت مبلغ شقاء هؤلاء القوم الذين تسمونهم حكاماً ، وعلمت أن أعظم ما يشقون به في حياتهم أنهم ليسوا أحراراً في إجراء العدالة بين الناس ، وإراحة الحقوق على أهلها ، وتحرِّي الصدق فيما يقولون ، والفضيلة فيما يفعلون .»

فتناول بول يده وهزها هزاً شديداً ، وقال له :

« أشكر لك صدقك وصراحتك يا سيدي ، وإن كنت قد أسأت إلينا فيما مضى ، وأظن أني أستطيع أن أتخذك صديقاً لي منذ اليوم .»

فابتسم الحاكم ، وقال : « و لي الشرف العظيم بذلك يا ولدي .»

ثم أشار إلى هيلين أنه يريد محادثتها على انفراد ، فأشارت إليهم جميعاً فانصرفوا ، فأقبل عليها يقول لها: « لا بد أن تكوني قد قرأت الكتاب الذي أرسلته إليك عمتك اليوم ، وقد جاءني منها كتاب

في البريد نفسه تطلب إليَّ فيه أن أزورك ، وأبذل كل ما أملك من الجهد في حملك على السفر إليها ، أو أرسل ابنتك فرجيني بدلا منك . وأرى أن ترسلي إليها ابنتك ؛ فهي فتاة ناشئة فتية ذات نضرة وجمال ، وليس من الرأي أن تدفني مثل هذه الحياة الغضة الندية في مثل هذه التربة القاحلة المحرقة ، والحياة السعيدة هنالك تنتظرها وتمد ذراعيها لاستقبالها .

« و إني وإن كنت أعلم أني أطلب إليك ما يشق عليك ، ويفت في عضدك ، ولكنني أعلم أيضاً أنك أرحم بابنتك وأحنى قلباً عليها من أن تحولي بينها وبين تلك السعادة التي تنتظرها هناك ، من أجل متعة نفسك برؤيتها جالسة بين يديك . وأعتقد أنك لا ترين بأساً من التضحية بشيء من عواطفك النفسية في سبيل راحتها وسعادتها ، وهناءة عيشها طول أيام حياتها .

« لقد كتب إليَّ وزير المستعمرات أن أعنى بهذه المسألة عناية كبرى ، وألا أدعها تفلت من يدي ما وجدت إلى ذلك سبيلاً ، ومعنى ذلك عنده أن آخذك بالشدة في هذا الأمر ، وأكرهك منه على ما لا تحبين ، ولكني لم أحفل بكلامه ، ولم أكترث له ، بل جئت إليك بنفسي لأعرض عليك الأمر عرضاً ، لا لألزمك به إلزاماً .

« و إني أكل إليك ، وإلى رحمتك وشفقتك ، ولعقلك ورزانتك مستقبل هذه الفتاة المسكينة ؛ فاختاري لها ما يجب أن تختاره الأم الرءوم لابنتها ، على أن صلتها بك لن تنقطع في مستقبل الأيام ، وستسمعين غداً من أحاديث هناءتها ورغدها ورفاهيتها ونعمتها ما ينير لك ظلمة الوحشة التي تشعرين بها بعد فراقها ، على أنها ربما عادت إليك بعد قليل من الأيام ؛ فإن عمتك ، على ما أعلم ، في الدور الأخير من أدوار حياتها ، وهي هامة اليوم أو غداً . »

فقالت له هيلين : « إنني ما تمنيت على الله في حياتي شيئاً سوى أن أرى ابنتي سعيدة في حياتها ، هانئة بعيشها ، إلا أنني لا أحب أن أفتات عليها في أمر من أمورها ، فلا بُدَّ لي من أخذها بالرفق واللين حتى تذعن لما أريد . وأرجو أن يعينني الله على ذلك ، وأظن أني أستطيع أن أفضي إليك بالأمر غداً أو بعد غد . »

قال : « أرجو أن تعجلي بقدر ما تستطيعين ؛ فالسفينة موشكة على السفر ، ولا أحسبها باقية عندنا أكثر من ثلاثة أيام ، ولا أعلم متى تعود بعد ذلك . »

ثم نهض قائماً ، وأخرج من جيبه كيساً كبيراً مملوءاً بالقطع الذهبية ، و وضعه على المائدة وقال : « هذه هدية عمتك إليك لتستعيني بها على شأنك وشأن فرجيني . » و ودعها ومضى .

* * *

(١٧)
الـوداع

لم يثقل هذا الأمر كثيراً على نفس هيلين ؛ بل صادف هوى من قلبها ، ولم تكن كاذبة في قولها للحاكم إنها لا تتمنى على الله في حياتها شيئا سوى أن ترى ابنتها سعيدة في حياتها ، هانئة بعيشها ؛ إلا أنها لا تحب أن تفتات عليها في أمرها ؛ فإن الحاكم لم يتجاوز عتبة باب الكوخ حتى دعت إليها ابنتها وخلت بها ، وأنشأت تحدثها حديثاً طويلا قالت لها فيه :

« إنني أصبحت يا بنيتي امرأة عليلة منهوكة ؛ لا قوة لي ولا عزيمة ، وما مرغريت بأحسن حالاً مني ، وقد صار دومينج وماري شيخين ضعيفين ، والشيخوخة أسرع إلى سكان هذه المناطق الحارة منها إلى سكان المناطق الأخرى ، وبول لا يزال فتى غريراً عاجزاً عن أن يستقل بنفسه فيما يعالج من شئونه ؛ فماذا يكون حالكما غداً لو أنكما أصبحتما تحملان وحدكما عبء هذه الحياة الثقيلة على عاتقكما ، وكيف يهون عليكما أن تريا أولادكما الصغار غداً بائسين أشقياء ، لا يملكون لأنفسهم ولا تملكون

لهم نفعاً ولا ضراً ؟

« وقد مثلت لنفسي بين أن تعيشي بجانبي ، فأراك فقيرة معوزة ، تشقين ليلك ونهارك في جمع قوتك كما تشقى الأجيرة العاملة ؛ وبين أن تفارقيني بضعة أعوام ، أسمع في أثنائها على البعد من أنباء سعادتك وهناءتك ونعمتك ورغدك ما يثلج صدري ، ويذهب بوحشة نفسي ؛ فوجدت أني أستطيع احتمال الثانية ، وأعجز عن احتمال الأولى ، فسافري يا بنيتي، وكوني غداً عكاز شيخوختي ، وعماد حياتي ، ومعينتي على دهري .»

فرفعت فرجيني رأسها إليها ، فإذا دمعة رقراقة تتلألأ في عينيها ، ونطقت بتلك الكلمة التي عجزت عن أن تنطق بها قبل اليوم فقالت :

« وكيف لي بترك پول يا أماه ؟!»

قالت : « إنما أطلب إليك السفر من أجل پول ، لا من أجل غيره ؛ فهو غلام مسكين يبذل من راحته وقوته في سبيل العمل ، ما أحسب أنه قاتله وذاهب بحياته إن طال عليه أمره ، فارحميه ، واشفقي عليه ، وأنقذيه من بؤسه وبلائه . ولقد آثرت أن أفارقك وأحتمل كل مكروه في سبيل ذلك حتى الموت ضنًّا بك وبسعادتك ؛ فكوني مثلي وفارقيه رحمة به وإبقاء عليه ، وليكن حبك إياه عظيماً مجيداً كحبي إياك ، ولن يعظم الحب ، ولن يمجد إلا إذا بني على أساس من التضحية والبذل .»

قالت : « أ لم تقولي لي يا أماه قبل اليوم إن للكون إلهاً يتولى شأنه ويرعاه ، وقد رعانا وتولى شأننا بالأمس ، فلِمَ يتخلى عنا غداً ؟

« أ لم تقولي لي إننا ما خلقنا إلا للعمل ، وإن العمل هو يَنبوع الحياة ومادتها التي لا تفنى ، فلِمَ تطلبين إليَّ اليوم أن أعتمد في حياتي على غيره ، وألتمس الرزق من سبيل غير سبيله ؟!

« دعيني أعيش بجانبك يا أماه ، و بجانب پول و مرغريت و دومينج و مارى ، وعلى مقربة من شويهاتي وأعنزي ، وطيوري وعصافيري ، وبين أحضان هذا الوادي الجميل الذي أنست به وأحببته وألفت ليله ونهاره ، وكواكبه ونجومه ، وظلاله ؛ فإنني لا أستطيع أن أعيش بين قوم لا أعرفهم ولا أفهمهم ، ولا أحسبني أحمدهم إن عرفتهم وفهمتهم .

« دعيني أعيش مما قسم الله لي من الرزق ، ولقد رزقني الجم الكثير ، الذي لا أطلب فوقه مزيداً ، ولا أبتغي به بدلاً !

« لقد عشت في هذا الوادي خمسة عشر عاماً ، ما شكوت ولا تألمت ، ولا بتُّ ليلة جائعة أو ظامئة ، أو ساخطة أو ناقمة ، فلم تطلبين إليَّ أن أترك ما لا يريبني إلى ما يريبني ، وأن أبيع هذا الحاضر المعروف بذلك الغائب المجهول ؟ وإن نفسي لتحدثني بشر عظيم في هذه السَّفرة التي تدعونني إليها ، وما أزعم لنفسي علم ما في الغيب ، ولكني أشعر بخوف شديد لا أعرف له سبباً ، وحسبي أن أعلم أن لا سبيل لي إلى الوصول إلى ذلك العالم الثاني إلا إذا ركبت تلك المطية الوعرة التي يسمونها البحر ، حتى تسيل نفسي رهبة وجزعاً .»

فأطرقت هيلين صامتة ، ولم تستطع أن تقول شيئاً ؛ لأنها وإن كانت من أشهى الأشياء إليها أن ترى ابنتها بعيدة عن پول في تلك الأيام ، وأن تراها آخذة بحظها من تلك السعادة التي تنتظرها هناك ، إلا أنها رحمتها وأشفقت عليها ؛ فلم تستطع أن تجادلها فيما تقول .

ثم قالت بعد قليل : « إنني لا أحب أن أشق عليك يا بنيتي في شأن من شئونك الخاصة بك ؛ فاختاري لنفسك الحياة التي تحبينها وتؤثرينها ، غير أني أضرع إليك في أمر أرجو ألا يثقل عليك .»

قالت : « وما هو ؟»

قالت : « أن تكتمي سرك الذي تعالجينه بين جنبيك ، فلا تبوحي به لأحد الناس ، كائناً من كان حتى لپول نفسه ، وأن تجعلي الفضيلة ، والطهارة ، والشرف ، والعفة رائدك في كل ما تقولين وما تفعلين ، وأن تأخذي نفسك بالأناة والرفق في جميع خطواتك وتصرفاتك ؛ اتقاء العثرة والزلة ، وأن تجعلي نصب عينيك دائماً أن الرجل لا يحترم إلا المرأة التي

تضن بنفسها عليه ، ولا يحتقر مثل المرأة التي تبذل نفسها له ؛ أي أنه يحب المرأة الفاضلة أكثر مما يحب المرأة الجميلة ، بل لا يعرف للمرأة جمالاً غير جمال الأدب والعفة ، وإن زعم في نفسه غير ذلك .»

قالت : « ذلك ما أعرفه يا أماه ، ولا أعرف شيئاً سواه .»

وما أتى المساء حتى وفد إلى الكوخ كاهن الجزيرة ، وهو رجل من أولئك الدعاة الماكرين ، الذين تستعين بهم الحكومات الاستعمارية على غزو القلوب الضعيفة وحيازتها بلا سفك دم ، ولا إنفاق مال ، والذين يكونون دائماً في حاشية حكام المستعمرات ؛ ليعينوهم على ما هم آخذون بسبيله من الفتح والغزو .

وكان هذا الكاهن يختلف إلى هذه الأسرة من حين إلى حين ؛ ليرشدها ويباركها ، فلما رأوه قادماً إليهم ظنوه أنه إنما جاء لزيارتهم كعادته التي اعتادها ، فأحسنوا استقباله وتحيته . ورأت هيلين أن تكاشفه بذلك الأمر الذي كان يشغلها ، فكاشفته به ، فلم يلبث أن قضى فيه قضاء مبرماً ، وأعلن أن الله يأمر هيلين بالبقاء في الجزيرة ويأمر ڤرجيني بالسفر إلى فرنسا ، وأنهما إن لم تفعلا فقد خالفتا إرادة الله ، وباءتا بسخطه وغضبه ، فذعرت ڤرجيني ذعراً شديداً ، ولم تجد بداً من الخضوع والإذعان ، فانصرف الكاهن عائداً إلى قصر الحاكم ؛ ليرفع إليه ما تم من الأمر على يده .

وما أصبح الصباح حتى علم سكان الجزيرة أن تلك الأسرة الفقيرة الخاملة ، التي تسكن ذلك الوادي المقفر الموحش ، قد أمطرتها السماء فضة وذهباً ، فوفد إليه الوافدون من كل مكان ، ما بين مستمنح يطلب حاجة ، ومستعين يطلب معونة ، وتاجر يعرض سلعة ، فأعطت السائل ، وأعانت المسترفد[1] ، وابتاعت من الأنسجة والشفوف ، وصنوف الديباج والخز ، وأنواع الأثاث والرياش ما يزيد عن حاجتها ، وما يضيق به كوخها ، وخلع جميع أفرادها أسمالهم القديمة وقمصهم البنغالية الخشنة ، وارتدوا ملابس جديدة بديعة الشكل والهندام . ولبست ڤرجيني ثوباً حريريًّا أزرق مطرزاً بالقصب ، واعتصبت بعصابة وردية زاهية ، ولصق ثوبها بجسمها فمثَّله تمثيلا بديعاً ، و وصفه وصفاً دقيقاً ، وبول يرى كل هذا ، ولا يفهم منه شيئاً ؛ لأن أحداً منهم لم يجرؤ أن يكاشفه الأمر ، إلا أن يظن ذلك ظنًّا ؛ فعظم حزنه واكتئابه ، وساورته الوساوس والهموم ، فرحمته أمه مما به . وكانت تمسك في نفسها شيئاً من العتب على صديقتها هيلين في رضاها بسفر ابنتها وتضحيتها بابنها في سبيلها ، فدعته إليها وخلت به وقالت له :

« لِمَ تعلل نفسك يا بني بالآمال الكاذبة والأماني الضائعة ، ولِمَ تتطلع إلى ما تقصر عنه يدك، ويضيق به ذرعك ؟ ولقد آن أن أكشف لك حقيقة أمرك الذي كتمته عنك زمناً طويلا ؛ لتعلم من أنت ، ولتقدر آمالك على مقدار حقيقتك ، لا على مقدار تصورك .

« فاعلم أن أمك امرأة فلاحة وضيعة ، لا حسب لها ولا نسب ، وأن قدراً من الأقدار الجارية بين الناس قد نزل بها في صباها ، فحاد بها عن طريق الشرف والاستقامة ، فحملت بك من سفاح ، أي أنك لا أب لك يعرفه الناس ، ولا لقب لك غير لقب أمك ، فلا تقس نفسك بڤرجيني ؛ فهي فتاة شريفة نبيلة ، من أسرة كريمة مشهورة ، ولها عمة مثرية كانت قد أغفلت أمرها حقبة من الزمان لأمر ما ، ثم ذكرتها اليوم فأرسلت في طلبها لتعيش معها في باريس ، متمتعة بثروتها الطائلة ، حتى إذا ذهبت لسبيلها ، ورثت عنها هذه الثروة من بعدها ، فلا تطمع في أن تتصل بها يوماً من الأيام ، إلا أن تكون فلتة من فلتات الدهر ، أو أعجوبة من أعاجيب الأيام ، وأرح نفسك من هموم الأماني ومتاعبها ، والله أولى بك وبي من كل مخلوق .

« واعلم يا بني أنني لم أقترف هذا الجرم الذي ذكرته لك ، وأنا أعلم أني آثمة أو مذنبة ، ولكنه قضاء الله قد جرى بما لا حيلة لي ، ولا لأحد من

(١) المسترفد: طالب الرِّفْد؛ أي طالب العطاء والصِّلة .

الناس في أمره ، فاغفر لي خطيئتي ، إن كنت ترى أنني مخطئة ، أو أنني الجالبة لك هذا الشقاء الذي تكابده في حياتك .»

ثم أسلمت رأسها إلى ركبتيها وبكت بكاء طويلا ؛ فحنى عليها پول ، وطوق عنقها بيديه ، وقال لها :

« لا تبكي يا أماه ؛ فما أنت بائسة ، ولا شقية ما دمت معك ، أما هفوتك التي تتحدثين عنها ، فما أحسب إلا أن اللّه سبحانه قد غفرها لك . نعم سوف يغفرها لك ؛ لأنك قد كفرت عنها بدموعك ، وآلامك ، وشقائك الذي كابدته زمناً طويلا ، وكوني على ثقة من أنك أجلُّ في عيني ، وأكبر في نفسي من أن أعدَّ عليك أمثال هذه الهفوات والعثرات ، وأنني لا يعنيني أ كان أبي معلوماً أم مجهولاً ، شريفاً أم وضيعاً ؛ لأنني ما فكرت يوماً من الأيام أن أفخر به ، أو أعتمد في حياتي عليه .

« أما تلك التي حدثتني عنها فسأحمل نفسي على نسيانها وسلوتها ، وأرجو أن يعينني اللّه على ذلك ، ولقد شعرت قبل اليوم بانقباضها عني وتجهمها لي ! ولا بد أن تكون قد وقفت من بضعة شهور على هذا السر الذي أطلعتني عليه اليوم ؛ فازدرتني ، واحتقرتني ، ونفضت يدها مني إلى الأبد ، والأمر للّه وحده !»

ثم نهض قائماً ، وقد ظن أنه قد شفي مما به ، فتنفس نفس الراحة ومضى لسبيله .

إلا أنه لم يبعد إلا قليلا حتى شعر بوخزة في قلبه ، فلم يُبَل بها ، ثم تتابعت الوخزات ، فخيل إليه أن قلبه يرفرف ما بين أضلاعه رفرفة الطائر بأجنحته ، وأنه يحاول أن ينبعث من مكانه ويطير في أجواز الفضاء ، فصرخ صرخة عظمى وظل يهتف : « آه يا ڤرجيني ! آه يا ڤرجيني !» حتى وصل إلى صخرة عالية على شاطئ البحر ، فتهافت عليها ، وأسلم رأسه إلى ركبتيه ، وذهبت به نفسه مذاهب لا يعلمها إلا اللّه . وظل على حاله ساعة حتى انحدر قرص الشمس إلى مغربه ، وبدأ كوكب الليل يخطر في جو السماء محفوفاً بحاشية من سحبه وغيومه ، فلا يكاد يلمحه اللامح من خلالها إلا كما يلمح وجه الحسناء من وراء خمارها ، ثم أخذ يرسل أشعته الباهتة الخضراء على ما تحته من صخور ، وهضاب ، ورمال ، وتلال ، فأضاءتها ، وأضاءت فيما أضاءته ذلك الشبح الضئيل الجاثم على تلك الصخرة المنفردة .

وإنه لكذلك إذ شعر بيد قد وضعت على عاتقه ، وبأخرى ترفع رأسه ، فانتبه فإذا ڤرجيني واقفة أمامه ، ودموعها تترقرق في عينيها ، فذعر إذ رآها ، وظل ينظر إليها نظراً حائراً مضطرباً ، فقالت له :

« ما بقاؤك هنا وحدك في هذا المكان يا پول ؟»

فقال لها :

« لقد حدثوني عنك أنك مسافرة بعد يومين أو ثلاثة ، وأنك ذاهبة لتفتشي لك عن أخ آخر غيري ، يصلح لك وتصلحين له ؛ لأنك عرفت أنك فتاة شريفة ثرية ، لا يجمل بك أن تتصلي بفتى وضيع مسكين مثلي ، فأحزنني ذلك حزناً عظيماً ، وكنت أظن أنني أستطيع أن أحمل نفسي على الصبر عنك واليأس منك فعجزت ؛ فلم أر بداً من أن أروِّح عن نفسي ببضع قطرات من الدمع ، أذرفها في هذا المكان الخالي .»

ثم أشار إليها أن تجلس بجانبه وأقبل عليها ، وظل يقول لها :

« إلى أين تريدين أن تذهبي يا ڤرجيني؟ وأي أرض تلك الأرض التي اخترتها ، وآثرتها على أرضك التي نشأت فيها ، وألفت ماءها وهواءها ، وظلالها وأفياءها ، وخضراءها وغبراءها ؟! وأي قلب ذلك القلب الذي رأيت أنه يحمل لك في سويدائه من الحب والعطف أكثر مما يحمل لك قلب أمك ؛ فاستبدلته به ، وسكنت إليه من دونه ؟!

« لمن تتركين تلك المرأة المسكينة وأنت أنس وحشتها ، وسمير وحدتها ، وعماد حياتها ، وكل أملها ورجائها في هذا العالم ؟

« وكيف تستطيع أن تهنأ بنومها حيثما تمد يدها

في ظلام الليل وسكونه إلى مضجعك فلا تراك بجانبها ؟ وكيف تستقبل وجه النهار إذا فتحت عينيها في الصباح ، فلا تقعان على وجهك المشرق الجميل ، أو تجد لذة الطعام والشراب إذا جلست إلى المائدة فلا تراك بين الجالسين إليها ، أو تصغي إلى أصوات الطبيعة المترنمة وصوتك لا يجلجل بينها ، ولا تنبعث رنته بين رناتها ؟!

« وكيف لي بتعزيتهما ؛ تعزية أمّيّ عن همومهما وأحزانهما إذا دخلت إليهما فرأيتهما باكيتين منتحبتين ، تسألان عنك الليل والنهار ، والأصائل والأسحار ، والظباء السانحة ، والطيور البارحة ، فلا تسمعان ملبياً ولا مجيباً ، ولا تقبلان عزاء ولا سلوى ؟!»

وصمت هنيهة ، ثم قال وعيناه مخضلتان بالدموع :

« وماذا أصنع أنا من بعدك أيتها الغادرة القاسية ، إذا ظللت أفتش عنك في كوخك ومخدعك ، وتحت ظلال الأشجار ، وعلى ضفاف الأنهار ، وفي جميع الأماكن التي أعلم أنك تأوين إليها ؛ لأجلس إليك ساعة ، أتمتع فيها بلذة حديثك وحلاوة سمرك ، فلا أراك في واحد منها ؟

« ومن لي بمن يستقبلني حينما أعود من المزرعة تعباً لاغباً [1]، فيبتسم تلك الابتسامة العذبة الجميلة التي تذهب بجميع أوجاعي وآلامي ؟ ومن ذا الذي يصحبني في هدوء الليل وسكونه إلى شاطئ البحر ، وقد بسط القمر أشعته على أمواجه المنبسطة ، وصبغها بلونه الفضي الجميل ، فيجلس بجانبي على رملة من رماله الميثاء ، فيسمعني تلك الأناشيد الساحرة الخالبة التي تستغرق شعوري و وجداني ، وتملك عليّ مداركي وعواطفي ، ويخيل إليّ حين أسمعها أنها هابطة من الملأ [2] الأعلى ، وأنها نغمات الحور الحسان ، في فراديس الجنان ؟

« إنني لا أستطيع أن أعيش من بعدك يا ڤرجيني ، ولا أستطيع أن أسألك أن تصحبيني معك في سفرك ، فأنت أجلُّ من ذلك شأناً ، وأعظم خطراً . ولقد أفضت إليّ أمي اليوم بسر حياتك وسر حياتي ؛ فعلمت أنك فتاة شريفة جداً ، وأنني فتى وضيع جداً ، لا أصلح أن أكون أخاً لك ، بل لا أصلح أن أكون عشيرك وجليسك . وإنما أسألك أن تأذني لي بركوب السفينة التي تركبينها ؛ لأكون ملاحاً من ملاحيها أو خادماً من خدمها ؛ فأراك على البعد ؛ فأجد في رؤيتك راحتي وسلوتي ، وأعدك وعداً صادقاً ، لا أغدر فيه ولا أحنث ، أنني لا أجالسك ، ولا أدنو منك ، ولا أتصل بك بوجه من الوجوه إلا إذا عرض لك خطر من الأخطار ، فإنني أبذل لك في تلك الساعة جميع ما تملك يدي ، وما تملك يدي غير حياتي ، فأبذلها لك طيب النفس عنها .

« ما الذي طرأ عليك يا ڤرجيني ؟ وما الذي نال من نفسك هذا المنال كله ، حتى استحالت حالتك إلى حالة أخرى ، أكاد أنكرها ولا أعرفها ؟

« كنت تخافين البحر أشد الخوف ، وتجزعين لرؤية عواصفه وأنوائه جزع الأطفال الصغار ، وتعجبين كل العجب للذين يخاطرون بأنفسهم في ركوبه ، فإذا أنت مزمعة أن تعبريه ، وأن تلبثي بين أمواجه الثائرة تسعين يوماً كاملة !

« كنت تتألمين أشد الألم لفراق أمك يوماً واحداً ، فها أنت تريدين أن تفارقيها فراقاً طويلا ، لا يعلم مداه إلا الله تعالى ، وما لك حيث تذهبين من الأرض أمٌ سواها !

« كنت تقولين إنني لا أجد لذة الحياة بعيدة عنك ، فها أنت تجدينها بعيدة عني جداً ، بين أقوام لا تعرفينهم ، ولا تمتين إليهم بصلة من الصلات ، أو سبب من الأسباب .

« لقد شعرت بهذا الطارئ الجديد الذي طرأ على نفسك ، مذ رأيتك تلبسين هذا الثوب الضيّق اللاصق بجسمك ، وعهدي بك أنك تضيقين ذرعاً بالريح العاصفة إذا مدت يدها إليك ، وحاولت أن تعبث بذيل ردائك ، أو تدور بقميصك حول جسمك ، ولا أدري ماذا يكون شأنك غداً إذا فارقت

---

(١) اللاغِبُ: المجْهَد . (٢) الملأ الأعلى: عالم الأرواح المجَرَّدة .

هذه القفرة الموحشة إلى ذلك العالم المزدحم الهائل ، الذي يتدفق حرية واستهتاراً ، ويسيل نعمة ورغداً ؟

« نعم إنك قد مللتني يا فرجيني ، ومللت الحياة بجانبي ، وأصبحت تشعرين بالحاجة إلى المال الذي لا أستطيع تقديمه لك ، وإلى العيش الرغد الذي تقصر يدي عنه ؛ فلا ألومك ولا أعتب عليك ، ولكنني أسألك هل أنت على ثقة من أن المال هو السبيل الوحيد إلى السعادة التي تنشدينها ، وأنك تكونين في ذلك الفناء الواسع أسعد منك في هذه الزاوية الضيقة؟ إنني أخاف أن تكوني مخطئة فيما تظنين .

« إنني لا آسي على نفسي يا فرجيني ؛ فقد عرفت من أنا ، وعرفت من أنت ، وأصبحت لا أمل لي في أن أعيش في دائرة أوسع من الدائرة التي خلقت لها ، ولكنني أضن بك على الدهر وأرزائه أن يمتد إليك ظفر من أظفاره الجارحة ؛ فأهلك على أثرك همًّا وكمداً .

« فإما أن تعدلي عن السفر ، أو تأذني لي بالسفر معك ؛ فإنني لا أستطيع أن أحول بين قلبي وبين القلق عليك ، ما دمت غائبة عني ، فإن أبيتهما فودعيني منذ الساعة الوداع الأخير ، فلا أمل لي في الحياة من بعدك ! »

فلم تستقبله إلا بدموعها تنحدر على خديها ، تحدُّر حبات العقد وَهَى سِلْكُه فانتثر ، وأنشأت تقول له :

« إنني إنما أسافر من أجلك يا پول ، لا من أجل نفسي ؛ لأنني أصبحت أشفق عليك الإشفاق كله من هذا الشقاء الذي تكابده في سبيلي وسبيل هذه الأسرة المسكينة ، وطالما بكيتك بيني وبين نفسي ، كلما رأيتك صاعداً شرفاً ، أو عابراً نهراً ، أو سالكاً وعراً ، أو حاملاً ثقلاً ؛ حذراً عليك أن تزل بك قدمك في هوة من الهوى ، فتهلك ، فأهلك على أثرك ؛ فأنا إن فارقتك فإنما أفارقك بجسمي لا بنفسي ؛ لأعود إليك بعد قليل من الأيام بالراحة الطويلة من آلام هذه الحياة ومتاعبها ؛ ولنستطيع أن تتمتع غداً في هذا المعتزل الساكن الجميل ، متعة لا يكدرها علينا مكدر حتى الموت .

« ورجائي إليك ألا تعود مرة أخرى إلى ذلك الحديث المزعج الذي حدثتنيه الساعة ، فإنما نحن أخوان توأمان ، نشأنا معاً ، ودرجنا معاً ، وشربنا الحياة من كأس واحدة ، وسلكنا سبيلها من طريق واحدة . هذا هو نسبنا ، وهذا هو حسبنا ، لا نعرف غيره ، ولا نفهم شيئاً سواه ، وإني قائلة لك كلمة ما كان يمنعني من أن أقولها لك قبل اليوم إلا الخجل والحياء : لو أن الدنيا عرضت عليَّ بحذافيرها على أن أبتاعها بشوكة تشاكها ، أو لحظة تتألم فيها ، لأبيتها غير آسفة ولا نادمة !

« على أنني لا ذنب لي فيما كان ؛ فقد أمرتني أمي بالسفر ، ولا أستطيع أن أخالف لها أمراً ، وأبلغني الكاهن أن تلك إرادته ومشيئته ، ولا قبل لي بالخروج عن إرادته . وبعد : فهأنذا بين يديك ، فمرني بما تشاء من أمرك ، أطعك ، وأذعن إليك ، غير مبالية بشيء بعدك ، فكل ما في الحياة هين إلا أن أراك جازعاً أو متألماً ! »

فصاح پول صيحة الفرح والسرور وقال :

« سافري يا فرجيني وسأسافر معك ؛ لأقيك بنفسي عاديات الدهر ، وطوارق الحدثان ، فإن حيينا حيينا معاً ، وإن هلكنا هلكنا معاً . »

ثم دنا منها ، وضمها إلى صدره ، فشعر بالراحة التي يشعر بها الملقي عصاه بعد سفر طويل .

وكنا نفتش عنهما في تلك الساعة ، أنا وهيلين ومرغريت ، ولا نعرف لهما مكاناً ، حتى سمعنا صيحة پول حين صاح فقصدنا إليه ؛ فما وقع نظره علينا حتى انتفض من مكانه ومشى إلينا ، ثم التفت إلى هيلين ، وألقى عليها نظرة ما ألقى عليها مثلها قبل اليوم ، وقال لها بنغمة الهازئ الساخر :

« نعمت الأم أنت يا سيدتي ، ونعم ما تسدينه إلى ولديك الكريمين عليك من نعمة سابغة ، ويد بيضاء ، إذ تريدين أن تفرقي بينهما وتمزقي شمل حياتهما ، وتعذبي قلبيهما الناشئين الضعيفين بصنوف

العذاب ، وألوان الآلام ، وأنت تعلمين أنهما متحابان متآلفان ، لا يستطيع أحدهما أن يصبر عن صاحبه لحظة واحدة ؛ وأن افتراقهما هو القضاء عليهما معاً !

« لقد كنت يا سيدتي أزهد الناس في المال ، وأشدهم نقمة عليه ، وزراية به ، وزهداً فيه ؛ فما الذي بدا لك في شأنه حتى أصبحت تخاطرين بولديك العزيزين عليك في سبيله ؟ بل تخاطرين بكرامتك وعزة نفسك ؛ لأنك تريدين أن ترسلي ابنتك إلى تلك الأرض التي أهانتك واحتقرتك ؛ وأبت أن تسمح لك بالبقاء فيها ، والعيش تحت سمائها ؛ عقاباً لك على هفوة صغيرة ، ما كان مثلها جديراً بمثل هذا العقاب المؤلم الشديد ؟!

« نعم ، إنها ابنتك وأنت صاحبة الشأن فيها ، ما ينازعك في ذلك منازع ، ولكنني أنا أيضاً أخوها وصديقها وعشيرها ؛ فصلتي بها عظيمة جداً ، لا تفترق عن صلتك إلا قليلا . ولئن فرق بيني وبينها النسب ، فلقد جمعنا الحب والإخاء ، والود والوفاء والولادة في مهد واحد ، والرضاع من ثدي واحد ، وبكائي عليها إن مسها ألم ، وبكاؤها عليَّ إن نالني وَصَبٌ [1]، ومخاطرة كل منا بنفسه في سبيل صاحبه حتى يستنقذ حياته من يد أجله أو يهلك دون ذلك !

« واشتراكنا معاً في الخير والشر ، والنعيم والبؤس ، والجوع والشبع ، والرّي والظمأ ، وخوض الأنهار ، واجتياز القفار ، وتسلق الجبال ، ومقاساة الأهوال ، فكيف لي بالصبر على فراقها ، أو لها بالصبر على فراقي ؟!

« أبعديها عني ما شئت ، ولكني سأتبعها ، وأترسم آثارها حيثما حلت من الأرض ، فإن أبيتم إلا أن تقفوا في وجهي ، وتحولوا بيني وبين ركوب السفينة التي تحملها ، خضت البحر وراءها خوضاً ، لا أبالي بالمخاطر التي تعترضني في طريقي ، فإن قدرت لي النجاة فذاك ، أو لا ، فحسبي منها أنها تلقي عليَّ في الساعة الأخيرة من ساعات حياتي نظرة من نظراتها ، وأن تذرف في سبيلي دمعة من مدامعها ، فيكون شخصها آخر ما أرى من الأشياء ، وصوتها آخر ما أسمع من الأصوات .»

فاستعبرت هيلين وقالت : « وماذا يكون حالنا من بعدك يا پول ؟»

قال : « وهل تظنون أنني أبقى من بعدها إنساناً تستطيعون أن تنتفعوا بي في شأن من شؤونكم ، أو أن يبقى لي من الفهم والإدراك ما يعينني على مأرب من مآرب هذه الحياة ؟ إنها فكري وعقلي ، وتصوري وإدراكي ، وقوتي وعزيمتي ، وحياتي من مبدئها إلى منتهاها ، فإن أردتم أن تفقدوني إلى الأبد ، فأبعدوها عني ، و دعوني الوداع الأخير قبل أن تودعوها !»

ثم اختنق صوته بالبكاء وحاول أن يذرف دمعة واحدة ، يروح بها عن نفسه فلم يستطع ، فارتعد جسمه ، واستحال لونه ، وشاعت نظراته ، ولمعت عيناه ، ولبس وجهه أغرب صورة لبسها في حياته وظل يهذي ويقول :

« أيتها المرأة القاسية ! لا متّعك اللّه برؤية ابنتك بعد اليوم ، ولا أعادها البحر إليك إلا جثة باردة طافية على أمواجه ، ولا وقعت عيناك عليها إلا محمولة على الأيدي إلى مقرها الأخير ، ولتكن ذكراها مبعث ألم دائم لك لا يفارقك حتى الموت!»

ثم دار على نفسه دورة سريعة ، وسقط مغشيًّا عليه، فبكت هيلين ومرغريت ، وبكيت أنا أيضاً ، على جفاف دمعتي ونضوب مادة حياتي ؛ لأنني أصبحت والداً لهذا الولد المسكين ، وأيُّ والد يستطيع أن يملك نفسه ومدامعه أمام دموع ولده المنهملة بين يديه ؟! وظللت أقول في نفسي :

« ويل لك أيتها القارة المشئومة ! لا خلاص منك ولا نجاة من يدك أبد الدهر ؛ فقد فرت منك تلك الأسرة المسكينة ، ولجأت إلى أقصى مكان يمكن أن تناله يد في العالم ، فما زلت بها ترسلين وراءها عقاربك واحدة بعد أخرى ، حتى أزعجتها من مستقرها ، واستطعت بحفنة واحدة من الدنانير أن تفسدي عليها حياتها وتبددي ما اجتمع من أمرها ، وأن تعيديها إلى حبائلك المنصوبة التي ظنت أنها قد أفلتت منها أبد الدهر ، فوا شقاءك و وا شقاء العالم

(١) الوَصَبُ: الوَجَعُ و المَرَض .

بك !»

وهنا تقدمت فرجيني تمشي بخطوات خفيفة مختلسة حتى جلست إلى جانبه ، وقد تلألأ وجهها بنور سماوي غريب ، لا يشبه نور القمر ولا نور الشمس ، ولا نور أي كوكب من كواكب الأرض والسماء ، بل هو مبعث ذاته ، ومنبع نفسه ، وأكبت على أذنه تقول له :

« سواء بقيت هنا يا پول أو رحلت ، فإني أقسم لك بدموعي ودموعك ، وآلامي وآلامك ، وبما قدر لنا أن نلقاه في حياتنا من شقاء ولوعة ، أنني أكون لك ما حييت ، ولا أكون لأحد غيرك . أقسم لك على ذلك بين يدي أمي وأمك ، وبين يدي هذا الشيخ الجليل ، فهم شهودي على ما أقول ، والله من ورائهم محيط .»

فكأنما صبت على جسمه سَجْلاً [1] من الزلال البارد ، فانتفض و رأرأ [2] بمقلتيه واستوى جالساً ، وظل يدور بنظره حوله ثم أسبلت عيناه الدموع في هدوء وسكون ، فاحتضنته أمه إلى صدرها وبكت حتى امتزجت دموعه بدموعها ، فهمست هيلين في أذني :

« إن الموقف مؤلم جداً ، ولا صبر لي على مشاهدته .»

فتقدمت نحو پول وجذبت يده ، وقلت له : « هيا بنا يا ولدي إلى المنزل ، فقد انتصف الليل .»

فمشى معي صامتاً ، لا يقول شيئاً ، ولا يلوي على شيء مما وراءه ، حتى بلغنا الطريقين : طريقي إلى كوخي ، وطريقه إلى كوخه ، فقلت له :

« هل لك أن تترك أهلك الليلة يستريحون من آلامهم ومتاعبهم ، وتذهب معي إلى كوخي لتبيت عندي ، ثم تعود في الصباح ؟ وكن على ثقة أن فرجيني لا تسافر بعد اليوم ، فقد عزمت غداً أن أكلم الحاكم في أمرها ، والحاكم لا يرد لي رجاء، وما أحسب إلا أن الأمر سينتهي على ما تحب وترضى .»

فأسلم لي يده ؛ فقدته كما تقاد السائمة البلهاء حتى وصلنا إلى المنزل ، فقضى ليلته قلقاً مروعاً ، لا يذوق النوم إلا لماماً حتى أصبح الصباح .

* * *

(١٨)
السفـر

وهنا صمت الشيخ وأطرق برأسه فدنوت منه وقلت له : « ما بك يا سيدي ؟»

قال : « بي أن هذه الذكرى تهيجني ، وتبعث شجوني وأحزاني ، ولا أرى لك يا ولدي فائدة من ذكرها ؛ فالحياة كما تعلم ذات لونين : أبيض وأسود ، وأنتم معشر المتمدينين لا تحبون منها إلا لونها الأبيض ، فلا أريد أن أنحرف بك إلى ما لا تحب من لونيها .»

قلت : « قل يا سيدي ؛ فنحن أبناء الدموع والآلام ، وسلائل البؤس والشقاء ؛ وما لنا أن نبرأ من أصولنا وأعراقنا ، أو نذهب في حياتنا مذهباً غير مذهب آبائنا وأجدادنا ، وهل يطهر معدن النفس من أخلاطه وشوائبه ، وينقيه من أدرانه وأكداره ، غير تلك الألسن النارية التي تنبعث من صدور المتألمين وقلوب المحزونين؟! على أننا لا بد لنا أن نفهم الحياة كما خلقت ، خيرها وشرها ، سعودها ونحوسها ، ولا بد لنا حين ننظر إلى نصف الكرة الذي يقابل وجه الشمس أن نعلم أن نصفها الآخر مظلم قاتم ، وأننا ونحن في ضوء النهار سيدور الفلك دورته فنصبح في ظلمة الليل البهيم !»

فرفع رأسه ، واستمر في حديثه يقول :

جاء الصباح فنهض پول من مضجعه القلق المضطرب ، ومشى في طريقه إلى كوخه ، ومشيت وراءه أرقبه على البعد من حيث لا يشعر بمكاني ، فلم يزل سائراً حتى لمح الخادم ماري واقفة على رأس

(١) الدَّلو العظيمة . (٢) حرَّكَ الحَدَقَةَ وحَدَّدَ النَّظَرَ .

هضبة عالية ، تنظر جهة البحر ، فذعر إذ رآها ، وناداها : « أين ڤرجيني يا ماري ؟! »

فأطرقت برأسها وبكت ، فجن جنونه ، وعلم بما كان ، وهرع إلى شاطئ البحر يعدو عدو الظليم ؛ فلم ير أمامه على سطح الماء شيئاً ، وحدثه الناس هناك أن السفينة قد أقلعت قبيل الفجر ، وأنها قد تجاوزت مدى البصر ، فلا سبيل إلى رؤيتها ، فكرّ راجعاً حتى وصل إلى ذلك الجبل العظيم الذي يسمونه جبل الاستكشاف ، فارتقاه بأسرع من لمح البصر على وعورته وتشعب مسالكه ، حتى بلغ قمته العليا وضرب الفضاء بنظره ، فلم ير في عُرض البحر إلا نقطة سوداء صغيرة ، تتلاشى شيئاً فشيئاً ، فعلم أنها السفينة التي تحمل ڤرجيني ، فاستمر نظره عالقاً بها ، لا يفارقها حتى غابت عن عينيه ، فظل واقفاً حيث هو ، ينظر حيث ينظر ، كأنما يظن أنها لا تزال باقية في مكانها .

وظل على ذلك ساعة ، حتى نشأت أمام عينيه سحابة سوداء حجبت عنه كل شيء ، فلوى رأسه وانفجر باكياً ، وأنشأ يعج عجيجاً محزناً ، يرن في أجواف الغابات والأدغال ، وتردد صداه أكناف الجبال ، فصعدت درجات من الجبل حتى كنت منه بحيث يسمع صوتي ، وظللت أناديه وأضرع إليه أن ينزل ، فلم يفعل إلا بعد لأي ، فتناولت يده وذهبت به إلى كوخه ، فبكت أماه إذ رأتاه ، وكانت صورته قد استحالت إلى أغرب صورة لبسها في حياته ، وكأن بؤس الحياة جميعه قد تجمع ، واتخذ له مكاناً بين حاجبيه ، فظل ساعة صامتاً ، لا يقول شيئاً سوى أن يدور بطرفه ههنا وههنا كالذاهل المختبل !

ثم أخذ يتكلم ، كأنما يحدث نفسه ، ويقول: « ولِمَ لَمْ ينبئوني بالساعة التي تسافر فيها ؛ لأقضي حق وداعها قبل أن تفارقني ؟! إنهم لو فعلوا لما زدت شيئاً على أن أدنو منها وأقبلها قبلة الوداع ، ثم أقول لها : إن كنت تذكرين يا ڤرجيني أني أسأت إليك يوماً من الأيام ، أو بدرت مني بادرة آلمتك وجرحت نفسك ؛ فاغفري لي ذنبي قبل أن تفارقيني . وإن كنت عزمت على أن تجعلي فراقك هذا الفراق الأخير الذي لا لقاء بعده ، وأن تتخذي لك في المكان الذي تذهبين إليه آخر غيري ، تمنحينه من عطفك و ودك مثل ما كنت تمنحينني ، فأنت في حل من ذلك . وهنيئاً لك ما تختارين ، وما تؤثرين ، فلا تكن ذكراي سبباً في تنغيص عيشك المقبل ، وتكدير حياتك الجديدة . ثم أنصرف بعد ذلك لشأني ، وقد هدأت نفسي وبرد غليلي ، ولكنهم لم يشفقوا عليَّ ، ولم يرحموني ؛ لأنني ولد مسكين ، لا شأن لي في الحياة ، بل لا مكان لي بين الأمكنة التي يجلس فيها ذوو الأصول والأنساب ! »

فدنت منه هيلين ، وما بين القلوب قلب أكثر من قلبها لوعة وأسى وتناولت يده ، وقالت له :

« كن رجلاً يا بني ، كما كنت طول أيام حياتك ، واعلم أننا ما كنا نعرف الساعة التي تسافر فيها ڤرجيني ، فقد طرق بابنا بعد عودتنا إلى الكوخ ، وفي هدوء الليل وسكونه ، حاكم الجزيرة ، ووراءه أعوانه وجنوده ، وقال لنا : « إن الريح قد اعتدلت ، والسفينة على وشك السفر ؛ فلتستعد الفتاة .» فأبت ڤرجيني أن تسافر قبل أن تراك ، وظلت تهتف باسمك ، وتناديك ، وتبكي بكاء مراً ؛ فلم يجد الحاكم بداً من أن يأمر رجاله بحملها ، فاحتملوها إلى هودج كانوا قد أعدوه لها ، وساروا بها إلى شاطئ البحر ، وهي لا تنفك عن ذكرك والبكاء عليك ، حتى أقلعت السفينة ! »

فرفع پول إليها نظره ، وظل يردده بينها وبين أمه؛ ثم قال لهما :

« فتشا لكما الآن عن ولد غيري يدعوكما بأمه ، ويحمل عنكما همومكما وآلامكما ؛ فقد فقدتماني إلى الأبد ! »

ثم انفتل من مكانه مسرعاً ، وخرج هائماً على وجهه ، يمر بكل مكان كانت تجلس فيه ڤرجيني فيجلس فيه ، وبكل شجرة كانت تستظل بظلها فيقف تحتها ، وبكل جدول كانت تنام على ضفته فينام مكانها ، وأخذ يخاطب الماشية التي يجدها في طريقه ، كأنها تعقل منه ما يقول فيقول لها :

« مسكينة أنت أيتها السائمة الضعيفة ، من ذا الذي يرحمك ويعطف عليك بعد صاحبتك ؟! »

ويقول للطيور التي تغرد في أعشاشها : « لا تنتظري بعد اليوم من يحمل إليك الطعام في حجره ، والماء في يده ؛ فقد سافرت ڤرجيني ! »

ورأى الكلب « فيديل » سائراً في طريقه يسوف التراب ويشتمُّه ، كأنما يفتش عن شيء ضاع منه ، فقال له : « فتش ما شئت ؛ فإنك لن تراها بعد اليوم ! »

ورأى عنزة تتبعه حيث سار ، فالتفت إليها ، وقال لها : « أنا سائر وحدي ؛ وليست ڤرجيني معي ، فانصرفي لشأنك ! »

ولم يزل هذا شأنه حتى بلغ الصخرة التي جلس عليها معها ليلة الأمس ، فارتقاها ، ورمى بنظره في الفضاء حتى استقر في المكان الذي شاهد فيه تلك النقطة السوداء من البحر في الصباح ، فلم يزل نظره عالقاً به ، كأنما يظن أن السفينة لا تزال باقية فيه ، وظل على ذلك ساعات طوالا .

وكنا نتتبعه على البعد ، من حيث لا يشعر بمكاننا ، ونترقب مذاهبه ومراميه ، ونرثي له مما به ، وقد أصبحنا ، ولا شأن لنا غير رعايته وملاطفته ، وتهوين خطبه عليه ، وتسرية همومه وأحزانه ، ما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، حتى استطعنا بعد لأي أن نعود به إلى الكوخ . واستطاع هو بعد مرور يومين كاملين ، لم يذق فيهما طعاماً ولا شراباً أن يصيب شيئاً من الطعام ، فكان إذا جلس على المائدة ، خيل إليه أن ڤرجيني لا تزال بجانبه ، فيظل يحادثها ويلاطفها ، كما كان يفعل من قبل ، ويضع بين يديها أصناف الطعام التي يعلم أنها تحبها ، ثم لا يلبث أن يتنبه لنفسه ، فيطرق برأسه خجلاً وحياء ، وتظل عيناه تنهملان بالدموع ، ثم ينهض من مكانه وينصرف لشأنه !

وكان لا يعجبه من الأحاديث مثل الحديث عنها ، ولا يطربه خطاب مثل خطاب هيلين حين تناديه : « يا زوج ابنتي ! » أو « يا صهري العزيز ! »

فاستطاع الهدوء أن يجد شيئاً فشيئاً إلى نفسه سبيلا ، فأخذ يجمع آثار ڤرجيني من جميع أماكنها ومظانها ، فجمع طاقة من الزهر كان قد أهداها إليها قبل سفرها بيوم واحد ، وعصابة حمراء كانت تعتصب بها في أيام الأعياد ، وكأس الشاي التي كانت تشرب بها ، وزجاجة العطر التي كانت تحفظها في صندوقها ، ومشط الآبنوس الذي كانت تمشط به غدائرها ، وأمثال ذلك من الأدوات والآنية ، ووضعها في مكان واحد سماه «متحف ڤرجيني» فكان يختلف إليها من حين إلى حين ؛ ليلثمها ويقبلها ويضمها إلى صدره ، كأنما هو يضم صاحبتها .

وما هي إلا أيام قلائل حتى عادت إليه تلك الروح العظيمة الشريفة التي كانت تملأ ما بين جنبيه ؛ روح الرجولة والهمة ، والعزة والأنفة ، فعز عليه أن يرى أميه ، وهما ضعيفتان منهوكتان ، تختلفان إلى المزرعة لمناظرتها والقيام عليها ، فأخذ يحمل عنهما ذلك العبء شيئاً فشيئاً حتى استقل به ، فعاد له جده ونشاطه ، وأصبح العمل ملهاته الوحيدة التي يلجأ إليها من همومه وأحزانه ، ويعتصم بها من وساوسه وبلابله .

وكان يأنس بي في ذلك الحين أنساً عظيماً ، ويقضي معي جميع أوقات فراغه ؛ لأنني كنت أعزيه وأهون عليه همومه وآلامه ، لا بالدموع والبكاء ، كما كانت تفعل أماه ، بل بالحديث والسمر ، وسرد القصص ، وضرب الأمثال ، واستخراج العبر والعظات من مشاهد الكون ومناظره . فاقترح عليّ يوماً من الأيام أن أعلمه الكتابة والقراءة ، ولعله كان يضمر في نفسه أن يعرف السبيل إلى مراسلة ڤرجيني ، فأعجبني مقترحه هذا ، وأخذت أعلمه ما أراد ، وأقسم لك يا ولدي أنني ما رأيت في حياتي ذهناً أحدّ ولا أمضى ، ولا فطرة أقوم ولا أسلم من ذهن هذا الغلام وفطرته .

فقد استطاع بعد بضعة شهور ، لا تزيد على تسعة أو عشرة أن يقرأ فصلا طويلا من كتاب أدبي

بسيط ، وأن يكتب مسوّدة رسالة لفرجيني .

وما هو إلا عام وبعض عام حتى طلب إليّ أن أعلمه فن الفلاحة ، ولعله أراد أن يصل من طريقه إلى الثروة الواسعة إرضاء لفرجيني ، وعلم تقويم البلدان ليعرف النقطة التي تحلها فرجيني من سطح الأرض ، وعلم التاريخ ليعرف شيئاً من شئون أولئك القوم الذين تعاشرهم فرجيني ، فعلمته من ذلك ما يستطيع أن يقوم به مثلي . ولم يلبث إلا قليلا حتى استطاع أن يستقل بنفسه في دراسة تلك العلوم وغيرها ، مما بدا له أن يعرفه ويزاوله ، فأصبح يشعر بلذة عظمى ما كان يشعر بمثلها من قبل ، وسمت نفسه إلى درجة عالية من الفهم والإدراك ، لم يسمح الدهر بمثلها لفتى في مثل سنه ، وفي مثل الزمن الذي قضاه في الدراسة .

وأصبح ينظر إلى الحياة وشئونها نظرة الفيلسوف الحكيم ، ففهمها على حقيقتها ، واستشفّ الكثير من بواطنها وخفاياها ، وعرف الفروق الدقيقة بين الخير والشر ، والصلاح والفساد ، والإساءة والإحسان ، فلم يشتبه عليه مسلك من المسالك ، ولا سبيلٌ من السبل . وكان السبب في ذلك أنه تعلم العلم ، لا ليتخذه آلة يتوصل بها إلى غرض من أغراض الحياة ، أو مطمع من مطامعها ، ولا ليتجمل به بين الناس كما يفعل أولئك الفاخرون المغرورون ، الذين يعتبرون العلم حلية من الحِلَى ، يفاخرون بها كما يفاخرون بأثوابهم القشيبة ، وجواهرهم الثمينة ، وقصورهم الشامخة ، ومراكبهم الفارهة ، بل ليفهم الحياة على حقيقتها ، ويراها كما خلقها الله ، لا كما عبثت بها يد الإنسان ، فكان له ما أراد .

وكذلك استطاع الحب أن يخلق من هذا الغلام الهمجي المتوحش إنساناً كاملا ، مستنير الذهن ، مستوي العقل ، فياض الشعور والإحساس ، واستطاعت شمسه المشرقة أن ترسل أشعتها الوضاءة إلى أعماق ذلك القلب المظلم القاتم ، فتنير جوانبه ، وتبدد ظلماءه ، واستطاعت شعلته الملتهبة أن تطهر بنارها تلك النفس الصدئة المتبلدة ، وتستخلصها من أخلاطها وشوائبها ، فإذا هي سبيكة صافية من الذهب تتوهج توهجاً وتلتمع التماعاً .

إلا أنه لم يمض على ذلك زمن طويل حتى بدأ يمل التاريخ لكثرة ما يشتمل عليه من وصف المجازر البشرية والمصارع الإنسانية ، الآخذ بعضها بأعناق بعض ، ومن تلك الجداول المستطيلة ، الحافلة برذائل الملوك والأمراء ، وفظائع الأشراف والنبلاء ، وما سودوا به صحائف حياتهم وحياة العالم أجمع من عار وشنار . كما مل تقويم البلدان ؛ لكثرة ما يحتويه من أسماء الأمكنة والبقاع ، والجبال والتلال ، والأنهار والنهيرات التي لا نهاية لها ، ولا فائدة منها . وشغف الشغف كله بالأدب شعراً ونثراً ، قصصاً وروايات ، وأمالي ومحاضرات ؛ لأنه خلاصة العقل البشري ، وزبدته الأخيرة التي تمخض عنها ، ولأنه المرآة الصافية التي تتراءى فيها صورة الحياة على حقيقتها ، ومشاعر النفوس بكل ما تشتمل عليه من حب وبغض ، وسرور وألم ، وطمع ويأس ، وارتياح وانقباض . وكان خير ما يعجبه من الشعر شعر « هومير » ، ومن النثر قصة « تليماك » ؛ لأنها تصور حياة الفطرة والبساطة ، وتمثل المشاعر النفسية بدقائقها وأجزائها ، وترسم مزالق الشهوات التي تزل فيها أقدام البشر من فجر التاريخ حتى اليوم ، فإذا جلس لقراءتها و وصل إلى قصة أنتيوت و أوخاريس ، خيل إليه أن فرجيني مثال الأولى في إبائها وعزتها ، ومثال الأخرى في رقتها وعذوبتها ، فتهيج أشجانه ، وتسيل عبراته ، فيلقي كتابه جانباً ويسبح في فضاء الخيال سبحاً طويلا .

وكان من أبغض الأشياء إليه مطالعة تلك الروايات الغرامية التي وضعها واضعوها ، لا ليهذبوا بها الطباع البشرية ، ولا ليصوروا فيها الحياة الاجتماعية على حقيقتها ، بل ليستثيروا بها شهوات الناس وفضول أطماعهم ، ويلهبوا بنارها ما برد من عواطفهم ، وهدأ من لواعجهم ، ولينزلوا بالحب من سمائه الرفيعة المقدسة إلى تلك الحمأة[1] القذرة من الرذائل والمثالب[2] . وكان يقول في نفسه كلما قرأ شيئاً منها :

---

(١) الحَمْأَةُ: الطين الأسود المنتن .(٢) جَمْعُ مَثْلَبَة، وهي العَيْب .

« ليت شعري هل تستطيع ﭬرجيني أن تنجو بنفسها من شرور ذلك المجتمع الخبيث ، الذي تتحدث عنه هذه الروايات ؟! إنني أخاف عليها خوفاً شديداً .»

* * *

(١٩)
أوروبـا

مرت ثلاثة أعوام ، ولم يرد على هيلين كتاب من ابنتها ولا من عمتها ، فقلقت لذلك أشد القلق ؛ لأنها لم تعرف عن ابنتها شيئاً منذ سافرت حتى اليوم ، سوى ما كانت تسمعه من حين إلى حين من أفواه بعض الطارئين على الجزيرة أنها وصلت سالمة إلى بيت عمتها ، وأنها تعيش في ذلك البيت عيشاً سعيداً ، يحسدها عليه الحاسدون ، ثم ورد عليها منها بعد حين ذلك الخطاب ، ولا أزال أحفظ صورته حتى اليوم :

« والدتي :

« كتبت إليك قبل اليوم كتباً كثيرة ، ثم علمت من عهد قريب أنها لم تصلك ، فأرسلت إليك هذا الكتاب من طريق آخر غير الطريق الذي كنت أرسل إليك منه .

« لا أحدثك كثيراً عن سفري وأدواره سوى أن أقول لك إن فراقك كان له تأثير على نفسي عظيم ، ما كنت أقدره من قبل ، فقد بكيت كثيراً وتألمت كثيراً ، حتى رحمني من كان معي ، وكان يخيل إليّ والسفينة تمخر بي في عباب البحر أنني إنما أفارقك فراقاً لا رجعة لي منه أبد الدهر ، ولقد شعرت بوحشة عظمى في الساعة التي دخلت فيها قصر عمتي ؛ فقد خيِّل إليّ أنه على جماله ورونقه ، وحسن نظامه وبديع هندامه ، وكثرة الذاهبين والآتين في أبهائه وحجراته ، مقبرة موحشة لا نَأْمَة فيها ، ولا حركة ، ولقد سألتني عمتي حين وقفت بين يديها بصوت خشن جاف ، لا تجول في أديمه قطرة واحدة من الرحمة ، ماذا تعلمت في صغري ؛ فلما عرفت أنني لم أتعلم شيئاً حتى القراءة والكتابة ، قالت : « إنك لا تزيدين في شأنك على شأن هؤلاء الخدم الوقوف بين يدي ، ولم تنشئي منشأ خيراً من منشئهم !»

« ثم أمرت بإرسالي إلى دير في ضواحي باريس ، أتعلم فيه أنواع العلوم ، فعلموني القراءة والكتابة ، فسرني منهما أني أستطيع مراسلتك وقراءة رسائلك . ثم أخذوا يعلمونني التاريخ ، وتقويم البلدان ، والحساب ، والهندسة ، والرسم ، والعلوم الدينية ، وبعض الألعاب الرياضية ، فلم أحفل بشيء من هذا كله ؛ لأني شعرت ببغضه والنفور منه ، واعتقدت أن لا فائدة لي فيه ، فوصفني أساتذتي ورفيقاتي بالبلادة وعسر الفهم ، فلم أبل بذلك ؛ لأني ما دخلت الدير لأرضيهم ، ولا لأنال الحظوة في عيونهم .

« على أن عمتي تعنى بي عناية كبرى ، وتبذل في سبيل راحتي ، ورفاهيتي ، وتيسير جميع مرافقي وحاجاتي مالا كثيراً . وقد خصصت لخدمتي فتاتين متأنقتين من وصائفها ، لا عمل لهما نهارهما وليلهما إلا القيام على زينتهما وحليتهما ، وقضاء ما يتبقى من أوقات فراغهما في أحاديث تافهة مرذولة ، لا لب لها ولا ثمرة ، كأنما تمثلان على مسرح ، أو تلعبان في ملعب .

« ويخيل إليّ أن عمتي قد أوعزت إليهما ألا تدعواني بلقبي الذي أحبه وأؤثره ، فهما تسميانني دائماً « الكونتة ﭬرجيني » بدلا من « ﭬرجيني دي لاتور » أي أنها تأبى عليّ أن أحمل اسم والدي ، الذي أحبه وأعطف عليه ، وأفخر به كل الفخر ، ولا أستطيع أن أنسى ما كابده في حياته من شقاء وألم ، في سبيلك وسبيل سعادتك ، حتى سقط في مصرعه المحزن المؤلم في صحارى مدغشقر ، غريباً وحيداً ، لا يعطف عليه عاطف ، ولا يبكي عليه باكٍ .

« ويخيل إليّ فوق ذلك أنها أمرتهما ألا تسمحا

لي بالتحدث عنك ، أو عن حياتي الماضية معك . فإذا ذكرتك أو ذكرت شيئاً عن تلك الجزيرة التي قضيت فيها زهرة حياتي ، نظرتا إليَّ نظرات الهزء والسخرية ، وقالتا لي : « إنك باريسية يا سيدتي ؛ فلا يجمل بك أن تتحدثي أمثال هذه الأحاديث عن تلك الأصقاع المتوحشة . »

« و أغرب من هذا أنها على جودها وسخائها ، وبسطة يدها ، وإحاطتها إياي بجميع صنوف الرعاية والإكرام ، لا تسمح ببقاء درهم واحد في يدي ، كأنها تخشى أن أبعث إليك بشيء من المال ، ولا أدري ماذا يعنيها من ذلك . على أنني أعترف لها بأنها قد صدقت في فراستها ، فإنني ما كنت أتأخر عن أن أبعث إليك بجميع ما يصل إلى يدي ، لو وصل إلى يدي شيء ، ولكن ماذا أصنع ، وأنا فقيرة معوزة لا أملك شيئاً ؟ بل أنا الآن أفقر مني في كل عهد مضى ؛ لأنني عاجزة عن أن أمد يدي بالمعونة إلى من تهمني معونته ، ولقد سألتها مرة لم لا ترسل إليك شيئاً من المال تستعينين به على عيشك في تلك البلاد المقفرة ، فكان جوابها : « إن الحياة في تلك البلاد لا تحتاج إلى كثير من المال ، وإن المال يفسدها ويربكها ، ويحولها من حياة بسيطة هادئة ، إلى حياة مركبة مزعجة ، مملوءة بالمتاعب والشواغل . »

« فلم أستطع أن أفهم شيئاً مما تقول ، ولكنني فهمت أنها لا تكترث بك ، ولا تحفل بشأنك ؛ وما كنت أريد أن أقص عليك شيئاً من هذا ، لولا أنك أوصيتني أن أصدقك الحديث عن كل ما أراه وأشعر به من خير أو شر . فليتك تحضرين إليَّ يا والدتي ؛ لتعيشي بجانبي ، وتحملي عني بعض ما أكابده من الوحشة والكآبة في هذه البلاد ؛ فإن حياتي – على رغدها ورخائها ، وتوفُّر أسباب النعمة فيها – شقية جداً ، لا أجد فيها أنساً ، ولا اغتباطاً ، فلا الرياض الزاهرة ، ولا القصور الشامخة ، ولا الأثواب الجميلة ، ولا الجواهر الثمينة ، ولا المراكب الفارهة ، بقادرة على أن تذهب بشيء من وحشتي وضجري ؛ لأنني لا أجد حولي تلك القلوب الطيبة الرحيمة التي ألفتها وأحببتها ، وامتزج شعوري بشعورها . فأنا أعيش من بعدها في ظلمة حالكة ، لا يلمع فيها نجم ، ولا يضيء كوكب ، ولولا أني أعلم أن بقائي هنا إنما هو تنفيذ لإرادتك ، ونزول على حكمك ما أطقت البقاء ساعة واحدة .

« ولقد كنت أجهل في مبدأ أمري أخلاق سكان هذه البلاد وطبائع نفوسهم ، وأعتقد أن ظواهرهم مرآة بواطنهم ، وأن الله قد منحهم من الفضائل النفسية بمقدار ما منحهم من جمال الصور ونضرة الأجسام ، حتى تكشَّف لي أمرهم ؛ فرأيت أني أعيش بين قوم ممثلين ، لا علاقة بين قلوبهم وألسنتهم ، ولا صلة بين خواطر نفوسهم ، وحركات أجسامهم ؛ فهم يكذبون ليلهم ونهارهم ، في جميع أقوالهم وأفعالهم ، لا يرون في ذلك بأساً ، كأن الكذب هو الأساس الأول لحياتهم الاجتماعية ، وكأن الصدق عرض من أعراضها الطارئة عليها ، وكأن لهم نظاماً خاصاً بهم ، يختلف عن نظام البشر جميعاً في كل مكان وزمان !

« ولقد لبثت زمناً طويلا أكتب إليك الكتاب بعد الكتاب ، ثم أنتظر رده فلا يرد إليَّ شيء ، وكنت أعجب لذلك كل العجب ، وأذهب في تأويله مذاهب مختلفة ، حتى علمت منذ أيام قلائل أن الوصيفة التي كنت أعتمد عليها في حمل كتبي إلى البريد ، كانت تحملها إلى عمتي فتقرؤها وتمزقها ، فأحزنني ذلك حزناً عظيماً ، ثم أفضيت بالأمر إلى صديقة لي من طالبات المدرسة ، كنت أثق بها كثيراً ، فأخذت على نفسها أن تتولى إرسال ما أريده من الكتب إليك ، وها هو ذا عنوانها مرسل مع هذا ، فابعثي إليَّ برسائلك من طريقها .

« وبعد ؛ فليس في هذه الحياة التي أحياها هنا ما يروقني ويعجبني ؛ فإنني لا أزال حتى الساعة أعيش في قفرة موحشة لا يؤنسني فيها غير أولئك الوصيفات السخيفات اللواتي لا أطيق رؤيتهن ، ولا سماع أحاديثهن ، وغير شيخ هرم من أصدقاء عمتي، يزعم أنه يحبني ويعطف عليَّ ، وأحسب أنه كاذب

فيما يقول ؛ لأني لا أشعر بحبه ، ولا العطف عليه ، فأنا أقضي جميع أوقاتي مكبة على منسجي ، أروح عن نفسي بالنسج والتطريز . وستجدين في الحقيبة المرسلة إليك مجموعة من الجوارب والمناديل والعصائب والأخمرة ، هي قسمة بينك وبين أمي مرغريت ، وقلنسوة لدومينج ، وثوباً لماري ، وكنت أود أن أرسل إليها كثيراً من أثوابي الخليعة ، لولا أن الوصائف هنا لا يسمحن لي بذلك ؛ لأنهن يتقاسمن ملابسي ، ويقررن مصيرها قبل أن أخلعها .

« تحيتي إلى أمي مرغريت ، ووالدي دومينج ، ومربيتي ماري ، وأستاذي الشيخ الجليل ، وكلبي الأمين « فيديل » وإلى جميع شويهاتي ، وأعنزي ، وطيوري ، وعصافيري . واعلمي يا والدتي أنني في أشد الحاجة إلى بقائي بجانبك ، وإلى الرجوع إلى تلك الحياة الطيبة السعيدة التي فقدتها ، ولا أزال أبكي عليها ، وأنني أعيش كما تعيش النبتة الغريبة في أرض غير أرضها ، ومناخ غير مناخها ، فهي صائرة إلى الذبول والاضمحلال ، وأرجو أن أراكم جميعاً عندي قريباً ، أو أراني عندكم ، والسلام .»

« فرجيني دي لاتور»

وكانوا جميعاً يصغون إلى الكتاب عند تلاوته ، ويذرفون الدموع مدراراً حتى فرغت هيلين من قراءته، فعجب پول أنها لم تذكر اسمه في كتابها ، ولم ترسل إليه تحيتها كما أرسلتها لكل من في الجزيرة ، حتى لطيورها وعصافيرها ، ولم يعلم أن الفتاة تؤجل دائما الحديث عن أهم الأشياء لديها وأجلها شأناً عندها إلى آخر كتابها ، فقد لمحت هيلين بعد ذلك حاشية منفردة في زاوية الكتاب ، فقرأتها ، فإذا هي تقول :

« بلّغي أخي پول تحيتي وشوقي ، وقولي له إنني قد أرسلت باسمه حقيبة صغيرة ، تشتمل على بضعة أنواع من البذور الأوروبية التي يغرسونها هنا ، ويحتفلون بها احتفالاً كثيراً معنونة بأسمائنا ، فإنني أرغب إليه أن يُعنى عناية خاصة بزهرة البنفسج ؛ فيغرسها تحت نخلتي الجوز المسماتين باسمي واسمه ، وأن يحبها كما أحببتها ؛ لأنها على جمالها ورقتها حيية خجولة ، لا تألف إلا المخابئ والمكامن ، ولا تحب أن تقع عليها عيون الناس ، إلا أن رائحتها تنم عليها أكثر مما تنم أية رائحة على زهرتها .

« وأوصيه أيضاً أن يغرس الزهرة السوداء التي يسمونها « زهرة الحداد » في ظل الصخرة التي جلسنا عليها معاً « ليلة الوداع » ، وقد سموها بهذا الاسم ؛ لأنها تشتمل على نقطة صفراء فاقعة ، تدور بها دائرة سوداء ، كما يدور الخمار الأسود بوجه الفتاة الحزينة في موقف الثكل ، وأن ينقش على تلك الصخرة كلمة « صخرة الوداع » ، ويحييها عني ، كما يحيي جميع الأمكنة والبقاع التي يعلم أني أحبها ، ويبلغيه أيضاً أني لا أزال أذكره وأنني لن أنسى قط أياديه البيضاء التي أسداها إليّ فيما مضى من أيام حياتي ، وأنني دائما عند ظنه بي .»

فاستطير پول فرحاً وسروراً ، وتناول الكيس الصغير الذي أرسلته إليه ، فوجد على نسيجه الرقيق الأبيض الحرفين الأولين من اسمه واسمها مطرزين بالقصب ، على شكل زهرتين متعانقتين ، فسُر بذلك سروراً عظيماً ، وكان اغتباطه بالكيس أكثر من اغتباطه بما اشتمل عليه .

وقد كتبت هيلين إلى ابنتها كتاباً ، قالت لها فيه إنها وجميع أفراد الأسرة أصبحوا بعد فرقتها في وحشة مخيفة ، لا يهونها عليهم شيء من الأشياء ، وإن الموت أهون عليهم من أن يعيشوا بعيدين عنها منقطعين عن رؤيتها ، وإنها لا ترى بأساً من رجوعها إلى الجزيرة متى أرادت ذلك .

وكتب إليها پول يشكر لها هديتها ، ويقول لها إنه قد أصبح الآن عالماً من علماء الفلاحة ، وإنه سيقوم بغرس تلك البذور في أماكنها المناسبة لها حسب القواعد التي يرسمها ذلك الفن ، وإنها ستراها حين عودتها زاهرة نامية ، تحييها بابتساماتها اللطيفة وتنشر عليها ظلالها وأفياءها . ثم أخذ يبثها آلام نفسه ولواعجها ، التي قاساها من بعدها ، ويشكو لها شكاة لم تترك دمعة في محاجرها عندما

قرأتها إلا استذرفتها .

ثم أخذ بعد ذلك يهيئ الأحواض لغرس تلك البذور ، ويعد لها عدتها من ظل وماء ، فأنفق في ذلك وقتاً طويلا ثم غرسها ، فلم تلبث إلا قليلا حتى ذبلت وتضاءلت ، إما لأنها ميتة لا حياة فيها ، أو لأن التربة غير صالحة لنمائها ، أو لأن الشرق شرق ، والغرب غرب ، فمحال أن يمتزجا ويختلطا ، ويشتركا في نظام واحد ، وحياة واحدة ، فتطيّر بذلك وتشاءم . وزاده حزناً وألما ما أصبح يسمعه من أفواه بعض المهاجرين الطارئين على الجزيرة ، من الروايات الغريبة التي تفترق ما تفترق ثم تتفق ، على أن فرجيني موشكة أن تتزوج ، فلم يحفل بذلك في مبدأ الأمر ، ثم حفل واهتم ؛ لأن أخبار السوء لا يمكن أن تمر دون أن تترك أثرها على النفس ، وبدأ يصدق ما يسمعه ، لا لأنه يعتقد صدق القائلين ، بل لأنه وقع في الخطأ الذي يقع فيه الناس دائماً ، وهو اعتقاد أن الدخان لا يمكن أن ينبعث من غير نار ، وفاتهم أن تلك النار التي يتحدثون عنها قد تكون نار الحقد والبغض المشتعلة في الصدور ؛ فيكون الدخان الذي ينبعث عنها إنما هو دخان المختلقات والمفتريات .

وكان يقرأ فيما يقرأ من الروايات أحاديث الغدر والخيانة التي يرويها الراوون عن النساء ، فيقول في نفسه :

« ربما أفسد ذلك المجتمع الخبيث نفسها ، وحول حياتها الطيبة الطاهرة إلى طريق غير طريقها ، فنسيت أقسامها وعهودها ، وأيمانها المحرجة التي أقسمتها بين يدي ألا تستبدل بي أخاً سواي ، والنفس الإنسانية — كما يقول «روسو» — مرآة تتراءى فيها مختلفات الصور والألوان ، والمرء — كما يقول «موبسان» — ابن البيئة التي يعيش فيها . »

فكأن استنارة ذهنه ، وسعة دائرة معارفه ، واضطلاعه بشئون العالم وأحواله ، كان شقاءً عليه و ويلاً له ، ولعله لو بقي فَدْماً [١] جاهلاً كما كان ، لا يجول نظره في أفق أوسع من الأفق الذي يعيش فيه ؛ كان من أبعد الأشياء عن ذهنه أن يتصور أن فرجيني غادرة خائنة .

وكان إذا حزّ به الأمر ، ولجّت به الوساوس والهموم ، فزع إليّ وألقى بين يدي أثقاله وأعباءه ، فأحدّثه أحاديث كثيرة عن الدهر وتقلباته ، والأيام وصروفها ، وما يتداوله الناس في دنياهم من نعيم وبؤس ، وجدة وفقر ، وراحة وتعب ، وصحة ومرض ، ورجاء يشرق في ليل اليأس حتى يحيله نهاراً ساطعاً ، ويأس يغشى نهار الرجاء حتى يبدله ظلاماً قاتماً ، وخير لا يزال يطارد الشر حتى يطرده ويأخذ مكانه ، وشر لا يزال يغالب الخير حتى يغلبه ويَفْلُج [٢] عليه ، فيجد في أحاديثي هذه ملهاة يتلهى بها حيناً عن شواغله وهمومه .

* * *

(٢٠)
الطبيعة

وهنا قلت للشيخ : « هل لك يا سيدي أن تحدثني قليلا عن نفسك ؟ فإني أشعر منذ جلست إليك أني أجلس إلى رجل من عظماء الرجال ، ليست مثل هذه الأرض مما تنبت مثله في وفور عقله ، وسعة مداركه واكتمال أهبته ، وكثرة تجاربه واختباراته . ولا بد أن حادثاً من حوادث الدهر العظام قد قذف به إلى هذه الجزيرة النائية ، فعاش فيها كما أرادت المقادير أن يكون . »

فرفع رأسه إليّ وقال : « سأحدثك عن نفسي قليلا يا بنيّ ، فلا أحب للمرء من أن يجد إلى جانبه جليساً يستطيع أن يسكب نفسه في نفسه ، ويفضي إليه بسريرة قلبه . » ثم اعتدل في جلسته وأنشأ يقول :

إني أسكن يا بنيّ على بعد فرسخ [٣] ونصف من

(١) الفَدْم : الثقيل الفهم .

(٢) يَفْلُج : يفوز . (٣) مقياس للطول يساوي نحو ٥ كيلومترات .

هذا المكان ، على ضفة جدول صغير ممتد بجانب ذلك الجبل الذي يسمونه « الجبل الطويل » ، وهنا أقضي أيام حياتي وحيداً منفرداً ، لا زوج لي ولا ولد ، ولا أنيس ولا عشير ، وعندي أن سعادة المرء لا تعدو إحدى حالتين : أن يوفق إلى زوج صالحة تحبه ويحبها ، وتخلص إليه ويخلص إليها ، فإن أعوزه ذلك فسعادته أن يهجر العالم كله إلى معتزل ناء كهذا المعتزل ، يتمتع فيه بجوار نفسه وعشيرتها ، وقد قضى الله أن أحرم الأولى ، فلم يبق لي بُدٌّ من اختيار الثانية .

والعزلة هي المرفأ الأمين الذي تلجأ إليه سفينة الحياة حين تتقاذفها الأمواج ، وتصطلح عليها هوج الرياح ، وهي الواحة الخصبة التي يفيء إليها السفر بين الأين والكلال ، فيجدون في ظلها الظليل راحتهم من سموم الصحراء ولوافح الرمضاء ، وهي المنزلة الأولى التي ينزلها المرء في طريقه من الدنيا إلى الآخرة ؛ ليستجم ذهنه ، ويجمع أمره ، ويعد عدته للقاء الله تعالى ، لذلك كانت العزلة دائماً في الشعوب الشقية المضطهدة التي لا إرادة لها أمام إرادة حاكميها الظالمين وملوكها المستبدين ، كما كان شأن المصريين والرومان واليهود فيما مضى من التاريخ ، وكما هو شأن الهنود والصينيين والإيطاليين والشعوب الشرقية اليوم .

وقد يكون ذلك أحياناً في الأمم المتمدينة المتحضرة ؛ فإن للمدنية شقاء كشقاء الهمجية ، لا يختلف عنه إلا في لونه وصبغته . فإن وقوف الإنسان في وسط ذلك المزدحم الهائل بين الجواذب المختلفة ، والدوافع المتعددة ، وحيرة عقله بين مختلف المذاهب والشيع ، والآراء والأفكار يحاول كل منها أن يجذبه إليه ، ويسيطر عليه ، ويستأثر به ، وهو فيما بينها كالريشة الطائرة في مهاب الرياح لا تستقر في قرار ، ولا تهبط في مهبط ، متعبةٌ عقليةٌ لا قبل له باحتمالها .

ولو أنه كان أسيراً في قوم متوحشين ، وقد شده آسروه إلى جذع من جذوع النخل ، وأخذ كل منهم بعضو من أعضائه يجذبه جذباً شديداً ليمزقوه إرباً إرباً ، لكان ذلك أهون عليه من هذه الحالة التي لا يستطيع أن يتمتع فيها بهدوئه النفسي وسكونه الفكري ، كما تتمتع السائمة على وجهها في مسارحها ومرابعها ، فلا يجد له بداً من الفرار بنفسه إلا حيث يجد نفسه ، ويظفر بكيانه ، ولا سبيل له إلى وجدان نفسه والعثور بها إلا في مثل هذه الصخرة النائية المنقطعة ، التي يستطيع أن يجمع في ظلالها ما تفرق من أمره وتبعثر من قوته . ويصغي في وسط ذلك السكون والهدوء إلى صوت قلبه حين يحدثه أصدق الأحاديث وأجملها ، عن الخالق والمخلوق ، والحياة والموت ، والبقاء والفناء، وطبيعة الكون وأسرار الخليقة ؛ فيشعر بالراحة بعد ذلك العناء الكثير والكد الطويل ، كالسيل المنحدر من أعالي الجبال ، لا يزال يحمل في طريقه الأقذاء والأكدار ، فإذا بلغ الحضيض استحال إلى بركة هادئة ساكنة ، يتلألأ في صفحتها الصقيلة اللامعة جمال السماء وبهجة الملأ الأعلى .

ولقد كنت أحد أولئك الفارين بأنفسهم من لجب المدنية وضوضائها ، وضلالها وحيرتها ، وقنعت منها بذلك الكوخ البسيط الذي بنيته بيدي على ضفة ذلك الجدول الصغير . ولقد رزقني الله أرضاً خصبة جيدة التربة ، أقضي جميع أوقاتي في حرثها وفلحها ، وتصريف مياهها ، وتشذيب أشجارها ، لا معين لي إلا قوتي ، ولا أنيس لي غير وحدتي .

فإن شعرت بشيء من الملل رجعت إلى تلك الأسفار القليلة التي اخترتها لصحبتي ، حين نفضت يدي من جميع الأصدقاء والأصحاب ؛ لأحادث على صفحاتها أولئك الرجال العظام ؛ أصحاب المبادئ القويمة ، والعقائد الثابتة ، والآراء الناضجة ، الذين لم يكتبوا ما كتبوا ليوفوا رغبة الناس في أهوائهم ومطامعهم ، ولا ليعجبوهم من ذكائهم وفطنتهم وغرابة ابتداعهم ؛ بل ليكشفوا الغطاء برفق وهدوء عن وجه الحقيقة ، فيراها الناس كما هي ، غير مشوهة ولا مزخرفة ، لا يبتغون على ذلك أجراً سوى أن يروا الإنسانية الشقية المعذبة ناهضة من حضيض بؤسها وشقائها ، إلى ذروة سعادتها

وهناءتها .

فإذا جلست لقراءتها رأيت في مرآتها ذلك العالم الذي فارقته واجتويته[١] ، ورأيت شقاءه الذي يكابده ، وآلامه التي يعالجها دون أن يحس أنه يشقى أو يتألم ، فأشعر بما يشعر به ذلك الذي نجا من سفينة موشكة على الغرق إلى صخرة عالية في وسط البحر ، فأشرف منها على بقايا تلك السفينة المحطمة مبعثرة على سطح الماء ، فشعر ببرد الراحة وطيب الحياة .

ولقد أصبحت بعد أن فارقت الناس وصرت بمنجاة منهم ، أحنو عليهم ، وأرثي لبؤسهم وشقائهم ، وأضمر لهم من العطف والحب ما لم أكن أضمره لهم من قبل ، وأتمنى لهم النجاة من شقائهم الذي يعالجونه وبؤسهم الذي يكابدونه ، على كثرة ما قاسيت منهم في مقامي بينهم من الهموم والآلام والمهانات .

ولم يكن بيني وبينهم سوى أنني كنت أدعوهم إلى الحياة الطيبة السعيدة ، حياة الطبيعة والفطرة ، وأنعى[٢] عليهم ذلك التكلف والتعمل في مطاعمهم ومشاربهم ، وملابسهم ومساكنهم ، وعقائدهم ومذاهبهم ، وآرائهم وأفكارهم ، وصلاتهم وعلائقهم ، وأقول لهم :

« أيها الناس عودوا إلى أحضان أمكم الطبيعة ، فهي أحنى عليكم وأرأف بكم من كل شيء في هذا العالم ، واعلموا أن جميع ما تكابدون من الآلام والأسقام في حياتكم ، إنما هو عقوبة لكم على عقوقكم لها ، وتمردكم عليها ، وكفركم بسننها وشرائعها ؛ فاشربوا قَراح[٣] الماء إن شربتم ، وكلوا بسيط المأكل إن أكلتم ، واقنعوا حين تلبسون بما يستر عورتكم ، وحين تسكنون بما يجمع شملكم ، و وحدوا نظركم إلى الأشياء والشئون بقدر ما تستطيعون تتحدوا فيما بينكم ، وتهدأ عنكم نار تلك البغضاء التي تتقلبون فيها ليلكم ونهاركم .

« واعلموا أن الحياة أبسط من أن تحتاج إلى كل هذه الجلبة والضوضاء ؛ فخذوها من أقرب وجوهها ، وألين جوانبها ، واقنعوا منها بالكفاف الذي يمسك الحوباء[٤] ، ويعين على المسير ؛ فإنما أنتم مارون لا مقيمون ، ومجتازون لا قاطنون . ولا يوجد بؤس في العالم أعظم من بؤس رجل مسافر نزل على عين ماء ليطفئ ببردها غُلته ، ويجد في ظلالها راحته ساعة من نهار ، ثم يمضي لسبيله ، فصدف عنها وظل يشتغل بحفر عين أخرى بجانبها ، فلم يكد يبلغ قاعها حتى كان قد نال منه الجهد ، فهلك دون مرامه ظمأً وعيًّا .

« ولا يقذفن في روعكم أني أريد أن أذهب بكم إلى بغض الحياة ومقتها ، ولا إلى تعذيب أنفسكم بالحرمان من أطايبها ولذائذها ؛ فالزهد عندي سخافة كالجشع ، كلاهما تَكَلُّفٌ وَتَعَمُّل لا حاجة إليه ، وكلاهما خروج عن القصد وضلال عن السبيل ، وإنما أريد أن تترفقوا في الطلب ، ولا تمعنوا فيه إمعانًا ؛ فالإمعان فيه والاستهتار به حرب شعواء يقيمها القوي على الضعيف ، والجشعُ المتكالب على القنوع المعتدل ، يسلبه ما بيده ويحرمه القليل التافه الذي يتبلّغ به باسم جهاد الحياة ، وتنازع البقاء ».

فكان جزائي عندهم ، على هدايتهم وإرشادهم ، ومحاولة استنقاذهم من يد الشقاء الذي يعالجونه ، أن سخروا بي واحتقروني ، وسمّوني مجنونًا ، ولم يقنعوا في أمري بتركي وشأني ، كما يُترك المجانين وشأنهم ، بل اتخذوني عدواً لهم يحاربونني كما يحاربون الله والطبيعة . ولا ذنب لي عندهم إلا أنني أسمي المال شقاء ، ويسمونه سعادة ، وأسمي الجاه مؤونة ويسمونه متعة ، وأسمي اللَّجاج[٥] في الطلب والتهالك فيه جنونًا وخبلا ، ويسمونه حكمة وحزماً . ثم لا يلبثون إلا قليلا حتى يروا بأعينهم كذب ظنونهم وخيبة آمالهم ، ويسقطوا في الهوة التي كنت أقدر لهم السقوط فيها ، فلا يكون أثر ذلك في نفوسهم أن يؤمنوا بسنة الله والطبيعة ، ويذعنوا

---

(١) اجتوى الشيء: كرهه وملّه . (٢) نعى عليه: عابَ عليه .
(٣) القَراحُ من كل شيء: الخالص ، أي الماء الصافي .
(٤) الحَوْباءُ: النَّفْس . (٥) اللَّجاجُ: الإلحاح، والتمادي .

لأحكامه وأحكامها ، ويعودوا باللائمة على أنفسهم فيما كان منهم ، كما يتوقع المتوقع أن يكون ، بل ينقمون على الأرض والسماء ، والخالق والمخلوق ، والدنيا والآخرة ، ويثيرون الثائرة على الشرائع الأرضية والسماوية والنظم الطبيعية والوضعية ، وعَلَيَّ أنا أيضاً ؛ لأنني لم أهو معهم في الهوة التي هووا فيها ، كأنني أنا الذي أشقيتهم وابتليتهم ، وأوردتهم هذا المورد الوبيل[١] ، وما أشقاهم إلا الطمع لو كانوا يعلمون !

وأما الآن فقد نجوت من هذا كله والحمد لله ، وأرحت نفسي إلى الأبد من رؤية تلك المناظر المؤلمة الممضة ؛ مناظر المتهافتين ليلهم ونهارهم في تلك الحفائر الجوفاء التي حفرتها في طريقهم أيدي المطامع والشهوات ، وانقطع عن أذني ذلك الدوي الهائل الذي كان يزعجني ويقلقني . وأصبحت في وحدتي هذه أتمتع بالهواء طلقاً غير مكدر ، والنور ساطعاً غير منغص ، والجمال خالصاً غير مشوه ، أتبسط في أنحاء نفسي حيث أشاء ، ومتى أشاء ، وأناجي الله والطبيعة وجهاً لوجه ، لا يحول بيني وبينهما حائل ، وأفكر على الطريقة التي أريدها ، لا التي يريدها الناس ؛ وأنسج ثوبي على مقدار جسمي، لا على مقدار جسوم الآخرين . وأشرف من قمة وحدتي وعزلتي على ذلك العالم الذي فارقته واجتويته ؛ فأعجب لتلك الهموم والآلام التي يعالجها لغير علة ولا سبب ، ولتلك المعركة الهائلة التي يشنها بعض أفراده على بعض على غير طائل ، سوى أن يهلك أحدهم في سبيل الآخر ، ثم يهلك الآخر في سبيل آخر . وهكذا تمتد سلسلة الهلاك فيهم إلى ما لا نهاية لها ، كقطع الأمواج التي تتواثب على الصخور المعترضة في مجراها ، فتتكسر عليها واحدة بعد أخرى ، ثم تتلاشى كأن لم تكن ؛ فأحمد الله على نجاتي منهم وخلاصي من أيديهم ، وعلى أنني استطعت أن أعيش على حساب نفسي ، لا على حساب الضعفاء والمساكين ، وأن أتناول لقمتي مغموسة بدمي لا بدماء الضحايا والهلكى ، وأن أعود بما فضل عن حاجتي على البائسين والمساكين ، والساقطين في هوى اليأس ، المنقطعين عن قافلة الحياة . ولو أن جميع لذائذ الدنيا ، مأكلاً ومشرباً وملبساً ومسكناً ، وضعت لي في كفة ، ثم وضعت لي في الكفة الأخرى لذتي في هداية تائه ضل به طريقه ، أو معونة يائس انقطع به أمله ، لرجحت عليها .

وهكذا أقضي حياتي في تلك الجنة الصغيرة ، على ضفة ذلك النهر الصغير ، وبين يدي ذلك الخضم العظيم ، متمتعاً بما شئت من جمال الدنيا وبهجتها ، ورغد العيش ونعيمه ، ومناظر الطبيعة ومشاهدها ، فالسماء فوقي تتلألأ بنجومها وكواكبها ، والبحر أمامي يعج بأمواجه وأثباجه[٢] ، والأرض بين يدي تختال في أثوابها وأبرادها ، والأصوات المنبعثة من البحر الزاخر ، والجدول المتسلسل ، والشلال المتدفق ، والريح العاصفة والأشجار المترنحة ، والطيور الصادحة ، فرقة موسيقية مختلفة الآلات والنغمات ، تسمعني ما لم أسمعه يوماً من أيام حياتي في أكبر معهد غنائي ، من أكبر فرقة موسيقية .

فإذا جلست أمام كوخي على تلك الصخرة العالية التي اعتدت أن أجلس عليها ، رأيت النخل الباسق مصطفّاً بعضه وراء بعض ، كأنه السطور في الكتاب ، رؤوسه العالية المتشابكة كأنها غابة ممتدة بين السماء والأرض ، ورأيت الجدول المتسلسل وهو يجري في خلال الخمائل الملتفة ، جريان القمر الساري في أعماق السحب المتكاثفة ، فلا يرى منه الرائي إلا بوارق خاطفة ، تلمع من حين إلى حين . وألقي نظري تارة على الروض الجميل الذي غرسته بيدي ، فأرى صنوف أشجاره وألوان أزهاره ، وأنواع كرومه وأعنابه ، فأراه في سكون الريح وهدوئها معبداً قد لبس الجلال والوقار ، وانتثرت في جنباته أشخاص الراكعين والساجدين ، وفي هبوبها وانبعاثها مرقصاً

(١) الوبيل : الشديد و الوخيم .

(٢) الثَّبج : وسَطُ الشيء تَجَمَّع وبَرَز .

تترنح فيه القدود وتعتنق القامات ، وتقابل الحركات والسكنات . ثم أنظر إلى السيل المتدفق من أعالي الجبال ، فأرى تلك المعركة الهائلة التي تجري بينه وبين الصخور الناتئة في طريقه ، يهاجمها فتدفعه ، ويثب عليها فتمزقه ، فتتطاير أجزاؤه في جو السماء كأنها شظايا ألواح البلور ، فيشتد غيظه وحنقه ، وإرغاؤه وإزباده ، ويحاول أن يثأر لنفسه منها ، فلا ينال آخراً أكثر مما نال أولا ، وهي جامدة في مكانها ، لا تحرك ساكناً ، ولا تمد يداً ، فلا يجد له بداً من الفرار من وجهها ، شأن الطيش والنزق بين يدي الرزانة والحلم ، فينحدر عنها إلى السهل متغلغلا في أعماق الخمائل والأدغال ، كأنما يتوارى حياء وخجلا ، ثم لا يلبث أن يستحيل بعد ذلك إلى مرآة صافية ، تتراءى فيها صور النخيل والأشجار ، وظلال القمم والهضاب ، كأنما قد خطها رسام ماهر بريشة رقيقة في صحيفة ناصعة .

وأعظم ما أعجب له من تلك المناظر ؛ مناظر الطيور الغريبة حين تفد في أواخر فصل الصيف أسراباً من أقاصي البلاد ، مجتازة ذلك الخضم العظيم ، إلى حيث تتلمس رزقها الذي أعوزها في أرضها ، فتقع على ذوائب الأشجار وضفاف الأنهار ، وتحلق فوق الجداول والغدر ، شادية مترنمة ، مرفرفة بأجنحتها الجميلة ذات الألوان اللامعة المتلألئة ، وكأنما قد خلعت من نفسها على الجزيرة بُرداً مفوّفاً [١]، ترف حواشيه وأهدابه ، وترجف متونه وأثناؤه ، وتموج خيوطه بعضها في بعض ، فأجد من الأنس بها والغبطة بعشرتها ما يملأ قلبها بهجة وحبوراً ، إلا أنها لا تمكث أكثر من شهر أو شهرين ثم تعود أدراجها ، فأجد من الوحشة لفراقها ما يجد العشير لفراق عشيره .

وقد أجلس أحياناً على شاطئ البحيرة لأتفكه بمنظر القرود السوداء ، وهي تثب من شجرة إلى شجرة ، ومن غصن إلى غصن ، وقد احتضنت أولادها إلى صدورها ، أو تركتها معلقة بأذنابها ، وقد يكون بين الشجرة والشجرة ، والنخلة والنخلة جدول واسع ، أو نهر متدفق ، فيكون لها في غدوها و رواحها ، و وثبها وقفزها ، وضحكها مرة وغضبها أخرى ، وترفقها الغريب في طلب عيشها وتحصيل رزقها منظر بديع رائق ، لا تكدره حبائل منظومة ، ولا تزعجه قذائف منطلقة .

وأستطيع أن أقول لك يا بنيَّ إنني ، وقد عاشرت الوحوش الضارية ، والذئاب المفترسة ، والنمور الكاسرة ، والقردة الشرسة ، وخبرت أخلاقها وطباعها ، ومنازعها ومشاربها ، ورأيت أنها لا تفترس إلا إذا جاعت ، ولا تشرس إلا إذا أهيجت ، ولا تطمع في أكثر من كفاف عيشها ، وعُلالة[٢] حياتها، أصبحت أعتقد أن الإنسان أضرى منها وأشرس وأنه مخدوع أو خادع في تفضيل نفسه عليها .

ولم يزل هذا شأني حتى نزلت بالجزيرة تلك الأسرة الصالحة الكريمة ، فكانت أيامي معها غرة أيام حياتي وكوكب سمائها الساطع . فوا أسفي عليها ، و وافجيعتي بالحياة من بعدها !

* * *

(٢١)
الحديث

وحسبك الآن يا بنيَّ ما عرفت من شأني ، فلأعدْ بك إلى شأن ذلك الولد المسكين ، فقد حدثتك عنه أنه كان يختلف إليَّ كثيراً بعد سفر ڤرجيني ؛ ليطلب عندي عزاءه وسلواه وراحة نفسه من بلابلها و وساوسها .

فوفد إليَّ ذات يوم ، وكنت جالساً تحت شجرة قصيرة ، كانت قد غرستها ڤرجيني فيما غرست من الأشجار الكثيرة التي كانت تحمل معها بذورها حيثما ذهبت وأينما حلت ، قائلة :

« لعل الله يمنحها النماء والنضرة ؛ فيهتدي بها

(١) البُرد المُفوّف: الكساءُ الرقيق المخطط .

(٢) العُلالة: بقية كل شيء، وما يُتَلَهَّى به .

ضال ، أو يفيء إليها حائر ، أو يتعلل بها ظامئ .»
فجلس بجانبي ، وأطرق إطراقة طويلة ، ثم رفع رأسه وقال :

« أنا حزين جداً يا والدي ، ويخيل إليّ أن ڤرجيني قد نسيتني ، وأن يدي قد أصبحت صفراً منها إلى الأبد ؛ فلقد مر على سفرها ثلاثة أعوام لم ترسل إليّ فيها إلا كتاباً واحداً منذ ثمانية شهور ، ثم انقطعت رسائلها بعد ذلك ، ولا أعلم ماذا دهاها ، وماذا دهاني عندها . ولقد حدثتني نفسي اليوم أن أسافر إلى فرنسا أسعى إلى مقابلة ملكها لأتولى خدمته ، وأتوصل من طريقه إلى جمع ثروة طائلة ، أستطيع أن أتقدم بها إلى جدة ڤرجيني ، فلا ترى مانعاً – وقد جمعت في يدي بين حاشيتي المجد والشرف – أن تزوجني من حفيدتها .»

قلت : « أ لم تحدثني يا ولدي قبل اليوم أنك لا تتصل بنسب شريف ، أو أنك لا تعرف لك أباً ؟»

قال : « وأية علاقة للأبوة والبنوة بما نحن فيه ؟ إنني لا أريد أن أتقدم إلى الملك بحسبي ونسبي ، بل بكفايتي ، وجدارتي ، وخدمتي التي أقدمها لوطني ؛ وهل يوجد في الناس من يأخذني بذنب لست صاحبه ، ولا صاحب الرأي فيه بل لم أكن حاضره ولا شاهده ؛ لأنه وقع قبل وجودي في هذا العالم ؟! على أنني لا أعدُّ ما كان ذنباً ؛ لأن والدتي أطهر وأشرف من أن تقترف الجرائم والذنوب .»

قلت : « إنك تحدثني بلسان الحقيقة ، أما لسان الاصطلاح ، فهو أن من كان مثلك مغمور النسب أو مقطوعه ، فلا سبيل له إلى أن يلمس بأطراف قدمه أدنى درجة من درجات المجد ، بل لا سبيل له أن يأخذ لنفسه مكاناً مطمئناً بين الطبقات العالية الرفيعة ، التي يسمونها طبقات الأشراف والنبلاء .»

قال : « إنك قد قلت لي قبل اليوم ، كما قرأت في كثير من الكتب ، إن عظمة فرنسا إنما حملت على عواتق أولئك الرجال المغمورين ، الذين لا يمتون إلى الناس بحسب أو نسب ، ولا شأن لهم في حياتهم سوى أنهم قد أدوا لوطنهم خدمات جليلة ، كانت هي وسيلتهم الوحيدة إلى بلوغ ذروة المجد التي بلغوها ، فهل كنت تخدعني فيما قلت لي وكان يخدعني أولئك الكاتبون ؟!»

قلت : « لم أخدعك يا بنيّ ولا خدعوك ، وإنما كنت أحدثك عن الماضي ، أما اليوم ، فالملوك متكبرون متغطرسون ، لا يؤثرون مزية من المزايا على مزية الحسب والنسب ، ولا يعرفون مفخرة يفخرون بها سوى أنهم من سلالة أولئك الملوك الماجدين ، فهم لا يقربون ، ولا يدنون إلا من أمسك بطرف سلسلة ، يمسك بطرفها الآخر أمير من الأمراء ، أو قائد من القواد ، أو نبيل من النبلاء ؛ وهؤلاء هم أعوانهم وأنصارهم ، و وزراؤهم وقوادهم ، و ولاتهم وعمالهم ، وجلساؤهم وسمارهم ، ومواضع ثقتهم وأمناء أسرارهم ، أحاطوا بهم إحاطة السحب الكثيفة بالكواكب النيرة ؛ فلا يأذنون لشعاع من أشعتهم أن يصل أحداً من الناس سواهم ، فكانت نتيجة ذلك أن ماتت المواهب والمزايا ، وقُبرت العزائم والهمم ، وأصبح كتاب الأمة وشعراؤها وحكماؤها وعلماؤها ، ورجال الفنون فيها أضعف الناس ، وأهونهم خطراً ، وأدناهم منزلة في ترتيب درجات الإنسانية ؛ لأنهم قد حرموا الاتصال بتلك الشمس المشرقة التي تمدهم بالقوة والحياة ، وتبعث فيهم روح النشاط والعمل .»

قال : « وماذا عليّ إن اتصلت بنبيل من أولئك النبلاء ، وعشت تحت كنفه ؛ لأصل من طريقه إلى الغاية التي أريدها ؟!»

قلت : « إنك لا تستطيع أن تنال الحظوة عنده إلا إذا نزلت على حكم أهوائه وشهواته ؛ أي أن تجعل نفسك جسراً يمشي عليه إليها ، وذلك ما تأباه عليك عزة نفسك وأنفتها .»

قال : « يخيل إليّ أني إن قمت بواجبي لأمتي و وطني ، وأديت للإنسانية العامة خدمة عظمي يرن صداها في جميع الآفاق ، لا أعدم أن أجد بين الأشراف المحسنين من يتولاني بحمايته ورعايته ، ويأخذ بيدي إلى المنزلة التي أستحقها .»

قلت : « استمع مني كلمة أقولها لك يا بنيّ :

لقد كان اليونان والرومان والمصريون ، حتى في أدوار سقوطهم وانحطاطهم ، يجلون الفضيلة ويعظمون شأنها ، ويقدسون المواهب والمزايا أعظم تقديس ، ويعرفون لأصحابها أقدارهم ومنازلهم ، ويبسطون عليها جناح مودتهم ورحمتهم ، ولعلك قرأت من ذلك شيئاً في كتب التاريخ .

« أما اليوم فقد انقضى ذلك كله ، وأصبح الشرف محصوراً بين الجاه والمال ، فلا يظفر به إلا ذو منصب عال أو مال كثير . وقد يعطف بعض أولئك الذين يُسمُّونهم النبلاء على بعض أصحاب المواهب والمزايا ، كالشعراء والكتاب ، والموسيقيين والمصورين، لا لأنهم يحترمونهم ويجلونهم ، أو يمجدون ذكاءهم ونبوغهم ؛ بل ليزينوا بهم مجالسهم كما يزينونها بالتحف والذخائر ، وليمتعوا أنفسهم بمنظر ذلتهم وخضوعهم بين أيديهم ، كما يمتعونها بمنظر مضحكيهم ومجّانهم . وما أحسب أنك ترضى لنفسك بهذه المنزلة ، أو أن يكون منتهى آمالك في حياتك أن تصبح خليعاً ماجناً .»

قال : « إن فاتني أن أعيش في كنف رجل شريف ، فلن يفوتني أن أعيش في كنف حزب من الاحزاب ، أو جماعة من جماعات أخدمها ، وأخلص لها ؛ فأنال الحظوة عندها .»

قلت : « إنك تستطيع أن تفعل ذلك ، ولكن على أن تضرب بينك وبين ضميرك سداً إلى الأبد ؛ فالهيئات كالأفراد ، لا يعنيها إلا مصلحتها وفائدتها، وكثيراً ما تكون مصلحتها في جانب ، والحق في جانب آخر ، بل ذلك هو الأعم الأغلب في أمرها، فإما جاريتها فهلكت ، أو نابذتّها فاستهدفت لغضبها ومقتها .»

قال : « الموت أهون عليَّ من أن أخطو خطوة واحدة لا يرضى بها ضميري .»

قلت : « إذن ودِّع جميع آمالك وأمانيك وداعاً دائماً ، لا لقاء بينكما من بعده .»

قال : « وا شقاءاه ! لقد أخذت عليَّ جميع السبل ! وسدت جميع المسالك ، ويخيل إليَّ أنني سأقضي بقية أيام حياتي في ظلمة داجية ، لا ينفذ إليها شعاع من أشعة الرحمة ، ولا يلمع فيها بارق من بوارق الإحسان ، وأن قد حيل بيني وبين ڤرجيني إلى الأبد !»

قلت : « إنك واهم يا بنيَّ ؛ فما أنت بشقي كما تظن ، وما الشقاء إلا تلك العظمة التي تتطلبها وتسعى إليها . إنك تعيش من حريتك واستقلالك ، وهدوئك وسكونك ، وطهارة ضميرك ، وصفاء سريرتك في سعادة لا يتمتع بها متمتع على ظهر الأرض ، فما حاجتك إلى تلك العظمة التي لا سبيل لك إلى بلوغها إلا إذا مشيت إليها على جسر من الكذب والرياء ، والملق والدهان ، والمواربة والمداجاة[1] ، والظلم والإثم ، ونصبت نفسك ليلك ونهارك لمحاربة الدسائس بالدسائس والدنايا بالدنايا ، والأكاذيب بالأكاذيب ، وملأت فراغ قلبك حقداً و موجدة على الذين يسيئون إليك ، أو يجترئون عليك . وكنت في آن واحد أذل الناس لمن هم فوقك ، وأقساهم على من هم دونك ، ثم لا تحصل بعد ذلك كله على طائل سوى أن تطعم لقمة يطعمها جميع الناس ، وتستر سوأة لا يوجد في الناس من لا يسترها ؟!

« وما أحسب ڤرجيني ترضى لك ولا لنفسها أن تكون وسيلتك إليها هذه الوسيلة الدنيئة الحقيرة ، وهي الفتاة الشريفة الفاضلة التي لها طهارة الملك في سمائه ، وصفاء الكوكب في أفقه .

« واعلم يا بنيَّ ، أن الفقير يعيش من دنياه في أرض شائكة قد ألفها واعتادها ، فهو لا يتألم لوخزاتها ولذعاتها ، ولكنه إذا وجد يوماً من الأيام بين هذه الأشواك وردة ناضرة طار بها فرحاً وسروراً ، وأن الغني يعيش منها في روضة مملوءة بالورود والأزهار قد سئمها وبرم بها ، فهو لا يشعر بجمالها، ولا يتلذذ بطيب رائحتها ، ولكنه إذا عثر في طريقه بشوكة تألم لها ألماً شديداً لا يشعر بمثله سواه ، وخير للمرء أن يعيش فقيراً مؤملا كل شيء ، من أن يعيش غنيًّا خائفاً من كل شيء .»

(١) داجاهُ مُداجاةً: ساتَرَهُ بالعداوة ولم يُبدِها له .

قال : « إنما أريد المجد الأدبي ، لا المجد المالي .»

قلت : « نعم ، إن المجد الأدبي مجد عظيم وشريف ، ولكنه لا يصل بك إلى الغاية التي تريدها . إن الأدباء والحكماء ، والمصلحين والمفكرين هم عظماء هذا العالم وساداته ، وهم الكواكب النيرة التي تطلع في سمائه الداجية المدلهمة ؛ فتنير أرجاءها ، وتبدد ظلماتها ، وهم الأشعة الباهرة التي تنفذ إلى أعماق القلوب المظلمة القاتمة ؛ فتذيب جهالاتها وضلالاتها ، وتطير بأوهامها وأحلامها . وهم المنائر العالية التي يهتدي بها الحائر ، ويستنير بها الضال ، ويعرف بها المدلج الساري أي شِعْب من الشعاب يسلك ، وأية غاية من الغايات يريد ، وهم الأطباء الماهرون ، اللذين يتولون القلوب الكسيرة اليائسة ، فيعالجون همومها وآلامها ، ويملأون فضاءها رجاء وأملاً ، إلا أن سبيلهم إلى ذلك من أوعر السبل وأخشنها ؛ لأنهم أنصار الخير ، وللشر أنصار أشد منهم قوة وأكثر عدة وعدداً .

« وهم دائماً هدف لغضب الملوك ؛ لأنهم يثيرون ثائرة الشعوب عليهم ، وغضب النبلاء ؛ لأنهم يحتقرون نبلهم ، ويزدرون مجدهم وعظمتهم ، وغضب الكهنة ؛ لأنهم ينعون عليهم رياءهم وكذبهم ، وغضب العامة ؛ لأنهم يطاردون أهواءهم وشهواتهم ، أي أن العالم كله حرب عليهم من أدناه إلى أقصاه ، وقلما تنتهي حياتهم إلا بما انتهت به حياة سقراط الحكيم ، وهومير الشاعر ، وأفلاطون الفيلسوف ، وفيثاغورس الرحيم ، من قتل أو صلب أو إلقاء في السجن ، أو تشريد في الأرض . ولا ذنب لهم الا أن أحبوا البشر وعطفوا عليه ، وتألموا لألمه ، وبكوا لبكائه ، فنقم البشر منهم هذه العاطفة الطيبة الكريمة ، وانتقم لنفسه منهم بإزهاق أرواحهم ، أو تعذيب أجسامهم ، أو تقطيع أوصالهم . ولم يقنع في أمرهم بذلك حتى شوه وجه تاريخهم وسود صفحاته بما شاء من الوصمات والعيوب ، ولم تستطع شمس الحقيقة أن تبدد تلك الظلمات المحيطة بهم وبتاريخ حياتهم إلا بعد عدة قرون وأجيال .»

قال : « لولا ڤرجيني ما أسفت على شيء في الحياة ، ولا بكيت على فائت منها !»

قلت : « إن ڤرجيني باقية على عهدها لم تتغير ، فاحذر أن تخسرها من حيث تريد أن تكسبها ، واعلم أنها ما قطعت رسائلها عنك إلا لأنها عازمة على الرجوع في عهد قريب ، فانتظر رجوعها بعد قليل من الأيام ، وأعد نفسك لحياة مستقبلة سعيدة ، يستغفر لك الدهر فيها عن جميع سيئاته إليك .»

فأضاءت حول ثغره ابتسامة لم تضئه من عهد بعيد وقال : « أ أنت على ثقة مما تقول ؟»

قلت : « نعم .»

فكأنما قد نزل عليه بهذه الكلمة وحي السماء ، فما أصبح الصباح حتى رأيته مشمراً عن ساعديه يجول في أكناف حديقة ڤرجيني يشذب أشجارها، ويشق أنهارها ، ويحول مياهها ، ويسقي ما ذبل من أغراسها ، وقد لبس بُرْداً قَشيباً من الجد والنشاط ، لا عهد له بمثله منذ أعوام ثلاثة .

* * *

(٢٢)
السفينة

وفي عصر يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٤٤ رأى بول العلم الأبيض يخفق على قمة جبل الاستكشاف ، فعلم أن سفينة قادمة إلى الجزيرة ، فطمع أن تكون السفينة التي تحمل ڤرجيني ، فانحدر إلى شاطئ البحر فيمن انحدر إليه من سكان الجزيرة ليتعرف شأنها ، فعرف أن دليل المرفأ قد ركب زورقه إليها منذ ساعات ، وأنه لم يعد حتى الساعة ، فجلس في انتظاره حتى عاد وحده ، فأخبر أن السفينة اسمها « سان جيران » وربانها اسمه المسيو « أوبن » ، وأن الريح لا تساعدها على دخول المرفأ الليلة ، ولا

يمكنها الوصول إليه إلا الغد .

وكان يحمل في يده عدة رسائل لبعض سكان الجزيرة ، بعضها آتٍ من فرنسا ، وبعضها مرسل من ركاب السفينة أنفسهم ، فسمع پول فيما سمع من الأسماء اسم مدام دي لاتور « هيلين » ، فاختطف الرسالة من يد الرجل اختطافاً ، وقرأ عنوانها فإذا هو بخط ڤرجيني ، فطار بها فرحاً وسروراً ، وأخذ يعدو إلى المزرعة عدو الظليم ، فرأى على البعد أفراد الأسرة واقفين على رأس هضبة عالية ينتظرونه ، فرفع يده بالرسالة وصار يلوح بها في الجو ، كأنما يحمل راية بيضاء ، حتى بلغ مكانهم .

فقدم الرسالة إلى هيلين ، ففضت غلافها ، وأمرّت عليها نظرها ، فعلمت أن ابنتها قادمة على هذه السفينة نفسها ، وأن السبب في عودتها من فرنسا أن عمتها حاولت كثيراً أن تغير من طباعها وأخلاقها ، وتذهب بها في حياتها مذهباً غير مذهبها الأول ، فعجزت عن ذلك ، وأنها عرضت عليها أن تزوجها من عظيم من عظماء البلاط فرفضت ، فنقمت عليها نقمة عظمى ، وأصبحت تحتقرها وتزدريها ، وتنظر إليها بالعين التي تنظر بها إلى فتاة مخبولة العقل ، فاسدة الذهن ، أسيرة الأوهام والأحلام . ثم ما لبثت أن حرمتها من ميراثها ، وسلبتها كل ما كانت تسبغه عليها من النعم ، ولم يبق إلا أن تطردها من منزلها طرداً ، فلم تجد بداً من الرجوع ، فركبت أول سفينة علمت أنها ذاهبة إلى أفريقيا ، ثم ختمت رسالتها بقولها :

« إنني أكتب لك هذه الرسالة وأنا على ظهر السفينة « سان جيران » ، وبيننا وبين الشاطئ أربعة فراسخ ، ولا نستطيع الدخول إلى المرفأ إلا في الغد كما أخبرنا بذلك الدليل ، وفي الغد نلتقي إن شاء الله تعالى . »

وما انتهوا من قراءة الرسالة حتى استطيروا فرحاً وسروراً ، وأخذ الزنجيان يرقصان ويقفزان ، ويهتفان بصوت عال : « قد عادت ڤرجيني ! لقد عادت ڤرجيني ! » وكان أول ما مر بخاطر پول في هذه الساعة أن يذهب إلى كوخي ، ويبشرني برجوع ڤرجيني ، ويشكر لي نبوءتي التي تنبأت له بها في أمرها . وكانت قد مضت هدأة من الليل ، فاستأذن أمه في ذلك فأذنته ، فمشى ومشى أمامه دومينج يحمل مشعلاً كبيراً حتى وصل إليّ بعد ساعتين ، وكنت قد أويت إلى مضجعي ، فأيقظني من نومي وألقى إليّ ببشراه ، فلم يكن سروري بها بأقل من سروره ، وقال :

« هيا بنا نذهب إلى الشاطئ لننتظر ڤرجيني ؛ فإن السفينة تصل في الصباح . »

فقمت إلى ثيابي فأسبلتها عليّ وذهبت معه ، وكانت الليلة حالكة مدلهمة ، قد احتجبت كواكبها وراء قطع الغمام الكثيفة ، الآخذ بعضها بأعناق بعض ، كأنها القافلة السائرة في الصحراء ، فمشينا لا نهتدي بشيء سوى غريزتنا ، التي تقود خطواتنا دائماً في مفاوز الأرض ومجاهلها . وكنا نسمع من حين إلى حين فرقعة هائلة آتية من ناحية البحر ، تشبه دمدمة الرعد ، وليست بها ، فلا نفهم منها شيئاً .

فإنا لسائرون إذ لمحنا زنجيًّا ضخم الجثة يمر بجانبنا ، فاستوقفته ، وسألته من أين أقبل ، فقال :

« إني مرسل من شاطئ جزيرة الذهب إلى الحاكم ؛ لأبلغه أن سفينة قد ألقى بها التيار إلى ما وراء جزيرة العنبر ، تطلق مدافعها من حين إلى حين ؛ أي أنها في خطر ، وأنها في حاجة إلى المعونة . »

فسألته هل يعرف اسمها ؟ فأجاب أن لا ، وانطلق لسبيله . فالتفت إلى پول وقلت له : « أخاف أن تكون سفينة « سان جيران » ، وخير لنا أن ننحدر إلى الشاطئ . »

وكانت الطلقات قد انقطعت على الحقيقة ، فمشى معي صامتاً لا يقول شيئاً حتى أشرفنا ، بعد قطع ثلاث مراحل ، على ذلك الشاطئ ، وكانت

الطلقات قد انقطعت ؛ فراعني سكوتها أكثر مما راعني دويها ، ثم ظهر القمر في كبد السماء محاطاً بثلاث دوائر سوداء كأنه متمنطق بنطاق الحداد ، فرأينا على نوره الضعيف الباهت منظر البحر وهو ثائر مهتاج ، تموج ظلماته بعضها في بعض ، وترتطم أمواجه بصخور الشاطئ أو هضابه ، فينبعث لها صوت أجش كأنه أنين الثكلى ، أو حشرجة المحتضر ، وقد يتطاير منها أحياناً شرر لامع كذلك الشرر الذي يتطاير من أجنحة الحُباحب[1] .

ورأينا الصيادين مكبين على زوارقهم ، ينقلونها من الماء إلى اليبس ويطرحونها فوق الرمال ؛ خوفاً عليها من الهلاك ، ولمحنا على مقربة منا جماعة من الناس مجتمعين حول نار عظيمة يستدفئون بها فقصدنا إليهم ، وجلسنا على مقربة منهم ، وسمعناهم يتحدثون أن السفينة قد حاد بها التيار عن طريقها ، ودفعها إلى شاطئ جزيرة العنبر ، حيث الخطر عظيم لا حيلة فيه ، وأنها إن لم تبادر بدخول المضيق الذي بين جزيرة العنبر وجزيرة « سان لوي » فمصيرها الهلاك ما من ذلك بد ، وكان پول يسمع هذا كله ، وهو صامت مطرق الرأس ، كأنه لا يفهم منه شيئاً .

ولم يزل هذا شأننا حتى بدأت حاشية الظلام ترق عن بياض الفجر ، فتلمع بعض أشعته من خلالها كما يلمع الماء من خلال الطُّحلب[2] ، فحاولنا أن نرى سطح البحر فلم نستطع ؛ لأن الضباب كان كثيفاً جداً ، وكأنما قد بنى دون السماء سماء أخرى ، لا يرى الرائي من خلالها غير بعض القمم العالية ، تطفو وترسب ، كما يطفو الغريق ويرسب في عباب الماء . ثم استطعنا بعد حين أن نرى على سطح البحر شيئاً أشبه بغمامة كثيفة ، فتأملناه ، فإذا هو جزيرة العنبر التي زعموا أن السفينة محتبسة بشاطئها ، إلا أننا لم نر السفينة بحال من الأحوال .

وهنا حضر المسيو لابوردنيه ، حاكم الجزيرة ، راكباً جواده ، و وراءه فصيلة من الجند تحمل بنادقها على عواتقها ، فأمرها أن تصطف صفًّا واحداً ، ففعلت ، فأمرها أن تطلق بنادقها فأطلقتها ، فلم نلبث أن رأينا نوراً لمع على سطح البحر ، وأعقبه دوي مدفع ، فعلمنا أن السفينة غير بعيدة عنا ، فتقدمنا جميعاً نحو الشاطئ لنتحقق من رؤيتها ، فاستطعنا بعد لأي أن نرى شبحها الغارق في عباب الضباب ، وأن نرى سواريها الذاهبة في كبد السماء ، وأن نسمع رغم جرجرة الآذي[3] ، وزمجرة صوت ربانها ، وهو يصرخ صرخاته العظمى ، التي يستنهض بها همم رجاله . فأمر الحاكم بإعداد زورق لنجدتها ، وإشعال النار على طول الشاطئ لترى على ضوئها الزورق المعد لإنقاذها ، فما رأت النار حتى أخذت تطلق مدافعها تباعاً ، واستمر التخاطب بهذه اللغة النارية بينها وبين الشاطئ ساعة طويلة .

وإنا لكذلك إذ دلف إلى الحاكم شيخ زنجي هرم يدب على عصاه ، وقال له :

« إننا نسمع يا سيدي ، منذ الليلة زمجرة هائلة تنحدر إلينا من قمة الجبل ، ونرى أوراق الأشجار تهتز وتضطرب ، دون أن تهب علينا ريح ، ونرى طيور البحر هاربة إلى البر أسراباً ، دون أن يزعجها مزعج ، أو يطاردها مطارد ، فهي العاصفة ما في ذلك ريب ولا شك . أنقذوا السفينة قبل هبوبها ، فإن لم تفعلوا ؛ فانفضوا أيديكم منها إلى الأبد ! »

فاصفر وجه الحاكم ، وشعر برعدة شديدة في جسمه إلا أنه تجلد واستمسك ، وصاح :

« سأنقذها ، ولو كان في ذلك حياتي ! »

ولقد صدق الزنجي فيما قال ، فقد لبس الجو حلّة غريبة ، لا عهد له بمثلها من قبل ، وكأنما انبعث في جميع أوصاله رعشة شديدة ، كتلك الرعشة التي تنبعث في جسم المحموم ، وأقبلت طيور البحر من كل صوب هاربة إلى البر ، كأن مطارداً يطاردها ويشتد على أثرها ، وتراءت قطع

(١) الحُباحب: اليَراع ؛ وهو ذباب يطير بالليل يُضيء ذنبُه .

(٢) الطحلب: خضرة تعلو الماء المزمن .

(٣) الجرجرة في الأصل: ترديد البعير صوته في حنجرته ، والآذي: الموج .

السحاب سوداء قاتمة ، تلمع في خلالها نقط نارية حمراء ، كما يلمع بصيص النار من خلال الرماد ، وامتلأ الجو بفحيح الأفاعي ، وطنين البعوض ، وزمجرة الوحوش .

* * *

(٢٣)
العاصفة

في نحو الساعة السابعة سمعنا قعقعة عظمى ، قد انبعثت من جميع جهات البحر في آن واحد ، فاهتزت الأرض والسماء ، ودارت الأرض والفضاء ، وانقلب عالي كل شيء سافله ، وصاح الجميع : « العاصفة ! »

هنا رأينا منظراً هائلا مخيفاً جمدت له دماؤنا في عروقنا ، ومشت له قلوبنا في صدورنا ، وما أحسب إلا أنه ستمر بنا الأيام والليالي ولا نستطيع أن ننساه ، حتى تبرد أعظمنا في ثراها .

رأينا الضباب الذي كان يحول بيننا وبين رؤية السفينة قد انحسر دفعة واحدة ، فإذا السفينة ذرة هائمة في ذلك الفضاء الواسع ، تقبل بها الريح وتدبر ، وتعلو بها الأمواج وتسفل ، إن حاولت الدنو من الشاطئ وقفت في وجهها الصخور الناتئة المحددة الأطراف ، كأنها رماح مصوبة إلى صدرها ، أو أرادت النكوص على عقبها والانسياب في طريق أخرى غير هذه الطريق ، عجزت عن مقاومة التيار ؛ لأنها أصبحت مجردة من جميع قواها وأسلحتها ؛ فقلوعها ممزقة ، وألواحها متناثرة ، وحبالها متطايرة ، وسواريها منكسة ، وأعلامها ساقطة ، ورجالها متهافتون على سطحها لما نالهم من الأين والإعياء ، وقد بدأ مؤخرها يهبط ، ومقدمها يرتفع ، أي أن الهلاك قاب قوسين منها أو أدنى .

وكانت العاصفة في تلك اللحظة قد بلغت أشدها ، فرأينا الموج يرتفع ارتفاع الجبال حتى يصكّ بمنكبه منكب السماء ، ثم يندفع إلى الشاطئ هُوِيَّ العُقاب إلى وكره ، فينسف رماله وحصاه ، ويطير بشظياته في جو السماء ، ثم لا يلبث أن يتراجع مجرجراً في تراجعه ، جرجرته في تدافعه ، كالسهم الأليم في حالتي وقعه ونزعه ، ويترك وراءه بقعة واسعة من الرمل ، كصفحة المرآة في لمعانها واستوائها .

ورأينا المضيق الواقع بين شاطئي الجزيرتين يرغي ويزبد ، كأنما يشتعل من أتُّون [١] متقد ، ويرمي بالزبد من حِفافيْهِ [٢] ، كما يتناثر العِهْنُ [٣] المنفوش عن المندف[٤]. أما السماء فقد أصبحت ميداناً تتسابق فيه قطع الغيوم الطائرة إلى غاياتها ، فلا تفرغ حلبة حتى تنشأ حلبة أخرى ، فأصبح البر والبحر ، والسماء والأرض ، والماء واليبس ، والسهل والجبل ، قيامة كبرى يموج فيها كل شيء ، ويضطرب كل شيء ، فلم نعد نعلم أ نحن وقوف في أماكننا ، أم طائرون في جو السماء ؟! وهل طغى الماء على اليبس فأحاله ماء ، أم لا يزال الماء ماء واليبس يبساً ؟!

* * *

(٢٤)
الكارثة

وبينما نحن ذاهلون عن أنفسنا ، وعن كل ما يدور حولنا ، إذ طرق آذاننا صوت عظيم فاستفقنا ، فإذا السفينة قد اصطدمت بإحدى الصخور العظيمة ، وإذا آخر جرير [٥] من أجِرَّتها قد انقطع ، فانبعثت في تلك اللحظة صيحة ألم من جميع القلوب ؛ وإذا بول يهجم على البحر ليلقي بنفسه فيه ، فاعترضت

(١) الأتُّون: موقد نار الحمام . (٢) الحِفاف: الجانب .
(٣) العِهْن: الصوف المصبوغ ألوانا .
(٤) المِنْدَف: خشبة النَّدّاف التي يطرق بها الوتر ليرقّق القطن .
(٥) الجرير: الحبل .

طريقه أنا و دومينج ، وحاولنا أن نمنعه فلم نستطع ، وظل يصيح : « دعوني أنجّي ڤرجيني ! »

فلم يكن لنا بد من أن نتركه وشأنه ، غير أننا عقدنا في وسطه حبلا طويلا وأبقينا طرفه في أيدينا خوفًا عليه من الهلاك ، فاقتحم الماء وكان منظره في تلك اللحظة منظرًا مخيفًا مرعبًا ، كأنما هو منتفض من كفن ، وكأنما صورته قد استحالت إلى صورة وحش ضار ، لا يقوم له شيء إلا أتى عليه . فظل يعوم مرة ، ويتسلق الصخور أخرى ، ويعاني في سبيل ذلك ما لا يستطيع أن يحتمله بشر ، حتى دنا من السفينة أو أوشك أن يدنو ، فلطمه تيار قوي لطمة شديدة أعادته إلى الشاطئ كما كان ، مجروح الساق ، مهشم الأعضاء ، فلم يضعف ولم يهن ، ولم يبق إلا بمقدار ما تنفس الراحة ثم عاد إلى شأنه الأول .

وكان الموج يهدأ حينًا عن السفينة ، فيخيل إلينا أنها واقفة على اليبس فنرى أشرعتها الممزقة ، وألواحها المتناثرة ، ورجالها المتهافتين على سطحها من الإعياء والتعب ، وربانها الواقف في مقدمتها وقفة الليث الهصور ، يصرخ صرخاته العظمى التي تدوي بها أجواز الفضاء ، ثم يطغى عليها حينًا ، فيضرب فوقها قبة جوفاء تغمرها ، كما يغمر القبر دفينه .

وما هي إلا لحظات حتى بدأ سطح السفينة يتشقق ، وبدأ الماء يتسرب إلى أحشائها ، وعلم ركابها أنهم هالكون إن بقوا فيها ، فأخذوا يلقون ما على سطحها من ألواح ومجاذيف ، وصناديق وأقفاص ، ثم يلقون بأنفسهم وراءها .

وهنا ظهر منظر هائل عظيم هلعت له القلوب ، وزاغت له الأبصار ، وفاضت له الشئون [١] من آماقها [٢] لهفة وجزعًا .

ظهر في مؤخر السفينة منظر فتاة رائعة الجمال ، غضة الشباب ، نبيلة المنظر ، واقفة على قدميها العاريتين ، وقد ضمت بإحدى يديها قميصها إلى صدرها ، ومدت يدها الأخرى إلى ذلك البائس المسكين ، الذي يخاطر بحياته ، ويكابد أعظم الشدائد والأهوال في سبيل الوصول إليها ، فلم نعلم أ هي تستغيث به لينقذها ، أم تشير إليه أن يعود إلى مكانه ؛ رحمة به وإشفاقًا عليه ؟ فكان منظرها في تلك الساعة منظر صورة بديعة مرسومة في صفحة السماء .

من هي هذه الفتاة ؟ إنها ڤرجيني ! إنها الفتاة الطاهرة الشريفة ، التي تجثو الفضيلة خاشعة بين يديها ! إنها الفتاة الكريمة المحبوبة التي نبتت من كل قلب ، فهي حبيبة إلى كل قلب ! إنها الرحمة الإلهية التي طالما أحسنت إلى البائسين ، وفرجت كربة المكروبين ، وبكت رحمة بالمنكوبين والمرزوئين ! إنها النور السماوي الذي طالما أشرق في القلوب اليائسة الحزينة ، فأنار حلكتها ، وبدد ظلمتها وملأها رجاء وأملا ؛ لذلك لم تبق عين من العيون إلا فاضت مدامعها ، ولا نفس من النفوس إلا سالت من بين أضالعها ، ولا يدٌ من الأيادي إلا ارتفعت إلى السماء ، ضارعة إلى اللّه تعالى أن ينقذها من بلائها .

علم الملاحون أن السفينة قد بدأت تهوي الى مستقرها ، وأن ظلمة الموت قد أخذت تخيّم فوقها ، فنفضوا أيديهم منها نفض المودع يده من تراب الميت ، وأخذوا يقذفون بأنفسهم إلى الماء ، لا يعلمون أين ذاهبون ؛ إلى الحياة أم إلى الموت ؟ وسفينة النجاة واقفة في مكانها من الشاطئ ، لا تستطيع أن تتقدم خطوة واحدة ؛ خوفًا على نفسها من الهلاك ، وأخذت همة پول تضعف وتفتر ؛ لأنه كان قد استنفد جميع قواه ، فلم يبق له منها ما يمسك به رمقه .

وما هي إلا لحظات حتى خلا سطح السفينة من كل شيء إلا من ڤرجيني ، واقفة في مؤخرتها تنتظر قضاء اللّه فيها ، ورجل بحار واقفًا في مقدمتها ، قد خلع ملابسه ، ثم لمح ڤرجيني واقفة موقفها هذا ، فأبى له كرمه و وفاؤه إلا أن يمد لها يد المعونة

---

(١) الشئون : الدموع .

(٢) جمع أمق، وهو طَرَف العين الذي يلي الأنف .

لينقذها ، فمشى إليها وجثا بين يديها ، وطلب منها أن تخلع ثوبها ؛ ليحملها على ظهره ويسبح بها .

أ تدري ماذا كان بعد ذلك ؟

كان أن غلب الحياء على الفتاة ، حينما رأت رجلا عارياً بين يديها ، يريد أن يضمَّها عارية إلى جسمه فأشاحت بوجهها عنه ، وأشارت برأسها أن لا ، فصاح الناس من كل جانب : « أنقذها ! أنقذها ! » فوثب الرجل قائماً على قدميه ، ومد يده إلى ثوبها ليجردها منه .

وهنا ، وا أسفاه ، أقبلت موجة عظيمة كالجبل الأشم ، تندفع نحو السفينة اندفاع القضاء النازل ، وتزمجر في اندفاعها زمجرة الليث الهصور ، فذعر البحار إذ رآها ، وطاش عقله ، وما لبث أن قفز من مكانه ، وألقى بنفسه في الماء .

أما ڤرجيني فلم تخف ولم تطش ، بل لبثت في مكانها كما هي ، وقد علمت أن الساعة آتية لا ريب فيها ، فضمت قميصها إلى جسمها بيد ، و وضعت يدها الأخرى على قلبها ، وسبحت بنظرها في الفضاء ، فأصبح منظرها منظر ملك كريم يطير بجناحيه في جو السماء .

وما هو إلا أن أغمض الواقفون عيونهم جزءاً من هذا المنظر الهائل المخيف ، ثم فتحوها فإذا البحر قد ابتلع كل شيء ، وإذا كل شيء قد انقضى !

وهنا صمت الشيخ وأسلم رأسه إلى ركبته ، وأخذ يضطرب اضطراباً شديداً ، كأنما يعالج غُصة تعتلج في صدره ، ثم لم يلبث أن انفجر باكياً ينشج نشيج الأطفال فهاجني بكاؤه ؛ فبكيت حتى ذهلت ، ولم أستطع الرجوع إلى نفسي إلا بعد حين ، فرأيته لا يزال في ذهوله واستغراقه ، فنبهته فانتبه ، وعاد إلى حديثه يقول :

يا له من يوم عظيم هائل ! يا لها من ذكرى مؤلمة مريرة !

يا لها من حسرة لا انقضاء لها حتى الموت ! لقد مر على تلك الحادثة عشرون عاماً ولا تزال تلك الفتاة ماثلة أمامي كأنني لا أزال أراها . إن ڤرجيني كانت عزيزة عليَّ جداً ، بل كانت أعز مخلوق عندي ، ولو كان لي ابنة لما نزلت من نفسي تلك المنزلة التي نزلتها . وكان كل أملي في حياتي أن أعيش في ظل عطفها ورحمتها ، وحنانها وشفقتها ، حتى تتولى إغماض عيني بيدها في ساعتي الأخيرة فلم يُقدَّر لي ما أريد . لقد هجرت العالم كله ولجأت إلى هذا المعتزل البعيد النائي ؛ هرباً من الشقاء ، فتبعني الشقاء حيث ذهبت ، وما أحسبه تاركي بعد ذلك حتى ينزل معي إلى قبري ! »

ثم تنفس الصعداء وقال : « ولكن الذي يهون وجدي عليها أنها الآن سعيدة في سمائها ، مغتبطة بعيشها ، متمتعة برحمة ربها ورضوانه ، وأن تلك المرارة التي ذاقتها ساعة موتها قد زالت من فمها إلى الأبد .

نعم إن يومها كان يوماً هائلا جداً ، فلقد بكاها كل من رآها حتى الزنوج الذين ألفوا البؤس والشقاء ، فلم يبق في عيونهم موضع للبكاء ، وكان أكثرهم بكاء عليها ذلك البحار المسكين الذي حاول إنقاذها فحال القضاء بينه وبينها ، فقد كان يخيل إليه أنه أجرم إجراماً عظيماً بالفرار منها وتركها وشأنها ؛ فجلس على الرمل بعد خروجه يلطم وجهه وينتف شعره ويقول : « اللهم اغفر ذنبي ؛ فقد كنت أرجو أن أنال السعادة بافتدائها بحياتي ، ولكن الله أراد شقائي ! »

أما پول المسكين ، فقد جذبناه قبل ذلك إلى الشاطئ فجثا على ركبتيه يشاهد ذلك المنظر المؤلم وهو يرتعد ، ويضطرب اضطراب الغصن في مهابِّ الرياح حتى انقضى ، فسقط مغشيًّا عليه يتدفق الدم من فمه وأذنيه وأنفه ، فظللنا نعالجه ساعة طويلة حتى استفاق بعد لأي ، ودار بنظره حوله كالذاهل المخبول ، ثم انتفض انتفاضة شديدة ، وعاد إلى ذهوله واستغراقه ، فأمر الحاكم أن ينقل إلى خيمته الخاصة ، وأمر طبيبه بالقيام عليه والعناية به ، وظل هو ملازما له لا يفارقه .

فتركته حيث هو ، وذهبت أنا و دومينج إلى

الساحل لنفتش عن جثة ڤرجيني ، وكانت الزوبعة قد هدأت قليلاً فقضينا في البحث عنها زمناً طويلاً ، فلم نعثر بها ؛ فاشتد حزننا ، واستولى اليأس على نفوسنا ، وبدأ الرعب يدب في قلوب الكثير منا ، فصاح بعض الناس وقد أدركه مثل الجنون : « أ لا يوجد لهذا الكون إله يدبره ويرعاه ؟! أ لا يوجد بين هؤلاء الناس من يستحق هذه الميتة التي ماتتها هذه الفتاة سواها ؟!»

والنفس الضعيفة تعجز دائماً عن احتمال صدمات القضاء ، فلا تجد بداً حين تصدمها من أن تروح عن نفسها بالسخط والغضب ، وقد تخرج في سخطها أحياناً عن صوابها وهداها ، فليرحمها الله ، فإنها ما أتت إلا من ناحية الإيمان بالله والثقة بعدله ورحمته.

وهنا مر بعض الناس ، وأخبرنا أن التيار قد ألقى ببقايا السفينة على شاطئ الخليج المسمى خليج «وتمبو» ؛ أي خليج القبر ، فذهبنا إليه نرجو أن نعثر بالجثة هناك ، فوجدناها غارقة في الرمل إلا جزأها الأعلى فنبشنا عنها ، فإذا هي على الصورة التي رأيناها عليها في ساعتها الأخيرة ، وكأنها حية باقية لم تمت ، وكأن ماء الحياة لا يزال يجول في وجهها ، لولا اصفرارٌ قليل في خديها . وإذا هي لا تزال ضامة ثوبها إلى جسمها و واضعة يدها الأخرى على قلبها ، وكأن أناملها تقبض على شيء ، ففتحتها فرأيتها قابضة على صورة الرسول پول[1] التي كان پول قد أهداها إليها قبل سفرها ، فوعدته أن تحتفظ بها إلى آخر رمق من حياتها ؛ فكأنها تودع صديقها الحميم الوداع الأخير ، في صورة ذلك القديس العظيم ، فأكبرت هذا الإخلاص العظيم كل الإكبار ، وأيقنت أن النفس الطاهرة كالذهب الخالص ، لا يغيرها شأن من شئون الحياة أو الموت .

ثم حملناها إلى كوخ قريب لبعض الصيادين ، وعهدت إلى بعض النساء أن يتولين شأنها حتى نعود . وصعدت إلى الوادي لأبلغ تلك المرأتين المسكينتين ذلك الخبر الهائل ، وما أحسبني وقفت في حياتي موقفا أشدَّ من هذا الموقف ، فدخلت عليهما في الكوخ فرأيتهما جاثيتين تصليان ، وتدعوان الله تعالى بسلامة ابنتهما من شر هذه العاصفة ، وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله على الكائنات ، ويضرب عليها سرادقًا من وحشته وكآبته ، فما وقع نظرهما عليَّ حتى ذعرتا وارتاعتا وصاحتا : « أين ڤرجيني ؟»

فلم أستطع أن أنطق بشيء سوى أنني أطرقت برأسي ، فدنت مني هيلين ، وقد استحالت إلى شبح من أشباح الموتى ، وقالت لي بصوت خافت متهافت: « هل ماتت ؟» فاستمررت في إطراقي ، ففهمت كل شيء ، وما هي إلا صيحة واحدة صاحتها من أعماق قلبها ثم سقطت في مكانها ، لا يختلج في جسمها عرق واحد ، ودارت مرغريت بنظرها فلم تر ولدها أمامها فسألتني : « وأين پول ؟»

فتلطفت في قص قصته عليها ، وحلفت لها بالله أنني أرجو له حسن العاقبة ، فلم تعبأ بما أقول ، ولم يكن جزعها على ولدها ، بأقل من جزع صاحبتها على ابنتها .

ولا أستطيع أن أصف لك يا بنيَّ هول تلك الليلة في ذلك الكوخ ، فلم تكن ليلة بكاء وعويل و ولولة وصياح ، كما تكون ليالي الثكل في بيوت الثاكلين ، بل ليلة حزن صامت عميق ، يحبس الدموع عن الانطلاق ، والزفرات عن التصعيد .

وما أنسَ لا أنسى منظر تلك المرأة المسكينة ، وهي ساقطة تحت أعباء ذلك الحزن الثقيل تئن أنين الدفين تحت أنقاض البيت الساقط ؛ وتقلب وجهها في السماء تسألها دمعة واحدة تروح بها عن نفسها ، فلا تعطاها ! وقد تغمغم أحيانًا بكلمات مبهمة ، لا يستمع منها السامع غير قولها : « ابنتي! حبيبتي ! مسكينة أنت ! الرحمة يا رب ! المغفرة يا إلهي !»

ومرغريت تجلس بجانبها تارة لتعزيها وتهون عليها مصابها ، وتخرج خارج الكوخ تارة أخرى ؛ لتبكي

[1] بولس الرسول .

ولدها ما شاء الله أن تفعل ، فكان منظر إخلاصها في تلك الساعة أعجب منظر رأيته في حياتي . أما دومينج وماري فقد ظلا يدوران ليلهما حول الكوخ ، يلطمان خدودهما ويخمشان وجوههما ، وينتفان شعورهما ، ويرسلان صرخاتهما المحزنة الأليمة في جو السماء ، حتى تلفا أو كادا.

ولم يزل هذا شأننا جميعاً حتى انبثق نور الفجر ، فانسللت في صمت وسكون ، من حيث لا يشعر بي أحد ، وانحدرت إلى الشاطئ فرأيت الحاكم قد أعد كل شيء لتشييع جنازة ڤرجيني ، فكسوا نعشها بصنوف الزهر وأنواع الريحان ، وحمله ثمانٍ من عذارى « سان لوي » لابسات حللاً بيضاء مشرقة ، وتبعه نحو مائتي طفلة من أطفال الدير يمشين صفوفاً متتالية ، ويحملن في أيديهن سعف النخل وطاقات الزهر ، ويرتلن الأناشيد الدينية بنغمة شجية محزنة .

ومشى في المقدمة حاكم الجزيرة و وراءه ضباطه وجنوده منكسي أسلحتهم ، مطرقي رءوسهم ، والناس فيما وراء ذلك بحر يعج بالبكاء والعويل ، والأنات والزفرات ، وكانت مدافع الحصون ترسل طلقاتها من حين إلى حين ، فتردد صداها مدافع السفن الراسية على الشاطئ .

ولم نزل سائرين في طريقنا حتى وصلنا إلى كنيسة «پمبلموس» ، وهناك حي الزنوج المساكين الذي كانت تزوره ڤرجيني في أيام الآحاد ، بعد أداء الصلاة في الكنيسة ، فتعول فقراءه ، وتطعم جائعيه ، وتعود مرضاه ، وتعطف على أيتامه وأرامله ، فخرج رجاله ونساؤه وفتيانه ، باكين صارخين ، فبكينا جميعاً لبكائهم ، وكانت مناحة عامة ، جاد فيها من لم يجُد ، وبكى فيها من لا عهد له بالبكاء .

ولقد رأيت بعيني أولئك الأبطال الأنجاد ، الذين يأنفون أن يذرفوا دمعة واحدة من مدامعهم ، والرماح تنوشهم والسيوف تأخذهم من كل جانب ، يتهافتون على الجذوع والأحجار ، باكين منتحبين انتحاب الأطفال الصغار ، ورأيت جماعة من نساء مدغشقر وموزمبيق آتيات يحملن على عواتقهن أقفاص الفاكهة حتى وضعنها حول القبر ، وعلقن على أغصان الأشجار المحيطة به خرقاً بيضاء ناصعة، كعادتهن التي اعتدنها في موتاهن الأعزاء . ورأيت جماعة أخرى من نساء الهند والبنغال يحملن أقفاص الطير على عواتقهن ليرسلنها فوق القبر ساعة الدفن ، ولعلهن يردن من ذلك تمثيل صعود الروح إلى سمائها ، فما أجلَّ الفضيلة ! وما أعظم شأنها ! إنها الشريعة العامة التي يدين بها الناس جميعاً ، عالمهم وجاهلهم ، مؤمنهم وملحدهم ، حاضرهم وباديهم ، والمعبد المشترك الذي يقف فيه الجميع صفًّا واحداً ، أمام هيكل واحد ، يرتلون آية واحدة ، بنغمة واحدة .

وكانوا قد حفروا للميتة قبراً تحت شجرة خيزران مورقة في الجانب الغربي من كنيسة پمبلموس كانت تجلس تحتها دائماً هي و پول ، حينما كانا يأتيان لزيارة الكنيسة وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين . فلما حلت ساعة الدفن اشتد البكاء والنحيب ، وهرعت الفتيات إلى النعش يلمسنه بأيديهن ، ويشرن إليه بمناديلهن وخرقهن ، ثم يمسحن وجوههن تبركاً ، كما يفعلن أمام تمثال العذراء ، وجأرت[1] الأمهات بالدعاء إلى الله تعالى أن يمنح بناتهن الفضيلة التي منحها هذه القديسة المباركة ليحيين حياتها ، ويمتن موتتها . وما هي إلا لحظات حتى انحدر إلى مغربه ذلك الكوكب الفخم الذي خفق في سماء العالم لحظة ، ثم اختفى .

* * *

(٢٥)
أحزان پول

نقلنا پول في محفة إلى كوخه بعد ما أبلَّ[2] قليلاً ، وكنت خائفاً عليه وعلى أميه أشد الخوف من تلك الساعة التي يتلاقون فيها ، ولكن الله تعالى

(١) جأر: رفع صوته . (٢) أبلَّ المريض: برأ .

جعل خيراً ما كنت أحسبه شراً ، فلم يقع نظرهما عليه حتى نهضتا إليه وضمتاه إلى صدريهما وانفجرتا بالبكاء ، فنفس الدمع عن تلك الحرقة الكامنة التي ظلت تعتلج في صدريهما يومين كاملين ، وكأن شعاعاً لامعاً قد انبعث من عينيه اللامعتين إلى قلبيهما ، فأضاءهما بنور العزاء والسلوى ، فطفقتا تقبلانه وتلثمانه ، وتمزجان دموعهما بدموعه ، وقد أنزل الله عليهم جميعاً السكينة والصبر ، فاستحالت تلك العاصفة التي كانت تعصف بقلوبهم ، ليلها ونهارها إلى سكون يشبه سكون الموت ؛ فلا نواح ، ولا عويل ، ولا تذمر ، ولا شكوى ، إلا ما كان من تلك العبرات التي تنحدر من آماقهم في صمت وسكون .

وبعد هنيهة حضر الحاكم ؛ ليعزي هيلين عن نكبتها فعزاها وحدثها طويلا عن عمتها ، وعن ذلك المسلك الوحشي الذي سلكته مع ابنتها ، فكان جوابها على ذلك كله أن سألت الله لها العفو والمغفرة ، ثم اقترب من فراش بول وتناول يده وقال له :

« يجب أن تسافر يا بنيّ إلى فرنسا ، وسأعطيك كتاب وصاة تستعين به على عمل ينفعك وينفع أهلك ، وسأتولى عنك رعاية أميك وكفالتهما في غيبتك . »

فألقى عليه بول نظرة طويلة لا يعلم إلا الله ماذا يريد منها ، ثم جذب يده منه وأدار وجهه للحائط ، فاكتأب الرجل قليلا ، ثم نهض وقال له :

« سأعود مرة أخرى يا بنيّ . » وانصرف .

ولم يكن لي بد في هذه الأيام من أن ألزمهم ؛ لأقوم بخدمتهم وقضاء حاجاتهم ، ولأتولى بنفسي تمريض هذا الولد المسكين ، فلزمت فراشه ليلي ونهاري ما أكاد أفارقه ، حتى استطاع بعد ثلاثة أسابيع أن ينشط من علته ، إلا أنه استحال إلى شخص آخر غير ذلك الشخص الأول ، وكأنما انطفأ في قلبه ذلك المصباح المنير الذي كان يمد حواسه ومشاعره بالنور والإشراق ؛ فأصبح ذاهلا مذهوباً به ، تحدثه فلا يكاد يفهم الحديث ، ولا يكاد يرد عليه إن فهمه . وكانت تدنو منه هيلين أحياناً فتقول له :

« إنني كلما رأيتك يا ولدي ، يخيل إليّ أن ابنتي لا تزال حية باقية ، أراها وأحادثها ! »

تريد بذلك تسرية همه ، وإزالة وحشة نفسه ، فلا يكاد يسمع اسم ڤرجيني حتى ينتفض انتفاضاً شديداً ، ويخرج من الكوخ هائماً على وجهه ، فلا يعود إليه حتى يعود به من يراه .

وكثيراً ما كان يذهب وحده إلى مخدع ڤرجيني فيجلس هناك تحت النخلتين المسماتين باسمه وباسمها ، شاخصاً ببصره إلى البركة التي كانا يستحمان فيها أيام طفولتهما ، ويظل على ذلك عدة ساعات حتى أذهب إليه وأعود به الى الكوخ .

وخرج ذات يوم فتبعته أنا و دومينج ، وكنت أتبعه دائماً حيث سار ، فصعد جبل « المورن » ، ثم انحدر إلى سفحه الآخر ومشى في الطريق الموصل إلى كنيسة «بمبلموس» ، فاستطير قلبي خوفاً وهلعاً ، وخفت أن ينتهي به المسير إلى قبر ڤرجيني ؛ وكنت لا أستطيع منعه أو الوقوف في وجهه ؛ لأن الطبيب أمرني ألا أحاوله في أمر يريده ، وأن أترك له الحرية في جميع ما يأخذ ، وما يدع ، وقال لي :

« إن هذا هو علاجه الوحيد ، الذي لا علاج له سواه من وحشة نفسه وكآبتها . »

فظل سائراً ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، حتى بلغ مكان القبر لا يخطئه ، فجثا فوق تربته تحت ظلال شجرة الخيزران يصلي ويبتهل ، فعجبت لذلك أشد العجب ؛ لأنني كنت على ثقة من أنه لا يعلم حتى الساعة هل أخرجت جثة ڤرجيني من البحر أم ذهبت طعاماً للسمك ؟ فلم أجد بداً أنا و دومينج من أن نجثو جثيه وندعو دعاءه ، فالتفت فرآنا ، فسألته : لِمَ يصلّي في هذا المكان ؟ فقال : « إنه المكان الذي كنا نجلس فيه معاً ، حينما نأتي إلى هنا أيام الآحاد لزيارة الكنيسة وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ، ويخيّل لي أن هذه البقعة أحب بقعة إليّ على وجه الأرض وأدناها إلى نفسي . » فعلمت

أنه قد ألهم ، وأن طيب تراب القبر دلّ على القبر .

ثم نهض قائماً على قدميه ، وذهب ببصره في السماء ، وظل على ذلك ساعة ، فخيِّل إليّ أنه قد طار بنفسه إلى ذلك العالم الآخر ؛ ليفتش عن تلك النفس الحبيبة إليه التي فارقته فراق الأبد ؛ فأصبح لا يهنأ له العيش من بعدها ، ثم ما لبث أن انتفض انتفاضة شديدة وانحدر إلى شاطئ البحر ، فذعرت وارتعت ، ولم أجد بداً من أن أقف في وجهه ، وقلت له :

« عد بنا إلى الكوخ يا بول ، وكن عند ظني بك .»

فلم يعبأ بما أقول ، واستمر سائراً في طريقه حتى أشرف على البحر وشخص ببصره إلى النقطة التي غرقت فيها السفينة ، فخفت أن يكون قد حدّث نفسه بذلك الأمر العظيم ، فدنوت منه وقلت له :

« إن المنتحر يا بول لا يصعد إلى ملكوت السماء .»

فلم يزد على أن صاح : « آه يا فرجيني ! آه يا فرجيني !» « وسقط مغشيًّا عليه ، فحملناه إلى الغابة ، ولم نزل به حتى استفاق ، فحاول أن يتقدم نحو الشاطئ مرة أخرى ، فضرعت إليه ألا يفعل ، فأمسك على مضض ، وبعد لأي ما استطعنا أن نعود به إلى الكوخ .

وأصبح بعد ذلك لا شأن له إلا طروق الأماكن التي عاش فيها مع فرجيني ، أو اتفق لهما فيها شأن من الشئون ، فزار الملعب الذي كانا يلعبان فيه معاً وهما طفلان صغيران ، ويحفران في رمله الحفر العميقة الواسعة ، ويملآنها بالماء وصغار السمك ، ويجلسان على ضفافها يصطادان ، واجتاز الطريق التي مشيا فيها تحت وابل المطر ، وقد أسبلت إزارها على رأسه لتقيه مما تقي منه نفسها ، فكان منظرهما منظر الدمية في المحراب . ومشى في الطريق التي مشيا فيها يوم ذهبا إلى ضفة النهر الأسود ليشفعا للزنجيّة الآبقة عند سيدها ، ومر بالمكان الذي قطعا فيه نخلة الجوز وأحرقاها ليأكلا طلعها الأبيض ، حين أزَمَت بهما أزمة الجوع ، ودخل الغابة التي أضلا فيها الطريق حتى أظلهما الليل وهما تائهان مشردان ، وجثا عند الشجرة التي جثيا عندها يصليان ويدعوان الله تعالى أن يبعث إليهما من يهديهما السبيل . وجلس بجانب الهضبة التي كانت تنتظره عندها حتى يعود من المزرعة تعبًا مكدوداً ، فتمسح عرق جبينه بمنديلها ، وتبتسم له تلك الابتسامة العذبة الجميلة التي تنسيه آلامه ومتاعبه ، ومر بالشاطئ الرملي الذي كانا يرقصان فيه تلك الرقصة الزنجية الساذجة ، ويمثلان على مسرحه بعض قصص الكتاب المقدس ، وجلس طويلا على الصخرة التي جلسا عليها ليلة الوداع يتعاتبان ويتشاكيان ، وكان هذا آخر عهده بها حتى قضى الله قضاءه فيها .

ولم يدع هضبة ولا صخرة ، ولا شجرة ولا نخلة، ولا ظلة ولا كرمة كانا يجلسان إليها ، أو يفيئان إلى ظلها ، إلا زارها وبكى عندها طويلا ، كأنما كان يشعر في نفسه أنه مفارقها ، ولا بد له من وداعها ، فهو يودعها وداع الآسف الحزين !

وكذلك قضى أيامه الأخيرة وحيداً شريداً ، هائماً مستوحشاً ، يأكل حيث يجد طعاماً ، ويشرب حيث يجد شراباً ، ويأوي إلى كل ظل ، وينام تحت كل كوكب ، حتى تخوَّنه[1] السقم ، وأضواه[2] الهم ؛ فغارت عيناه ، وانكفأ لونه ، وذوت نضرته ، وأصبح مثل الخلال رقة وذبولا ، فأزعجني أمره ، ورثيت له ولأميه البائستين المسكينتين اللتين تبكيانه ليلهما ونهارهما ، على ضعفهما وسقمهما وإدبار أمرهما . ولم أكن فاتحته حتى اليوم بكلمة واحدة في شأن نكبته التي نكب بها ؛ رحمة به وإبقاء على حُشاشته[3] القريحة أن يؤلمها المس ويهيجها البعث . فلما استحالت حاله إلى ما أرى رأيت أن أذهب في معالجته مذهباً غير المذهب الأول ، فجلست إليه ذات يوم وقلت له :

(١) تخوَّن: تَنَقَّص، و المراد أهزله .
(٢) أضواه: أضعفه و أهزله .
(٣) الحُشاشة: بقية الروح في المريض .

« أ تعلم يا پول أن ڤرجيني قد أخلصت إليك إلى آخر رمق في حياتها ، إخلاصاً لم ير مثله راء ، ولا يتحدث بمثله متحدث ؟»

فانتفض قليلا ورفع رأسه إليَّ ورنّق[1] ينتظر ما أقول ، فأخرجت له صورة الرسول پول وأريته إياها ، فاختطفها من يدي بيديه الضعيفتين المرتعشتين وقال :

« وأين وجدتها ؟»

قلت : « على صدر ڤرجيني حينما وجدنا جثتها على شاطئ البحر ، وقد وضعت يدها عليها ، كأنما تضمك فيها إلى نفسها وتودعك الوداع الأخير .»

قال : « وهل وجدتم جثتها ؟»

قلت : « نعم . وجدناها على ضفة الخليج ، عشية اليوم الذي غرقت فيه ، تحت طبقة من الرمل قد سترت منها الجزء الذي تحب أن تستره من جسمها .»

قال : « وأين دفنتموها ؟»

قلت : « في الجانب الغربي من كنيسة «پمبلموس» تحت شجرة الخيزران الكبرى ، حيث ذهبت وجثوت وصليت من حيث لا تدري .»

فتنفس تنفسة طويلة كادت تنقطع لها حيازيمه[2]، وأكب على الصورة يغمرها بدموعه وقبلاته ، فافترصت هذه الفرصة وأنشأت أقول له :

* * *

(٢٦)
الموت

« ما هذه الدموع التي تذرفها يا بنيَّ ، ليلك ونهارك ، ما تهدأ ولا تفتر ؟ وما هذا الحزن الذي تحمله بين أحناء ضلوعك ، لا يتفرج عنك بوجه من الوجوه ، ولا حيلة من الحيل ؟ ومتى كان الموت نكبة من النكبات العظام التي يهلك المرء في سبيلها جزعاً ، وتتساقط نفسه من دونها حسرات ؟ وهل هو إلا الانتقال من منزل إلى منزل ؛ والتحول من موطن إلى موطن ؟! و ربما كان الذي تنتقل إليه خيراً من الذي تنتقل منه . ومن أين لك أن الله تعالى لم يرد بصاحبتك خيراً ، حين استأثر بها واختار لها ما عنده ، وأنه ما نقلها من هذه الدار إلى تلك الدار إلا لينقذها من شقاء علم أنها ستكابده فيها وستلاقي منه آلاماً جساماً ؟

« وهل يمكن أن يكون لها مصير ، إن قدر لها البقاء في هذه الحياة ، غير هذا المصير بعد ما تجهم لها الدهر ، وحارت بها السبل ، وانتهى أمرها مع عمتها بما انتهى إليه من سوء الحال وخيبة الأمل ، وبعد ما قضي عليها أن تقضي بقية أيام حياتها في هذه القفرة المجدبة المحرقة التي لا ماء فيها ولا ثمر ؟ وهل كنت تؤثر أن تراها شقية معذبة بين يديك ، تفلح الأرض ، وتكسر الصخر ، وتخوض الوحل ، وتتسلق الأشجار ، وتعبر الأنهار ؛ لتعينك وتعين أطفالها المستقبلين على العيش ، بعد ما ألفت النعمة والرغد والعيش الهنيء في قصر عمتها عدة أعوام لا ترى فيها صخراً ولا حجراً ، ولا رملاً ولا مدراً ؟

« ولِمَ لا يهنؤك ويفرحك ، ويملأ قلبك غبطة وسروراً ، أن تعلم أنها الآن سعيدة في عيشها ، هانئة بمصيرها ، مغتبطة بما وفقت إليه من قدومها على ربها طاهرة نقية ، لم تلوث صحيفتها برشاشة واحدة من ذلك الرشاش الكثير الذي تلوَّث به صحائف الفتيات ، مجزية أحسن الجزاء على موقفها الشريف العظيم ؛ موقف العزة والأنفة ، والصبر والاحتمال الذي وقفته في ساعتها الأخيرة ؟!

« ومن هو أولى منك وأنت صديقها وحبيبها ، وألصق الناس بها بالسرور لسرورها ، والغبطة لغبطتها ، والابتهاج بمصيرها السعيد الذي صارت إليه ؟

« وأنا أجلُّك كل الإجلال عن أن يكون حبك

(١) رَنَّقَ: تحيَّرَ . (٢) جَمْعُ حَيْزوم وهو: الصدر أو وسطه .

إياها حبًّا ماديًّا ، يزعجه افتراق الأجسام ، ويكدر صفوه اختلاف الموطن والمقام ؟ ولو أنك عدت إلى نفسك قليلا لعلمت أنها لم تفارقك ، ولم تنأ عنك ، وأنها جالسة إليك تحدثك وتسمع حديثك ؛ ولا شك عندي في أنها عاتبة عليك أشد العتب في هذه العجاجة[1] السوداء من الحزن التي تثيرها على أثرها، كأنها ذاهبة إلى الجحيم تستقبل أنواع العذاب وألوان الآلام ، أو كأن كل الذي كان يعنيك منها شهواتك ولذائذك ، فلما فاتتك بكيتها كما يبكي الطفل لعبته النافقة ، وكأنني أسمعها تهتف بك قائلة :

« لا تبك يا بول ؛ فإنني سعيدة ناعمة متمتعة برحمة ربي ورضوانه ، متقلبة في أعطاف نعمته التي أسبغها عليّ مكافأة لي على صبري واحتمالي ، وما استقبلت به هموم حياتي وآلامها من سكينة وجلد ، فاصبر كما صبرت واحتمل من آلام الحياة ما احتملت ، يحسن الله جزاءك ، ويجزل أجرك ، ويرفعك إلى المنزلة التي رفعني إليها ، فنعيش معاً في سعادة دائمة ، ليست سعادة الدنيا بالإضافة إليها إلا وهماً من الأوهام ، أو حلماً من الأحلام .»

فلم يزد أن رفع رأسه إليّ وقال لي : « ما دامت الحياة شقاءً وعذاباً ، وما دام الموت سعادة وهناءة ، وما دامت فرجيني تنتظرني في علياء سمائها ؛ لأعيش بجانبها العيش الذي أرجوه وآمله ، ولا أؤثر عليه عيشاً سواه ، فلا خير في الحياة من بعدها ، وما أشوقني إلى الذي يدنيني منها !»

وهنا علمت ألا حيلة لي فيما قضى الله وقدَّره، وأن الفتى قد نفض يده من هذه الحياة إلى الأبد ، ولا يد في العالم تستطيع أن تديره إلى وجهة غير الوجهة التي يسير فيها ، غير يد الله ، فقمت وقام ، ولا أسف في الدنيا أعظم من أسفي عليه ، ولا فجيعة أكبر من فجيعتي فيه !

* * *

(١) العَجاجَة : مُفردُ العَجاج ؛ وهو الدُّخان، والغُبار .

(٢٧)

الإيمان

جزى الله الإيمان عنا خيراً ؛ فلولاه لثقلت على عواتقنا هذه الهموم التي نعالجها ، ولولاه لعجزنا عن أن نتنفس نفس الراحة الذي يعيننا على المسير في صحراء هذه الحياة القاحلة ، فهو النجم الخافق الذي يلمع من حين إلى حين في سماء الليلة المظلمة المدلهمة ؛ فينير أرجاءها ، وهو الدوحة الفينانة [٢] التي يلجأ إليها المسافر من حَرور[٣] الصحراء وسَمومها [٤]؛ فيجد في ظلالها راحته وسكونه ، وهو الجرعة الباردة التي يظفر بها الظامئ الهيمان ؛ فيقفع بها غلته ، ويفثأ [٥] لوعته ، وهو المطرة الشاملة التي تنزل بالأرض القاحلة ؛ فتهتز تربتها ، وتحيي مورتها ، وتبعث في صميمها القوة والحياة .

وهل كنا نستطيع أن نبقى لحظة واحدة في هذه الدار التي لا نفلت فيها من هم إلا إلى هم ، ولا نفزع من رزء إلا إلى رزء ، لولا يقيننا أن هذه الطريق الشائكة التي نسير فيها إنما هي سبيلنا الوحيد الذي يفضي بنا إلى النعيم ، الذي أعده الله في جواره للصابرين من عباده ؟ وهل كان في استطاعة مريضنا الذي يئس من الشفاء ، وفقيرنا الذي عجز عن القوت ، وثاكلتنا التي فقدت واحدها من حيث لا ترجو سواه ، أن يحتفظوا بعقولهم سليمة ، ومداركهم صحيحة ، وعزائمهم متماسكة ، لولا أنهم يعلمون أن حياتهم لا تنقضي بانقضاء أنفاسهم على ظهر الأرض ، وأن هناك حياة أخرى في عالم غير هذا العالم ، لا سقم فيها ولا مرض ، ولا بؤس ولا شقاء ؟

(٢) الفَيْنان: ذو الأفنان . (٣) الحَرور: الحر الدائم، وحر الشمس .
(٤) السَّموم: الريح الحارة ، والحر الشديد النافذ في المسام .
(٥) يَفثَأ: يكسر سخونتها بالتبريد .

لذلك استطاعت هيلين ومرغريت في أواخر أيامهما أن تحتفظا بسكونهما وهدوئهما أمام هذه الحوادث المؤلمة التي تقض أصلاد الصفا ، وتذيب لفائف القلوب ، فكنت إذا دخلت عليهما ، رأيتهما في فراش مرضهما صابرتين محتملتين ، كأنهما لا تعالجان في أعماق قلوبهما أشد الآلام النفسية وأهولها . فإذا نظرتا نظرتا إلى السماء ، وإذا نطقتا نطقتا باسم الله وسألتاه العفو عنهما ، والرحمة بهما ، ثم لا تلبث أعينهما أن تتلألأ بنور الأمل والرجاء ، كأنما قد وقع في نفسهما أن الله قد استجاب دعاءهما ، وتقبل قربانهما ، و وعدهما المثوبة العظمى في دار نعمته وجزائه .

ولقد دخلت صباح يوم على مرغريت في اللحظة التي استيقظت فيها من نومها ، فقصّت عليَّ أنها رأت فرجيني في منامها تسبح في غمرة من النور، وقد لبست قميصاً أبيض فضفاضاً ، كأنما قد نسج من خيوط الشمس ، ولم تزل تهبط من أوجها رويداً رويداً ، حتى أصبحت في حرم الأرض ، فمدت يدها إلى پول فأخذت به من ضَبْعَيْه[1] ، وطارت في جو السماء ، فتشبثت بردائه فطرت وراءه ، ولا أعلم كيف طرت ، ثم نظرت تحتي فإذا هيلين طائرة ورائي ، وإذا ماري و دومينج طائران وراءها ، ثم دخلت على هيلين في كوخها في الساعة نفسها فقصت عليَّ هذه الرؤيا بعينها ، فعجبت لذلك أشد العجب ، وأيقنت أن الله قد اصطفى هؤلاء القوم لنفسه ، وأنزلهم منازل الأبرار الصالحين ، وأنهم وإن كانوا لا يزالون على قيد الحياة فقد لحقوا بالعالم الآخر ، وأصبحوا ملائكة بين الملائكة المقربين !

ولقد صدقت هذه الرؤيا كما هي ؛ أما پول فقد مات بعد ذلك بثمانية أيام ، وكان قد خرج في بعض خرجاته التي اعتادها دون أن أراه ، فافتقدته عدة ساعات فلم أجده ، فانحدرت إلى حي پمبلموس فوجدته جاثياً على قبر فرجيني ، وقد ضم إلى صدره صورة پول الرسول التي خلفتها له ، فحركته فإذا هو ميت ، فحفرنا له ودفناه معها في قبرها . وأما مرغريت ، فقد لحقت بولدها بعد ثلاثة أيام من وفاته ، قضتها صابرة متجلدة ، لا تذرف لها دمعة ، ولا تصعد لها أنة ، وكان وداعها لصديقتها وداعاً هادئاً ساكناً ، لم تزد فيه على أن قالت لها : « سنلتقي هناك .» كأنما تفترقان على ميعاد ، ثم أسلمت روحها . وأما هيلين فقد ماتت بعد شهر من ذلك التاريخ على ذلك الفراش الحقير ، في ذلك الكوخ البسيط ، لا يحيط بها غيري وغير ماري ودومينج ، بعد الملك الكبير ، والجنة والحرير والنعمة السابغة ، والمتعة الواسعة ! أما أنا ...

وهنا سكت سكتة طويلة ، كانت أوصاله ترتعد فيها ارتعاداً شديداً ، ثم قال بصوت خافت متهدج : « فقد بقيت وحدي .» وانفجر باكياً بكاء ثاكل فجعها الدهر في أفلاذ كبدها جميعاً في ساعة واحدة ؛ فلا صبر لها ولا عزاء . وبعد لأي ما استطاع أن يعود إلى حديثه فقال :

وهنا لم أجد بدًّا من أن أنقل ماري و دومينج إلى كوخي ، فلم يعيشا بعد مواليهم بضعة شهور ثم لحقا بهم ، فخلت الأرض منهم جميعاً ، حتى من كلبهم ، وماشيتهم ، وطيورهم وعصافيرهم ، وأصبحوا تحت التراب أجساداً هامدة ، وعظاماً نخرة ، تسفي عليهم السوافي ، وتدور عليهم الدوائر ، ويتحدث عنهم المتحدثون ، كما يتحدثون عن الشعوب الغابرة ، والأمم الخالية ! ولم يبق من آثارهم غير تلك الجدران المتهدمة التي تراها .

وقد خلّد أهل الجزيرة ذكرهم في كثير من الأماكن التي عاشوا فيها ؛ فسموا الرأس الذي عجزت السفينة عن اجتيازه ، فكان في ذلك هلاكها « الرأس البائس » ، والخليج الذي وجدت جثة فرجيني على شاطئه دفينة في الرمل « خليج القبر » ، والمضيق الذي غرقت فيه السفينة «مضيق سان جيران»، وسموا مخدع فرجيني التي كانت تخلو فيه بنفسها «كهف الفتاة » ، وشجرة الخيزران التي ظللت قبرهم جميعاً « الشجرة المقدسة » ، والوادي الذي عاشوا فيه « الوادي السعيد » ، ثم لم تلبث الأيام

---

(١) الضَّبْع : ما بين الإبط إلى نصف العضُد من أعلاها .

أن تذهب بهذه الذكرى كما ذهبت بأصحابها ؛ لأن الناس أصبحوا ينطقون بهذه الأسماء ، ولا يفهمون معناها ، فوا رحمتاه لهم ! لقد ضن الدهر عليهم بكل شيء حتى بالذكرى !

وقد علمت بعد مرور بضع سنوات على هذه الحادثة أن تلك العمة القاسية التي ضنت بمالها على ابنة أخيها ، وتركتها تموت بؤساً وجوعاً في هذه الجزيرة المنقطعة ، ثم حرمت منه حفيدتها وتركتها تهلك يأساً وهمًّا في أعماق المحيط ، لقيت جزاء غلظتها وقسوتها ، فلم تسمع بخبر غرق فرجيني وموت أمها حتى أصابها مثل الجنون ، وملأت رأسها الوساوس والهواجس ؛ فكانت تندبهما تارة وتبكي مصيرها حتى تشرف على التلف ، وتهون على نفسها أمرهما تارة أخرى ، قائلة إنها لم تفعل شيئاً سوى أنها أبعدت العار عنها وعن أسرتها ، فكان ما قدر الله أن يكون ، وكانت تنقم أشد النقمة على الفقراء والمساكين كلما رأتهم في طريقها فتصيح :

« أما كان خيراً لهؤلاء الأشقياء أن يذهبوا إلى المستعمرات الإفريقية ، فيموتوا فيها ويريحونا من شرورهم و ويلاتهم ؟ »

ثم لا تلبث أن تشعر بالعطف عليهم والرثاء لهم ؛ فتذهب إلى الكنيسة بمال كثير تضعه في صندوقها باسمهم ، كأنما تظن أن الله تعالى يغفر لها جرائمها وآثامها بهذه الرشوة التي تقدمها إليه ! وكانت لا تزال ترى في يقظتها ومنامها ، وقومتها وقعدتها ، وذهوبها وجيئتها أشباحاً مخيفة تلوح لها في وجهها ، وتهددها أفظع تهديد وأهوله فترفضُّ هاربة منها ، فتراها أمامها حيثما ذهبت ، وأينما حلت ، فتفزع إلى الكاهن تسأله أن يشفيها من دائها ، وما داؤها إلا ذنوبها وآثامها التي أسلفتها ! فما حيلة الكاهن فيها ؟!

وكانت كلما مر بخاطرها أن أقرباءها البعيدين ، الذين لا تحبهم ولا يحبونها ، سيرثونها من بعدها ، اشتد ذلك عليها كثيراً ، فتخرج إلى الطريق حاملة بدرة من الذهب في يدها فتنثرها نثراً ، فرفع هؤلاء القوم أمرها إلى القضاء واتهموها بالجنون ، ولم يزالوا بها حتى أرسلوها إلى المارستان ، وسكنوا قصرها من بعدها ، و وضعوا أيديهم على مالها . وكأن الله قد أراد أن يسقيها الكأس حتى ثمالتها فأبقى لها من الفهم والإدراك ما تستطيع به أن تعلم أن مالها الذي تعبت كثيراً في جمعه وتدبيره ، واقترفت كثيراً من الذنوب والآثام في سبيل الاحتفاظ به والحرص عليه ، يتمتع به في حياتها خصومها وأعداؤها ، فنال ذلك منها منالا عظيماً ، ولم تلبث أن ماتت حاملة معها حسرتها إلى قبرها .

وكذلك ينتقم الله من الأشحّاء الذين يضنون بمالهم على أصحاب الحق فيه بنقله إلى الأيدي التي لا تستحقه ؛ سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير !

وصمت هنيهة ثم ألقى نظرة عامة على ما يدور حوله وأنشأ يقول :

« سلام عليكم أيها القوم الأبرار ، والملائكة الأطهار ، لقد عشتم ما عشتم في هذه الدار ، وأنتم غرباء عنها ، لا تعرفكم ولا تعرفونها ، ولا تأنس بكم ولا تأنسون بها ؛ لأنكم من عنصر غير عنصرها وجوهر غير جوهرها ، ثم رحلتم عنها كما جئتم إليها ، لم يشعر بكم شاعر ، ولم يحفل بأمركم حافل ، فكنتم كحلم لذيذ ، ألمَّ بالعيون الهاجعة ، ثم مضى لسبيله !

« هذه آثاركم عافية ، ودياركم خالية ، ومساكنكم لا يأوي إليها غير الضبّ واليربوع ، ولا يسمع فيها غير الزئير والعواء ، فلا نور ولا نار ، ولا روض ولا ماء ، ولا مرتع ، ولا حديث ولا سمر ، ولا عين ولا أثر ، كأن وجودكم الدنيا بجمالها ولألائها ، وكأن ذهابكم القيامة التي تزلزل كل شيء وتأتي على كل شيء !

« سلام عليكم يا بَنِيَّ ؛ لقد كنتم أنسي وحياتي ، وسلوتي وعزائي ، ومتعة نفسي وراحة ضميري ، والروضة الأُنُف التي أقطف ما أشاء من أزهارها ورياحينها ، وألجأ إلى ما أحب من ظلالها وأفيائها ، أما اليوم فقد سمج وجه الدنيا في نظري ،

وأصبح عبء الحياة ثقيلا على عاتقي ، لا أستطيع احتماله ، ولا الاستقلال به .

« سلام عليك أيها الولد الطيب الكريم ، الذي نشأ في تربة ساذجة بسيطة ، فنشأ ساذجاً بسيطاً ، لا ينال الناس بشرٍّ ولا يعتقد في الناس شراً ، ولا يضمر في نفسه إلا الوفاء والإخلاص ، حتى لكلبه وشاته ، والكوخ الذي يؤويه ، والظل الذي يفيء إليه !

« سلام عليك أيتها الفتاة الشريفة الطاهرة ، التي صيغ قلبها من الرحمة والشفقة ، فبكت البائس والفقير ، واليتيم الذي لا عائل له ، والأرملة التي لا معين لها ، بكاء صادقاً لا تسمعه إلا أذن الليل ، ولا ترعاه إلا عيون الكواكب ، ولم يكن صدقها في أدبها وحيائها بأقل من صدقها في رحمتها وإحسانها ، ففرت من قارة إلى أخرى حياء من نفسها ، ثم فرت من العالم بأجمعه ؛ ضنًّا بجسمها أن تلمسه يد منقذها !

« سلام عليكما أيتها المرأتان الصابرتان ، اللتان علّمتا ولديهما الفضيلة وغذتاهما بلبانها ، فكانتا خير الأمهات لخير الأبناء ، واللتان لم تسخطا في حياتهما يوماً واحداً ، ولم تنقما ، ولم تشكوا لأحد غير خالقهما ، على كثرة ما ألم بهما من المصائب ونالهما من الأرزاء ؛ ثقة برحمة ربهما وإحسانه ، وسكوناً لقضائه وقدره ، حتى خرجتا من دنياهما خروج السبيكة من البودقة طهارة وصفاء !

« سلام عليكما أيها الزنجيان المخلصان ، اللذان حفظا الصنيعة من حيث لا يحفظها أحد ، وشكراها من حيث لا يشكرها شاكر ، ولم يحل سواد جلدهما وخشونة منبتهما و وحشة نفسهما من أن يحملا بين جوانحهما عواطف الود والإخاء ، التي لا يزال البيض في أوروبا ينشدونها في كل مكان ، على ألسنة كتابهم وشعرائهم ، وخطبائهم و وعّاظهم رجاء الوصول إليها ؛ فلا يجدون إليها سبيلا .

« سلام عليكم يا بَنِيَّ من والدكم الحزين الباكي ، الذي بليت عظامكم في قبرها ، ولم يبل ذكركم في قلبه ، والذي ظل يختلف إلى واديكم عشرين عاماً ، يندبكم ويبكيكم ، ويسأل الله أن يلحقه بكم ، فلا يستتبُّ له ما يريد !»

ثم تناول عصاه واعتمد عليها ونهض قائماً ، كأنه يقتلع نفسه من الأرض اقتلاعاً ، وكأنما قد خطا نحو القبر عشر سنوات كاملة في تلك الساعات القليلة التي قضاها معي ، فأصبح حِمامُهُ اليوم أو غداً . وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، ولم يبق منها في دائرة الأفق إلا كما يبقى في جنبات الكأس من فضل الشراب ، فألقى عليها نظرة هادئة مطمئنة ، ثم مشى في طريقه بخطوات بطيئة ، وأوصال مرتعدة ، ودموعه تنحدر على خديه انحدار المزنة الهاطلة ، فلبثت في مكاني ، أنظر إليه وقلبي يذوب رحمة به وإشفاقاً عليه ، حتى انحدر في بعض البطون وغاب عن نظري .

* * *

(٢٨)
النهاية

عدت إلى منزلي الذي أنزله ، وحاولت أن آوي إلى مضجعي فنبا[1] بي ، وأن أستزير الغمض فامتنع عليَّ ، وأن أهدأ في مكاني ساعة واحدة فلم أستطع ، وكان أكبر ما يشغلني وينفر النوم عن عيني حالة ذلك المسكين ؛ فقد هاجت تلك القصة التي قصها عليَّ ألمًا دفيناً في نفسه وشجناً كامناً ، فاستحال في بضع ساعات إلى هيكل من العظم ، تتردد أنفاسه في صدره تردد الريح في جوانب الهيكل الخرب ، وانصرف عني يمشي مشية الطائر المذبوح ، يجر شِلوه[2] جراً ؛ وتمثل لي أنه الآن طريح فراشه ، في زاوية من زوايا كوخه ، يكابد آلام المرض أو آلام النزاع من حيث لا يعينه معين ، ولا يرحمه راحم ،

(١) نبا الشيء: لم يستو في مكانه المناسب له .
(٢) الشِّلو: العضو، والبقية من كل شيء .

فاشتد ذلك عليَّ كثيراً ، وشعرت بشعبة من شعب قلبي قد سقطت .

وما أصبح الصباح حتى عقدت العزم على زيارته في واديه ، على بعد الشقّة بيني وبينه ؛ لأتفقد شأنه ، وأقضي حق صحبته ، فسلكت الطريق التي وصفها لي مراراً في حديثه ، ولم أزل أصعد النجاد ، وأهبط الوهاد ، وأضل مرة ، وأهتدي أخرى ، حتى أشرفتُ مُنْزَلَقَ الشمس عن كبد السماء على كوخه المنفرد في ذلك الوادي الموحش ، فانحدرت إليه . وكنت أرجو أن أراه واقفاً على بابه ، أو جالساً على مقربة منه ، فلم يقع نظري على شيء ، وكان السكون سائداً عميقاً ، لا يسمع فيه السامع نأمة ولا حركة ، كأنه سكون المقابر ، اللهم إلا عصفوراً صغيراً يغرد من حين إلى آخر تغريدة شجية مؤثرة ، كأنما هو يوقع لحناً من الألحان المحزنة على نغم واحد ، وميزان مطرد . فرفعت نظري إليه فإذا هو واقع على شجرة قصيرة منفردة أمام باب الكوخ ، ذكرت عند رؤيتها أنها الشجرة الوحيدة ، التي حدثني عنها أن ڤرجيني غرستها أمام كوخه منذ عهد بعيد ، وأنه يحبها كثيراً ويأنس بها من أجلها ، فدنوت منها فراعني أن رأيت تحتها شبحاً معفراً بالتراب ، فتبينته فإذا هو الشيخ ، فحركته فإذا هو ميت ! فهالني الأمر وتعاظمني ، وشعرت بقلبي يتمزق لوعة وأسى ، وبنفسي تسيل رحمة وإشفاقاً ، وقلت :

« يا له من رجل مسكين ! لقد مات ، ولا صديق يوسد رأسه أو يسبل أجفانه ، ولا عين تبكي عليه غير ذلك العصفور الصغير الذي ينوح فوق رأسه ! »

ولم ينقض اليوم حتى دفناه تحت تلك الشجرة التي مات تحتها ، والتي كان يحبها ويأنس بها ، ثم انصرفنا .

ولا عين إلا وهي عين من البكا

ولا خد إلا للدموع به خد

انتهت

پول و ڤرجيني

يا بني القفر سلام عاطر
من بني الدنيا عليكم وثناء

وسقى العارض من أكواخكم
معهد الصدق ومهد الأتقياء

كنتم خير بني الدنيا ومن
سعدوا فيها وماتوا سعداء

عشتم من فقركم في غبطة
ومن القلة في عيش رخاء

لا خصام ، لا مراء بينكم
لا خداع ، لا نفاق ، لا رياء

خلق بر وقلب طاهر
مثل كأس الحر معنى وصفاء

و وفاء ثبت الحب به
وثبات الحب في الناس الوفاء

أصبحت قصتكم معتبراً
في البرايا وعزاء البؤساء

يجتلي الناظر فيها حكمة
لم يسطرها يراع الحكماء

حكم لم تقرءوا في كتبها
غير أن طالعتم صحف القضاء

وكتاب الكون فيه صحف
يقرأ الحكمة فيها العقلاء

* * *

إن عيش المرء في وحدته
خير عيش كافل خير هناء

فالورى شر وهمٌّ دائم
وشقاء ليس يحكيه شقاء

وفقير لغني حاسد
وغني يستذل الفقراء
وقوي لضعيف ظالم
وضعيف من قوي في عناء
في فضاء الأرض منأى عنهم
ونجاء منهم أي نجاء
إن عيش المرء فيهم ذلة
وحياة الذل والموت سواء

* * *

ليت (فرجيني) أطاعت (پولسا)
وأنالته مناه في البقاء
ورثت للأدمع اللاتي جرت
من عيون ما درت كيف البكاء
لم يكن من رأيها فرقته
ساعة لكنه رأي القضاء
فارقته لم تكن عالمة
أن يوم الملتقى يوم اللقاء
ما (لفرجيني) و (باريس) أما
كان في القفر عن الدنيا غناء ؟
إن هذا المال كأس مزجت
قطرة الصهباء فيه بدماء
لا ينال المرء منه جرعة
لم يكن في طيها داء عياء
عرضوا المجد عليها باهرا
يدهش الألباب حسناً ورواء
وأروها زخرف الدنيا وما
راق فيها من نعيم وثراء
فأبته وأبى الحب لها
نقض ما أبرمه عهد الإخاء
ودعاها الشوق للقفر وما
ضم من خير إليه وهناء
فغدت أهواؤها طائرة
بجناح الشوق يزجيها الرجاء
يأمل الإنسان ما يأمله
وقضاء الله في الكون وراء

* * *

ما لهذا الجو أمسى قاتماً
ينذر الناس بويل وبلاء
ما لهذا البحر أضحى مائجا
كبناء شامخ فوق بناء
وكأن الفلك في أمواجه
ريشة تحملها كف الهواء
و (لفرجيني) يد مبسوطة
بدعاء حين لا يجدي دعاء

* * *

لهفي والماء يطفو فوقه
هيكل الحسن وتمثال الضياء
زهرة في الروض كانت غضة
تملأ الدنيا جمالاً وبهاء
من يراها لا يراها خلقت
مثل خلق الناس من طين وماء
ظنت البحر سماء فهوت
لتباري فيه أملاك السماء
هكذا الدنيا ، وهذا منتهى
كل حي ، ما لحي من بقاء !

مصطفى لطفي المنفلوطي

رقم الكمبيوتر 01 C 199102

رقم الإيداع : ١٩٩١/٢٤٥١

الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧-١٦-٠٠١٩-٣

طبع في دار العالم العربي للطباعة